

# سيرة القاهرة

تأليف  
ستاني ليغول

ترجمته عن الانجليزية

الدكتور علي إبراهيم حسن

الدكتور حسن إبراهيم حسن

الرواد علم

الطبعة الثانية

مكتبة النشر والطباعة

مكتبة النهضة المصرية  
١٩٥٤ م / ١٩٣٤ هـ

اهداءات ٢٠٠١

ا.د/ المرحوم زكى على

القاهرة

# سيرة القاهرة

تأليف  
ستافلي لينبول

ترجمه عن الانجليزية

الدكتور عالى ابراهيم حسن  
أستاذ مساعد بكلية الآداب بجامعة قواد

الدكتور حسن ابراهيم حسن  
مدير جامعة محمد على

الوارث حليم  
مدرس مدرسة أسبوط الثانوية الأميرية

الطبعة الثانية

مكتبة النهضة المصرية  
مكتبة النهضة المصرية  
٩ شارع مدني، القاهرة

مَطْبَعَةُ السَّعَادَةِ بِمِصْرَ

من لم ير القاهرة لم ير الدنيا .

فأرضها تير .

ونيلها سحر .

ونسائوها حور الجنة في بريق عيونهن

ودورها قصور ، ونسيمها عليل ، كعطر الندى ، ينعش القلب .

وكيف لا تكون القاهرة كذلك ، وهي أم الدنيا ؟

## محتويات الكتاب

صفحة	مقدمة المؤلف
١٠	...

### الباب الأول

١٦	المدينتان
----	-----------

القاهرة الأوربية والقاهرة المصرية . مناظر شرقية . التجار المحافظون .  
متاجرهم . منازلهم . باب زويلة . أحد المنازل الخاصة . المندرة . حجرات  
النوم . الحياة اليومية . حياة النساء . الاحتفالات والأعياد في القاهرة .  
الحسينية . شارع محمد علي . مشهد من القلعة .

### الباب الثاني

٤٣	مدينة القسطنطينية
----	-------------------

المدن المتعاقبة في القاهرة . الفتح العربي . معاهدة الأمان . مصر القديمة .  
نابليون والمقوقس . القبط . تأسيس القسطنطينية . القسطنطينية . استقرار القبائل  
العربية . جامع عمرو . حصن بابليون . الكنائس القبطية .

### الباب الثالث

#### القطائع

٦٥
----

الولاية الذين يعينون من قبل الخلفاء . حلوان . معاملات المسيحيين . الرهينة .

محافظة الأقباط . مدينة « العسكر » العباسية . ولاية العباسيين : ابن محمود ،  
عبد الله بن طاهر . الخليفة المأمون في مصر . اضطهادات المسلمين والأقباط .  
الولاية من الأتراك . تشجيعهم للفن . أحمد بن طولون . المدينة الجديدة  
« القطائع » . قناطر ابن طولون . مسجد ابن طولون . مصادر فن البناء العربي .  
حروب ابن طولون . قصور خمارويه . استعادة الخلفاء لمصر . قلعة الكباش .

## الباب الرابع

٩٣

### مصر

مصر القسطنطينية العاصمة التجارية . وزراء المادرائين . الإخشيد . المسعودي  
في مصر . جزيرة الروضة . الدين في مصر . الشعراء . يلاط كافور .  
الاحتفالات الإسلامية . حكومة كافور . مصر في القرنين العاشر والحادي عشر .  
وصف ناصر خسرو . حريق مصر . بعض الإصلاحات . وصف ابن سعيد .

## الباب الخامس

١١٣

### القاهرة

انقلاب الشيعة . الخلافة الفاطمية . المعز . غزو مصر . تأسيس القاهرة .  
نتائج الانقلاب . الأقباط تحت الحكم الفاطمي . العزيز . الجامعة الأزهرية .  
القصر الشرقي والقصر الغربي . أبواب القاهرة . باب زويلة . وصف ولیم  
الصوري للبلاط الفاطمي . ميناء المقص والأسطول . الثروة والفن والترفيه أيام  
الفاطميين . جامع الحاكم . الخليفة الحاكم . دار العلم . تأليه الحاكم وتمجيده .  
الاستبداد العسكري وضياع الأقاليم . القاهرة في عام ١٠٤٧ م . جبر الخليج . اليازوري .  
نهب الأتراك وسلبهم . مجاعة السبع سنوات . بدر الجمالي . السور الثاني وأبواب  
القاهرة . الوزراء الأرمن . حكم الوزراء . الاغتيالات والاستبداد العسكري .  
ابن رزيق . فن البناء الفاطمي .



صفحة

## الباب السادس

١٥٣

### قلعة صلاح الدين

أسباب غزو مصر . الأتراك والصليبيون . شاور وضرغام . عموري وشيركوه في مصر . الوزير صلاح الدين الأيوبي وعزل الخليفة الفاطمي . حروب صلاح الدين . أعمال صلاح الدين في مصر . الأسوار الجديدة . القلعة . قناطر الجيزة . الثورات في القاهرة . رأس الحسين . مدارس صلاح الدين . رواية ابن جبير . المستشفيات . خصائص المساجد والمدارس . نتائج إحياء المذهب القديم وتشجيع العلم .

## الباب السابع

١٧٣

### بناة القباب

سيف الدين العادل . المجاعة العظمى . غزو الصليبيين . فردريك الثاني والكامل . نظام الممالك . الملكة شجرة الدر والممالك البحرية . حملة لويس التاسع .

(١) الممالك الأتراك : حروبهم ضد المغول والفرنجة . إحياء

الخلافة العباسية . بيس . قصر الممالك . طيش الأمراء . بيت قلاوون .

الناصر . التسامح الديني مع المسيحيين . التعصب للألوف . الفتن .

الناصر وأبو القداء . الإنتاج الفني . مساجد الأمراء . أساليب الممالك

الأول في البناء . السلطان حسن . مسجد السلطان حسن العظيم .

(٢) الممالك الشراكسة : الفساد . الحروب . الدوق الراقى . فن البناء .

قايتباي . مباني قايتباي . المساجد داخل الجدران . الوكالة . مساجد

الأمراء والقاضي ابن مظهر . المدرسة الجديدة . مباني الغوري .

الغزو العثماني .



## الباب الثامن

٢١٦

### مدينة ألف ليلة وليلة

اتساع القاهرة . اتساع بولاق . مساجد الضواحي . الاقتراب من بولاق  
ألف ليلة وليلة في القاهرة . التبادل التجاري عن السلع المارة في مصر .  
حوانيت التجار . خان الخليلي . خان مسرور . وكالة قوصون وسوق  
الورد . الشوارع والأحياء . فن النقش الفضي . صناعة المعادن في  
القاهرة . البندقية . نحت الخشب . المشربية . بعض خواص الفن  
الإسلامي . رجال الأدب أيام المماليك .

٢٤٠

## الباب التاسع

### البكوات والباشوات

الأمراء المماليك (البكوات) محتفظون بسلطتهم . ضعف الباشا . معارك  
الشوارع . البك العثماني . رضوان الجلفي . عائلة شرايبي . المكتبات .  
حالة العلم . التعصب . الحرافات : مساجد الفترة العثمانية . على بك .  
عبد الرحمن كتحدا . محمد أبو الذهب . محمد علي . استصفاء مال الوقف  
لجنة حفظ الآثار العربية . تقرير اللورد كرومر . وقاية الآثار وحفظها  
إحيائها . قانون لورد كرومر . المنح التي تعطى من مندوبي الدين العام  
والخزانة المصرية .

## ق

٢٦٣

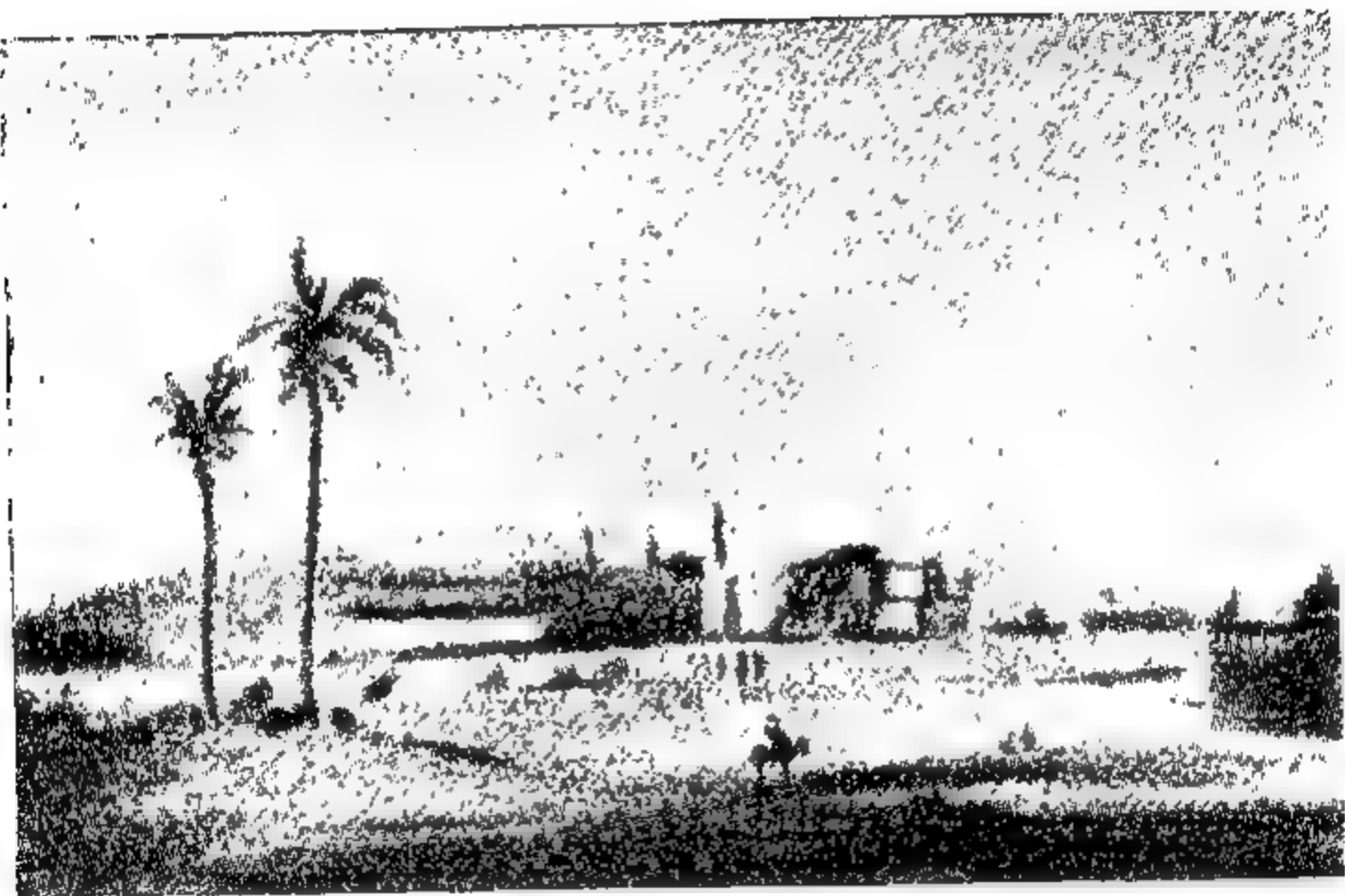
(١) جدول بين حكماء القاهرة وآثارها

٢٧٢

(٢) جدول لتحويل السنين الهجرية إلى سنين ميلادية

## فهرس الصور

صفحة	
٩	( ١ ) بركة القيل . . . . .
٢٩	( ٢ ) فناء في منزل خاص . . . . .
٤١	( ٣ ) القلعة . . . . .
٥٤	( ٤ ) صحن جامع عمرو . . . . .
٥٧	( ٥ ) باب قصر الشمع ( بابليون ) . . . . .
٧٩	( ٦ ) منظر جامع ابن طولون . . . . .
٨٤	( ٧ ) داخل رواق القبلة في مسجد ابن طولون . . . . .
٨٦	( ٨ ) زخرفة حول العقود والدعائم وأعلى الدعائم وتيجان الأعمدة . . . . .
١٠٦	( ٩ ) شارع في مصر القديمة . . . . .
١٢٥	( ١٠ ) جامع الحاكم . . . . .
١٢٧	( ١١ ) باب النصر . . . . .
١٢٨	( ١٢ ) مأذن فوق باب زويلة . . . . .
١٥١	( ١٣ ) جامع الجيوشي . . . . .
١٦٢	( ١٤ ) قلعة الكباش . . . . .
١٧٨	( ١٥ ) جزيرة الروضة . . . . .
١٨٩	( ١٦ ) «قاعة يوسف» : قصر الناصر في القلعة . . . . .
١٩٦	( ١٧ ) القنطرة المعلقة وراء السبع طواحين المائية . . . . .
١٩٧	( ١٨ ) مسجد السلطان حسن . . . . .
١٩٩	( ١٩ ) بوابة مسجد السلطان حسن . . . . .
٢٠١	( ٢٠ ) مقبرة مسجد برقوق وفرج . . . . .
٢٠٨	( ٢١ ) القرافة الشرقية . مقابر الخلفاء . . . . .
٢٠٩	( ٢٢ ) مسجد قايتباي - القرافة الشرقية . . . . .
٢١٣	( ٢٣ ) أضرحة . . . . .
٢٢٥	( ٢٤ ) سوق الرقيق . . . . .
٢٣٢	( ٢٥ ) في الدرب الأحمر . . . . .
٢٤٧	( ٢٦ ) شارع بجوار باب الخرق . . . . .
٢٥١	( ٢٧ ) فناء مقبرة للمسلمين . . . . .



القاهرة من الجنوب الغربى - بركة الفيل

## مقدمة المؤلف

تعتبر القاهرة في الواقع مدينة من مدن العصور الوسطى ، لأنه لم يكن لها وجود قبل تلك العصور . ثم إن حياتها الحافلة كحاضرة مستقلة ، يتفق وقوعها في أثناء فترة ألف السنة التي تعرف بالعصور الوسطى في التاريخ ، كما أنها ما زالت تحتفظ في الوقت الحاضر بالكثير من طابعها ومظهرها . وإذا كان المظهر يتغير ، فإن الحياة لا تتغير ، فالتقدم العجيب الذي أصاب للمصرى في العشرين سنة الماضية قد تناول بالتغيير حياته المادية ، ولكنه لم يكن ليقوى على تغيير خلقه إلا فيما ندر . فلقد أوجدنا له نظاماً عامة يرتاح لها ويأمن إليها ، وخففنا من وطأة الضرائب الفادحة التي كانت تثقل كاهله ، وجعلنا له إدارة حكومية قادرة ، وعدالة حكيمة ، وثقافة عالية . وأهم من هذا وذلك ضمنا لكل فرد نصيباً وافراً من مياه النيل النقي . ومن أجل هذه المنح كلها — وعلى الأخص المنحة الأخيرة — نجد الفلاح قانعاً بما كرا على السوام . غير أن الحال ليست كذلك بالنسبة للقاهري . فمهندس الري يفتقر إلى روح الفلاح من هذه الناحية . فهو دائم الطلب لسد حاجاته لللحة ، ولا يهتم بإصلاحات «القرنجي» في كثير أو قليل ، وإنني لا أحب أن أوازن في هذا المقام بينه وبين الرجل الأثيوبي ؛ ولكن مهما يكن من شأن الزمن أو من أثر الاتصال بالأوربيين ، فإنني على يقين من أن رجل القاهرة سوف يحتفظ دائماً بقلبه البسيط الساذج الذي كان يحتفظ به في العصور الوسطى .

والشرق — من ناحية الدراسة (إتي لا أتناول الكلام على الأخلاق) — لا يتغير إلا ببطء ، كما أن روح الرجل الشرقي لا تتغير على الإطلاق . فبائع المجوهرات في القاهرة الذي يساومك ساعة من أجل بضعة قروش ، في الوقت الذي نراه يتسلل إلى الحياة الأوربية الحديثة ويندمج فيما يقترن بها من جلبة وصخب — هذا الرجل تجري الحياة الحديثة من دونه ، فلا يمكن أن نعتبره جزءاً منها ، وإنما هو ينظر إلى وراء نظرة مأوَّها الشنف والشوق ، ويتطالع إلى أيام المالك الزاهرة التي ينتمى إليها ، آسفاً على ما تبهره في نفسه من عز ومجد . ومن ثم نراه يتساءل في شيء من

الريبة عن الخير الذى يمكن أن يكون من وراء هذه الجلبة الحديثة ، أو من وراء هذه العدالة . فلطالما احتاج الإنسان في وقت من الأوقات شيئاً من الجور والظلم . وكان التاجر الذى له مكانته يستطيع أن يشتري ذلك الظلم من القاضى قبل أن تتمخض العدالة أخيراً عن المحاكم الحديثة . أما فيما يتعلق بالضرائب المحددة وعدم أخذ شيء كرهاً ، فهذا مما يهتم به الفلاحون الجهلاء دون سواهم . وعلى أى حال ، فقد كان النظام القديم يتم في صورة بديعة حينما تأخر أنت مثلاً في دفع ما عليك من ضرائب فيلزم جارك بدفعها بدلاً منك . وعلى ذلك فقيم كل هذه الجلبة عن اللبائى والشوارع والمجارى وما إلى ذلك ؟ حينما زود ويلكوكس (١) للساجد بالنايب والبالوعات وغير ذلك من الإصلاحات التى أدخلها في الساجد والتى تتم عن الكفر ، فهل تحسنت صلاة الشخص عما كانت عليه يوم كانت الأحواض القديمة تنبعث منها هذه الرائحة الكريهة في كل مكان ؟ كذلك مما لا شك فيه أن الشوارع قد أصبحت أوسع مما كانت عليه من قبل ، حتى أصبح الفرنجة — سود الله وجوههم — يمرون بعرباتهم ذات الجوادين ويلطخون المؤمنين بالأوحال . غير أن ذلك قد جعلهم يزيلون المقاعد الحجرية للريحة من أمام الحوانيت — تلك المقاعد التى شعر التاجر بفقدائها بعد أن كان يجلس عليها ويقطع وقت فراغه وهو يدخن الشبك ويغفل إليه أن الوقت لن ينقضى . وقد يكون هناك من ضروب الإصلاح ما يعوضنا عن مثل تلك المقاعد أو غيرها . مثال ذلك الماء النقي والمجارى والمراجات وعربات الترام . بيد أن هذه الأشياء كلها قبيحة لا روح فيها ولا تسلية . وما من شك في أن حياة القاهرة قد أصبحت مليئة بالضجر واللئال للذين يثيران اليأس منذ ذلك اليوم الذى دخل فيه الفرنجة هذه البلاد :

ويذكر لنا مستر مرديث تاونزند في إحدى مقالاته الشائقة في كناية وآسيا وأوروبا ، كيف أن الحياة في الهند كانت بديعة ومسلية للغاية قبل أن يطرأ عليها التغيير الذى جاء به الإنجليز . والكثير من هذا يمكن أن يقال عن الحياة في القاهرة مع تعديلات ضئيلة ، فما لا ريب فيه أن الحياة كانت عاتقة ممتعة في تلك الأيام الغابرة

---

(١) مستشار الرى الانجليزى في ذلك الحين .

التي لم تمسها يد التغير والتحوير . لقد كان يقع فيها الكثير من الأحداث — الأحداث التي يراها الناس ويفكرون فيها ، أوريا يفرون منها — وطالما حدثت هناك اغتيلات ومذابح . غير أنه كان من السهل وقتذاك أن تخلق الأبواب الحديدية القوية من دون للمالك أو للعابرة ، وأسوأ من هذا كله دون السودانيين إذا امتشقوا الحسام . أما الآن فإن هذه الأبواب قد أزيلت ، ولم تعد هناك تلك اللواكب الرائعة للفرسان في زيهب المسكرى الذي كان يضفي بهجة وبهاء أينما ساروا . وفي تلك الأيام كان يمكن لكل رجل على جانب من النهار والليل أن يصل إلى ما تصبو إليه نفسه من جاء وسلطان — ذلك الجاه الذي تعجز القاهرة الآن عن تحقيقه بعد أن لبس العصر الحاضر ثوب الصدق والصراحة . فلقد كان الترقى في ذلك الوقت متاحاً للجميع ؛ وكان الباب مفتوحاً على الدوام لكل من أوتي القوة والدهاء والثروة . ماذا تكون إذن حوادث القتل أو السلب ، أو حتى المجاعات أو الأمراض التي كانت تنفث في بعض الأحيان — ماذا تكون هذه لو قورنت بما كان هناك من فرص سائحة وأبهة غمة ، وأيام ثائرة حافلة لم تكن لتقف عند حد ، كما لم يكن يتطرق إليها السأم والللل ؟

هذا هو ما يجيش به قلب كل قاهري أصيل ، فأفكاره — سواء منها الحيرة أو الشريرة — تنابر أفكارنا من جميع الوجوه . فهي ترجع في أصلها إلى الصور الوسطى ، شأنها في ذلك شأن ملبسه ومعتقداته الدينية وتقاليده الاجتماعية وطريقة حديثه وعدم اكترائه وتحفظه وإنكاره لما عساه أن يسبب له الضيق أو القلق . وإذا استثنينا الطبقة الرسمية ، أي طبقة الموظفين ، فإننا نجد الرجل القاهري ما زال كما تصوره لنا قصص « ألف ليلة وليلة » ، حتى مدينته ما زالت تصطبغ بما كانت تصطبغ به في الصور الوسطى . ولقد زال الكثير منها بفعل الزمن أو بفعل البدعة . ومع ذلك فالزخارف الأوربية كالخيل ؛ ومن ثم نجد المدينة الإسلامية القديمة تسخر في الوقت الحاضر وتحدي تأثير الغرب . لقد أعيد بناء تلك المدينة للمرة بعد الأخرى ، وكانت في كل مرة تفقد جانباً من بهائها ، غير أنه قد تبقى ما من شأنه أن يرينا ماذا كانت عليه القاهرة منذ خمسمائة عام خلت . فالشوارع للزدهة في الأحياء القديمة ،

وأشكال المنازل والأسواق التي لا يمكن أن تنسى ، وأهم من هذا وذلك الآثار التاريخية كل هذه تعود بنا إلى الصور الوسطى .

إن الغرض من هذا الكتاب هو أن ألبس آثار تلك المدينة المنعم المعاني ما يكسبها قيمة ويزيد من شغف القارئ بها . فكثير من مباني القاهرة ، وعلى الأخص تلك للمساجد التي ترجع إلى عصر المماليك الأخير آية من آيات الجمال ، ويمكن أن تعتبر في حد ذاتها تحفاً فنية رائعة بصرف النظر عن تاريخها . غير أن هناك في الوقت نفسه كثيراً من القصور البالية ، والأبهاء المتهمة ، والجدران المتداعية ، والنقوش المارسة — تلك الآثار التي لا تمت إلى فن العمارة بصلة ، بل ستظل لا تحمل أى معنى حتى نكشف الستار عن تاريخها . ولقد حاولت في أثناء تنبهي نمو القاهرة أن أكسب آثارها جواً من التاريخ ؛ فالطوبوغرافيا المجردة لا تستهوى غير عالم الآثار ، ولا يمكن أن يشغف العامة بها ما لم يمتزج هذه الآثار بألوان الحياة التي كان يحياها سكانها وطرق الحكم التي كان يسلكها حكامها . ولقد حاولت جهدى هنا ألا أخرج عن نطاق بحثي ، وهو وصف حياة المدينة وتطور نموها . فليس هذا إذن تاريخاً عاماً لمصر ، فكثيراً ما أغفلت أشياء كثيرة كنت أدعها تمر لأنها لا تمت إلى تطور هذه المدينة بصلة .

أما المراجع التي اعتمدت عليها فسوف يأتي ذكرها دائماً في أسفل الصفحات . وإن أهم مصدر عربي هو طبعاً كتاب الخطط للقريزى الذي أشرت إليه كثيراً .

وقد كتب في مستهل القرن الخامس عشر لليلادي ( التاسع الهجري ) ، واستعمل كثيراً من المؤلفات التاريخية والطوبوغرافية التي يرجع عهدها إلى أبعد من هذا التاريخ بكثير ، والتي لم نكن لنعرف عنها شيئاً لولم يتناولها هو بالبحث والتحقيق . ولا أجدني في حاجة إلى التنازع على دقة بحثه وتصويره للقاهرة ، فإن هذا معروف في العالم أجمع . وهناك غير القريزى كثير من الكتاب مثل : للسعودي ، وناصر خسرو ، وعبد اللطيف البغدادي ، وابن جبير ( الذي يرجع الفضل إلى صديقي مستر جاي لي سترينج مؤرخ بغداد الذي يعتبر أكبر حجة عندنا في جغرافية الخلافة في الحصول منه على هذه المقتطفات ) ، وابن سعيد ، وابن دقاق ، والسيوطي ، وأبو المحاسن ،



والإسحاق ، والجبرتي ، وكل هؤلاء لم آثار شخصية لها قيمتها ، كما أن لكتاب لين «القاهرة منذ خمسين عاماً» فضلاً في تصوير هذه المدينة كما كانت عليه في سنة ١٨٣٥ ، أي قبل أن يبدأ محمد علي ومن بعده إسماعيل حركة إدخال التقدم الأوربي إليها ، ثم في تغيير مظهر هذه المدينة . أما فيما يتعلق بعلم الآثار فلاني مدين إلى أبحاث كل من ماكس فان برشم ، ورافيس ، وكازانوف . ولا بد لي من أن أشير إلى اعتراض قد يوجه إلى فيما يتعلق برجوعي إلى مؤلفاتي ، وهو أمر يثير الاستعزاز . وأجدي مضطراً إلى الإشارة في شيء من التواضع إلى مؤلفاتي .

فأفقد كنت أكتب على الدوام في موضوع القاهرة وفنها وآثارها وتاريخها منذ وقت بعيد . ومن ثم كان لابد لي أحياناً من أن أعيد ما كتبت من قبل . حقاً إنني عندما دونت ما كنت أريد أن أقوله في أحسن عبارة أستطيع أن أصورها بها ، فإن ذلك يكون أكثر تكلفاً فيما يظهر إن حاولت البحث عن صيغة أخرى مختلفة للتعبير عما أريد . لذلك اقتبست — ولكن في إقلال — من كتابي « فن العرب في مصر » ( نشر للجنة المجلس سنة ١٨٨٦ ) و « صور القاهرة » ( الطبعة الثالثة نشرت سنة ١٨٩٨ ) ، وكتابي « تاريخ مصر في العصور الوسطى » ( نشر سنة ١٩٠١ ) ، ومقتطفاتي التي لم تذيل على صفحات هذا الكتاب يجب أن تفهم على أنها مأخوذة من أحد هذه الكتب ، وعلى الأخص من كتاب « تاريخ مصر في العصور الوسطى » ، الذي يستطيع القارئ أن يرجع إليه إذا أراد المزيد من الناحية التاريخية . ولو كان هناك كتاب آخر باللغة الإنجليزية يتناول الكلام على مثل هذه الناحية ، لأشرت إليه في سرور وغر . أما فيما يخص التاريخ القبطي فيستطيع القارئ إذا ما أراد التوسع أن يرجع إلى كتاب مستر بتشر « تاريخ الكنيسة المصرية » ( نشر في سنة ١٨٩٧ في مجلدين ) ، وهو كتاب حافل بجارات العطف والتقدير للقبط ، ولكنه عرضة للنقد فيما جاء فيه عن علاقات المسلمين .

وقد عملت على عدم كتابة الأسماء العربية بحروف إنجليزية حتى لا أضايق القارئ . وبدلاً من ذلك عملت إلى تشكيل الأسماء بحيث تظهر المقاطع الهامة من غير الهامة . والحروف المتحركة تنطق كما في اللغة الإيطالية ، وحرف G قد استخدم ليثل الحرف العربي الساكن الذي ينطق في القاهرة متخففاً ( كما في jet ) وفي البلدان الأخرى

معطشاً ( مثل ز في jet ) . ويستطيع أولئك الذين يشوقهم معرفة ترجمة الأسماء العربية على حقيقتها أن يرجعوا إلى القهرس الذي يراه القاريء في آخر الكتاب ، حيث كتبت كل كلمة عربية بالحروف الرومانية وفسرت تفسيراً يساعد على فهمها . أما الصور فقد راعيت في اختيارها أن تكون بحيث توضح بقدر الإمكان مدينة القاهرة قبل أن يتسرب إليها التغيير الأوربي . ومن أجل ذلك فإن أحسن الصور هي تلك التي رسمها روبرت هي بين ستي ١٨٢٦ ، ١٨٣٨ ، وزميله أوين كارتز حول سنة ١٨٣٠ عن الصور الأصلية المحفوظة في الغرفة التي أودعت فيها الصفائح المنقوشة بالمتحف البريطاني . وقد طبع بعضها على الحجر في كتاب هي « صور القاهرة » ؛ فهذه الصور تمثل بقايا الصور الوسطى أصدق تمثيل بحيث لا يمكن للصور الحديثة أن تجاريها . ولكن مسترج . ١ . ممنجتون قد ذيلها بصور أخرى تم عن مهارة لا يمكن أن يلقها الرسامون الذين عاشوا قبله .

ويجدر بي في ختام هذه الكلمة أن أشير إلى ماذكرته في الفصل الأخير من هذا الكتاب عن موضوع لجنة حفظ الآثار العربية . وإلى يقظة هذه اللجنة وجهودها التي لم تفتر طوال العشرين سنة الماضية ، يرجع الفضل في حفظ المساجد وغيرها من بقايا المباني الإسلامية من التهدم والزوال بقدر ما تسمح به الأحوال . فلم يحدث على الإطلاق في تاريخ القاهرة أن حفظت آثارها وأصبحت بآمن من كل عبث يمثل هذه الصورة . ومن ثم كان لزاماً علينا أن نعترف بفضل كل عضو من أعضاء هذه اللجنة التي تقدر جهود أفرادها . ومنذ أن استغل لورد كرومر نفوذه في تحسين حالة اللجنة المالية ، استطاعت في خمس السنوات الأخيرة أن تقوم بأعمال علمية واسعة النطاق لحفظ هذه الآثار على أسس علمية . وكل من يزور القاهرة يستطيع أن يتحقق من نتائج هذه الأعمال ، وأن يخلص عن المجموعات التي تم جمعها تحت إشراف كبير مهندسيها ما كس هرتزبك في متحف الفن العربي .

دبلن — ٣١ يناير ١٩٠٢

ستائي لينبول

# الباب الأول

## المدينتان

القاهرة الأوربية والقاهرة المصرية - مناظر شرقية - التجار المحافظون - متاجرهم -  
منزلهم - باب زويلة - أحد المنازل الخاصة - المنيرة - حجرات النوم - الحياة  
اليومية - حياة النساء - الأعياد في القاهرة - الحسين - شارع محمد علي -  
مشهد من القلعة .

هنالك قاهرتان مختلفتان ، تتميز إحداهما عن الأخرى ، ولو أنهما لا تختلفان كثيراً  
في الموقع . أما الأولى فهي القاهرة الأوربية ، وأما الثانية فهي القاهرة المصرية .  
وكانت هذه الأخيرة قاهرة - أي منتصرة - في يوم من الأيام ، وضع أساءها  
عند مطلع كوكب المريح . أما الآن فإن انتصارها قد قل كثيراً ، بل لقد أصبحت بلا  
ريب مغلوبة على أمرها إلى حد أنها صارت لا تعرف إلا بالأحياء الوطنية أو بالأسواق  
حسب الطريقة الهندية . والقاهرة الأوربية في الواقع تكاد لا تعرف شيئاً عن أختها  
القاهرة المصرية مدينة العصور الوسطى . حقيقة إن آلاف السائحين يركبون الخيل  
ليزوروا الأحياء الوطنية في فصل الشتاء ، غير أن هؤلاء لا يمتنون إلى القاهرة الأوربية  
بصلة . فهم كالطير التي لا تقيم في مكان واحد على السوام ، إنما هم زلّاء زأرون لفترة  
قد تقصر أو تطول . أما المواطن الحق فهو ذلك الذي يقيم في حي كالإسماعيلية في  
منزل ظليل يقية الحر ، به شرقية يشغلها النسيم ، ويحيط به مئات من القصور المريحة  
التي تماثلها . وهذا المواطن لا يركب الخيل كما يفعل السائح ، بل قد يذهب إلى الأسواق  
وهو مكره تحت إلحاح زائر يشوقه أن يرى مثل تلك الأماكن الغريبة عنه . غير  
أنه حتى في القاهرة الأوربية نرى دلائل على أن ثمة قاهرة أخرى - قاهرة إسلامية  
شرقية - لا تبعد عن القاهرة الأخرى كثيراً . ولندع الجالية البريطانية لا تقترب  
البتة بعضها من بعض ، وتتجاهل الأحياء الوطنية أو تنظر إليها على أنها مجرد أمور  
تستدعى حكومة عادلة وإصلاحات حكيمية ، ولا يمكنها أن تنهب بعيداً ، أو حتى

تفتح أذنانها في داخل حجراتها دون أن تدرك أنها تعيش في عالم شرقي - ذلك العالم الذي لا يمكن بدونه أن يكون لها وجود . وأنت إذ تنهب إلى مكتب البريد ، على مسيرة بضع دقائق من معظم فنادق المدينة لا تلبث أن ترى مظاهر الامتزاج بين الشرق والغرب .

هنالك تجد ممرضة ألمانية مع الابنة الصغيرة للأسرة تسأل من نافذة الخطابات الواردة عن خطابات مرسلة باسمها ، وفي المكتب المجاور تجد شيخا مسنا يرتدى القباء والعمامة يصرف حواله من النقود أو يرسل خطابا مسجلا . وعلى طول الطريق تجد صفا من كاتبى الخطابات جالسين إلى مكاتبهم في غير قلق أو ضيق في انتظار عملائهم من غير المتعلمين . أما الشوارع فإنها تصخب بعربات الاتوبيس والترام ، وتضج بالأصوات المزججة للنبعثة من أبواق السيارات . وأما هؤلاء الذين يجلسون تحت المظلات على المقاعد فإنهم ليسوا من الأوربيين ، وإنما هم مصريون - ليف من الأفندية والكتبة والتجار والمشايخ ، وهم عادة من الفلاحين الغفل الذين أتوا إلى المدينة لقضاء بعض المصالح ، وركبوا من بولاق أو قصر النيل . وأما أفارين الشوارع - وهي دائما غير ممهدة وملطخة بالأوحال بخلاف الطرق التي تعنى بتنظيفها الفتيات الصغيرات - فإنها تشهد مزيجا عجيبا من العناصر الشرقية والغربية ، وعلى الأخص اليونانية والألمانية والإيطالية . فالنساء السودانيات المتحجبات بالبراقع الناصعة البياض التي لا تكشف إلا عن حواجبهن القامعة وعيونهن السود ، والفتيات المصريات في أردنين الزرق وبراقعهن السود التي تتدلى في غيز إحكام وتكشف عن الرقبة الجميلة والوجهة اللطيفة ولا تحجب إلا الفم - ذلك الجزء الذي تعمل جميع نساء الشرق على إخفائه ، والبدو وقد أخذوا ينزعون الطريق وحول رؤوسهم الكوفيات المخططة ، وقطار الجمال المسككة الوثاق المحملة بالبرسيم - علف الدواب الأول في مصر - يسوقها صفار الصبية ، وكتبة الحكومة الأصاغر ، أو الأفندية ، وقد ارتدوا الحلل الإسلامية والعربوش وامتطوا ظهور الحمر - كل هذه الطبقات المختلفة يتكون من مجموعها جمهور متدفق محتشد ، ولكن على جانب من دماء الخلق . كما أنك تستطيع أن تشم هنا وهناك رائحة الشرق الخاصة التي تضح أمارتها في كل مكان . وحتى الأحياء الأوربية لا تزال تصادف فيها مناظر الشرق وتسمع أصواته . فانت

إذ تطل من نافذة غرفتك في الفندق الذى تقم فيه ، تشاهد رجلاً جاثلاً ينشد على ربابته أنشودة ، ويحمل إليك أقماع البلد الأصيلة . ثم لا تلبث أن تسمع أصواتاً أخرى كأصوات الأطفال الرضع تنبث من منوج « الثريتل » الجوال الذى يحمل على جنبه إناء زجاجياً كبيراً يصب منه شراباً من الأرز « السوياء » أو من عصير البرتقال ، فى تلك الأوعية النحاسية التى لا ينفك يوقع عليها بين لحظة وأخرى بدون ملل ، أجراساً وأتاعاً تسترعى أسماع المارة . وفى المزيل الأخير من الليل لا تصدم أن تسمع من أصوات الشرق ما يقض عليك مضجعتك . من ذلك تلك النغمات التى تنبث من قرع الطبول وتنبثك بأن حفلاً للزواج يحجب شوارع المدينة . وإذا تأخذك الرغبة أو حب الاستطلاع فى استجلاء الأمر ، حينئذ تشاهد لوناً من تلك الألوان التى تصطبغ بها مدينة القاهرة ، والى يخرج فيها القديم بالحديث بصورة تدعو إلى الدهشة . وفى بعض الأحيان قد ينضم إلى هذا الاحتفال بالزواج احتفال آخر بالجثان مراعاة للاقتصاد . فتجد موكباً حافلاً تتقدمه علامة الحلاق الذى يقوم بعملية الحتان ، وهى عبارة عن إطار خشبي مرفوع إلى أعلى يتبعه اثنان أو ثلاثة من الجمال المحملة بأبهى الأشياء وأحسنها ، والى تستأجر فى مثل هذه المناسبات ، ويجلس على كل من هذه الجمال طبال . وهذه الجمال من شأنها أن تمهد الطريق لما يتبعها من عربات مملوءة بصغار الأولاد كل واحد منهم ممسك بمنديل نظيف ناصع البياض وضعه على فمه ليقبى من الشيطان ويحفظه من العين الشريرة ! ثم تأتى عربة منفصلة مغطاة من كل جانب بشال كبير مصنوع من الكشمير ، يمسك به من أسفل ويعمل على إحكامه إخوة العروس المحبوسة وغيرهم من الأقارب ، ويتبع ذلك عربات أخرى تحمل سائر جمهور المشاركين فى الفرح والسرور . وقد يحدث فى بعض الأحيان أن تحمل العروس فى هودج مغطى بشال كشمير وتحمل على جملين يسير أحدهما خلف الآخر . وتكون رقبة الجمل الخلفى تحت الهودج ، ومن ثم يكون فى حالة لا يحمى عليها من عدم الراحة ، شأنه فى ذلك شأن العروس نفسها التى تصاب فى العادة بدوار يشبه دوار البحر من جراء حركات الهودج التى لا تنقطع . وقد يما كانت العروس تسير فى الطرقات تحت مظلة يحملها أصدقاؤها . أما الآن فلم يعد ذلك من التقاليد ، بل إننا نجد العربات الأوربية تحمل حتى محل

المهودج . أما الشال الصنوع من الكشمير وكذلك الحمار قلن يزولا سريعاً . ومما يلاحظ على المرأة المصرية أنها في العادة - أو على الأقل حينما تظهر في المجتمعات - متواضعة إلى حد كبير . فهي تختلس نظرة إلى التريب في سرعة سحرية حتى ولو بدا للجميع أنها تنظر إلى الناحية الأخرى من الطريق . وفي الحال نجد أنها تحكم وضع النقاب على نفسها وأفقها . وإذا ما أتيح لها أن تلقاك وجهاً لوجه ، فإنها لا تسبل عينيها الواسعتين كما تفعل الغربيات ، وإنما تحولهما عنك في بطن يأخذ بجميع القلوب .

وحالما ترك الحى الأوربي حيث الفندق الذى تنزل فيه وتبتعد عن واجبات المحال التجارية والتجار اليونانيين في شارع الموسكى ، تبدو المدينة الشرقية لك على حقيقتها ويأخذ سعرها يتسلط عليك . وإياه لمن السهل تماماً أن تضل الطريق في ثنايا شوارع القاهرة الإسلامية القديمة ، حتى إنك لا تستطيع أن تستدل على الطريق إلا بمعاونة أحد المارة ، إن جانباً كبيراً من القاهرة لم يطرأ عليه فساد يذكر ، فهي ما زالت إلى حد كبير مدينة « ألف ليلة وليلة » . .

وفي أحد الأركان نجد حانوتاً فيه حلاق شيخ يباشر عمله وهو يسرد مغامرات إخوته التعسفين على من يسوقه سوء الحظ إلى الجالوس على كرسيه . وفي تلك اللحظة نفسها قد نجد ثلاثة من الشحاذين يقومون بتسليّة البوابة وإخواتها الجليات ويقصون كيف أن المصائب كانت تلاحقهم على السوام . وإن أنت انتظرت حتى يرخى الليل سدوله فإنك قد ترى هارون الرشيد الطيب بنفسه - على الرغم من أنه عاش حقاً في بغداد - وهو آت في إحدى جولاته الليلية الخفية ، يصحبه جعفر الوزير ويتقدم الإثنين مسرور الخادم ليفسح لها الطريق . ومن السهل علينا حينما نجد أنفسنا في تلك الشوارع البعيدة عن الأحياء الأوربية ، أن نتصور أننا نقوم بدور تمثيل في رواية « ألف ليلة وليلة » - تلك الرواية التى تعطينا وصفاً دقيقاً للقاهرة وسكانها كما كانت في العصور الوسطى وكما هى الآن إلى حد كبير . ومما يسهل علينا ذلك التصور ذلك التهدم الذى نراه في كل مكان . فللنازل الشرقية للتداعية التى لا يفكر أحد في إصلاحها ، هى بطبيعة الحال مساكن الغاريت والجن التى تبعد عنها كل ما كن يخشى الله . غير أنه قد يكون هناك أحياناً فى الباني المتهدمة من

الآثار ما يعود بنا إلى العصر الذهبي للفن والثقافة العربية . فالجوامع والمدارس وبقايا القصور المتهمة كلها أمثلة بينة لما كانت عليه الإمبراطورية الإسلامية الشاسعة الأرجاء من تقدم في فن البناء في حبة من الزمان . حقيقة إن دمشق وأصبهان وأجرا ودلمى وقرطبة وغرناطة وبروسة والقسطنطينية — كلها تملك الكثير من عناصر الفن ومظاهر أساليبه مما تفتقر إليه القاهرة ، وهي توسع وتكمل معلوماتنا عن الفن العربي . غير أننا لو نظرنا نظرة خالصة إلى ذلك الفن من حيث مقاؤه دون أن يفسده الزخرفة الآلية كما حدث في قصر الحمراء ، أو الزخرفة الزائدة عن الحاجة كما نشاهده في دلمى ، لوجب علينا أن نقوم بدراسة جوامع القاهرة ومشاهدها .

ومن حسن الحظ أن تحفظ الشرق قد أبقى لنا على الجانب الأكبر من المدينة القديمة بما تحويه من أطلال رائعة رغم عدم تنسيقها . وهناك بطبيعة الحال منازل جديدة ووجهات أعيد بناؤها بل وإطارات النوافذ من الزجاج . فالمشريات الفاخرة بصنعها للعقد المتقن قد اختفت جميعها تقريباً وبدأ يحل محلها ذلك الطراز الإيطالي الحديث ؛ كذلك تلك القاعد الحجرية التي كانت أمام واجهات المحال التجارية قد اختفت تماماً وحلت محلها للواقف الجديدة للمربات . غير أن الصبغة العامة للشوارع لم تتغير تغيراً جوهرياً في السنوات الأخيرة . فالناس الذين يزدحمون في الأزقة الضيقة أو يجلسون في حوانيتهم الصغيرة لاستقبال زبائنهم — كل هؤلاء لم يطرأ عليهم تغير كبير ، فهم يلبسون كما كان يلبس أسلافهم منذ أجيال . كما أن أفكارهم وثقافتهم لم تتعد ما كانت عليه أفكار أسلافهم وثقافتهم ، على الرغم من أن المدارس الجديدة تعمل دائماً على نشر الأفكار الحديثة . ومع هذا فهم لا يزالون على ما عرف عنهم من اللين والوداعة اللتين عرفوا بهما من قبل . أما التغير الحقيقي فإنه يتجلى لنا في اختفاء الشبك — ذلك الأنبوب الطويل ، الذي يهوى الطباقي وغيره من الأعشاب ، والذي كان يستخدمه الناس كضرورة من ضرورات الكيف واحلال المفائف محله . هذا وما تزال أنابيب جوز الهند ( النارجيل ) تستخدم حتى الآن لتدخين الحشيشة بين الطبقات الدنيا . ويلاحظ أن التجار يمثلون العنصر المحافظ في مصر كما هو الحال في كل بلد آخر . أما الطبقات الراقية فإنها تتحرر من شقيتها عاما بعد عام في عاداتها ومظهرها الخارجي . ذلك أننا نراهم يرقصون مع الراقصات « الكافرات »



ويرتدون الملابس الإفرنجية وينعمون بمشاهدة المسرحيات الفرنسية الصغيرة التي تمثل في حديقة الأزبكية . بل إن الأقداح التي يشربون فيها القهوة تصنع في أوروبا . ولولا الطربوش الأحمر وبعض الصفات العقلية والحلقة التي يتميزون بها — والتي لا محل لذكرها هنا — لكان من الممكن أن يبدو الرجل المصري كما يبدو الفرنسي للجمهور الباريسي كأنه واحد منهم . فالتاجر إذن هو الذي يحمل الماضي إلى أذهاننا ، وهو الذي يحافظ على العادات والتقاليد القديمة ، وهو الذي يعيش في الأزقة القديمة . إن ما يحدث في سائر أنحاء العالم لا يحدث عادة في الشرق إلا فيما ندر . وبينما أخذ موكب التقدم والرقى يسير بخطى واسعة في الغرب ، إذا بالتاجر القاهري لا يحرك ساكناً ولا يحاول على الإطلاق أن يلحق به .

وسنحاول الآن أن نلقى نظرة على هذا المخلوق الساكن وهو في إحدى طرقات القاهرة الهامة . فنحن إذ نترك الحى الأوربي وراء ظهورنا ، ولا نهم كثيراً بتلك الحوانيت اليونانية والإيطالية في الموسيقى الجديد ، حينئذ نتجه يمينا إلى الغورية وهي من أكبر شوارع القاهرة ، ولو أنها من الأزقة التي يطلق عليها شوارع أو طرق عامة . فمثل هذا الشارع نجد على جانبيه حوانيت صغيرة هي أشبه ما تكون بالسناديق ، وهي في الوقت نفسه تكون حدود الشارع في صورة منظمة وغير منقطعة ، اللهم إلا حينما يعترضها مدخل أحد المساجد ، أو إحدى الميضآت العامة ، أو تقاطع شارع آخر . حينئذ فقط يخرج صف الحوانيت على نظامه الدقيق . غير أنه ليس هناك مدخل خاص أو نافذة مما اعتدنا أن نشاهده في أوروبا من شأنه أن يشذ فيفسد منظر الحوانيت المصطفة . ثم إنك تجد بضعة حوانيت متجاورة ولمسافة طويلة يتجر أصحابها في نفس السلعة — فلتكن هذه سكر نبات وتلك أحذية للفرقة ( شباشب ) . ولا شك أن لهذا النظام مزاياه . فإذا كان أحد التجار يبيع بأسعار مرتفعة ، فقد تجد جاره يبيع بسعر أرخص منه . ثم إن التنافس المستمر بين التجار المتجاورين من شأنه أن يؤدي إلى خفض كبير في الأسعار . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه يجب أن نعترف بأنه ليس أشق علينا من أن نشترى الرداء من ستة حوانيت في أماكن مختلفة — فتشترى القماش من مكان ، والأزرار من مكان آخر ، والحيط من مكان ثالث ، والبطانة مكان رابع ، ثم نضطر إلى

المسير إلى مكان آخر مختلف تماماً حيث نجد خياطاً لتفصيل هذا القماش وصنع الرداء المطلوب منه . وإذا كان من الضروري أن نساوم كل بائع من هؤلاء ، وقد تصل المساومة إلى حد شرب القهوة أو التدخين مع البائع ، فإننا نستطيع أن نضع أنفسنا في عداد الأشخاص للشهود لهم بالنشاط وسرعة البت في الأمور إذا استطعنا أن نشترى رداء على هذا النحو في صبيحة يوم واحد .

وفي واحدة من تلك الحزانات التي تقوم مقام الحوانيت ، قد نجد ذلك التاجر الذي نبحت عنه وقد لا نجده . فقد يتصادف أنه ذهب ليؤدي فريضة الصلاة ، أو ليزور صديقاً له ، أو ربما لم يشعر بالليل للعمل في ذلك اليوم . وفي إحدى هذه الحالات نراه يخلق مصراع النافذة . ولما كان لا يسكن بالقرب من متجره ، وحق لو كان كذلك ، فليس ثمة جرس أو باب خاص أو مساعد يمكن أن يدلنا عليه . وعلى ذلك فإن علينا أن ننتظر هناك إلى ما شاء الله ، حيث نسأل ولا من يجيب . وقد يجبرنا جاره التاجر في لطف وأدب بأن ذلك الرجل الممتاز الذي نسأل عنه قد توجه إلى المسجد . وحينئذ قد نعرف إلى هنا التاجر الجديد ونطلب منه ما جئنا لطلبه من زميله .

إن صديقنا الجديد هنا يجلس في مكان يبلغ كل من طوله وعرضه خمسة أقدام . أما ارتفاعه فقد يتجاوز ستة أقدام بقليل ، والمكان كله يرتفع عن الأرض بمقدار قدم أو قدمين . ومن الغريب أن صاحبنا استطاع في مثل هذا النطاق الضيق أن يضع جميع السلع التي يظن أنه يستطيع بيعها ، كما أنه استطاع أن يترك مكاناً لنفسه ولصلااته حينما تصل المساومة معهم إلى حد الجالوس وشرب القهوة والتدخين . وبطبيعة الحال إن ما يودعه هنا التاجر في متجره لابد أن يكون محدوداً جداً . غير أن زملاءه التجار على استعداد لأن يقدموا إليه يد المساعدة على الدوام . وأنت حينما لا تستطيع أن تجد ما تحتاج إليه في حدود جدران الأريسة ، فإنه لا يعدم أن يدعك تذهب بعد أن يكون قد قدم إليك إريقيا من الشاي العجوى ، بينما يذهب هو ليأتي إليك بطلبك من عند أحد زملائه التجار المجاورين .

وبينا أنت تشرب القهوة ذات النكهة العطرية وتشاهد الجموع المحتشدة من

المارة ، إذا بيضعة جمال حمرة بالدريس أو التبن أو البرسيم تمشى بخطوات متساوية ،  
حق إنه ليخيل إليك أنها سوف تتزعج كل شيء وكل شخص من مكانه ، وتجد سكان  
المدينة المحترمين راكبين حميرهم الشهب أو السمر ، وأولئك الصبية الذين لا رحمة ولا  
شفقة في قلوبهم وهم يجرون وراءها ، فيحملون هذه الحيوانات على أن تسرع في السير  
بمنة أو يسرة وهي تلتوى في غير هواة كما لو كان قد وضع في وسطها مفصلة كمفصلة  
الباب . أما السراة فانهم يركبون العربات التي يجرها جوادان ، ومن أمامهم عداءون  
يأهثون من فرط التعب ويضخون لساداتهم الطريق ، وهم ينادون بكل ما أوتوا من  
قوة وصوت مرتفع : « شمالك يا ولد ! » « يمينك يا ست ! » ، « افتح عينك يا عم ! »  
وما إلى ذلك . وتجد النساء وقد حملن فوق ربوسهن الصينيات ومن فوقها ألوان  
الطعام ، والسقاء وقد حمل تحت ذراعيه الماء في قربة مصنوعة من جلد الماعز ، كما  
تشاهد جمهوراً آخر محتشداً من الرجال والنساء قد ارتدوا جميعاً رداء أزرق اللون  
وجاءوا ليقضوا بعض الحاجات ، غير أنهم يسرون ويقضون حاجتهم في تأن ومهل .  
فعلى الرغم من أن الجمهور قد يبدو محتشداً متدفقا في جملة إلا أنه يتحرك في  
بطء ، شأنه في ذلك شأن كل شيء في الشرق .

ثم يعود صاحبنا التاجر يحمل الشيء الذي ذهب للبحث عنه عند زملائه التجار .  
فتقبله بادی الأمر ولكن في شيء من الحذر ، ثم لا تلبث أن تسأل ذلك السؤال  
المعهود : « كم ثمنها ؟ » فيكون الجواب عادة ضعف الثمن المعتدل . ومن ثم نقب  
على ذلك الثمن الباهظ بقولنا « يا لله ! » ( من فداحة الثمن ) ، ثم لا تلبث أن تقترح  
ثمناً يكون في العادة نصف الثمن الذي طلبه التاجر ، غير أن صاحبنا يهز رأسه ، وينظر  
إلينا في شيء من اليأس وعدم الرضا ، ويقول لنا إنه لم يكن يشتظر مثل هذا القول  
من أناس في مثل مظهرنا ، ثم يضع السلعة جانباً ويجلس ليشعل سيجارة جديدة . وبعد  
مساومة أخرى غير مجدية ، تنادي صاحب الحمير وتذهب للرحيل . حيث يلبس  
بجانب التاجر ويعرض علينا ثمناً أقل من ذلك الذي عرضه في بادی الأمر . ولكن  
على الرغم من هذا فإننا نصمم على الرحيل وتأخذ في الابتعاد فعلاً ، فيتبعنا ويبدى  
شيئاً من الموافقة على الثمن الذي عرضناه عليه ، وهنا نعود إلى المتجر ، وتدفع الثمن  
وتتسلم ما اشتريناه ، ثم ننصرف بعد أن ندعوا الله أن يحفظه

أما إذا لم يصل بنا الاتفاق إلى ما تقدم ، فإن المساومة قد تستمر حتى نصل إلى منزل صاحبنا التاجر . وهذا المنزل هو في العادة صورة لما عليه منازل الطبقة الوسطى في القاهرة . والواقع أن مسكن الطبقة الوسطى في القاهرة قد يتصادف أن يكون في بعض الأحيان بمثابة قصر من القصور : ونحن في العصر الحاضر نجد الباشا يحتقر قصور النبلاء التي كانت في أيام المماليك موضع غفر وإعجاب كثير من هم أحسن منه . وزراء يؤثر الإقامة في « شارع رقم ٢٩ » - ذلك الطريق الذي لا ظلال فيه - أو هنالك حيث للنازل الحديثة المصنوعة من القرميد ، والتي تشبه الجنان وتعرف بحي الإسماعيلية . وهنا قد نجد للتاجر يشغل في بعض الأحيان منزلاً من المنازل التي كان يسكنها أحد البكوات الكبار في وقت من الأوقات - أولئك البكوات الذين كانوا يأمررون أتباعهم بالاصطفاف حينما يقتضى الأمر توجيه ضربة قاضية للوصول إلى العرش للتداعى الذي كان يقع دائماً في أيدي قواد أقوى الفرق . ولكن جميع منازل القاهرة القديمة قريبة التشابه إلى حد كبير ، ولكنها تختلف من حيث الحجم وكثرة الزخارف أو قلتها . وإذا كان منزل صاحبنا التاجر أفضل من معظم المنازل المجاورة له ، فما علينا إلا أن ننخير غرفة أو غرفتين من الغرف الفاخرة فيه نضاهى بينها وبين غرف للنازل الأخرى ، ليتكون لدينا فكرة واضحة عن ذلك المنزل .

إن الشارع الذي ندخله الآن يختلف كل الاختلاف عن ذلك الذي تركناه . فلقد كنا منذ لحظة وجيزة نطوف لنشترى من هذه الحوانيت ، حيث نشترى السلع الرخيصة في أحد أعمام القاهرة المزدحمة ، والتي تواجه ذلك البناء الضخم لجامع السلطان المؤيد للسلوكي ، ذلك الجامع الذي تقوم مئذنتاه على باب قديم بديع « باب زويلة » ، ولو أن الناس في الوقت الحاضر يطلقون عليه عادة « باب المتولي » ، لأنهم يعتقدون أنه كان فيما مضى مقراً « للمقطب المتولي » زعيم الأولياء في ذلك الوقت ، والذي يحوط حياته شيء من الغموض والإبهام . وهذا الولي المقدس له قدرة عجيبة في التنقل من مكان إلى آخر بحيث يكون خافياً على الأنظار . فهو يطير دون أن يراه أحد من أهل الكعبة في مكة إلى باب زويلة ، وهناك يستقر في مخدع خلف الباب الخشبي . والمؤمنون بهذا الولي يسبحون وهم يعمرون بجانب هذا المخدع على حين يدفع غيرهم الفضول

إلى أن يخلصوا النظرات ليتحققوا هل الولي هناك حقاً . وإذا اتابك صداع فليس من علاج ناجع إلا أن تدق مسباراً في الباب ، والعلاج المحقق لآلم الأسنان هو أن تنزع السن الذى يسبب لك الألم وتضعه في نفس تلك البقعة المقدسة . ولربما كان انتزاع السن أو الضرس في حد ذاته علاجاً للآلم . غير أن الإجماع يشتم منه رائحة الكفر والإلحاد . ومن ثم فإنه من الأفضل على أى حال أن ينزع الضرس ويثبت هناك ، حيث تجد الباب يحمل بالكثير من النذور من أمثال هذه الأشياء الغريبة وغيرها . ولو كتب لهذه النذور جميعها التجاح لكان هذا القطب طبيياً بارعاً من غير شك .

وهذا الشارع الذى يترصه باب زويلة عريض بالنسبة لمدينة القاهرة ، ويحده الحوانيت والجوامع والخانات والبيضات . وعلى عكس هذا تماماً نجد الشارع الذى ندخل فيه الآن ، حينما نطوى زقاقاً ضيقاً ، ثم نتحرف فجأة نحو اليسار . وهذا الشارع خال من الحوانيت ، ولو أن به جامعاً صغيراً ، لعله ضريح أحد الأولياء للوقرين ، ويقع في أحد الأركان ، وقد طليت جدران هذا الضريح بمخلف الألوان من أصفر وأحمر أو أبيض وأزرق مما يضيف كثيراً من البهجة على الرقاق الذى يقع فيه . أما جانباً هذا الطريق الضيق فإنهما يتكونان من جدران المنازل الخلفية العالية البيضاء اللون ، والى ليس عليها شئ على الإطلاق سوى النوافذ للنقوشة القريب بعضها من بعض . وهذا الطريق الضيق يتفرع منه بين الفينة والفينة زقاقات أخرى أضيق منه ، تمتد إلى مسافات بعيدة في مدينة القاهرة ؛ وفي أفنية هذه الدور تكثر للشرقيات ، على حين لا نجد الكثير منها في الطرق الواسعة الآهلة بالسكان . فالسكان في العادة يحتفظون بالشرقيات الجليظة لنوافذ المنزل الداخلية التى تطل على الفناء أو الحديقة . ولكن في الوقت نفسه ترى في القاهرة شوارع غير قليلة حيث يقف المارة ويتأملون صفوف الشرقيات البديعة التى تضافى على المنازل بهجة وبهاء .

واسم « للشرية » مشتق من الأصل وهو العمل « يشرب » — ثم استعمل للنوافذ المصنوعة من الأعمدة الخشبية الرفيعة المشبكة ، وذلك لأن أوعية الماء ذات اللسام المصنوعة من الفخار كثيراً ما توضع عليها حتى تبرد بفعل الهواء . وفي أغلب الأحيان تجد هناك مشكاة صغيرة نصف مستديرة تبرز من وسط الشرية لتوضع فيها

« القلة » أو الإبريق . والمقطع الصغيرة الحقيقية التي تتكون منها الشريعة ، يقترب بعضها من البعض الآخر بحيث لا يستطيع الجيران أن يروا من خلالها أي شيء في داخل المنزل . غير أنها تحتوي في الوقت نفسه على مكان كافٍ يسبح بتخلل الهواء إليه . فالشرعية في الواقع مكان رطب للانسان كما هو بالنسبة لقلل الماء . كما أن الجالس فيها يمكنه أن يرى الناس بالشارع من حيث لا يرونه ، فتستطيع نساء « الحريم » أن يشاهدن المارة دون أن يتمكن هؤلاء من رؤيتهن . ومع ذلك فهناك نوافذ صغيرة مناسبة في الشرعية يمكن فتحها إذا رغب أصحابها في ذلك . وليس جميع نساء القاهرة الجميلات ممن يدعن المارة يمشون في الطريق دون أن يأخذهن الزهو بأنفسهن فيفتحن النوافذ ليرى هؤلاء المارة أنهن جميلات حقاً

وفي بعض تلك الحارات الضيقة نجد أقنصاً أمام مدخل دار يملؤه قوس ؛ وهنا تنزل من على الحمار وتعيده في حلقة قريبة . والباب الذي تقف أمامه خلق بالدرس في حد ذاته . فالجزء العلوي منه تحيطه النقوش العربية التي يتكون من مجموعها مربع مزركش في أهلاه . وهذه الزخارف تكسب الباب في العادة صورة بديعة رائعة إذا قيست بالأبواب القديمة . وفي بعض الأحيان نجد على الباب الخشب نفسه بعض النقوش العربية ، وقد نقش عليه « الله الخالق الصمد » . لتبعد المرض والشياطين وعيون الحساد ، وتذكر رب الدار بالموت كلما عاد إليه . وليس هناك ناقوس ، لأن النبي قد أعلن أن الناقوس آلة الشيطان الموسيقية ، وأنه لا يمكن أن تكون هناك ملائكة في مكان به ناقوس . وفي بعض الأحيان لا يكون للباب حلقة فنضطر إلى قرع الباب بيدنا أو بعصا ؛ وفي العادة قد يستمر القرع بعض الوقت حتى يسمع سكان المنزل ؛ وهذه بلاد لا يعرف من عليها العجلة أو للاسراع أي معنى . ألم يقل سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إن العجلة من الشيطان ؟ وعلى هذا فإنا نسير على وفق ما جرت عليه الأمور في هذه البلاد ، ونواسي أقنصاً بتلك الآلة الكريمة التي تقول « إن الله مع الصابرين » ، وفي نهاية الأمر نسمع صوتاً غريباً من الناحية الأخرى . إنه بواب الدار قد أخذ يحاول معالجة الباب ، فهو يحمل قضيباً صغيراً به أسنان نحاسية مرتبة ترتيباً خاصاً ، ويحاول أن يدخله في ثقب في طرف المتراس ، ومن هذه يتكون القفل والمفتاح في القاهرة .

وفي داخل الدار يمر بمطبخ فجأة بعد خطوة أو خطوتين ، وبحول دون مشاهدة أى شيء في الداخل وأنت بالباب الخارجى . وفي نهاية هذا للمر نجد أنفسنا أمام فناء متسع به بئر للمياه للملحة في أحد الأركان الظليلة . وفي أغلب الأحيان نجد شجرة عتيقة للجميز . وفي هذا المكان لا تلمس دليلاً على أن نعمة حياة . فالأبواب ، مغلقة في إحكام إيماننا في الغيرة والحذر ، والنوافذ تحجبها تلك الستائر الخشبية البديعة التي تروق عين الفنان ، وتغرى الكثير من النوايا باقتنائها . والفناء الداخلى لا يقل في هدوئه وسكونه عن تلك الأجزاء التي تطل على الشارع نفسه . وهنا لا نرى أية علامة لحياة هؤلاء السكان للزلية ، لأن غرف النساء منعزلة تماماً عن هذا الفناء ولا تطل عليه ، إنما تطل عليه غرف الرجال وحجرات الاستقبال وما إلى ذلك . والواقع أن هذا المكان الهادئ منعم جداً حينما يأوى إليه المرء بعد أن قاسى الكثير من الجلبة والصخب في الشارع . حينئذ يشعر المرء أن للهندسين للصربين قد أدركوا لحسن الحظ ما تقتضيه الحياة في الشرق . فهم يعملون الشوارع ضيقة ، ويظلمونها بالشرقيات البارزة حتى لا تصل أشعة الشمس المحرقة إليها ، كما هو الحال في شوارع لندن الأوربية الواسعة ، حيث تستطيع أشعة الشمس أن تنفذ إلى هذه الدور ، ولكنهم يعملون للنازل نفسها فسيحة الأرجاء ، ويحيطونها بالحوائق والأبنية ، لأن حرارة الشمس لا تنطق في الغرف في أثناء الصيف مما يمتلئها الهواء . إن فن الهندس الشرقى يتلخص في أنه يبني لك منزلك بحيث لا تستطيع أن ترى شيئاً من خلال نوافذ جارك . وبهذا لا يستطيع جارك في الوقت نفسه أن يرى شيئاً مما يدور خلف نوافذ منزلك . والطريق الواضح للوصول إلى هذه الناية ، هو أن تكون الحجرات بحيث يحيط بها فناء واسع فسيح الأرجاء ، وأن تكون النوافذ محتجبة بالستائر الخشبية المتشعبة التي تسمح لقيس ضئيل من النور أن يدخل ، وتدع قدرأً وفيراً من الهواء يتخلل أجزائها ، كما يسمح بالنظر من خلال هذه النوافذ دون أن يرى الغرباء من المارة ما بداخلها . والستائر الخشبية والفناء للت عزل من شأنهما أن يعمل على تحقيق ذلك النظام الذي يحتمه الإسلام بفصل الجنسين بعضهما عن بعض .

والحجرات السفلى التي تواجه أبوابها الفناء مباشرة ، هي تلك الحجرات التي يستطيع الشخص أن يعيش فيها آمناً ولا يخشى أن يرى وجهاً لأية امرأة في البيت .



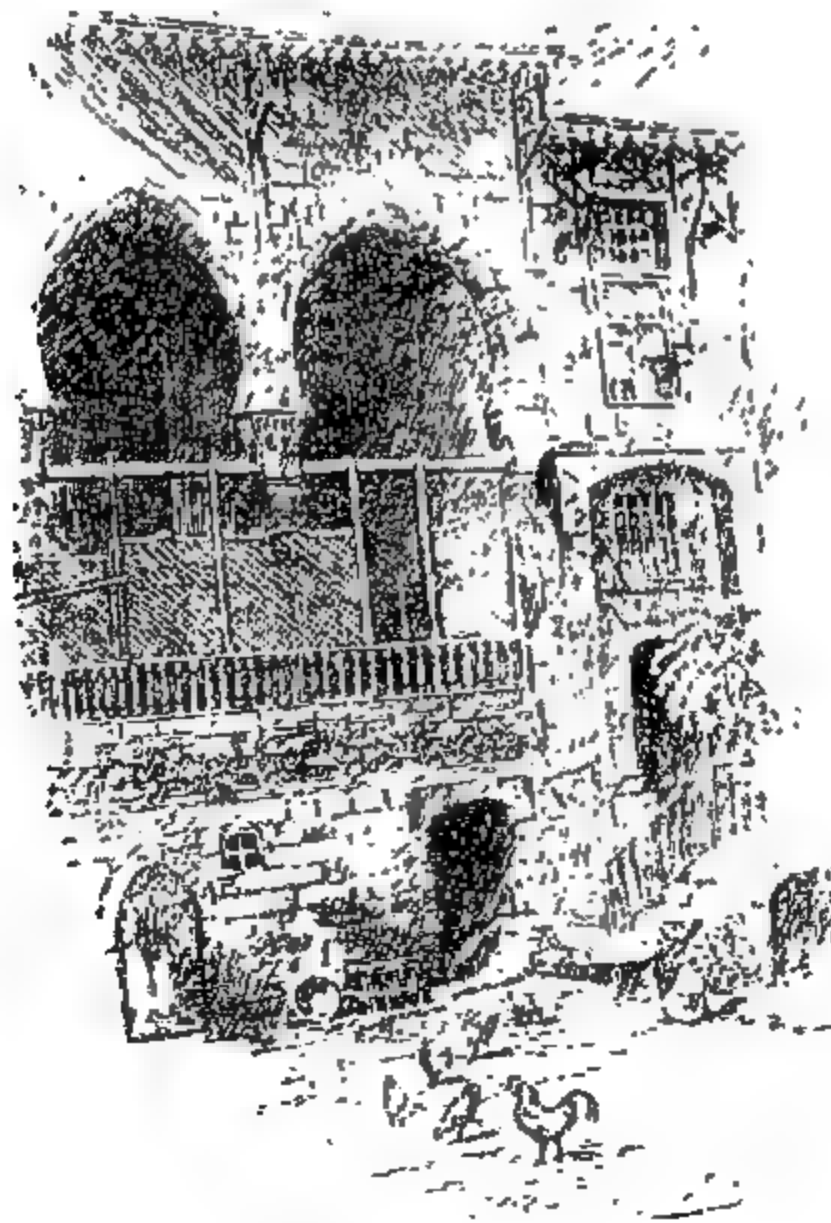
والى إحدى تلك الحجرات السفلى يتقدمنا مضيفنا طالباً إلينا في أدب جم أن نوليه الشرف بأن نظهر كما لو كنا في بيوتنا الخاصة . إنها حجرة الاستقبال ، أو المنطرة ، وهي بمثابة نموذج لما ينبغي أن تكون عليه الترف في العادة . والجزء الذى ندخل منه فى الحجرة منخفض عن بقية الأجزاء . وإذا كان للزبل أنيقاً حقاً ، فإننا نجد هذا الجزء المنخفض منطوقاً بالرخام للصنوع من الفسيفساء ، وفى وسطه نافورة تعمل على تبريد الهواء ، وبإزاء الباب نجد قطعة مسطحة من الرخام محملة على أقواس ، حيث توضع قلال الماء وأقداح القهوة وأدوات غسيل الأيدي .

ونحن نخلع أحذيتنا الخارجية وتركها على الجزء الرخامى من الحجرة قبل أن نطأ ذلك الجزء المنطوق بالبسط ، وهناك نجد الأرض مغطاة ببسط من الصوف الخشن كما نجد بمحاذاة ثلاثة من أضلاع الحجرة « ديواناً » منخفضاً . وفى الحائط الخلفى مشربية بداخلها وسائد مرعجة ، وبأعلىها نحو ستة من النوافذ مكونة من قطع صغيرة من الزجاج للون ، ومن حولها إطار من الطلاء ؛ فتكون بذلك على شكل زهرة . وهذه النوافذ من شأنها أن تسمح لنصف الضوء فقط بأن يمر من خلالها ؛ أما الجانبان الآخران لمطليان بالجير ، وليس بهما خشب أو قرميد ، بل أعدت بها بضعة أصونة خشبية منخفضة لها أبواب صغيرة تفتح بطريقة هندسية معقدة . وعلى جانبي كل صوان من هذه الأصونة كرة صغيرة مقوسة ، وفى أعلاه رف وضعت عليه الأطباق الزخرفة والأوعية وغيرها من أدوات الزينة النفوثة . أما سقف الحجرة فيتكون من ألواح مثبتة فى جذوع ضخمة ، ولونه فى العادة أحمر قاتم ؛ غير أنه فى البيوت القديمة نجد فى السقف غالباً بعض القوش الجميلة ، ولانجد فى الحجرة مناضد أو كراسي أو مدفآت أو أى شيء من الأثاث الذى يعرفه الأوربي . وحينما يحين وقت الطعام ، يحضر خوان صغير مستدير ، وإذا كان الجو بارداً قدم موقد أوقد فيه فحم الخشب . وبدلاً من الكراسي نجد القاهرى يضع رجله من تحته على الديوان ويجلس القرفصاء . - تلك الجلسة التى إذا فكر الأوربي فى أن يجلس مثلها أصيب بتشنج فى الأعصاب .

وهناك فى أغلب الأحيان غرفة استقبال أخرى مرتفعة عن الأرض ، ولا بد للوصول إليها من أن تضعد بضع درجات من القناء التى تطل عليه الغرفة من خلال

واجهة مفتوحة ومقوِّمة . كذلك تجد في العادة منخفضاً في الفناء تحت إحدى الحجرات العليا به ديوان يمكن الجلوس عليه حين يشتد الحر . ومن الفناء باب يطل على الدرجات التي تؤدي إلى غرف الحريم . وهنا لا يستطيع أى رجل أن يتفد منه اللهم إلا رب الدار . وكلمة « حريم » معناها محرم على الرجال الآخرين ومحال للسيد نفسه . وغرف الحريم هي الجزء المخصص للأسرة من الدار ؛ هناك يجد الرجل نفسه وسط أسرته حينما يعود إلى منزله طلباً للراحة من عناء عمله .

وإنه لمن العسير عليك حقاً أن تحاول إقناع البواب بأن يستدعى لك سيده في تلك الفترة مهما كان الأمر الذي جئت من أجله إلى هناك . وفي جناح الحريم تجد



( فناء منزل )

في العادة حجرة كبيرة للجلوس تشبه للنظرة تسمى « القاعة » ، وكثيراً ما تكون هناك قبة في أعلى هذه القاعة . وأمام القاعة دهليز يستخدم للتهوية ، إذ أن الستارة التي تتدلى من فوق مكان مفتوح في سقف هذه الحجرة ، تحول نسائم الريح الشمالية الباردة وتدفقها إلى داخل المنزل حين يشتد الحر . وهذا كثيراً ما ينام أفراد الأسرة خلال فترة الصيف .

وليس في المنزل الإسلامي حجرات خاصة للنوم ، أو على الأخص حجرات بها أثاث للنوم كما هو معروف عندنا الآن . ذلك أن هناك حجرات كثيرة منفصلة يمكن أن ينام فيها أهل البيت ، ولكن لم تكن أي واحدة من هذه الحجرات قد أعدت لتكون خاصة للنوم أو أن بها أثاثاً خاصاً به . وكل ما يلزم القاهري في أثناء الليل حشية ومخدة ، وربما احتاج الأمر إلى بطانية في الشتاء وناموسية في الصيف . وكل هذه الأشياء يطويها في الصباح ثم يودعها في خزانة خاصة أو في حجرة جانبية . وعند ذلك تتحول حجرة النوم فجأة إلى غرفة للجلوس . ومئة جانب آخر هام في جناح الحريم هو الحمام ، وهو ليس عبارة عن حجرة خاصة بها مغسل للاستحمام مثبت فيها ، وإنما يتكون من عدة حجرات بعضها في داخل بعض ، وهذه الحجرات مصنوعة من الحجر الذي يسخن بطريقة خاصة معقدة . وهذا الحمام أشبه ما يكون بالحمام التركي العام . وهو ليس إلا بيتاً كبيراً يتمتع بهذا الترف ، ويخرج أكثر الناس إليه للاستحمام إذا أبدوا نية اهتماماً بالاستحمام .

ويعيش سكان مثل ذلك البيت الذي وصفناه على وتيرة واحدة تثير الكآبة والملل . غير أنهم لحسن الحظ قلما يشعرون بأن حياتهم خاوية موحشة . فإن رب البيت يستيقظ مبكراً جداً ، لأن السلم لا بد أن يؤدي صلاة الفجر . وكل ما يطلبه قبل أن يتناول طعام الإفطار - الذي يكون خفيفاً في العادة - هو الشيشة وقدر من القهوة قبل وجبة العشاء الخفيفة . وهو عادة يدخر شهيته للطعام للوجبة الأساسية التي يعتمد عليها ، وهي وجبة العشاء التي يتناولها في العادة حالما تغرب الشمس . أما إذا استلزم منه عمله أن يتغيب عن المنزل يوماً أو بعض يوم ، فإننا نراه يباشر عمله في عمله ، وهو يدخن بلا انقطاع تقريباً ، إما اللقيفة التركية التي اخترعت حديثاً أو الشبك التقليدي ذا القم البديع المصنوع من العنبر ، والجذع الطويل المصنوع من شجر الكرز ، والجفنة من الفخار الأحمر الملوثة بالطباقي الخفيف الجبلي . أما إذا لم يكن

لديه عمل خاص يشغله ، فإنه يروج عن نفسه بزيارة أصدقائه ، أو بالجلوس ساعات طويلة حالة في ذلك الجو الهادئ في الحمام العام ، حيث البخار التصاعد من الأحواض التي التي يغلي فيها الماء ، وارتخاء للفواصل عند تدليكها ، وما يتلو ذلك من الاستراحة التي يتخللها الترطيب والتدخين وشرب القهوة — كل هذا له لذته الفائقة في الجو الحار . وإذا كان الرجل على جانب من الجاه أو المركز فلا يمكن أن يمشي على قدميه على الإطلاق ، بل إنه في العادة يركب حملاً ، أو حصاناً في بعض الأحيان ، غير أن الحمار أكثر ملاءمة في الشوارع المزدحمة . وفي الواقع إننا نجد في الحمار المصري الأصل حيواناً بديماً قد يصل ثمنه في بعض الأحيان إلى مائة جنيه . خطواته سريعة . ومريحة في نفس الوقت . وليس من الصعب أن نكتب خطاباً على قربوس سرج أحد هذه الركائب الحسنة المشية .

وبينما يكون رب البيت في مقر عمله أو في إحدى زياراته ، نجد نساء المنزل يعملن لتفنية الوقت في أحسن صورة ممكنة : وعلى الرغم مما هو شائع في كل مكان ، فإن المسلم قلما يتزوج بأكثر من امرأة واحدة ، ولو أنه قد تكون له في بعض الأحيان علاقات أخرى مع فتاة حبشية أو جارية أخرى . ومع ذلك فإن جهوداً كثيرة تبذل الآن في سبيل مكافحة تجارة الرقيق ، وإذا ما تمخضت هذه الجهود حقاً عن نجاح تام في القضاء عليها ، مع أنها مباحة شرعاً ، فإن القاهري لن يتزوج بأكثر من واحدة . وكان الخديو السابق نفسه قدوة حسنة في هذه الناحية — شأنه في غيرها من النواحي . والواقع أن هناك كثيراً من المسلمين لهم مثل أخلاق المسيحيين في هذه الناحية . وسهولة الطلاق هي مشكلة للشاكل ، حقيقة إن الرجال لن يحتفظوا بزوجات عدة ، لأن هذا من شأنه أن يكلفهم الكثير في الإقفاق على منازل منفصلة أو منزل واحد ذي غرف متعددة . هذا إلى أن تعدد الزوجات لا يؤدي إلى الانسجام المنزلي . غير أن الواحد من هؤلاء لا يتردد في أن يطلق زوجته إذا تطرق إليه الضجر منها ، ويستبدل بها زوجة أخرى جديدة تحمل عليها . ولقد قيل إن الخليفة عليا استطاع أن يتزوج ويطلق مائتي امرأة في حياته ، بل إنه حدث في بغداد أن ارتفع هذا الرقم العجيب على يد أحد رجال الصباغة فيها إلى رقم أعجب منه ، إذ تزوج تسعمائة امرأة ، وقد توفي هذا الرجل في سن الخامسة والثمانين : ولو أنه تزوج في سن

الخامسة عشرة لكان زواجه قد أصبح يمدد مرة في كل شهر طوال فترة السبعين سنة التي قضاها في الزواج . لقد كان الطلاق عند هذا الرجل من السهولة بحيث إنه لم يكن يرى أى ضرر في الزواج من تسعائة امرأة . ولقد قيل كذلك إن امرأة تزوجت من أربعين رجلاً ، وإثما خفت من متاعب الاحتفال بزواجها إلى أقل حد ، وإن ابنها قد تملكه الألم حينما حار في التعرف على أبيه . وإن يكن أحد أمراء الصعيد في مصر بأقل من هؤلاء في هذا الضمار ، غير أن تلك العادة قد أمت في طريقها إلى الزوال (١) .

ولمنا نلتصق للنساء في هذه الناحية عنراً أكبر من الرجال . فبينما يستطيع الزوج أن يسعى وراء سعادته هنا وهناك ، إذا بالمرأة لا تغادر المنزل أو تتحرف عنه بل تعيش عيشة مملّة على وقيرة واحدة . حقيقة إنه قد يحدث في بعض الأحيان أن تجتمع النساء في الحمام العام ويأخذن في الضحك والضحك ؛ وإن الصيحات التي تنبعث في أثناء الضحك تحمل الدليل على روح للروح التي تتميز بها الفتاة المصرية . وقد تخرج السيدة أحياناً في جلال وأبهة لزور بعض صديقاتها ، فتركب حماراً كبيراً وترتدى ملاء واسعة من الحرير الأسود ، وتحجب وجهها عدا عينيها ، بحجاب أبيض اللون ، وهي تسير ، ورفقتها خادم أمين . وهذه الزيارات التي يتبادلها الحريم هي كل ما تنظر به للمرأة القاهرية من مباحج وسرور . هنالك تسمع ثرثرة لاهد لها ، كما تشاهد ألوان الحلوى وتفقد أدوات الزينة . وفي بعض الأحيان قد تشاهد هناك مغنية أو راقصة . هذا هو كل ما يدخل عليهن السرور . وليس لأولئك النسوة ثقافة من أى نوع ، وهن لا يستطعن أن يعرفن من اللع العقلية أكثر مما تقدره حواسهن ؛ فلما كل والملبس ، والحديث ، والنوم ، والجلوس على الديوان ساعات طويلة ، والاستغراق في الأفكار والأحلام ، ومحاولة إرضاء الزوج وكسب محبة وقصرها عليهن — كل هذه هي عناصر الحياة في « الحريم » . ولقد سألت امرأة إنجليزية إحدى الصريات كيف تمضي وقتها فأجابت : « إنني أجلس على هذه الأريكة ، فإذا ما اتابني الليل أو التعب نهضت لأجلس على تلك » . والتطريز والوشى من

---

(١) تركنا هذا الكلام على سبيل الضحكة والتندر .

الأشغال التي قد تشغف بها النساء ، غير أنه ليس ثمة امرأة تفكر في أن تشغل وقتها في حديقة الأزهار الملحقة بمنزلها في القالب . والواقع أن الجميلات اللاتي تتخيلن وراء النوافذ الخشبية لسن من هذا النوع من النساء اللاتي يشغف بهن المرء كثيراً أو يله له التحدث إليهن . فهن لا يجدن معرفة أي شيء ، ولا يفكرن فيما يدور حولهن في قليل أو كثير . وكل ما هنالك أنهن — أو على الأصح قليل منهن — جميلات وحسب .

والواقع أن النساء للمصريات لا يجرؤن على الظهور أو الباهة ، وهن يتلقين تلك النظرة الوضيعة التي ينظر بها جميع المسلمين إلى النساء . فالرجال في الشرق يدينون ببدا ظلم المرأة واحتقارها ولا يعيدون مطلقاً عن هذا المبدأ الذي هو جزء من دينهم . ألم يقل النبي ما معناها : اطلعت في الجنة فإذا أكثر أهلها الفقراء ، واطلعت في النار فإذا أكثر أهلها النساء ؟ وفوق هذا ، أليست المرأة الأولى خلقت من ضلع عوجاء ، فإذا حاولت تقويم هذه الضلع كسرتها . وإذا تركتها وشأنها كان لابد من أن تستمر على اعوجاجها ؟ فضلاً عن هذا وذاك ، ألم يرو لنا أن الشيطان حينما سمع أن هناك امرأة قد خلقت في الجنة ضحكك مبتهجا ثم قال ما معناه : « إنك نصف مضيئ ، ومستودع سرى ، وسهمى الذي أصيب به ولا أخطئ » . وعلى ذلك فليس مما نعجب له كثيراً أن ينصح أحد الفقهاء واحداً من تلاميذه ، فيطلب منه قبل أن يقدم على أي عمل خطير أن يستشير عشرة من أصدقائه المخلصين ممن يسهل فيهم الدكاء . أما إذا لم يكن له سوى خمسة فقط من أمثال هؤلاء الأصدقاء الذين تتوافر فيهم هذه الشروط ، فليستشر كل واحد منهم مرتين . أما إذا لم يكن له غير صديق واحد ، فعليه أن يستشير عشرة مرات في عشر زيارات مختلفة . ولكن إذا لم يكن له حتى هذا الصديق الواحد ، فليعد إلى منزله ويستشير زوجته ، وكل ما تقوله له فليعمل بعكسه : وبمثل هذه الطريقة يسير قدما في قضاء حاجاته ويصل إلى غايته . وقد اتبع المسلمون نصيحة هذا الأب الورع وعاملوا النساء على أنهن مخلوقات أقل منهم شأنًا — مخلوقات وإن كان لها أهميتها ، فهي على الأقل أدوات للزينة ، ولكن بما لاشك فيه أنها ليست جدية بأي احترام أو تبجيل . ومن ثم فأنهم قلما يسمعون بناتهم . وهم إذا أرادوا الزواج لا يطلبون في زوجاتهم

غير الجمال والطاعة ، ثم يعاملونهم على أنهم لعب لطيفة تستخدم في اللعب ثم تكسر فيلقى بها ، أو على أنهم وسيلة من وسائل الاقتصاد الاجتماعى : ينبغي أطفالا ، وربعين شئون المنزل . (١)

ولعل أكثر ما يلفت جبين المجتمع الإسلامى هو احتقار المرأة على تلك الصورة التى هى أبعد ما تكون من تلك النتائج الحسنة للعقيدة الإسلامية التى تنادى بالمساواة بين جميع المؤمنين أمام الله ، وحرية التصرف واستقلال الرأى كما يدل عليه معنى الإخاء فى شريعة الإسلام المقدسة . وقد تكون الصورة التى قدمناها للحياة اليومية للرجل القاهري قائمة إلى حد كبير ، وعلى ذلك فإن علينا أن نلاحظ صاحبنا التاجر فى لهوه ومسراته حين يتبين لنا ذلك الجانب الأكثر وضوحا من حياته . حقيقة ، أن هذه المباحج والمسررات تنقيد تنقيداً شديداً بالدين . ولكن هذا هو الحال أيضا فى عطلات الكاثوليك . فإذا ما أراد أحد الأشخاص أن يرتكب ما يشين : فإن عليه أن يرتكبه تحت كنف أحد القديسين ، وبذلك يتخلص من وخز الضمير . ولكن للسلم فى العادة ينتهج ابنهاجا لاحد له فى الاحتفالات الدينية ، وإنك ترى كيف أن احتفالات العرس يتلى فيها القرآن من أوله إلى آخره ، وأى عريس ذو مقام لا بد أن يعمل على إجابة مثل هذا الرجاء لأصدقائه المدعوين ، وإذا ما أراد الناس فى القاهرة أن يلهموا ، فانهم يذهبون لزيارة قبور أقدارهم المتوفين ، ثم يجلسون فى منازل خاصة أعدت لاستقبال المميزين ، وهناك يستمع الجميع إلى تلاوة القرآن .

ومهما يقال عنا معشر الانجليز من أننا نكون مكتئين على الدوام أثناء لهونا ، فإنه حتى ذلك الجمهور اعتاد أن يشاهد مسرحيات إيسن Ibsen ، سوف يقف دهشا أمام تلك الاحتفالات الإسلامية . والسلم فى احتفالاته قلما يفكر فيما يقدمه من ألوان مختلفة . فعلى حين لا يوحى عيد القديس سمعان والقديس يوحنا عليه بأى مرح للرجل الإنجليزى العايس ، تجد الرجل القاهري يتمتع بأعياده الدينية إلى



أقصى الحدود بطريقته الرزينة الهادئة المعروفة . وتلك الأعياد جد كثيرة ، و « المولد » في القاهرة ليس احتفالاً يستغرق يوماً واحداً كما هو الحال في الأعياد المسيحية ، وإنما قد يمتد في بعض الأحيان إلى تسعة أيام ؛ وكل سائح زار القاهرة لابد أن يعرف بعض هذه الأعياد . من ذلك الاحتفال بالكسوة الشريفة ، ومرور المحمل بمقبرة الحباج إلى مكة . هذه المشاهد جديرة بأن يراها كل منا . إذ تصادف وقوعها في موسم السياحة . فالسنة الهجرية لا تزال تسير وفقاً للتقويم الذي يعتمد على القمر ، والذي لم يتم إصلاحه حتى الآن . فهذا التقويم من شأنه أن يتغير فيغير معه الأعياد كلما دار الفلك دورته . والواقع أنه قد يندر أن يمر أسبوع واحد دون أن يكون هناك عيد أو احتفال . وقد يكون ذلك العيد يوم عاشوراء ( أي اليوم العاشر من شهر المحرم أول شهور السنة الهجرية ) ، حيث يأكل الناس الكعك احتفالاً بذكرى « الحسين » الابن الشهيد لسيدنا علي ، ويتوجهون إلى جامع الحسين حيث دفن رأس الشهيد كما يزعمون ، ويشاهدون التمثيل الهزلي العجيب الذي يقوم به الدراويش . ويتكون من اسم حسين هنا واسم أخيه الأكبر حسن ، اسم « الحسين » الذي تقدم ذكره . والحسين هنا بنوع خاص أم أولياء العم الشيعيين ؛ ثم إنه كان السبب في كثير من الانشقاقات والاختلافات التي حلت بالعالم الإسلامي . ومن الغريب حقاً أن يكون القاهريون — ومعظمهم من السفينين — ممن يهتمون بهذا العيد ويولونه مثل ذلك الاحترام والتبجيل ، ولكن الحقيقة أنهم يتدفعون بأى عنبر ويرجعون به ما دام يؤدي ذلك إلى منحهم عطلة . وفوق هذا ألم يكن سيدنا الحسين هذا حفيد النبي ؟ وهل يليق أن يترك لأولئك لللاحدة من كلاب الشيعة ؟ ومهما يكن من أمر الحسين هذا ، فإن مما لا شك فيه أنه ينال حقاً من الاحترام والتبجيل في القاهرة ، وأن الاحتفال بمولده من المشاهد التي يسرها السائح الأوربي كثيراً ، فليس هناك في الواقع أبهج ولا أروع من تلك الناظر التي نشاهدها في شوارع القاهرة وأسواقها في ليلة الحسين الكبرى . والشئ الغريب حقاً أنه في إحدى ليالي الشتاء وبعد موقعة التل الكبير ، حينما كنت واقفاً — لأن الركوب كان إذ ذاك متعذراً — وسط جمع محتشد غفير في شارع اللوسكي ، وجاهدت لأشق طريقى إلى ذلك الزقاق الذي يؤدي إلى بيت القاضي ومسجد الحسين — أقول إنه

من الغريب حقا أننى لم ألاحظ هناك أية روح سيئة أو تعصب ، على الرغم من وجود كثير من الأوربيين في ذلك الوقت . والحق أن مثل هذا الجمهور الطيب النفس ليس له نظير . فلقد كان أقل ما يمكن أن نتوقه أن يحدث شيء من الاحتجاج على الأوربيين الذين كانوا يتجولون في الطرقات البهجة للزدانة بالأنوار في ليلة عيد . ولكك بدلا من هذا كنت نجد النساء الإنجليزيات يتخللن الأسواق ، والضباط الإنجليز والسامعين يختلطون بالجمهور ، بل إنهم بلغوا في بعض الأحيان أبواب الجامع القدس نفسه دون أن يحسبهم أحد أو يبدى لهم أدنى مضايقة بل أقل ملاحظة . وفي بعض الأحيان قد تشاهد سيدة مصرية وهي تدعو بعض المسيحيين في شيء من التهمك والسخرية وتطلب منه أن « صلى على النبى » . وقد تذهل السيدة المصرية حينما يجيبها المسيحى بقوله « اللهم صل عليه » . على أنه إذا لم يعرف ذلك الأجنبي كيف يجيب عن مثل هذه الأسئلة إجابة صحيحة ، فلن ينتج عن ذلك ضرر على الإطلاق ، فان طيبة القلب والطبيعة السمحة التي توحى بها مثل تلك الأعياد مما ينسى ذكرى الحرب أو البدع الدينية . ومن المؤكد أنه لا يمكن أن يكون هناك جمهور إنجليزى يعتمد عليه ويوثق به يستطيع أن يسلك مثل هذا المسلك البديع مع وجود أقلية غير مرغوب فيها معه .

ولما انخرفت في أحد أزقة خان الخليل الكبير — أو البازار التركى الذى يواجه جامع الحسين — كان ذلك للنظر يشبه إحدى صور « ألف ليلة وليلة » . فقد كان البازار الطويل مضاء بالشموع والصاييح لللونة التي لاحصر لها ، ومغطى بسرادات مصنوعة من الشيلات والأقمشة الزركشة . وإنك تستطيع أن تتبين من خلال قطع الخيام المنازل للعممة ذات الضوء القليل ، فتعجب للتناقض الغريب بينها وبين البهجة الموجودة في أسفلها . أما المحال التجارية فقد تغيرت تماما ، فلم تعد ترى هناك تلك السلع التي كانت مبعثرة هنا وهناك ، كما اختفت تلك الصينيات التي كانت تحمل شق الخناجر والخواتم والللاعق وما إلى ذلك . بل إنك لتجد كل متجر قد تحول الى عرفة استقبال أنيقة . كما تجد الجوانب والسقف كلها مغطاة بالحرير والكشمير والديباج والقطيفة والأقمشة الفاخرة للوشاة للعمومة النظير ، وعلى الجملة بكل ما لم يكن المشتري ليراه في أى يوم من الأيام العادية . وبالاختصار فان جوانب البازار

قد تألفت منها كتلة متوهجة براقه من الذهب والضوء والألوان الزاهية . وبداخل كل متجر تجد صاحبه جالسا ، يحيط به نخبة من الأصدقاء على شكل نصف دائرة ، وقد ارتدى أغفر ما عنده . اما صاحبنا التاجر فقد تنافى في النظافة والأناقة ، ملازما جانب الأدب . ذلك أن التاجر القاهري يظهر دائما بمظهر الرجل الكريم الأصل ، حتى حينما يخشك بطريقة تثير غضبك . إن ذلك الرجل الذي كنت تتساوم معه في شدة وحرارة في الصباح ، سوف يدعوك الآن في أدب زائد لأن تجلس وتدخن معه . وإلى جانبه منضدة صغيرة من العاج أو الصدف ، يأخذ منها زجاجة بها شراب حلو الطعم من عصير اللوز أو الورد ، ويقدم إليك منها في لطف زائد وأدب جم .

وإنك لتستطع وأنت جالس في هذه العزلة أن تشاهد تلك الجماهير المحتشدة وهي تندفع وتزاحم ، حتى إنه ليخيل إليك أن سكان القاهرة بأسرهم قد تجمعوا في ذلك المكان . ثم إنك تلاحظ أن كل واحد منهم قد ارتدى أحسن ما عنده ، فبدأ أيقا نظيفا تبدو عليه سياء الفرح والبهجة . وعلى حين غفلة تسمع أنغام المزمار وقرع الطبول تنبعث من كل مكان . وهناك تجد جماعة تنفق بمدح الرسول عليه الصلاة والسلام وبسيدنا الحسين علي السواء ، وهي تجوب الطرقات وتفترق الجماهير المحتشدة وقد أخذت البهجة منهم كل مأخذ . وعلى اليسار تجد محلا صغيرا جلس فيه أحد القصاصين البارعين يروي بطريقة تمثيلية قصة عجيبة إلى ذلك الحشد الذي التف من حوله مأخوذاً بسحر القصة وروعها . وهناك بالقرب منه تجد أحد رجال الدين وقد انهمك من التلويح برأسه وهو يردد اسم «الله» جل شأنه أوبعض الآيات القرآنية للوثرة . وفي مكان آخر تشاهد جماعة من الفراووش وهم يذكرون أو ينشد بعض القوم للتعبدين القرآن بأكمله . ومن المؤكد أن مثل هذا المشهد غير حقيق وأنه مبالغ فيه . فنحن نستطيع أن نتصور أنفسنا في بلاد الجن أو في مدينة النحاس وليس في مدينة القاهرة أو في القرن التاسع عشر

وإذا ماخرجنا من الحان ، وجدنا أناسا كثيرين يتدفقون إلى جامع الحسين ، حيث تحدث مشاهد مروعة تقام خصيصا من أجل تلك الذكرى . ولا بد من أن يحول كل فرد حول قبر الحسين . وعلى قيد بضع خطوات ترى بعض الرجال يدخلون إحدى الحيام . وإذا تقبهم لجرى ما خطبهم ، تشاهد في الداخل بعض المشعوذين

وقد انهمكوا في عملهم في غير انقطاع . كذلك نجد حصانا صغيرا يقوم ببعض الحركات ، وأحد المهرجين وهو يقوم بتقليد الرياضيين في صورة تبث على المرح وتثير الضحك في كل مكان . وفي سرادق آخر نجد قرقوش يقوم بتدبير دسائسه : والواقع أن هذا الرجل الصغير السمين أو القراقوز المصري يؤدي عمله خيرا مما يؤديه القراجوز الإنجليزي الذي يشبهه بعض الشبه . غير أنه لا يحسن انتقاء كلماته ، كما لا يراعى مسلكه وهو على تلك الصورة . ومن ثم نجد أنفسنا قد اضطررنا بعد قليل إلى مغادرة ذلك المكان حيث تأخذ الكات تلبس ثوب الخلاعة والمجون ، وحيث تبدأ الدواب في لصها والقيام ببعض الحركات الخاصة . غير أن الطبقات الدنيا قلما تعنى بأن تدرك ما في ذلك من ضرر ، فتجد أفرادها قد أخذهم المرح حتى لتكاد جوانبهم تنفجر من كثرة الضحك على حركات قراقوش ، لا يبالون بشيء أو يهتمون بمن يقابلون من الناس ، ومهما يكن فقرهم وهمومهم الخاصة — كل ذلك لا يمكن أن ينال من طبيعتهم المرحه في ليلة الحسين الباركة .

وأول ما يميز به الجمهور المصري أنه يمكن تسليته في سهولة تامة . فإن أبسط المناظر وأقدم النكات تبث فيه المرح والسرور . ويكفي أن نجعل الأوربي المدفق يأسف على ضبط نفسه ليرى كيف أن هؤلاء القوم البسطاء يدخل المرح قلوبهم من أقل شيء (١) .

هذا هو ما نذهب إلى القاهرة لنراه : الحياة الشرقية الحقيقية على صورتها الأصلية . وإن بعض تلك المناظر لأفضل بكثير من تلك المشاهدات الباردة أو ذلك الرقص الماتر الذي يحدث في الحى الأوربي حيث الفندق الذى تقطن فيه . حقيقة إنك تستطيع أن تجد في القاهرة حياة الفنادق المزدحمة ، أوحياة النوادي ، وتجد ألعاب البولو والتنس وحتى الجولف — كل ذلك نجده كأحسن ما يكون في القاهرة الأوربية . غير أن هذه جميعها معروفة لدى جميع السائحين الذين يقدمون إلى مصر في الشتاء . إنما نستطيع أن نجد شيئا لا مثل له في حى الإسماعيلية حينما نذهب إلى السوق وتختلط بالناس . هنالك نجد الكثير مما يعشقه الرسام وما يبعث على الخيال .

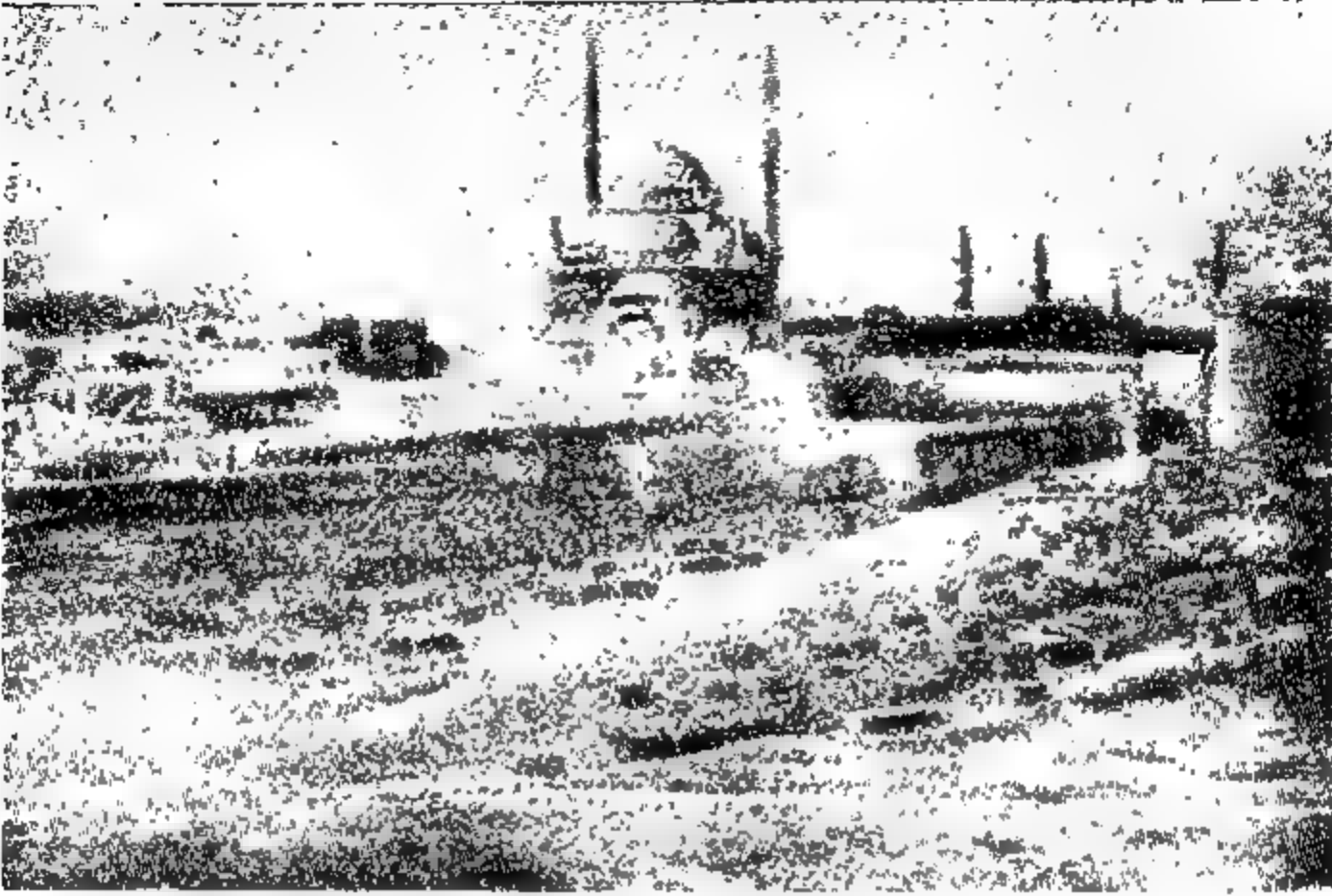
ومهما يكن من شيء فإن أكثر الأشياء التي تكون فيها متعة لنا هي تلك التي تكون غير مألوقة لنا في العادة . ونحن إذ ندخل مصر لأول مرة ، سرعان ما تكشف لنا هذه البلاد عن أفكار جديدة وألوان غريبة ، كما نشم تلك الرائحة الخاصة التي تتميز بها الحياة القومية هناك .

وفي الأسواق أكثر من أي مكان آخر يمكن أن يجد الفرد كل ما هو غريب وغير مألوف لديه . ولكنتك في نفس الوقت إذا أردت أن تتشبع بروح المدينة الإسلامية الحق ، فعليك أن تتسلق أسوار القلعة حينما تأخذ الشمس في المغرب ، ثم تمتع طرفك بما يكون تحتك وحوالك من مناظر رائعة . ومن سوء الحظ أنك ، لكي تستطيع الوصول إلى هناك ، لا بد من أن تمر من أكثر شوارع القاهرة قبحا وتشويها . غير أنه لحسن الحظ أن هذا التهدم قد حدث — على ما أذكر مع الارتفاع — قبل أن تقسم إنجلترا مقاليد الحكم في مصر . ذلك أن إسماعيل هو الذي فتح شارع محمد علي الذي يمر بأجل أحياء القاهرة ، فهدم قصورها وحدائقها وشطر نصف أحد الجوامع الشهيرة حتى يتمكن بذلك من أن يجعل هذا الشارع مستقيما ، ولو أن ذلك لا ينم عن ذوق سليم ؛ وعلى جانبي هذا الشارع تجد هناك مساكن ومكاتب حقيرة غير منظمة ، لاهى بالأوربية ولاهى بحيث تستطيع أن تحتفظ بصفتها الشرقية . هنالك تمتزج الحُمور العتيقة بالمشروبات الحديثة وتوضع جنباً إلى جنب كذلك .

وإن هذا الامتزاج يتجلى لك في وضوح حينما تشاهد مدرسة إسلامية تجاورها حانة أعدت لاستقبال رجال الجيش والبحرية . وبجانب جدار مسجد السلطان حسن تجد حلاقا عربيا يقص للناس شعرهم بتلك الآلة الحديثة . كذلك تجد عربية للحريم مزركشة بالغة الزورعة والبهاء واقفة أمام باب المسجد في حراسة أحد الأغوات . ويمر الشيوخ الموقرون بهذه المناظر الغريبة جميعها دون أن يبدوا أية دهشة أو اهتمام . وفي الهواء تسمع دوى المدافع ينبعث من قلعة صلاح الدين . إنها تحية العيد الكبير عيد الأضحى . أما الجنود هناك فليسوا من الأتراك الأتداء ، ولا من الأكراد الغلاظ الجفافة ، وقد ارتدوا تلك الملابس البديعة وأمسكوا بأيديهم الرماح والصولجانات ، كأولئك الجند الذين دفع بهم السلطان العظيم إلى ريتشارد قلب

الأسد ، وإعناهم جنود بريطانيون قد ارتدوا الملابس الكاكية بصورة لا تليق بأمثالهم .  
والقلعة ذاتها عبارة عن مستودع للأسلحة والذخيرة الحديثة . وهناك يحكم الضباط  
الإنجليز حيث كان يذبح البكوات للمالِك في يوم من الأيام . فالقديم والحديث في  
نزاع دائم في تلك القلعة التي يرجع عهدها إلى العصور الوسطى . وتتولى الكتائب  
الخاصة حراسة جامع أحد سلاطين المالِك .

ولسكنك إذا وقفت على أسوار هذا الحصن لم تعد ترى أى اختلاف أو تناقض ،  
وإعنا تبصر من حولك كل ما هو شرقى صميم . فالصبغة الأوربية لم تعد هناك بحيث  
تضفي على الصبغة الشرقية . هنالك تجد الكثير من القباب والمآذن والأديرة ذات  
القباب ، والمنازل النبسطة الأسقف ، منها الأصفر والأبيض ، ومنها الأحمر . كذلك  
تشاهد بقعا خضراء هنا وهناك ، يتخللها شجر الجوز العتيق ذو الأوراق القائمة اليابسة التي  
تكشف عما كانت عليه حدائق المدينة القديمة . وفي الجهة المقابلة تشاهد صفوا من  
النخيل ، وأخدوداً من الفضة حيث يجري ذلك النهر الطويل الصافي حالما بين ضفتيه  
القائمتين . وهناك في الأتق ، وفي مواجهة مرتفعات ليبيا ، حيث تأخذ الشمس في الخفاء  
فتترك من ورائها لونا أحمر قانيا . هناك تبصر الأهرام الخالدة . كذلك تشاهد المآذن  
الدقيقة وقد ارتفعت كثيراً عن مستوى القباب وسطوح المباني الأخرى ، حيث  
تكون لنفسها عالما خاصا بها ، فيه الكثير من السحر والجمال . إن كل واحدة من  
هذه المآذن لها قصة جديدة بان ترويها لنا . قصة انتصار أو انكسار ، أو قصة  
عبادة أو غزو ، أو قصة ثقافة وزهد . وإذا ما انجذبت بنظرك شمالا إلى اليمن ،  
شاهدت مآذن جامع المؤيد البديعة من فوق باب زوية . إن هذه المآذن لتذكرنا بمئات  
الأحداث والقصص تخص من ذلك الباب الذي كان في يوم من الأيام المدخل  
الرئيسي لقصر الخليفة . ووراء هذه المآذن ترتفع مآذن حي النحاسين ، وهي أعودج  
كامل للفن الإسلامي . ووراء هذه المآذن أيضا تشاهد بعض الأبرج ، إنها أبراج  
جامع الحاكم . وأمام هذه الأبراج يقع جامع السلطان حسن ، أكبر وأعظم المساجد  
التي ترجع إلى عهد المالِك . وإلى اليسار قليلا يرى الناظر بروج وأروقة جامع  
ابن طولون الذي يطل على التلال التي تحيط به ، والذي يحمل إلى أذهاننا ذكرى  
مدينة القسطنطين التي قامت منذ ألف سنة . وإلى اليسار أيضا خط المنحنيات



### القلعة

التي تدلنا على مكان هذه القناطر القائمة على أعمدة ، والتي امتدت إلى النيل لجلب ماء الشرب إلى القلعة زهاء خمسة قرون . وفيما وراء هذه القناطر نشاهد حشداً من القباب والمساكن المتهمة في مقابر الممالك جنوبى القرافة . كما نستطيع أن نلمح ذلك الحصن المصرى القديم ، وهو حصن بابليون ، وجامع عمرو . وإذا نظرنا إلى الجانب الآخر من مآذن الممالك ، نستطيع أن نرى أكمة قائمة من الحجارة هي بقايا هرم دهشور ، وصورة واضحة لهرم سقارة الذى يبعد خمسة عشر ميلاً فقط عن القباب الإسلامية المتقدمة ، ولكنه يبعد عنها بخمسة آلاف سنة تقريباً . وإذا تأخذ الشمس في المغيب ويبدأ الليل يرخى سدوله ، تتجمع السحب القاسية في الغرب ، فتلقى ظلالها على الصحراء المعتمة من تحتها ، مما يوحي إليك بأن هناك محيطاً حديداً قد انشق في قلب إفريقيا .

وهنا نعرف القاهرة لأول مرة على أنها مدينة من مدن العصور الوسطى ، بل أكثر من هذا نعرفها كمدينة لها تراثها المجيد منذ فجر التاريخ . فنحن حين نطل من أعلى أسوار القلعة ، ندرك أن هناك محيطات أخرى غير تلك التي نعيشها و آخرها بالماء ، وأن حاضرة مصر لا يمكن أن يكون لها حدود أنسب من الصحاري التي هي بمثابة الدرع الواقى لها ، والأهرام التي تعلن في جلاء ووضوح عن أعمالها المجيدة التي تمت منذ أقدم عصور التاريخ . ولقد قال الإسرائيلي الحكيم : « من لم يشاهد القاهرة لم يشاهد الدنيا ، فأرضها تهر ، ونيلها سحر ، ونساؤها حور الجنة في بريق عيونهن ، ودورها قصور ، ونسيمها عليل ، كعطر الندى ينشئ القلب . وكيف لا تكون القاهرة كذلك وهي أم الدنيا ؟ » .



## الباب الثاني

### مدينة الفسطاط

لندن للصاقبة - الفتح العربي - عهد الصلح - مصر القديمة - بابلون والقوقس  
- القبط - تأسيس الفسطاط - خطط القبائل العربية - جامع عمرو - حصن بابلون  
كنائس القبط .

حينما نطل من القلعة نشاهد مدينة لها كل مميزات العصور الوسطى . غير أنه  
من بين جميع اللباني العربية لا نجد بناءً واحداً في حالته الحاضرة يرجع إلى الفتح  
العربي . قبل أن يهزم المسلمون مصر في سنة ٦٤٠ م لم تكن هناك مدينة تسمى  
القاهرة . وإن نحن توخينا الدقة ، فإن هذه المدينة لم يكن لها وجود في الواقع إلا  
بعد هذا التاريخ بثلاثة قرون ، حين وضع القائد الرومي أساس المدينة التي اتخذها  
الخلفاء الفاطميون مقراً لهم ، والتي أطلق عليها اسم القاهرة ، وهو الاسم الذي  
اشتق منه الأوربيون أسماء Cahere و Caire و Cairo . غير أن هذه ليست سوى  
الفاظ لا طائل وراءها إذ أنها لا تدل على شيء ، وكما هو الحال في إنجلترا فإننا  
نقصر اسم لندن على المدينة نفسها ونأبى أن نطلقه على مقاطعة وستمنستر وميفير .  
لقد كانت هناك حاضرة إسلامية منذ الفتح العربي . وعلى الرغم من أنها لم تكن  
تسمى القاهرة ، كانت قرية من المدينة الحالية التي لا نعدو أن تكون انساغاللمدينة  
الأصلية . وتاريخ هذا النمو والانتساع سوف يتجلى لنا حين ندرس التطور الذي  
لحق هذه المدينة وآثارها . أما الآن فإنه يكفي مجرد الإشارة إلى تاريخ نشأتها  
وتطورها . فقد بنيت في بادئ الأمر المدينة العربية التي تسمى « الفسطاط »  
في سنة ٦٤١ م . وفي سنة ٧٥١ م أضيف إليها حي في الشمال الشرقي ليكون  
مقراً للأمراء ومعكراً لجيوشهم ، فسميت بذلك « العسكر » . وإلى الشمال  
الشرقي أيضاً أضيف إليها ضاحية جديدة أو مدينة صغيرة بناها أول حاكم  
مسلم استقل بحكم مصر حول سنة ٨٦٠ م وهو ابن طولون . وهذه المدينة تسمى

« القطائع » لأنها كانت تنقسم إلى أحياء منفصلة كل منها يختص بشعب معين أو طبقة معينة ، ثم لم تلبث هذه المدن الثلاث أن أصبحت مدينة واحدة من الناحية العملية ، فقد تحولت كل من « العسكر » و « القطائع » — كما تحولت تشلسي وسانت جيمس إلى لندن — إلى الحاضرة التجارية وهي القسطاط .

أما الخطوة الرابعة في تطور هذه المدينة فتتلخص في اتساع آخر نحو الشمال الشرقي أيضاً . وقد تركت مساحة كبيرة بينها وبين القطائع — التي كانت قد تهدمت إلى حد كبير جداً — حتى يتوافر الأمن والعزة للخلفاء الذين كان ينظر إليهم أنصارهم نظرة الاحترام والتفديس ، والذين بنيت هذه المدينة باسمهم سنة ٩٦٩ م . وكانت هذه المدينة الأخيرة هي القاهرة الحقيقية ، ولكنها لم تكن الحاضرة التجارية ولا مقراً للحكم كما كانت العسكر أو القطائع من قبل . وكانت القسطاط — على ضفة النيل — لا تزال سوقاً للتجارة ، كما كانت أكبر مدينة للثقافة والأعمال . أما القاهرة فلها كانت بمثابة قصر فخم ، وثكنات للجنود ، ومقراً للحكومة . ويلاحظ أن مؤرخي العصور الوسطى من أمثال وليم الصوري حين يكتبون عن مصر — وكلمة مصر تستخدم في اللغة العربية للدلالة على القطر المصري وعلى الحاضرة على السواء — فإنهم لا يشيرون إلى القاهرة ، بل إلى القسطاط ، أو كما كانت تسمى عادة « مصر القسطاط » . ولقد كان الأمير أو الخليفة أو السلطان يختار أية ضاحية بينها لنفسه ويحكم منها ، ولكن الحاضرة القديمة تظل أم هذه المدن حقا . هناك كان القضاة يجلسون في الجامع العتيق ليصدروا أحكامهم ، وهناك كانت محك نفود الدولة ، وهناك أيضاً كان يقيم عامة الشعب الذين لم يكن لهم اتصال بالقصر . ولم تصبح القاهرة الحاضرة الحقيقية ومركز الحكم في مصر إلا بعد أن أحرقت القسطاط عمدا في سنة ١١٦٨ م لتخليصها خوفاً من أن تقع في أيدي الصليبيين .

وكان صلاح الدين الأيوبي هو منشيء القاهرة الحقيقي كما هو معروف . ذلك أنه هو الذي وضع تصميم السور الذي كان يحيط لا بالقاهرة وحدها ، بل بالقلمة أيضاً وبما تبقى من مدينتي القطائع والقسطاط . ومنذ ذلك الوقت بدأت المباني تنهض

على ذلك الفضاء الذى كان يقع بين القلعة وقصر القاهرة ، والذى أخذ على مر الزمن يعتلى بعبائى القاهرة التى تراها اليوم . وهكذا فإن نمو هذه المدينة يتكون فى الأصل من ثلاث مراحل من الاتساع نحو الشمال الشرقى . وكل من هذه الاتساعات المتعاقبة كان يتبعه بطبيعة الحال تهدم الأحياء وللناطق المهجورة ، وتكتل الأماكن الآهلة بالسكان وانضمام بعضها إلى بعض . ومنذ أيام صلاح الدين الأيوبي اختفى تماماً كل ما تبقى من مدينة الفسطاط ، ولم يبق إلا تلك القرية المنقرقة التى تراها على مقربة من موقع الفسطاط الأصل ، وتسمى « مصر العتيقة » ، وتعرف عند الأوربيين بهذا الاسم ، وهى ذلك الجزء الذى نستطيع أن نتبع أثره إذا حاذينا أكوام القمامة للقاء على جانبي الطريق . هنا من جهة ، ومن جهة أخرى نجد ثمة مدينة جديدة قد أقيمت بين القاهرة والنيل نتيجة لبعض المؤثرات الأوربية . غير أن هذه المدينة الشتوية الجميلة ليس لها أية علاقة على الإطلاق بمدينة الصور الوسطى .

وتاريخ غزو العرب لمصر غامض فى كثير من النواحي ؛ وهذا يرجع إلى أن العرب لم يبدأوا فى تدوين تاريخهم إلا بعد قرنين أو أكثر . وإن ما تركه يوحنا أسقف قيسوس — الذى يكاد يكون حجتنا المعاصر الوحيد — قد وصل إلينا فى ترجمة كتابه المحرفة . وقد دخل العرب مصر بقيادة عمرو بن العاص فى ديسمبر سنة ٦٣٩ م ، وذلك فى خلافة عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين . وكان عددهم لا يزيد على أربعة آلاف مقاتل من الأقوياء . وبعد أن حاصر العرب الفرما وبليبس وقتلوا الروم فى حى أم دنين — وهى بالقرب من قصر عابدين الحالى — هاجموا مصر أو بابليون . وكانت هذه المدينة الأخيرة امتداداً إلى الشمال أو اتساعاً لمنفيس الحاضرة المصرية القديمة التى كانت لا تزال حتى ذلك الوقت ، ولكن فى شكل أطلال بالية . وكانت تبعد عن القاهرة الحالية باثنى عشر ميلاً تقريباً ، وقد تم نموها تحت حماية حصن بابليون الرومانى . وبما لامرأ فيه أن الروم قد دافعوا عنها دفاعاً شديداً حتى أن القائد العربى لم يجد بداً من طلب المدد حتى بلغ جيشه اثنى عشر ألفاً قبل أن يتمكن من فتحها .

وقد قسم عمرو بن العاص قواته إلى ثلاث فرق ، وضع الأولى إلى الشمال من

حصن بابليون ، والثانية في تندونياس ( ومن المحتمل أن تكون هذه هي أم دين  
التي تكلم عنها كتاب العرب ) ، والثالثة إلى الشمال من هليوبوليس . وقصد بذلك  
أن يحمل الروم على الخروج من حصونهم فيطبق عليهم القسام الآخرون من المؤخرة .  
وقد نجحت هذه الحطة ، إذ خرج الروم من حصونهم وأخذوا يهاجمون المسلمين  
في هليوبوليس ، حيث أطيقت على مؤخرتهم قوات عمرو ، فاضطروا إلى الفرار  
إلى النيل وألقوا بأنفسهم فيه . عند ذلك احتل المسلمون تندونياس التي أيدت حاميتها  
في المعركة ، ولم ينج منها إلا ثلثمائة رجل أغلقوا أبواب الحصن من دونهم وهربوا  
بالقوارب إلى قيقوس ، وقد اقترن استيلاء العرب على تندونياس باستيلائهم على مدينة  
مصر كلها عدا القلعة التي أحاط بها العرب . ويذكر لنا يوحنا أسقف قيقوس  
— الذي نعتمد على تاريخه فيما نكتبه عن هذه الناحية — أن العرب لم يلاقوا أية  
مقاومة إلا حينما حاولوا الاستيلاء على الحصن (١) .

ومهما يكن من شأن مدينة مصر أو تندونياس ، فإنها قد اختفت تماما من عالم  
التاريخ بمجرد استيلاء العرب عليها . وآخر ما نسمعه عنها في معاهدة الصلح التي أبرمها  
عمرو بن العاص ، وهما نصها :

« باسم الله الرحمن الرحيم ، هذا ما صالح عمرو بن العاص أهل مصر ، على  
أنفسهم ودينهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وأرضهم ومائهم ، لا يدخل في شيء  
من هذا ولا ينقص ، وأن يسمع لأهل النوبة بأن يقيموا بينهم ، وإن أذعن أهل  
مصر للصلح فرضت عليهم الجزية خمسين ألفا إذا هبط ماء نهرهم . وكل منهم مسئول  
عما يأتيه سراقتهم من أعمال العنف . ومن لم يدخل في هذا الصلح أدى ماعلى غيره  
من الجزية من تلقاء نفسه وتحت مسئوليته . وإذا نقص ماء النيل نقصت الجزية  
تبعا لهذا النقصان . ومن رضى من الروم والتوبيين بهذا الصلح عومل كغيره من  
أهل مصر ، ومن أبى وأراد الخروج أمن على نفسه حتى يبلغ مأمنه أو ترك بلادنا .  
وستجمع الضرائب على أقساط ثلاثة كل ثلث منها على حدة . وعلى عهد الله وعهد

---

(١) انظر كتاب تاريخ مصر في العصور الوسطى ص ٤ .

هد الخليفة أمير المؤمنين ، وعهد المؤمنين .. شهد على ذلك الزير وولده  
محمد وكتبه وردان (١) .

لـ المؤرخون العرب هذه المعاهدة — التي يظهر أنها وثيقة لها قيمتها —  
مدينة مصر بعد موقعة هليوبوليس . ولكن لما كانت مصر يقصد بها القطر  
المتوسط بين الحاضرة ، فإن هذه الوثيقة نفسها إنما تثبت أن القامح العربي  
الكرم والسخاء في معاملته لأهل مصر . فهي لا تذكر شيئاً واضحاً  
عن مدينة مصر التي أصبحت تسمى بعد قليل القسطنطينية ، على حين أن موقعها  
في بعد ذلك . إنما التفسير الوحيد الذي يبدو صحيحاً هو أن المدينة المصرية  
أهميتها في الضعف كلما أخذت المدينة العربية في النمو ، وأن السكان كانوا  
يذهبون إلى الأماكن القريبة الأكثر رخاء من مدينتهم الأولى . وإن بقايا الأسوار  
جنوبي مصر القديمة يمكن أن تمثل جانباً من موقعها ، وإن اختفاء إحدى  
مدينتها — لسوء الحظ — أكثر من سابقة ، فمدينة ممفيس نفسها قد  
أهم إلا من بعض بقايا الجدران والتماثيل المتهمة ، ولم يبق من مدينة  
معاينتها . والسبب في ذلك يرجع إلى أن المصري القديم كان يبنى مسكنه  
بـ الجحش في الشمس الذي كان معرضاً للتلف والتهدم بعد وقت قد يقصر  
إلى . أما الأحجار الصلبة فلم تكن تستخدم إلا في بناء مقابر العظماء ومعاين  
لخالدين .

بما يكن من شأن التغير الذي لحق للمدينة التي نحن بصدددها ، فإن حصن  
مازال قائماً حتى يومنا هذا . ولقد كلف حصار هذا الحصن العرب سبعة  
سنوات تمكنوا من الاستيلاء عليه . فموقعة هليوبوليس قد كسبها العرب في آخر  
٦٤ م ؛ ولكنهم لم يتمكنوا من الاستيلاء على الحصن قبل شهر إبريل  
٦٤ م . ويرتبط استسلام هذا الحصن بشخصية غامضة هي شخصية المقوقس الذي

---

نقل المؤلف هذه الشروط عن يوحنا أسقف قيسوس ، ومن أراد الاستزادة فليرجع  
كتبه ابن عبد الحكم ( كتاب فتوح مصر وأخبارها — القاهرة ١٩١٤ ص ٦٤-٦٥ ) ،  
في ( خطط ج ١ ص ٢٩٢-٢٩٣ ) — المترجم .

دعاء العرب حاكم مصر (١) . وتذهب الروايات العربية إلى أن المقوقس هو الذي اقترح المعاهدة الآتية الذكر التي ضمنت للصريين حرية الدين وأمنتهم على حياتهم . ولما رفض الإمبراطور هرقل البيزنطى هذه المعاهدة تمسك المقوقس بكلمته وأصبح في صف العرب الذين كان لشجاعتهم وحماستهم أثر بالغ في نفسه . ولما عاد الرسل الذين كان قد بث بهم إلى معسكر المسلمين ، سألهم عن حال المسلمين فأجابوا :

« رأينا قوما الموت أحب إليهم من الرفقة — ليس لأحد منهم في الدنيا رغبة ولا نهمة ، وإنما جلوسهم على التراب ، وأكلهم على ركبهم ، وأميرهم كواحد منهم ، لا يعرف رفيعهم من وضعهم ، ولا السيد فيهم من العبد . وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها أحد ، يسلون أطرافهم بالماء ويخشعون في صلاتهم » . ومثل هذا الخلق كان جديداً بالنسبة إلى للصريين الذين كانوا قد قاسوا الكثير من فساد الإمبراطورية الرومانية الشرقية . ومهما يكن من شأن الدور الذي قام به المقوقس فيما أطلق عليه خيانة مصر المسيحية ، فما لاشك فيه أن الشعب نفسه قد ساعد الغزاة الفاتحين .

وعلى الرغم من أن للمسيحية كانت الديانة الرسمية في مصر منذ أصدر ثيودوسيوس مرسوم سنة ٣٧٩ م ، كانت لا تزال هناك طقوس محلية قديمة على جانب عظيم من القوة . وأهم من هذا كانت لا تزال هناك أيضا نزعة قوية إلى بث روح القومية في الدين والدولة معا . فان حكم البيزنطيين لم يكن مما يرنح له أهل مصر . أضف إلى ذلك اضطهاد الكنيسة الأرثوذكسية ، فانه لما عقد مجمع سنة ٤٥١ م رمى الأساقفة للصريون الذين دانوا بعتيدة أوثينا بالإلحاد ، وأصبح الانقسام شديدا لا مفر منه . ومن ثم أصبح في مصر منذ ذلك الحين كنيستان : الأولى كنيسة الدولة ( مذهب الروم الأرثوذكس ) وتؤيد بها القسطنطينية ويطلق عليها الكنيسة الملكية ، والثانية الكنيسة القومية ، وقد أطلق عليها فيما بعد النيقونية وتعرف عادة بالكنيسة القبطية .

(١) راجع البحث الذي نشره الدكتور أ . ج . بطر أخيراً في Proc. Soc. Bibl. Archeology, 1902. فهو يحاول هنا أن يثبت أن المقوقس هذا هو قيرس Cyrus بطريرك لاسكندرية . غير أن هذا الرأي لا يجد أى تضيد من كتاب العرب الذين يوثق بهم .

أما من ناحية الاشتقاق اللغوي ، نجد أن كلمة قبطى « Copt » هى نفس كلمة « مصرى » (١) . والكنيسة القبطية لا تعنى أكثر من الكنيسة المصرية حينما انفصلت على أثر بدعة أوتينا الدينية . ولم يكن المسيحيون للصريون من حيث كونهم قبطا قبل جمع نيقية أقل مما كانوا عليه بعد . غير أن تمسكهم بالطبيعة الإلهية التي لم يستطع أن يدركها إلا القليل منهم ، هو الذى جعل منهم كنيسة مستقلة مما أدى إلى وقوع المصائب التي نزلت بهم وتبنيه أذهان اللورخين إلى استجلاء ذلك الدور الذى يتعلق بتاريخهم . وكان تمسكهم بمنهج نيقية الذى يقول بأن للسبح طبيعة واحدة ، أن عرضوا أنفسهم للاضطهاد والعزة ، كما كان سببا في أنهم لم يساهموا في تلك الإصلاحات التي أفادت منها الكنائس الأخرى ، بل إنهم ظلوا في جماعتهم الضئيلة الهائلة لا يتغيرون نحو من خمسة عشر قرنا ، واحتفظوا بنفس التقاليد والطقوس الدينية كما كانوا في القرن الخامس الميلادى . وكانت كراهتهم الزائدة للمسيحيين هي التي أثبتت بهم في أحضان المسلمين الفزاة . فقد رأيناهم يعملون بصيعة بطريقهم الذى كان منغيا ، ويمدون يد المساعدة للعرب منذ اللحظة التي وطئت أقدامهم فيها أرض مصر . وكان ولوعهم في التخلص من الحكم البيزنطى ، وأهم من هذا نفوذ رؤساء الدين من المسلمين ، الذى جعلهم يؤثرون هذا الرأى على غيره . وبعد أن نجح المقوقس — بمساعدة أحد الرجال الكاثوليك — ولعله قبرس بطريرك الإسكندرية للكنائس — في أن يحصل من القائد العربى على عهد الصلح الذى يدل على السخاء ، أسدى القبط كل مساعدة إلى المسلمين ، فكانوا يعاونونهم بمعاونة صادقة في بناء الجسور ، كما أمدمهم باللؤلؤ . غير أنهم ما لبثوا أن أدركوا أنهم إنما غيروا سيديا بآخر . بيد أن العربى — على الرغم من نزعه إلى الأنفة والكبرياء وما كان يعتريه بين آن وآخر من نزعة التعصب والاضطهاد ، كان في استبداده أرق من الحاكم الرومانى بكثير .

ولما وجدت الحامية الرومانية التي حاصرها العرب في حصن بابلليون نفسها

(١) وفي اليونانية Aiguptios ، وفي العربية قبط ( بالفتح ) وقبط ( بالضم ) ، وفي

الإنجليزية Copt .

محرومة من مؤازرة الشعب ، اضطرت إلى التسليم في ابريل سنة ٦٤١ م . وسرعان ما غزا العرب الدلتا وأرغموا الروم على الانسحاب إلى الإسكندرية التي استسلمت للفرع والرعب وقبلت الشروط السخية التي عرضها عمرو . وكانت الإسكندرية في ذلك الوقت قد سادتها الانقسامات كما كانت محرومة من القواد الصالحين . وباستسلام هذه الحاضرة الرومانية في أكتوبر سنة ٦٤١ م ، تم فتح مصر على أيدي العرب ، فلم تعد هناك مقاومة تستحق الذكر . وهكذا انتشر المسلمون في البلاد حتى وصلوا إلى الشلال الأول للنيل وأصبحت مصر ولاية تابعة للخلافة .

وبعد أن عاد عمرو من الاسكندرية أسس مدينة القسطنطية ؛ وذلك لأن ميناء الإسكندرية العظيم على ساحل البحر الأبيض المتوسط لم يعد صالحا لأن يكون حاضرة للقبائل العربية التي أدت طبيعتها البدوية إلى أن يتسلط عليها شيء غير قليل من الخوف من الإسكندرية وبحرها العميق . هنا إلى أن الإسكندرية كانت معرضة في وقت فيضان النيل لأن تصبح في عزلة عن مركز سيادة العرب في المدينة . كما أن الخليفة عمر بن الخطاب — الذي لم يكن يحلم في ذلك الوقت بتأسيس إمبراطورية إسلامية شاسعة الأرجاء — كان مولعا بأن يكون على اتصال دائم بجيشه في مصر . والواقع أن عمرا نفسه أراد أن يجعل الإسكندرية حاضرة لمصر ، وهم أن يسكنها وقال له « منازل قد كفيناها . » غير أن الخليفة عمر بن الخطاب لما سمع بذلك سأل رسول عمرو : « هل يحول بيني وبين المسلمين ماء ؟ » قال : « نعم يا أمير المؤمنين إذا جرى النيل . » عندئذ حول الخليفة وجهه عن الإسكندرية ، إذ كان ينظر إلى البلد التي تم له فتحها على أنها بمثابة ثكنات للجيش أكثر مما كان ينظر إليها على أنها مستعمرة . وعلى ذلك أصدر أمره إلى قائده عمرو بن العاص بأن يختار موقعا أكثر توطئا . وقد وجد عمرو هذا المكان على بعد عشرة أميال شمال أطلال مدينة ممفيس حاضرة مصر القديمة في موقع القسطنطية التي أقامه أمام حصن بابليون . وكانت هناك قناة تسمى أمينيس تراجانوس كانت قديما تربط بابليون بالبحر الأحمر عند السويس مارة بمدينة بليس أوبجيرة التماسح . وقد أعاد عمرو فتح هذه القناة بعد أن نظفت مما كان بها من الأملاح ، حتى إن الضرائب وكذلك القمح ، أصبحت



ترسل إلى بلاد العرب بحرا عن طريق هذه القناة ، وبذلك احتفظت مصر بعلاقاتها الوثيقة مع الخليفة .

ويرجع السبب في تسمية مدينة القسطاط بهذا الاسم إلى قصة طريفة لا يبعد أن يكون لها نصيب من الصحة . ذلك أن عمرو بن العاص حينما قاد قواته العربية إلى حاضرة مصر القديمة ، أقام قسطاطه حول للكان القوي يقع فيه جامع عمرو بن العاص الآن . وبعد سقوط حصن بابليون سار إلى مدينة الإسكندرية . غير أن الجند عندما ذهبوا ليقوضوا قسطاطه وجدوا عمامة قد باضت في أعلاه ، فقال عمرو : « لقد تحمرت بجوارنا » ، وأمرهم بأن يقرأوا القسطاط حتى يطير فراخها . ولما فتح عمرو الإسكندرية ، أخذ الجند يختطون منازلهم حول قسطاطه الذي خلفه قبل مسيره إلى الإسكندرية . وهكذا أصبحت أولى المدن العربية في مصر : القسطاط أو مصر القسطاط . وكان الفضاء الذي يمتد بين النيل وجبل القطم — حيث تقوم الآن القلعة على مكان بارز من الجبل — فضاء خاليا في ذلك الوقت . فلم يكن هناك « غير فضاء ومزارع » ، كما لم يكن هناك من المباني سوى بعض الكنائس وحصن بابليون الروماني ، أو باب اليون الذي يسميه العرب حق اليوم « قصر الشمع » ، « وكان هذا القصر — كما يقول المقرئ — « يوقد عليه الشمع في رأس كل شهر » ، وبذلك يستخدم كتقويم شهري . غير أنه من المحتمل — كما يرى الدكتور بشار — أن يكون هذا الاسم تحريف اسم آخر هو قصر مصر ، وأن قصة الشمعة قد اخترعت لتفسير ذلك الرأي (١) .

(١) لعل مما يؤيد رأي الدكتور بطرما ذكره بوكوك من أن قصر الشمعة كان يعرف في وقت ذلك باسم قصر كيمان على أنه ليس من المؤيد أن قصر الشمعة هذا يمثل الجزء الأساسي في بابليون . فقد كان هناك بناء روماني آخر على إحدى التلال الصخرية ، كان النيل قد اكتسعه يقع جنوب شرقي قصر الشمعة . وهذا البناء — كما ذكر كتاب العرب الذين قتل عنهم المقرئ — هو مدينة مصر أو بابليون التي حاصرها عمرو بن العاص ، والتي كانت تحتوي على حصن يسمى قصر بابليون . ولا يبعد أن تكون أطلال هذا القصر هي التي ورد ذكرها في « المسطبل » عند « التي لا يزال أساسها العظيم باقيا إلى اليوم . انظر ما كتبه « لين » في كتابه « القاهرة منذ خمسين سنة » ص ١٤٦ . وقد شوهت آثار الأسوار بجانب النيل جنوبي مصر العتيقة ، ومن المحتمل أن يكون هناك شواهد أثرية عن مدينة مصر الإسلامية القديمة التي لازالت معالمها =

وأما لماذا لم يحتل عمرو بن العاص مدينة مصر القديمة ، فهذا مما لا نعرف عنه شيئا . فكل ما كان له علاقة بتلك المدينة التي اندثرت نثر من الألفاظ . ففي البلاد الأخرى التي فتحها العرب ، لم يرددوا عن الاستيلاء على الأقدم تاريخاً مثل دمشق والرها . أما في مصر فإنهم آثروا أن يستولوا على أراض جديدة . ربما كانت مصر صغيرة جدا أو من الممكن أن يكون الخليفة قد حرم عليهم أن يستحوذوا على الممتلكات وأن يستقروا في الريف ، مما دفع العرب إلى أن يحتلوا ذلك الفضاء المتد بين بابلين وتلال للقطم . وبما لا شك فيه أن المكان الذي نزل فيه العرب أولا كان أشبه بمسكر وقتي أكثر منه بمدينة بالمعنى الصحيح . فقد احتاجوا مساحة واسعة لكي يفصلوا القبائل المختلفة التي تألف منها الجيش العربي ، والتي كانت برغم الإخاء الذي ينسادي به الإسلام عرضة لإثارة أحقادهم القديمة . وكان الموقع الذي اختاروه واسعا فسيحا لا يكاد يحوقه شيء . وكانت تلك البقعة تعرف بالجرارات الثلاثة (١) — الجراء القرية ، والجرء الوسطى ، والجرء القصوي . من الواضح أن هذه التسمية ترجع إلى اللواء الأحمر الذي أقيم في الوسط .

وقد قسمت القبائل العربية هذه الجرارات الثلاث فيما بينها ، واختطت منازلها فيها ، مبتدئة من حصن بابلين إلى حيث نرى جامع ابن طولون الآن . وفي وسط القسطنطينية اختط عمرو بن العاص داره ، وبني بجواره أول مسجد أقيم في مصر وهو جامع الفتح ، وتاج الجوامع كما أطلق عليه العرب من قبيل المباهاة والفخر . غير أنه لم يلبث أن أطلق عليه اسم الجامع العتيق ، ويسمى الآن جامع عمرو . وكان هذا الجامع أولا عبارة عن غرفة مسطحة مستطيلة جدا طولها نحو ٢٠٠ قدما

---

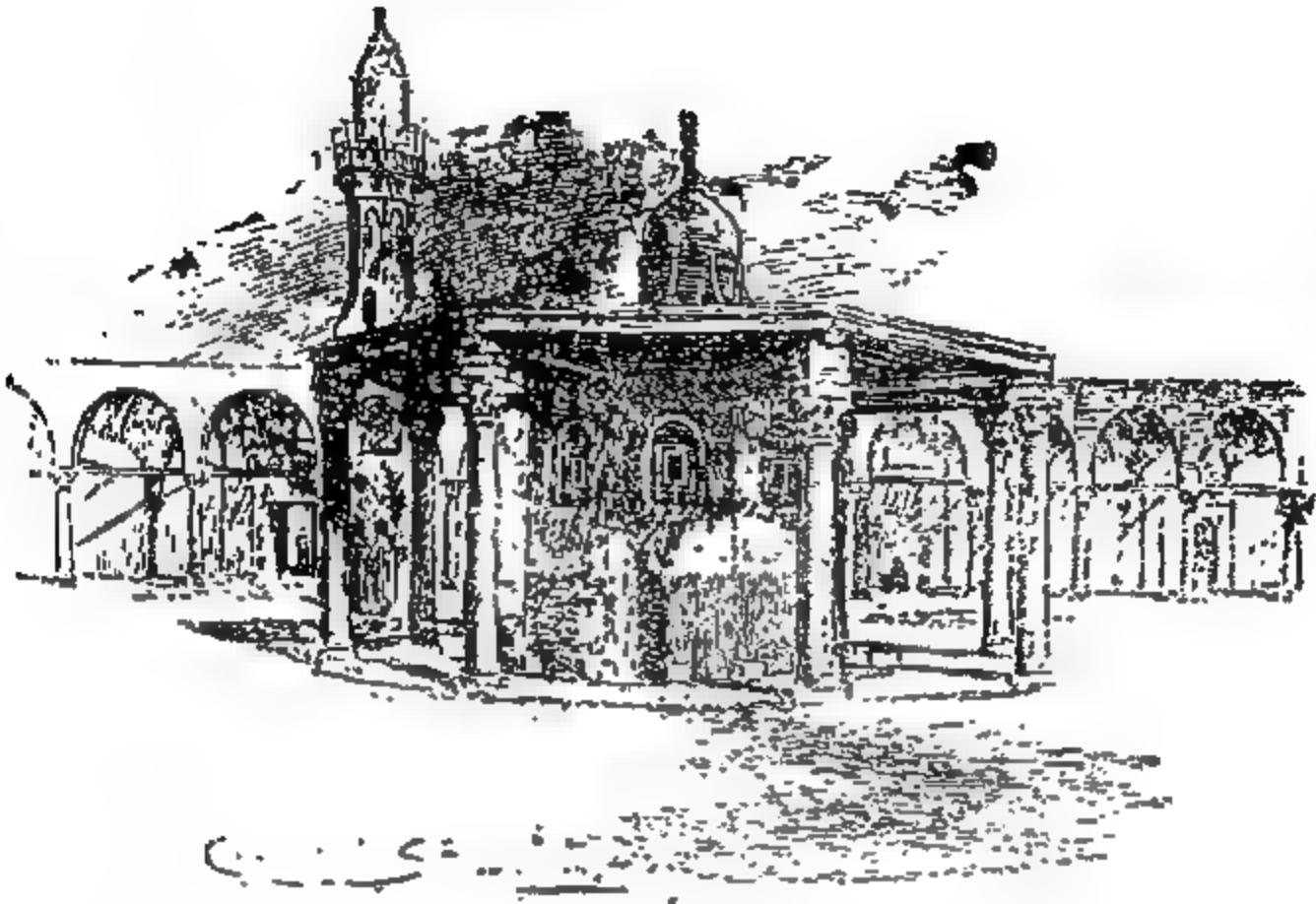
== بقية والتي يحيط بها سوران . وليس من المستحيل — على ما يظهر — أن تكون مصر هذه هي امتداد ممفيس الحاضرة القديمة التي اختفت معالمها وأن اللقطة التي بين أطلال ممفيس الحالية وحصن بابلين تروى طبعا على عشرة أميال . غير أنه يجب ألا يظن عن أذهاننا أن ممفيس كانت في وقت من الأوقات على شكل دائرة يبلغ محيطها سبعة عشر ميلا ، وأنها امتدت حتى بلغت مدينة الجيزة . (١) عرفت الجراء فيما بعد بخط قنطرة السباع (القائمة على النهر) نسبة إلى الأسود المنقوشة عليه ، وهي السبع سفليات ، يشير بذلك إلى السفليات السبع التي كانت ترفع ماء النيل إلى القناطر القائمة على أعمدة لتوصيل ماء العرب — القرزي : كتاب الخطوط في ج ١ ص ٣٨٦ . المترجم .

وعرضها ٥٦ قدماً ، وقد بقي من الأحجار الصلبة الملساء . وكان سقفه منخفضاً جداً أقيم على عدة أعمدة وتخلله بعض الثغوب لسخول الضوء . ولم تكن هناك للمسجد مئذنة أو مقصورة للصلاة . كذلك لم يكن هناك زينة أو أطرز في الخارج ، وحتى للنبر الذي اتخذ عمرو قد أزيل حين كتب إليه الخليفة يوحنا :

« أما بحسبك أن تقوم قائماً والسلمون جالوس عند عقيبك ؟ » . وكان من واجب القاض أن يؤم الناس في الصلاة ويلقي خطبة الجمعة في ذلك المكان المتواضع الذي لم يلبث أن أصبح صغيراً جداً بالنسبة لأهل الفسطاط الذين أخذ يزداد عددهم بما أدى إلى زيادته في سنة ٦٧٣م بأن ضم إليه جزء من دار عمرو . وفي الوقت نفسه أقيمت فيه بضعة أعمدة في الأركان — وهذه هي نواة المآذن — ليؤذن المؤذنون من فوقها . وبعد خمس وعشرين سنة هدم أحد أمراء مصر هذا المسجد عن آخره وأعاد بناءه بعد أن وسعه . وكان من أثر الإصلاحات الكثيرة وتجديد المباني ، أنه لم يبق هناك الآن قدم واحدة من البناء الأصلي . أما ما نراه اليوم فهو في الواقع ذلك المسجد الذي أعاد بناءه عبد الله بن طاهر في سنة ٧٢٧م ، ثم أصلحه مراد بك في سنة ١٧٩٨م قبل أن يشتبك مع الفرنسيين في معركة الأهرام في إمبابة . وقد أصبحت مساحة الجامع اليوم أربعة أمثال مساحته الأصلية ، كما أنه يختلف عنه في كل ناحية من النواحي (١) .

والجامع العتيق — كما يسميه القبرزي — كان محل احترام المسلمين قديماً . ففي هذا الجامع كان القاضي يجلس ليحكم بين الناس ، وكان يجتمع في مسعنه كثير من العلماء ، كما كان أيضاً للمكان الذي يجتمع فيه السنيون ، في الوقت الذي انقسم فيه المسلمون على أنفسهم . ولما احترقت مدينة الفسطاط في سنة ١١٦٨م ، نجا هذا الجامع برغم الأضرار الكثيرة التي لحقت به ، فجدده صلاح الدين الأيوبي (سنة ٥٦٨هـ) وأعاد صدر الجامع والمحراب الكبير ورسمه . غير أن الناس لم يلبثوا أن غيروا نظرهم إلى هذا الجامع حين وجدوا أنه قد أصبح تاباً لبهية أحرقت فأصبحت أطلالا دارسة . كما انقضت الاجتماعات التي كانت تعقد فيه من قبل . وهكذا حلت بجامع عمرو أيام السوء . وقد وجد ابن سعيد الرحالة المغربي الذي عاش في القرن

(١) انظر المقالة الرائدة التي كتبها مستر ك. كوربيت عن « تاريخ جامع عمرو في مصر القديمة » في المجلة الآسيوية الملكية بإنجلترا سنة ١٨٣١ .



صحن جامع عمرو

الثالث عشر هذا البناء العظيم وقد غطاه العنكبوت ، وجدرانه التي علاها عبت العامة والتمطلين ، وقد ثروا على أرضه ما خلفوه من فضلات الطعام . في ذلك الوقت كان هناك عدد قليل من الأتقياء الحقيقيين ، على حين كان فيه عدد أكبر من العاشين . قال الجبرتي المؤرخ الذي عاش في القرن الثالث عشر : إنه كان هناك كثير من الموسيقيين وقواد القردة والشعوزين والحواة والراقصات ممن كانوا يترددون على صحن الجامع . وقد تداعت أبنية الجامع وآلت للسقوط ، حتى إن هؤلاء الناس قد هجروه . ولولا أن مراد بك كان قلقا على حياته لأسباب معقولة جداً وأرضى ضميره بإتفاق بعض الأموال التي حصل عليها بطرق غير مشروعة على أعمال البر نحو إعادة بناء هذا الجامع ، لزال « تاج الجوامع » نهائياً . وفي مستهل القرن التاسع عشر ، كان هذا الجامع لا يزال الجامع الذي يفضل أهالي القاهرة لإقامة صلاة الجمعة الأخيرة أو اليئمة من شهر رمضان . وكانوا يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى يتقبل صلاة من يصلي في هذا الجامع العتيق . فإذا تأخر فيضان النيل ، وخشى الناس هبوط مائه ، وما يقبه من القحط وندرة الأقوات ، صدرت الأوامر إلى كبار المشايخ والأئمة

وأهل الورع والعلم من المسلمين بأن ينهبوا إلى جامع عمرو ويصلوا صلاة الاستسقاء من أجل زيادة ماء النيل . كذلك كان يقصد قساوسة الكنائس المسيحية المختلفة اجتماعات لهذا الغرض ، ويشاركهم اليهود في ذلك . وهكذا كان جامع عمرو المكان الذى يقده المسلمون والمسيحيون واليهود على السواء التماساً للمطر . ويقومون فيه الصلوات العامة في الوقت الذى حل القحط بالبلاد منذ عشرين سنة ( ١٨٢٥ - ١٨٢٨ م ) ، وكان من أثر ذلك أن نزل المطر في اليوم التالى (١) .

إن الناظر لأقدم هذه المساجد من الخارج ليتأثر كثيراً : ففى وسط أكوام القمامة التى تميز موقع مدينة القسطنطينية ، نشاهد جدرانها المرتفعة الرمادية اللون التى لا أثر للنوافذ ولا للزينة فيها ، كذلك تميز بوضوح مثذنتيه اللتين هما غاية فى البساطة . أما من الداخل فإنه يختلف كثيراً برغم ما لحقه من التهدم والإهمال . هنا نجد قناء مساحته أربعون ألف قدم مربع تقريبا ، تحيط به البواكى والأعمدة الكثيرة التى تكون دعائم سقف الطرف الشرقى ، وهو المكان المخصص للصلاة . وهناك نشاهد منظراً غاية فى الروعة والبهاء . ويزدحم المسجد بالتعبدىين الذين يؤدون صلاتهم فى انحناء منظم ، فيضفون على المكان جواً من الهيبة والجلال . أما الحنايا فيرجع تاريخها إلى عصور مختلفة ، وأما الأعمدة التى انتزعت من الكنائس فقد وضعت فى غير مواضعها فى أغلب الأحيان . والأروقة غير متوازية مع الجدران كالصوامع التى تحيط بالكنيسة ، ولكنها مقامة على شكل زوايا قائمة فى صحن الجامع . والقطع الخشبية الطويلة تمتد من عمود إلى عمود لتحمل المصاييح التى كان يضاء منها ثمانية عشر ألف مصباح كل ليلة فى الأزمان السالفة . ونستطيع أن نتصور ذلك الضوء الساطع الذى كان يترامى أمام المسجد . غير أن ليالى الوقود قد ذهبت منذ أمد بعيد ، وأصبح جامع الفاتح حطاما باليا ، يوحى إلى الخيال بما كان يتردد عليه من طوائف العلماء والصالحين والمتصبيين ورجال الدين والفقهاء والصوفية الذين كانوا يحنون هاماتهم أمام قبلته التى هجرها الناس فيما بعد (٢) .

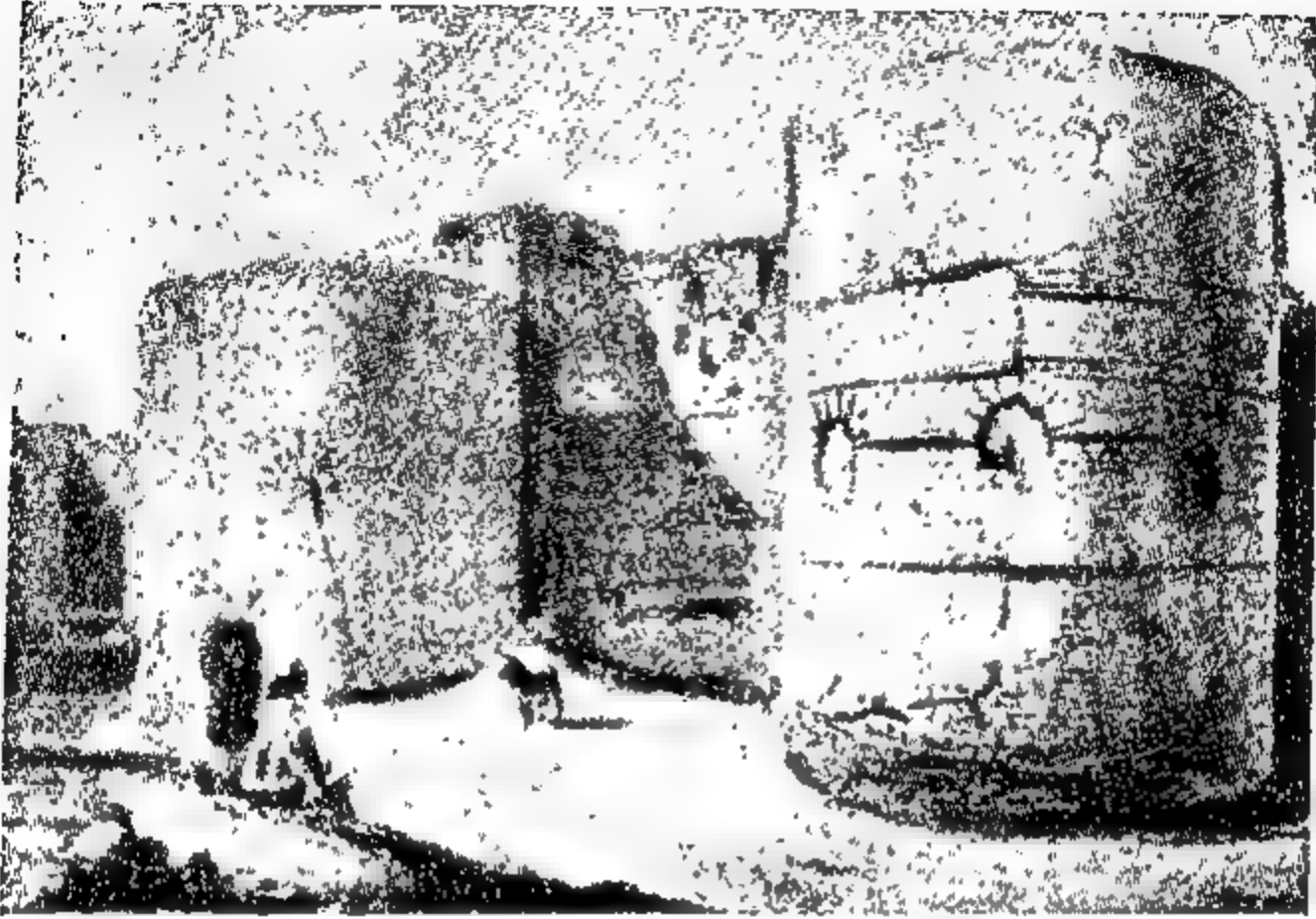
---

(١) أنظر كتاب لين : (القاهرة منذ خمسين سنة من ١٤٢ - ١٤٣) .

(٢) حذفنا من كلام المؤلف بقدا الكلام عبارة لا تمت إلى التاريخ الصحيح بصلة ، وإنما هى من قبل الخرافات التى تجري على ألسنة العوام . للترجم .

إن ذلك الجامع الأصلي الذى بناه الفاتح العربى قد امحى منذ أمد بعيد . غير أن ذلك الجامع الذى يمتلئ اليوم يقوم على نفس موقعه المبارك . وفى الوقت نفسه لا نستطيع أن نذكر عن مدينة القسطنطينية التى شيدها عمرو مثلما ذكرنا عن جامع عمرو . فكل ما تبقى من تلك المدينة العظيمة — التى كانت حاضرة مصر ومرفأها النهري خمسة قرون — قد اختفى تحت تلك الأكاداس المتراكمة على غير انتظام من التلال الرملية التى تغطى ما خلفته تلك المدينة التى يرجع تاريخها إلى العصور الوسطى . هناك ، حينما تهب ريح عاصفه تثير الرمال ، تستطيع في أغلب الأحيان أن تلتقط بطريق الصدفة بعض قطع من الزجاج أو الفخار أو المصاييح الرومانية ، والنقود والصور والنقوش التى تدون أسماء ولاية القرن الثامن الميلادى ، وما إلى ذلك من بقايا الأشياء التى كانت فى مدينة القسطنطينية . أما المنازل وتصور الأمراء والحمامات والمدارس التى كانت فى القسطنطينية فلا أثر لها البتة . ومن المؤكد أن مخازن غلال يوسف يرجع تاريخها على الأقل إلى عهد يوسف الأخير وهو صلاح الدين ؛ فقد رأى بنيامين التيوديلي هذه المخازن فى سنة ١١٧٠ م . ولكن مصر العتيقة أو القاهرة القديمة قد بنيت على أرض كان يغطيها النيل فى الوقت الذى كانت فيه القسطنطينية حاضرة مصر . أماما تبقى خراب بلقع لا أثر للحياة فيه . وسوف نلقى نظرات سريعة على تاريخ القاهرة القديمة فى الأبواب التالية ، ونقرأ وصفها فيما كتبه الرحالة من الفرس والمغاربة أى من الغرب والشرق الإسلاميين . غير أن مثل هذا الوصف لا يمكننا من أن ندرك إدراكا كاملا المدينة العربية التى ذهبت معالمها الآن .

ومهما يكن من شئ فإنه قد تبقى هناك حتى الآن أثر يرجع تاريخه إلى الفتح العربى ، غير أنه ليس عربيا على أى حال . ذلك هو حصن بابليون الذى يقوم الآن حيث كان يشرف فيما مضى على خيام المسلمين ، وشرف على الحاضرة العربية وهى تنمو تحت أسواره . ولكن فهم سبب تسمية حصن بابليون بهذا الاسم — أو كما يسميه البعض باب لى أون أو باب أون ، يجب علينا أن نذهب إلى المطرية على بعد بضعة أميال شمالى القاهرة ، حيث تقوم مسلة منعزلة هى كل ما تبقى من مدينة أون On أو مدينة هليوبوليس ( مدينة الشمس ) . وهناك فى منبسط المطرية حارب الأتراك أمام هذه المسلة المنعزلة فى الحركة الأخيرة التى انتهت باستيلائهم على القاهرة



### باب قصر الشمع

من أيدي الممالك في سنة ١٥١٧ م وهنا أيضاً انتصر كليبر على الأراك في سنة ١٨٠٠ ،  
هنالك يقوم جد أون On الذي كان بوتيفراء — حمو يوسف — يعمل فيه كاهناً .  
هنالك أيضاً كان ييا شى — ملك الكهنة الأثيوبيين في القرن الثامن قبل الميلاد —  
يستحم في عين شمس ، ويقدم الثيران البيض والابن والعطور والبخور والأخشاب  
العطرة المختلفة ، وحيث رأى عند دخوله المعبد أباه رع Ra ( إله الشمس ) في المهراب ،  
وكانت هليوبوليس جامعة أقدم حضارات العالم ، وقد سبقت جميع المدارس في أوروبا ،  
ويغلب على الظن أن موسى كان يتلقى حكمة للصريين على أيدي كهنة رع . وهنالك  
عمل هيرودوت على تقص هذه التعاليم نفسها ، وأحرز شيئاً من النجاح في هذه  
السير . وهنالك أيضاً أتى أفلاطون لتلقى تعاليمه ، كما ذهب العالم الرياضي يودوكس  
ليدرس الفلك ، كما شهد استرابون Strabo المنازل التي عاش فيها مشاهير اليونان .  
وفي ذلك المركز العالمي ومصدر النفوذ الديني ، لم يبق من آثاره سوى تلك المسلة .

فلقد تكسرت « صور بيت شمس » وضاع أثرها ، واحترقت « منازل آلهة المصريين » (١) .

وبجانب تلك للسلة المنعزلة الآفة الذكر نشاهد شجرة حمير عتيقة جفت بفعل الزمن ، وشوحتها الأسماء التي لاعد لها ، هذه الشجرة هي التي استراحت تحتها العائلة المقدسة (٢) حينما هربت إلى مصر ، ومن هنا سميت شجرة المنراء . وعلى مقربة من هذه الشجرة نبع ماء عذب ، وهو بلا شك منظر غريب في تلك الضاحية المقفرة . ويقال إن ماءه قد أصبح عذبا لأن الطفل (٣) قد استحم فيه . ومن هذه البقع حيث تساقطت قطرات الماء من قماطه الذي غسل في ذلك النبع المقدس ، نمت أشجار البلسم التي لم تم - كما يعتقد البعض - في أي مكان آخر . وليس هنالك من شاهد يدل على صحة هذه الأروام التي هي أشبه ما تكون بالخرافات . أما شجرة الجيز فقد خلفت بطبيعة الحال تلك الشجرة المزعومة ، وهي لم تزرع إلا بعد سنة ١٦٧٢ م . غير أن ما يقال من أن أونياس اليهودي بنى معبداً ليعبد فيه مواطنوه بالقرب من ذلك للسكان ، وأنه استحضر بعض المزارعين من اليهود ليتعهدوا نمو شجر البلسم ، يكسب هذه القصة شيئاً من الصحة .

لقد اندثرت هليوبوليس ، ولكن حصنها للنبع « باب أون » الذي يهرسها مازال يتحدى الزمن ، والواقع أن اسم بابليون مصر الذي يستعمل للدلالة على الحاضرة ( القسطنطية ) وعلى الحصن ، يظهر كثيراً في تاريخ المصور الوسطى وأفانيسها . مثال ذلك تلك القصة التي تصور لنا كيف انتصر ريتشارد قلب الأسد على صلاح الدين الأيوبي .

وسواء أكان هناك أساس لما رواه كل من استرابون وديودورس ، من أن ذلك الحصن بناه أول الأمر بعض المنفيين من بابليون العظيمة في بلاد كلدانيا ، فإن الحصن الحالي يرجع تاريخه إلى القرن الثالث - ولا يبعد أنه يرجع إلى القرن الثاني من الميلاد . والواقع أن منظر الحصن من الخارج يضفي على النفس كثيراً من العظمة

(١) أرميا : إصحاح ٤٣ آية ١٣ ( العهد القديم ) . للترجم .

(٢) عائلة السيد المسيح .

(٣) السيد المسيح حينما كان طفلاً في ذلك الوقت . للترجم .



برغم تصدع جدرانها ، وتغطية الرمال قواعدها . غير أن منظره العام لم يطرأ عليه تغير كبير ، إذ نستطيع أن نميز بوضوح طياته الخمس وبرجيه المستديرين . أما الجدران فقد بنيت على الطريقة الرومانية التي كانت شائعة في ذلك الوقت : خمس مدايك من الأحجار وثلاث من الطوب على التبادل . أما الأساس فلا يعد أن يكون قد طلى باللونين الأحمر والأصفر كما كان الحال في المساجد والدور الإسلامية . وحق مظهر هذا البناء الضخم يجعل الإنسان يدرك في سهولة ما كان لاستيلاء العرب عليه من أهمية .

وإذا دخلنا الحصن ، نستطيع أن نفلس لأدل وهلة الطابع الخاص الذي يطبع به هذا الحصن . ذلك أننا نمر خلال ممرات معتمة أضيق وأظلم وأقنر من الأزقة التي تقع وراء مدينة القاهرة . هنالك يسود السكون الرهيب الذي ينجم على المكان بأكله . وللنازل المرتفعة التي تحجب الشارع ليس فيها الكثير من زخارف المشريات التي تزين شوارع القاهرة . ولولا بعض الأصوات التي تصدر بين الفينة والفينة من داخل تلك المنازل ، وبعض الأبواب التي تترك نصف مغلقة ، لما خطر لنا على بال أن كان هنالك أى لون من ألوان الحياة في ذلك الحصن . وبما يميز تلك المنازل كذلك صغر حجم نوافذها ذات القضبان الحديدية المتشابكة . وليس هناك حقاً ما يدل على أن تلك الجدران للنبسطة تحوى بين طياتها ست كنائس فخمة لكل منها هيكلها الخاص الحافل بالقوش والصور والملابس الكهنوتية وغيرها من الأشياء التي ليس لها مثيل . والواقع أن الكنيسة القبطية تشبه الحرم عند المسلمين فهي من الخارج غيرها من الداخل . فكما أن منظر معظم المنازل في القاهرة لا يدل على أى شيء مما تحويه من فناء واسع في الداخل ، تحيط به غرف فسيحة نقشت على جدرانها أبدع الرسوم وأروعها ، وأسقف ليست بأقل بهجة ولا روعة . هذا فضلاً عما تحويه من الطنافس الفاخرة التي تتلأأ من وراء ذلك الضوء القليل الذي ينعكس من وراء النوافذ ذات الزجاج للون . كذلك الحال في الكنائس القبطية حيث لا يمكنك أن تتكهن وأنت في الخارج بما تحويه هذه الكنائس في الداخل . فإن الأسوار العالية تحنى كل ما تحويه هذه الباني . والواقع أن القبط ينجلون في العادة من الزائرين . وليس أدل على هذا من تلك الجدران

المرتفعة المحيطة بالكنايس من الخارج ، والتي لا تحوى أى قروش ليتخلصوا بها من تلك الملاحظات التي كانت تثير فيها مضي الشراحة والتعصب الدينى .

وبعد أن نمر من الباب للتين ونعبر أحد البهاليز أو نرتقى بعض الدرجات ، نجد أنفسنا أمام كنيسة ضخمة ، لها محراب قد تحمدها عليه أية كنيسة فى إنجلترا . وفى ذلك الضوء الضئيل نشاهد صفوفًا من تماثيل راتعة للقديسين تطل عليك من فوق المحراب والستائر ، كما نجد بعض العبارات منقوشة بالذهب باللغتين القبطية والعربية مشيدة بتمجيد الله سبحانه وتعالى ، على حين نجد فى أعلى المكان حنايا فى إحدى حافى الكنيسة ، يمين لما أنه لا يبعد أن تكون ثمة كنوز أخرى فنية سوف يكشف عنها فى المستقبل .

ولعل أهم ما تصطبغ به الكنيسة القبطية بوجه عام هو أنها من طراز بناء الكنيسة البازيليكية الشهيرة فى روما ، غير أن هناك بطبيعة الحال بعض أوجه الخلاف التى جعلت الكنيسة القبطية تخرج فى بعض الأحيان عن هذا الطراز ، والقبة القبطية تتميز بالطابع البيزنطى الذى يكاد يكون شائع الاستعمال فى العالم . وفى بعض الأحيان قد نجد كنيسة مستقوفة بعدد من القباب يصل إلى اثنتى عشرة قبة . وتكون الكنيسة من صحن وأجنحة جانبية وبعض الحنايا ( التى تشبه تمامًا أقواس الكنيسة الأيرلندية القديمة والتي لم تكن لتوجد فى غيرها ) . ومن النادر أن يكون لهذه الكنيسة أجنحة أو أنها تقرب من شكل الصليب . . وفى مؤخرة الكنيسة مكان خاص يجلس فيه السيدات اللاتى خلف الرجل كما يرى أهل الرأى من القبط ، ويحولون بذلك دون حدوث أى اضطراب فى أثناء العبادة والصلوات فى حالة جلوس الجنسين مع بعضهما مع بعض كما يحدث فى بعض الكنائس الغربية ؛ ولذلك يفصل قسم النساء عن قسم الرجال حاجز ذو عوارض خشبية يكون عادة أعرض بكثير وأحسن زخرفة وتنسيقاً ، كما يفصل قسم الرجال عن للرتلين فاصل آخر .

والكنيسة تحوى ثلاثة هياكل مختلفة ومنفصلة ، كل منها تحلوه قبة ( ليست على شكل نصف دائرة ) خاصة به . وبداخل كل هيكل أنثر الستائر محلاة بصلبان من العاج والأبنوس والأشكال الهندسية المنقوشة على الطراز العربى على

الحشب في براعة ودقة ، تلونها سور وعبارات منقوشة بالذهب باللغتين القبطية والعربية (١) .

وفي أثناء إقامة الصلاة تفتح الأبواب الداخلية والستارة اللوثة بالفضة ، فيبدو المذبح للمجتمعين للتعبدين في صورة تذكريا بالاحتفال الذي يثير العواطف كما يقام في كاتدرائية القديس إسحاق بمدينة بطرسبرج . فالأبواب للنقوشة والستائر المزركشة والمصاييح الدلالة هنا وهناك وللشكاوات التي تشبه بعض النعام — كل هذا يعطينا صورة للمذبح ، بنطائه الحريري أكثر من كونه مصكبا من الطوب أو الجبس ، وتلك المشكاة التي لا تقدر بشمن قد وضعت في الجهة الشرقية ، وكان لها دلالة غامضة في غابر الأيام ، أما الآن فإنها تستخدم لوضع الصليب فيها وحوله أوراق الورد عند الاحتفال بيوم الجمعة الحزينة (٢) تمهيدا للاحتفال بعيد القيامة ، والمذبح في الكنائس القبطية بمنزل عن جدران الهيكل التي تكون في الغالب مغطاة بألواح رقيقة من الرخام الملون كما نرى في المساجد . وقد تكون الجدران في بعض الأحيان مغطاة بالزجاج الملون على الطراز المصري . أما السقف فقد رسمت عليه صور بارزة على الحشب ، وأخرى بالألوان المائية تمثل الآتي عشر رسولا وفي وسطهم السيد المسيح وهو يبارك الناس . ومن فوق المذبح رواق رسمت عليه صور الملائكة رسما رائعا . ويفصل الهيكل الرئيسي والمذبح التابع له عن الهيكلين الجانبيين ستار مصنوعة من الحشب الرقيق المشبك .

---

(١) انظر كتاب الدكتور بطر : الكنائس القبطية القديمة في مصر ج ١ ص ٦٨ - ٦٩ . وقد أمدنا لأول مرة بحث منى على دراسة علمية دقيقة عن هذه الآثار . والدكتور بطر وأبحاثه ليست بحاجة إلى تنأى لزيادة قيمتها ، ولكن لا أستطيع أن أقوت هذه الفرصة دون أن أقول كيف يجب أن يدين كل من يهتم بالفن المصري لأبحاثه الرائعة التي تملأ على مقدار ما ألقاه من جهد في استقصاء الآثار القبطية . وقد كتبه أعظم ما نملكه من المصادر عن هذا الموضوع الذي يأخذ بمشاعر القلوب ، والذي يرجع الفضل إليه فيما أفدته من معلومات .

(٢) يوم الجمعة الحزينة هو اليوم الذي يحزن فيه الأقباط على صلب اليهود السيد المسيح ، وهو اليوم الذي يسبق وقتة عيد القيامة — المترجم .

ومن الأشياء الثمينة في الهيكل ، ذلك الصندوق الذى يحمل كأس التناول المصنوع من الفضة الخالصة ، وإن تلك المروحة التى تستخدم لطرد الموام أثناء العشاء الربانى لا تقل مطلقا عما تقدم في إثارة اهتمام الناظر ، وقد نقشت من الفضة الخالصة بحيث يبرز النقش على السطح المقابل . وهناك مراوح مماثلة في كتاب كِلا Kela الإيرلندى . وليس هناك إطلاقا صليب يظهر عليه المسيح مصلوبا . وقد نجد في بعض الهياكل بقايا عظام أحد القديسين ، ولكن الكنيسة القبطية لا تحرم مثل هذه البقايا ، على الرغم من أن معظم الكنائس تحوى الكثير منها ، وهناك كثير من المؤمنين يعلقون أهمية عظيمة على ما في هذه البقايا من خواص تساعد على الشفاء ، وقد يكون أبدع ما نراه في الخزاف المعدنية في الكنيسة القبطية ذلك الصندوق الفضى الذى بداخله نسخة من الإنجيل يظن أنها ختمت بالشمع ، مع أنه ليس بداخله غير بعض أوراق الشجر ، وهو في الغالب مثل جميل للنقوش المعدنية التى تمثل الصيد فيبرز النقش على السطح المقابل . وهذا الصندوق يؤتى به من على المذبح حيث يتسلمه أحد النمامسة ويضعه على المقرآن ثم يقرأ من إنجيل آخر هناك . والمقرآن نفسه شيء بديع أعد ليكون أداة من أدوات الزينة ، وذلك المقرآن الذى كان في الكنيسة المعلقة — والذى نراه الآن في كنيسة الأقباط الكبرى في القاهرة — مغلى بنقوش بديعة تشبه تلك النقوش التى نراها على أبواب المساجد ومنابرها .

ومن بين الكنائس الست التى كان يشتمل عليها حصن بابلون ، نرى ثلاثا في غاية الروعة والبهاء . ذلك أنه على الرغم من أن كنيسة سان جورج الإغريقية التى تقوم على قمة البرج المستدير محلاة بالقرميد السورى والمصاييح المصنوعة من الفضة . فإن البرج الرومانى نفسه أكثر إمتاعا من الكنيسة المقامة عليه ، وذلك للبرج الذى في الوسط ، والدرجلىات الكثيرة ، والحجرات الثمينة الثلاثة . ومن هذه الكنائس القبطية الأساسية الثلاث ، نجد كنيسة القديس سرجيوس أو « أبى سرجه » ، وهى التى يتردد عليها الناس أكثر من غيرها ، لأنه قد أثر أن العائلة المقدسة استراحت في ناووسها حينما أتت إلى مصر . ومن المؤكد أن هذا الناووس أقدم من الكنيسة التى تعلوه بقرون كثيرة ، إذ يرجع تاريخها إلى القرن العاشر الميلادى . والكنيسة نفسها تتميز بستارة بديعة الصنع ، وعلى مقربة منها مثل واضح للنقوش القبطية

القديعة التي تمثل ولادة المسيح والقديسين المحاربين وقد بدت صورهم بارزة .  
وثمة مثل آخر لهذه الصورة المحفورة نراه في كنيسة القديسة بربارة .  
وإلى جانب كنيسة أبي سرجة وكنيسة القديسة بربارة ، لا تزال هناك كنيسة  
قبطية ثالثة جديرة بالذكر لا تقل عن هاتين الكنيستين روعة وبهاء . وهذه  
الكنيسة معلقة بين برجين رومانيين مرتفعين ، فوق باب من الطراز القديم منقوش  
عليه نسر . وقد سميت هذه الكنيسة — كما يدل على ذلك موقعها — الكنيسة  
المعلقة . وهذه الكنيسة جديرة بالملاحظة وتثير الانتباه لعدة أسباب ، لأنها أقدم  
كنائس بابليون على الإطلاق ، ولأنها خالية تماماً من القباب . ولهذا الكنيسة  
مزايا أخرى . فليس لها هيكل كغيرها من الكنائس ، بل هناك منصة مرتفعة أمام  
السقف المنخفض في الجهة الشرقية . وهذه المنصة تؤدي العرض الذي يؤدي الهيكل ،  
على حين نرى السقف مضاعفاً في الجانب الشمالي ، والحاجز المنقوش في الجانب  
الشمالي مطعم بالخارف المصنوعة من العاج الرقيق مما يزيد في بهجة المكان وجماله  
حينما كانت تضاء المصاييح المعلقة خلفه . أما المنبر فقد نقش نقشاً بديعاً رائعاً ، وهو  
مقام على خمسة عشر عموداً دقيقاً صنعت على الطراز الإسلامي ، مقسمة إلى سبعة  
أزواج أقيم أحدها في المقدمة . ولعل من أغرب ما يحويه الكنيسة المعلقة ، حديقتها  
المعلقة حيث ساعدت الحجرة على غرس النخيل في الفضاء على تأييد تلك الرواية القائلة  
بأن السيدة العذراء حينما آمنت إلى مصر أفطرت بعد صيامها من تمر ذلك النخيل .  
وليس هذا مجال الكلام عن طقوس الكنيسة القبطية وعقائدها . إن صيام  
الأقباط الكبير الذي يستغرق خمسة وخمسين يوماً ، والذي يتمتع فيه الشخص  
امتناعاً تاماً عن الطعام منذ شروق الشمس حتى غروبها في كل من هذه الأيام  
— هذا الصيام لا شك أنه يوحى إلينا بصوم رمضان الأقل شدة عند المسلمين —  
وسر الزواج المقدس (١) يحمل بين طياته بعض العناصر الغريبة . غير أنه بما لا شك

---

(١) للكنيسة القبطية سبعة أسرار ، وهي أعمال مقدسة ومنح إلهية مؤسسة من الله لتكون  
واسطة لنيل المؤمنين فيض نعمته . وهذه الأسرار السبعة هي : ١ - سر المعمودية ٢ - سر  
الميراث ٣ - سر القربان ٤ - سر الاعتراف ٥ - سر مسحة المرضى ٦ - سر الزواج  
٨ - سر الكهنوت - المترجم .

فيه أن معظم الاحتفالات التي تتم في الكنيسة القبطية لها وقارها وهيبتها . فإمن أحد يستطيع أن يشهد القداس في كنيسة قبطية دون أن يشير ذلك انتباهه . وكذلك لا يستطيع أحد ألا يتحرك لسماع أصوات الثماسة وهم يترنمون في الكنيسة القبطية في صوت واحد مرتفع . ومهما يكن من شيء ، فلا ينبغي أن نشكر ما تدين به الكنيسة القبطية من إيمان قويم .

## الباب الثالث

### القطائع

ولاية الخلفاء - حلوان - معاملة المسيحيين - الرهينة - الأقباط المحافظون -  
« المسكر » المدينة العباسية - ولاية العباسيين : ابن ممدود - عبدالله بن طاهر  
- الخليفة الأمون في مصر - اضطهاد المسلمين والقبض - ولاية الأتراك - تشجيعهم  
الفن - أحمد بن طولون - « القطائع » المدينة الجديدة - السقاية - جامع  
ابن طولون - مصادر العمارة العربية - حروب أحمد بن طولون - قصور عمارية  
- الخلفاء يستردون مصر - قلعة الكباش :

أصبحت مصر بعد الفتح العربي سنة ٦٤٠ م ولاية تابعة للخلافة الإسلامية ،  
ومن ثم أصبح يحكمها - كما كانت سائر الولايات الأخرى - ولاية من قبل الخليفة .  
وقد احتفظ الخلفاء الأربعة بالمدينة المنورة التي اتخذها الرسول مقراً للحكومة العربية  
حاضرة للخلافة . غير أنه بعد مقتل علي بن أبي طالب ، رابع الخلفاء الراشدين ،  
حولت الدولة الأموية مقر الحكم إلى دمشق التي جاء منها معظم الولاة الثلاثين الذين  
حكموا الديار المصرية في أثناء التسعين سنة التي تولت فيها الخلافة الأموية الحكم .  
وكان بعض هؤلاء الولاة أولاد أو أخوات الخلفاء الذين كانوا يتولون الحكم في ذلك  
الوقت . كما أن معظمهم كانوا من القرينين إلى أولئك الخلفاء . ولم تكن لهم خبرة  
في أساليب الحكم وإدارة شؤون البلاد ، كما كانوا يجهلون كل شيء سوى دينهم ولقنهم .  
وكانت غاية الخليفة في دمشق أن يحصل على أكبر قدر ممكن من خراج الولايات  
التابعة له . وكانت مصر بوجه خاص ينظر إليها في ذلك الوقت على أنها بقرة حلب .  
وكان عمرو بن العاص القابع العربي أول من حكم مصر . ولما استقر في حاضرتة  
الجديدة « القسطنطية » أرسل نوابه في أنحاء البلاد فتحكموا من جمع ما يقرب من  
سنة ملايين جنيه من شعب يتراوح عدده بين ستة ملايين وثمانية ملايين نسمة . ولما توفي

هذا المحارب القديم في القعنين من عمره ودفن في تلال القطم ، قيل إنه ترك سبعين كيساً من الدينار (١)، أو ما يقرب من عشرة أطنان من الذهب . غير أن أولاده الذين اشتهروا بالاستقامة اعتذروا عن أخذ نصيبهم من الميراث .

ومهما يكن من شيء ، فإن من المؤكد أن الولاة كانوا يولون وجوههم شطر الضرائب بنوع خاص ، وأنهم لم يهتموا بشئون البلاد بقدر ما كانوا يهتمون بتحصيل الجزية وضريبة الأراضي . وكانوا يجمعون هذه الضرائب وينظرون إليها كما لو كانت ملكاً يتصرفون فيه كما شاءوا . وليس من شك في أن الوالى الذى كان متوسط مدة ولايته ثلاث سنين ونصف سنة ، والذى كانت معيشته بهد ذلك تعتمد في العادة على ما ادخره في خلال فترة حكمه — إذا عرفنا ذلك أدركنا أنه إنما وقع تحت إغراء عديد يدفعه إلى الاستفادة من هذه القمص القصيرة بقدر ما يستطيع . وكان من بين هؤلاء الولاة الصالح وغير الصالح . غير أن قصر عهد الولاة واعتمادهم اعتماداً مطلقاً على الخليفة في دمشق قد حدث من نفوذهم ونشاطهم ؛ ومن ثم قنعوا بالعمل على حفظ النظام وإرسال الجزية إلى خليفهم . بيد أن منصب الوالى لم يكن سهلاً ميسوراً ؛ فقد كان هناك آلاف من جند العرب في القسطنطينية والإسكندرية وسائر المدن المصرية . غير أن الولاة للتعاقيين كانوا يملكون معهم جنوداً يملكون بهذه البلاد . أما بقية السكان فكانوا من المسيحيين الذين عقدوا العزم على أن يظلوا على دينهم . والواقع أن تغيير المسيحيين لدينهم على نطاق واسع كان بمثابة نكبة تحمل على الحضنة ، لأن ذلك معناه ضياع جزية مقدارها جنيه عن كل شخص من أهل النعمة . غير أن تلك الأقلية كان لها خطرها ، بدليل أن أحد الولاة الذى ولى مصر بعد الفتح بنحو تسعين سنة ، قد يئس من إدماج عدد يذكر من المواطنين المصريين إلى صفوف المسلمين ، فلجأ إلى استدعاء خمسة آلاف من العرب وإسكانهم في الوجه البحرى . والواقع أن مصر لم تصبح إسلامية إلا بخطوات وثيدة ، وبعد اندماجهم في أهالى البلاد الأصليين بالمصاهرة والزيادة للطردة في العرب التناحيز إلى مصر عن طريق الهجرة . وقد اقتصر زول العرب على المدن الكبيرة دون سواها ردحاً طويلاً من الزمن .

---

(١) الدينار : عملة ذهبية يادل وزنها نصف جنيه من الذهب .



ولا بد أن تكون القسطنطينية قد اجتذبت عددا كبيرا جدا من القبط من المدن المصرية المجاورة التي بدأت تدهر . ولم يكن هؤلاء القبط من النساء اللاتي اتخذهن الفاتحون العرب زوجات لهم وحسب ، بل ومن الرجال الذين عملوا في خدمة الحكومة . وكان طبعيا أن تكون جميع الأعمال الحكومية في أيدي المحكومين من الشعب . ولم يكن عرب الصحراء يعرفوا شيئا عن نظام الحكم أكثر مما كانوا يعرفونه عن النظام القبلي الذي درجوا عليه — ذلك النظام الذي يقضي بأن تكون السن والفضائل أساس اختيار شيخ القبيلة ، ومن ثم تراهم يطبقون أينما حلوا تلك النظم التي وجدوها في البلاد التي خضعت لسلطانهم . وكانت الوظائف الرومية تنقل إلى ما يقابلها من الوظائف العربية . وكان القبط — الذين ولدوا ليصبحوا كتابا وصيارفه — يتولون إدارة الدواوين جميعا . وقد ظلت الكتب الحكومية والوثائق العامة تدون باللغة القبطية نصف قرن ؛ غير أن للنفعة لا تستلزم التسامح ، ومن ثم لم يسلم السيعيون دائما من الاضطهاد على الرغم من الخدمات التي كانوا يؤدونها للحكومة . ومهما يكن من أمر هذا الاضطهاد ، فإنهم لم يعاملوا معاملة أسوأ من تلك المعاملة التي يتوهمها البعض أحيانا . ولقد ساعد القبط عمرو بن العاص حينما كان يغزو مصر ، ولذلك نجد عمرا يذكر لهم هذا الجليل فيمنع العقوبة امتيازات ويرد بطريقةهم من منفاه إلى كرميه ، كما سمح وال آخر للقبط بأن يبنوا كنيسة لهم في مدينة القسطنطينية بجوار الجسر الذي كان يصل بين الحاضرة وجزيرة الروضة (١) .

كذلك نجد واليا ثالثا هو عبد العزيز ابن الخليفة الأموي مروان بن الحكم ، يشتري أحد الأديرة في طمويه من الرهبان ويدفع لهم أكثر من عشرة آلاف جنيه ثمنا له حين أراد أن يمتلك دارا في الريف . ولقد ذهب هناك للاستشفاء من الجذام من الينابيع الكبريتية في حلوان التي تقع بين القاهرة ومنف . ومن عجب أن ندرك كيف أن هذه المدينة الصحية ( وقد تحولت الآن نحو الصحراء ) كادت تصبح حاضرة مصر . وقد بلغ من إعجاب عبد العزيز بجو حلوان أنه بنى هناك مساجد

---

(١) يقصد مسلمة بن مخلد ( ٥٣ - ٦٢ هـ ) التي أقر القبط على بناء الكنائس مع مناعة

ذلك لشروط الصلح . المترجم .

في سنة ٦٩٥ م ، كما بنى قصر يعرف « بيت الذهب » نسبة إلى قبة الذهبية . كما أنشأ في هذه المدينة حديقة غناء ، وغرس الأشجار ، وأنشأ بها بركة كبيرة وقناطر (١) وبني مقياسا للنيل .

وكان حد النيل الأدنى إلى ذلك الوقت يقاس في مدينة منف . غير أنه في سنة ٧١٦م شيد مقياس جديد للنيل في جزيرة الروضة ، ثم بنى بعد ذلك مقياس آخر في طرف الجزيرة الأعلى في سنة ٨٦٩ م . على أن الولاة المتعاقبين لم يشاركوا عبد العزيز ابن مروان في آرائه الخاصة من حيث مباحج حلوان أو من حيث علاقته بالقبط . ومن ثم نفراً عن ذلك النظام الذي أدخله العرب وأثار غضب القبط فيما يتعلق بجوازات السفر والشارات التي تميز الرهبان والغرامات وألوان التعذيب وتحطيم الصور المقدسة ، بما أثار مثل ذلك السخط ، حتى إن الناس أذكوا الثورات . وقد وجدنا أن ملك بلاد النوبة للسيحي سار إلى مصر ليطالب بإطلاق سراح أحد البطارقة الذي زج به في غياهب السجن .

ولم تكن هذه الاضطهادات من جانب المسلمين على أي حال أكثر من اضطهاد المسيحيين لليهود في ذلك الوقت . غير أن هذا لا يبرر ما كان يقوم به المسلمون . ويظهر أن الرهبان هم الذين أثاروا نصب للمسلمين الأولين ، حيث لم تجد تعاليمهم الرهبانية قبولا لدى هؤلاء المسلمين . ولقد حدث فيما بعد أن الخلفاء الشيعيين في القاهرة عاملوا رهبان القبط معاملة تتطوى على العطف والرعاية ؛ غير أن الحال لم يكن كذلك في عهد الفتوح العربية . ولقد كانت الرهبنة في مصر قوة لا يستهان بها منذ أقدم العصور . ففي القرن الثالث حدث أن انتشر أتباع القديس مرقس واستقروا في جماعات مختلفة في كافة أرجاء الدلتا ، وأخذوا يكونون ما يعرف « بالحكم المصري » . ولا نعرف إلى أي حد نحن مدينون لأولئك النساك الأقدمين ، فيعتقد البعض أن المسيحية الإيرقدية التي تعتبر العامل الحضاري العظيم في العصور

---

(١) ساق عبدالعززالله إلى البركة عن طريق قناطر منطقة تصل الميرون القريبة من المقطم بالبركة . وقد أخذ العرب عن الرومان هذا النوع من القناطر التي كانت منتشرة في بلاد الدولة الرومانية في القرن الثاني لليلادي - المترجم .

الوسطى الأولى بين الأمم الشمالية ، هي التي تمخضت عنها الكنيسة القبطية . فهناك سبعة من الرهبان دفنوا في Disert Uilidh . وهناك كثير من الحفلات وأساليب العمارة في إيرلندة القديعة ، مما يذكر الإنسان يقايا للسيحية في العصور الأولى في مصر . وكل منا يعلم أن الحرف التي كان يقوم بها الرهبان الإيرلنديون في القرنين التاسع والعاشر ، كانت تفرق إلى حد بعيد ما عساه يوجد في أي مكان آخر في أوربا في ذلك الوقت . وإذا كانت نقوشهم البيزنطية الرائعة على الذهب والفضة والمصاييح ترجع إلى تعليم للبشرين للصريين ، فإن من العدل أن نشكر القبط شكراً لاحتادله . وبما هو معروف في تاريخ الفن أن العرب في بنائهم يدينون للقبط بكثير من مباحج هذا الفن .

ومثل هذه الاعتبارات لم تكن لتستطيع بطبيعة الحال أن تؤثر في أناس كالعرب انعدمت لديهم الروح الفنية تماماً . فهم كانوا ينظرون إلى الرهبان الأقباط على أنهم مرشحون للوظائف الكنايية وحاملو أسرار جديرة بالحصول عليها لصالح المؤمن . أما الزمالة أو الصداقة فلم يكن لها أي اعتبار . والحقيقة التي تقول بأن الاضطهاد لم يتخذ صيغة عامة ودائمة ، يجب أن تعزى إلى تكاسل بعض أفراد من الحكام أو إلى طبيعتهم المتسامحة . كذلك تعزى إلى ذلك المثل الحكيم الذي يحرم ذبح الأوزة التي تضع أيضاً من الذهب . ونقرأ بين حين وآخر عن مذابح تنطوى على القسوة ، وعن ألوان التعذيب وتخريب الكنائس القبطية ، ثم لا تلبث أن تسمع عن إذن ببناء إحدى الكنائس أو إعادة بنائها . كذلك نجد القبط يجتمعون في هدوء في حصن بابلون الذي كانوا يحتلونه دائماً لانتخاب بطريق لهم . وفي الوقت نفسه تظهر بعض العبارات التهكمية والصور الساخرة والتماثيل التي تمثل الشيطان معلقة جميعها على أبواب القبط . وكل كان يحدث من وقت إلى آخر ثورة أو مشاجرة في الطرق تتمخض دائماً عن مذبحه مروعة يتبعها تخريب كثير من الكنائس وسقوطها .

ولكن على الرغم من كل ذلك الاضطهاد ، ومن مروق ضعاف الرهبان من دينهم ، لا تزال الكنيسة تحتفظ بوجودها الذي يكتفه الكثير من الصعاب . والواقع أن ثبات تلك الطبقة الجاهلة — لأن رجال الدين من القبط لم يكن لهم في ذلك

الوقت حظ من التعليم — على ما كان عليه الأقدمون من إيمان وعقيدة ، مما ينم عن الكثير من صفات البطولة والشهامة . فقد احتفظوا بطقوسهم واحتفالاتهم الدينية كما كان يقوم بها آباؤهم من قبل ، ولو أن جذران كنائسهم الباقية الكثيرة الثقوب ، وأبوابها الضخمة للتينة ، وممراتها السرية — كل هذا يشهد بما كانت تتعرض له تلك الاحتفالات من أخطار . وكان كثير من هذه الكنائس يصل إلى درجة كبيرة من الفنى ، كما تدل على ذلك النقوش الرائعة . ولعل ذلك راجع إلى أن أصحابها لم يستطيعوا أن يستغنوا عن فن الكتابة والحساب الذى درجوا عليه . وإذا كان لاختصاص القبط فى هذا الفن واحتكارهم إياه وتمسكهم بعقيدتهم القديمة أنهم لم يتغيروا حتى اليوم على الرغم من مرور القرون والأجيال ، بل لقد بقوا محتفظين بشخصيتهم وتقاليدهم الخاصة برغم ما لحق بهم من ألوان الاضطهاد . فالقبط ما زالوا حتى اليوم شعباً منعزلاً ، أقل امتزاجاً بالهم الأجنبي من سائر سكان وادى النيل . فملاعهم تذكرنا بملاع قدماء المصريين التى تراها على آثارهم ، وهى فى هذا أقرب من ملاع الأهالى من اللبىن . وليست الناحية الجسمية وحدها هى التى تبين لنا أن القبط هم خلفاء قدماء المصريين ، بل إن اللغة أيضاً تدلنا على ذلك . فلم يجتهدوا — كما نسمعها اليوم فى طقوسهم واحتفالاتهم الدينية فى الكنائس — ترجع فى أصلها إلى اللغة الهيروغليفية وإلى حجر رشيد . وهم بطبيعة الحال يستعملون اللغة العربية فى حياتهم اليومية . غير أن الكلمات المقدسة فى دينهم لا تزال مفهومة بعض الشيء لدى رجال الدين ، كما أنها تحتفظ فى الوقت نفسه بمكانتها وجلالها بجانب الترجمة العربية إذا ما استخدمت فى أغراض الكنيسة . وما يدل على جهودهم أنهم يحتفظون بتلك اللغة القديمة ، لا من حيث النصوص التى تتعلق بها — وهى عبارة عن الكتابة على شكل رسوم — بل من حيث هذا الضرب من الحروف الكبيرة البارزة التى تراها فى المخطوطات الإغريقية القديمة . وإن شعباً من سلاله الفراعنة يتكلم بلغة رميس ويكتبها بحروف كاهنوس ، ثم يستخدمها بعد ذلك فى عقائده وطقوسه الدينية التى لم يستطع اثنا عشر قرناً من الاضطهاد أن يغير منها شيئاً — إن شعباً كهذا هو فى الحق أعجوبة من أعاجيب التاريخ .

واقعد جاء العباسيون بعد أسلافهم الأمويين سنة ٧٥٠ م . وكانت مدينة القسطنطين في ذلك الوقت مسرحا لتلك الصراع الأخير . فلقد هرب مروان آخر خلفاء الدولة التي قدر لها الزوال إلى مصر حيث أشعل النار في طريقه إلى القسطنطين وإلى الجسر الذي كان يصلها بجزيرة الروضة . وبعد ذلك فر إلى الشاطئ الغربي للنيل . غير أن التدابير التي اتخذها قد ذهبت أدراج الرياح . ذلك أن القائد العباسي وجند خراسان سرعان ما وجدوا الوسائل لعبور النيل . وكان طواف المدن برأس مروان دلالة على زوال عهد وقيام عهد جديد . ونحن نعرف أن المعتصمين يفتنون أشد المفت أن يقيموا في دور من غلبوهم على أمرهم . وهكذا تحول الخلفاء العباسيون عن دمشق وبنوا لأنفسهم حاضرة دائمة الصيت في بغداد . أما ولايتهم في مصر فقد صرفوا نظرهم عن بيت الإمارة في القسطنطين ، وأسسوا ضاحية رسمية جديدة كقصر فرساي بالنسبة إلى باريس ، في المكان الذي عسكر فيه الجند ، وأطلقوا عليها « العسكر » . وكان موقع هذه المدينة في الناحية الشمالية الشرقية من القسطنطين تقريبا على جزء من الجراء القصوى التي كانت قد احتلتها ثلاث من القبائل إبان الفتح العربي ثم هجرتها فاستحالت إلى صحراء . في ذلك المكان تكونت ضاحية جديدة تمت على مر الزمن وغدت تمتد من القسطنطين إلى جبل يشكر حيث يقوم جامع ابن طولون الآن . وسرعان ما بنى هناك مسجد وقصر لوالى وثكنات لجيوشه . ولم تلبث تلك الضاحية الجديدة أن امتلأت بالشوارع واليادين ، كما أحاطت القصور الكبيرة بهذه المدينة الجميلة التي اتخذها الخسة والستون واليا الذين كانوا يمثلون الخلفاء العباسيين مركزا لحكومتهم مدة مائة وثمانى عشرة سنة . ولقد بنى أحد هؤلاء الولاة لنفسه في سنة ٨١٠ م قصرا صيفيا أطلق عليه « قبة الهواء » على طرف المقطم حيث بنيت قلعة القاهرة . وإلى ذلك المكان كان يختلج ولاة مصر من حين إلى حين لينعموا بالنسيم العليل ؛ غير أن تلك الضاحية الجديدة لم تكن سوى حى للموظفين ودور للقضاء ، وهى في الوقت نفسه لم تقلل من أهمية القسطنطين باعتبارها حاضرة مصر .

غير أن تلك الضاحية الجديدة لم يبق منها أى أثر ، بل إن سجل الولاة الذين

عاشوا هناك قد أصبح قاب قوسين أو أدنى من الزوال (١) ، وكان عمل هؤلاء الولاية أصعب من عمل أسلافهم الذين حكموا مصر تحت ظل الخلفاء الأمويين ، كما كان عليهم أن يقضوا على الخلاقات التي قامت بين المسلمين ، والثورات التي اشتعلت بين القبائل العربية والقبط . ولقد شهدت مدينة القسطنطينية هذه الثورات التي أطاحت برؤوس آلاف الثائرين ، كما أن شجاعة الخارجيين كان يفتاها الوهن حين كانوا يرون بأعينهم رؤوس زعمائهم وقد رفعت في جامع عمرو بن العاص . والواقع أن تاريخ هذه الفترة بين سنتي ٧٥٠ و ٨٩٠ م عبارة عن سلسلة متصلة الحلقات من الفتن والثورات والإلحاد والانشقاقات والمؤامرات السرية والعقائد المتطرفة . غير أن هذه الاضطرابات قلما آثرت في تلك الحاضرة الغنية . وكان ثراء بعض الولاة أكثر إثارة لسخط المدنيين الأمنيين ، فلقد كان أبو صالح بن محمود في سنة ٧٧٩ م شديدا نوعا ما ، فأظهر نشاطا عظيما في القضاء على اللصوصية وقطع الطريق في الريف . وقد بلغ من رضائه عما آخذته من إجراءات أن اكتفى بإنفاع نفسه بعدم استحالة وقوع السرقات في المدن ، وأدى به اقتناعه بهذا الاعتقاد إلى أنه أمر أهل القسطنطينية بخلق أبواب منازلهم وحوالياتهم في الليل ، وألا يتخذوا أية وسيلة من وسائل حمايتها أكثر من وضع شرايح القصب لتمنع السكّاب من دخول الأبواب . كما منع حراس الحمامات من الجلوس فيها وقال : من ضاع له شيء فعلى أداؤه . فكان الرجل يدخل الحمام فيضع ثيابه ويقول : يا أبا صالح احفظها (٢) .

وهكذا لم يكن أحد ليجرؤ على الاقتراب من تلك الملابس . وبطبيعة الحال فشل هذا الأمن كان يستلزم الكثير من السهر واليقظة من جانب ذلك الوالي . غير أن ما سته من القوانين الناشئة عن الملابس وتدخله في شئون الناس قد أثار سخط الأهليين حتى لقد كانت قسوته أبعد أثرا من للساويء التي قضت عليها .

---

(١) للوقوف على سني حكم ولاية مصر راجع كتاب تاريخ مصر في العصور الوسطى .  
للمؤلف ص ١٨ - ٥٨ .

(٢) انظر كتاب الولاة وكتاب الفضة لأبي عمر السكندى ص ١٢٢ . المترجم .

وهناك قصة رويت عن الخليفة المشهور هارون الرشيد ، وإن لم تكن من القصص التي تجلب له الاحترام والتبجيل من ناحية الدين وشعوه للخلافة . ذلك أن أحد ولاة زمانه ويدعى موسى [ بن عيسى ] (١) العباسي كانت له خبرة واسعة بأعمال الحكم ، كما أحسن إلى القبط وسمح لهم ببناء ما تهدم من مكنائهم . وقد بلغ الرشيد أنه يريد الخروج عليه [ ولا يبعد أن يخلفه إذا كان أحد أفراد بيته ] فصاح : « والله لا عزلة إلا بأخس من علي بابي » فنظر فإذا عمر [ بن مهران ] كاتب [ الخيزران ] أم الرشيد . . . . . يركب بخلا . . . . . فخرج إليه جعفر [ بن يحيى البرمكي ] وقال : أتتولى مصر ؟ قال : نعم . فصار إليها ، فدخلها وخلفه غلام على بغل للثقل ، فقصده دار موسى [ في مدينة العسكر ] فجلس في أخريات الناس . فلما انقضى المجلس قال له موسى [ وكان لا يعرفه ] : ألك حاجة ؟ فرمى إليه بالكتاب ، فلما قرأه قال : لعن الله فرعون حيث قال : ( أليس لي ملك مصر ) ؟ ثم سلم إليه ملك مصر ، فهدى عمر المذكور ، ورجع إلى بغداد وهو على حاله (٢) .

هذا من جهة . ومن جهة أخرى نجد في بعض الأحيان ولاية أ كفاء يبعث بهم من بغداد أحياناً . ومن أمثال هؤلاء عبد الله بن طاهر وإلى خراسان ثمالي بلاد فارس ( حيث أسس دولة فيها بعد ) وكان عمله في مصر ينحصر في طرد جموع غفيرة ممن لجثوا إلى مصر من أسبانيا ، وكأوا قد استولوا على الإسكندرية حيث ساعدتهم إحدى القبائل العربية المتحمسة في الخروج على الحكومة . غير أن عبد الله بن طاهر اضطر في أثناء اضطلاعه بهذا العمل إلى القبض على سلفه [ عبيد الله ابن السري ] الذي أبي أن ينزل له عن الولاية . وكان من أثر ذلك أن حوصرت القسطنطينية . وبجراً في سنة ٨٢٦ م . وقد حدث أن جاء إلى معسكر عبد الله بن طاهر في إحدى

(١) ولي مصر ثلاث مرات : الأولى سنة ١٧١-١٧٢ هـ ، والثانية سنة ١٧٥-١٨٦ هـ ، والثالثة سنة ١٧٩-١٨٠ هـ . للترجم .  
(٢) راجع كتاب النجوم الزاهرة لأبي المحاسن ( ج ٢ ص ٧٨ - ٧٩ ) حيث وردت هذه العبارة عند كلامه على ولاية موسى بن عيسى الثانية . للترجم .

الليالى ألف عبد وألف جارية يحمل كل منهم ألف دينار في كيس . غير أن عبد الله  
أبى أن يقبل هذه الرشوة ، وأرغم حامية الحصن على الخروج من المدينة بعد أن مات  
أكثرهم من شدة الجوع . ولكن عبد الله بن طاهر عاد إلى فارس لسوء الحظ  
بعد أن انتهت مهمته ، وقبعت مصر مثلاً نادراً للحاكم العادل الرحيم ، كما كان عالماً  
محباً للشعر معضداً للشعراء .

وبما يؤثر عن حكم عبد الله بن طاهر « المبدلوى » ذلك النوع من الشام الذى  
أدخله عبد الله لأول مرة في مصر ، والذي تذوقه الأوريون في أى فندق من فنادق  
القاهرة .

ولقد حدث فيما بعد أن جاء الخليفة للأمن بن هارون الرشيد بنفسه إلى مدينة العسكر  
في سنة ٨٣٢ م لإخماد تلك الثورة الجامعة التي أذكى نارها القبط في الوجه البحرى  
وقد اشتهر الأمن بتشجيع العلم والفلسفة . فقد أتم القضاء على الثورة بإحكام ومن  
غير شفقة ، حتى إنه لم يبق بينهم حركة قومية فيما بعد من هذا القبيل . وقد دان  
بالإسلام كثير من القبط . واستقر العرب في الأراضى والقرى بدلا من المدن الكبيرة  
وبذلك أصبحت مصر آخر الأمر بلداً إسلامية . وكانت تلك هي المرة الأولى التي يزور  
فيها النيل خليفة عباسى ، ومن ثم وجدنا الشعراء يتسابقون إلى مدحه مديحاً عاطراً  
غير أن الأمن حين شاهد هذا النظر من « قبة الهواء » تملكه الاستياء وقال ما  
قاله موسى بن عيسى وإلى مصر الأسبق : « لمن الله فرعون حيث قال ( أليس لى  
ملك مصر ) ؟ » (١) .

غير أن زيارة الخليفة للأمن لمصر ، وإن كانت قد أخذت ثورات القبط فإنها  
أثارت مناعب أخرى جاءت نتيجة لها . فلقد كان من أثر شغفه بالتفكير في الله  
وفي وراء الطبيعة — ذلك التفكير الذى أدى إلى تشجيع دراسة الفلسفة اليونانية  
في بغداد — أنه دان بالعقيدة التي تقول بخلق القرآن والتي تعارض رأى المسلمين  
من أهل السنة معارضة صريحة ، وكان هذا للنهب الجديد البغيض بمثابة امتحان

---

(١) قرآن كرم . سورة الزخرف ، آية ٥١ .



للقضاة . كما أن كل من حدثته نفسه بمعارضة هذا الرأي كان يلقي كثيراً من ألوان العنت والإرهاق ، ولقد حدث أن عارض أحد قضاة القضاة في القسطنطينية هذا المذهب فترعت لحيته وطيف به في طرقات المدينة وضرب بالسياط وهو على حمار ، كما أن أساندة مدارس النزهيين الحنفى والشافعى قد طردوا شر طردة من جامع عمرو ابن العاص . هذا من جهة . ومن جهة أخرى كان هذا العار أقل ما لحق بإنسان ؛ لأن القضاة كانوا في ذلك الوقت يمثلون فريقاً لا يستهان به من موظفى الحكومة المصرية . ذلك أنهم كانوا يعرفون بالاستقامة والنزاهة بصمة عامة . كما أن قاضى القضاة كان مستقلاً تمام الاستقلال عن سلطة الوالى ، وكان بمثابة وزير العدل فى مصر فى ذلك الوقت . يفسر الشريعة ويشرف على تطبيقها . ولم يكن يتردد فى اعتزال منصبه إذا لم تقبل أحكامه . ومهما يكن من شئ ، فإنه لم يكن مستعداً لأن يكبح جماح تعصب بنى جلدته . وقد تبع القضاء على ثورة السبعين اضطهاد لم يسبق له مثيل . وبعد وفاة الخليفة المأمون أخذ عدااء أهل السنة يظهر من جديد ، وجاء الخليفة النوكل ( ٢٣٢ — ٢٤٧ هـ ) فأصدر عدداً من القوانين التافهة بقصد إذلال القبط ( ٨٥٠ م ) : « فأمر ( سنة ٢٣٥ هـ ) أهل القنمة بلبس الطيالة العسلىة وشدة الزناثير ، وركوب السروج بالركب الخشبية . . . وعمل رقعتين على لباس رجالهم . . . وأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب ( أو نسانيس أو كلاب ) ، ومنعهم من لبس اللناطق وأنهى أن يطهروا فى شعائهم صلباً وأن لا يشعوا فى الطريق فاراً » (١) . وكان الفرض من هذا بطبيعة الحال تهية الفرصة لاغتصاب الأموال وفرض الغرامات على كل من تحدثه نفسه بمخالفة لوائحه .

ولسنا فى حاجة إلى أن نسهب فى الكلام عن فترة الحكم العربى فى مدينى القسطنطينية والعسكر . فإن الولاة من العرب لم يخلفوا من ورائهم إلا أثراً ضئيلاً . ومع أنه مما يؤسف له أنه لم يبق أمامنا اليوم مثل واحد من أبنيهم — بما كان يكون حلقة من حلقات الفن الإسلامى — فلا بد أنه كان لتلك المباني قيمة عظيمة . والواقع أن العرب لم يتكروا فى الفن شيئاً . وما يعرف فى أسبانيا « بالفن العربى » يرجع فى

---

(١) المقرزى : كتاب الخطوط ج ١ ص ٤٩٤ .

أصله إلى أجناس أخرى أكثر رقيا من العرب ، كذلك في مصر فإننا لا نجد أى أثر للفن الإسلامى إلا حينما أخذ الخلفاء يقهرون مصر ولاية من الأتراك . وفي الوقت الحاضر نسمع الكثير عن سوء حكم الأتراك . ولكن فليكن هذا الحكم طيبا أو سيئا ، فإن أحدا لا يستطيع أن ينكر أن التركي يستطيع أن يحكم . ذلك أنه في العصور الوسطى كان يبدو أن الأتراك هم الشعب الوحيد الذى كان يمتلك أساليب الحكم . وليس أدل على هذا من أن أعظم حكام آسيا في القرن الحادى عشر الميلادى هو ملكشاه السلجوقى وكان تركيا . كذلك كل ما نطلق عليهم مغول الهند من أمثال بابر ، من الأتراك ، وحينما تقسمت أوروبا المنازعات والمناقشات كان نفوذ سلاطين الأتراك في القسطنطينية يمتد من نهر الطونة إلى المحيط الهندى ، ومن القوقاز إلى جبال أطلس وليس أشد هجبا من هذه الحقيقة وهي أنه حينما وجد حكم تركى في العصور الوسطى ازدهرت الفنون والآداب تبعاً لذلك . والواقع أن الفن لم ينتعش في بلاد كثيرة حتى أتى الأتراك فاستمد وحيه منهم . وليس معنى ذلك أن الأتراك أنفسهم كانت لديهم قدرة فائقة خاصة على الابتكار في الفن أو الأدب — ذلك أنه من الصعب أن نشير على الأقل من بين الحكام من الأتراك الذين حكموا مصر — مع فترة تقل عن مائتى سنة كان جميع حكامها تقريباً أتراكاً في الأحد عشر قرناً الماضية — إلى عدد كبير كان أهلاً لترقية الثقافة . على أن ذلك كان يرجع إلى تلك اليد القوية التي ساعدت على استقرار النظام الذى هو من مستلزمات نشر الثقافة . ثم إن جنودهم كانوا لا يتورعون عن جلب النقود التي كان الحكام في حاجة إليها لبناء القصور الفخمة التي كانوا يحبون أن تنعكس عليها قوتهم وراؤم .

ولا يبعد أن يكون لأولئك الحكام شغف غريزى بالفن ، كما أن معظمهم كانوا مولعين بالبذخ وحب الظهور ، ميالين إلى أن يحيطوا أنفسهم بكل ما هو فاخر ونفيس .

كما أن كثيرين منهم كانوا يعتقدون أن إيقاف المال على أماكن العبادة قد يكفر عن الذنوب التي يرتكبها الفرد في حياته . وهم في هذا إنما يذكرون قول النبي صلى الله عليه وسلم « من بنى بيتاً لله ولو كفحص قطعة بنى الله له بيتاً في الجنة » ومهما يكن من شأن الأسباب التي دفعت الأتراك إلى هذا كله ، فإن الحقيقة التي سوف تبقى دائماً هي أننا نجد

أثرا لنفوذ الأتراك في جميع أنحاء الشرق من البوسفور إلى الكنج . وإلى أترك  
دلمى وأجرا يرجع الفضل فيما عرفناه عن قطب منار والتاج والزينات الدقيقة في  
قائبور سكري . كذلك بنى الأتراك مسجد عطاء الله في چونپور ، ومسجد أحمد  
أباد والقور وبيجاپور . كما بنى الأتراك السلاجقة للباني الفخمة في قونية وقيسارية  
وسيواس وغيرها من مدن آسيا الصغرى . أما الأتراك العثمانيون فقد بنوا أضرحة  
بروسة والمساجد السلطانية . التي تأتي في الأهمية بعد مسجد القديسة صوفيا في  
القسطنطينية . ومثل هذا تماما نجده في مصر . فأول نموذج للفن الإسلامي الخالص  
لم يظهر إلا حينما بدأ الأتراك يقبضون على زمام الحكم ، ففي سنة ٨٥٦ م كان حكام  
مصر جميعا من العرب ، وباستثناء جامع عمرو بن العاص ، لم يكن هناك ما يتميز  
بالتابع العربي . أما منذ سنة ٨٥٦ م فإن حكام مصر قد أصبحوا من الأتراك . وبعد  
عشرين سنة ظهر جامع ابن طولون ، أول وأعظم الباني التي تتميز بطابع الفن العربي  
في مصر .

وإذا أردنا أن نبين كيف آل حكم مصر إلى الأتراك ، فقد يخرج بنا ذلك كثيرا  
عن نطاق الموضوع الذي نحن بصدده ، وهو تاريخ القاهرة نفسها . ولكن الذي  
يهمنا أن نعرفه هنا ، أن تلك الحركة - التي ساعدتها سياسة الخلفاء - كانت جزءا  
من تلك الحركة الكبرى التي قامت بها شعوب أواسط آسيا ، والتي كانت قد بدأت  
منذ فجر التاريخ . ذلك أن العباسيين قلقوا من ازدياد نفوذ ولاية الأقاليم في بلاد  
الفرس . كما أن تلك القبائل العربية النائرة قد هددت نفوذهم في بلاد الجزيرة .  
ومن ثم تجد العباسيين يعيشون في طلب حرس من المرتزقة الذين كانوا يجلبون من  
أسواق النخاسة ببلاد ماوراء نهر جيحون ، وأخذ يتمسكهم العجب والزهو بحماية  
هؤلاء الشبان الأقوياء من الأتراك . غير أن هذه المسألة لم تلبث أن تمخضت عن  
سؤال حائر لم يكن في الحسبان . وقد أدرك خلفاء بغداد المترفون بعد قوات الفرسة  
أنهم بشرائهم أولئك العبيد الأشداء قد حكموا على أنفسهم بالاستعباد . وغدا رئيس  
الحرس ناظر السراي (١) في بغداد مع الخلفاء المستضعفين . وبدأ الأتراك يشغلون

---

(١) يشير بذلك إلى ناظر السراي في أواخر عهد ملوك المبرقطين . للترجم .

مناسب الدولة ، وعهدوا إلى أصدقائهم بتقدير الولايات العربية للحصول على إيراد هذه الإقطاعات دون أن يهتموا بمشاغل الحكم . وقد حدث أن كان بعض الأمراء الأتراك يعيشون في بغداد أو في غيرها من بلاد الجزيرة ويحتفظون بهذه الإقطاعية ويحصلون على ما يفيض من خراج مصر عن طريق توابعهم من العرب . غير أنه في سنة ٨٥٦م أصبح النائب صاحب الإقطاع من الأتراك ، وفي سنة ٨٦٨م أرسل بابلك صاحب إقطاع مصر أحمد بن طولون زوج ابنته ليحكم مصر نيابة عنه .

كان أحمد بن طولون في الثالثة والثلاثين من عمره حين وصل إلى القسطنطينية . وقد جمع بدرجة رائدة بين الكفاية الحربية والإدارية التي امتاز بها أبناء جلدته ، إلى جانب الثقافة الإسلامية التي كانوا حديثي عهد بها . وقد تلقى علومه على علماء بغداد ، بل سافر إلى طرسوس حيث تلقى العلم على بعض علمائها . وتعمق في دراسة اللغة العربية والعقائد الإسلامية . وكان إلى جانب ذلك ذا نشاط لا يحد ، صادق العراصة ، كما عرف كيف يختار مرؤوسيه ويستغلهم لمصلحة دولته . وكان عادلا شجاعا جوادا . وكان شعاره : « من مديده إليك فأعطه » ، وكانت صدقاته على أهل المسكنة والستر متواترة ، وكان راتبه ثلث ألف دينار في كل شهر . وقد جاء مصر مفلسا إلا بما اقترضه من أحد أصدقائه ، ولكنه خلف عند وفاته عشرة ملايين دينار في بيت المال ، سوى عدد عظيم من ماله وخبوله ومائة سفينة حربية . ومع ذلك فإنه أتم هذه الأعمال الاقتصادية دون أن يلجأ إلى زيادة الضرائب . والواقع أنه ألغى ضرائب كثيرة مختلفة ، وكان يعتمد في دخل دولته على تشجيع الزراعة . فقد كان شديد الاهتمام بالزراعة ، وكان يعمل دائما على أن يجعل القلاح آمنا في أرضه . ولأول مرة منذ الفتح العربي نجد مصر دولة قوية ذات سيادة . ذلك أن أحمد بن طولون سرعان ما أبطل كل مظهر من مظاهر التبعية سوى التبعية الإسمية للخلافة . وبعد أن تغلب على الدسائس وقمع ثلاث ثورات قامت في مصر ، سار إلى سورية واحتل أرضها حتى بلغ طرسوس والفرات . وحارب جيوش الخلافة ، كما حارب جيوش الدولة البيزنطية المقيمة على الحدود عند كيليكيا ، ومد نفوذه من الأراضي الممتدة من برقة في ليبيا حتى حدود الإمبراطورية البيزنطية في آسيا الصغرى ، ومن نهر الفرات حتى شلال النيل الأول .



منظر جامع ابن طولون

وإلى جانب هذه السياسة الاستعمارية بنقل أحمد بن طولون جهوداً جبارة وأموالاً ضخمة على تجميل حاضرتة . فإن دار الإمارة في العسكر - وهي الضاحية الرسمية في القسطنطينية - قد ضاقت بحاشيته وجنده الكثيرين . ولم يكن ليقتنع بمجرد قصر يكون مقراً لحكمه . وفي سنة ٨٧٠ م اختار المكان الواقع إلى أقصى الشمال الشرقي من العسكرين جبل يشكر وسفح المقطم قرب دار الإمارة . وأمر بحرق قبور المسيحيين واليهود ، وأسس ضاحية رسمية جديدة تسمى « القطائع » . وقد سميت كذلك لأن

لكل طبقة. (مثل غلخانه وغيرهم من الروم والسودانيين) قطعة خاصة بها وكانت المدينة الجديدة تمتد من الرميّة الواقعة تحت قلعة الجبل إلى مسجد زين العابدين ، وهي مساحة قدرت بميل في ميل . أما القصر الجديد فقد بنى تحت «قبة الهواء» (١) القديمة ، وجعل له حديقة غناء وميداناً فسيحاً يضرب فيه بالصوالة . ويلحق بهذا الميدان بناء خاص بترية الخيل وآخر لمرضها . وكانت دار الإمارة جنوبي الجامع العظيم الذي لا يزال قائماً إلى الآن . وكان للقصر طريق خاص يخرج منه ابن طولون للصلاة . أما الحرم فكان لمن قصر منفصل . وسرعان ما عمرت هذه المدينة وأقيمت فيها الحمامات العظيمة الأسواق ووسائل الأبهة والبذخ (٢) .

وقد بنى القواد والضباط دورهم حول القصر ، وأقيمت الدور العظيمة ، وأصبحت أسواقها أحسن من أسواق القسطنطينية وزخرت بمختارات السلع وأحسنها . أما الميدان الذي كان أحمد بن طولون وقواده يروحون فيه عن أنفسهم بأن يلعبون فيه بالصوالة (٣) فقد أصبح المكان المفضل الذي يختلئ إليه الناس . وقد بلغ من شغف الناس بذلك الميدان أن كنت إذا سألت أحدهم : إلى أين أنت ذاهب؟ أجاب : إلى الميدان . وكان لهذا الميدان أبواب كثيرة كل منها لطبقة خاصة : فهناك باب الخاصة وباب الحرم . كذلك كانت هناك أبواب تسمى بأسماء خاصة مميزة ، كباب السباع وعليه سبعان من جبس وباب الساج لأنه يحمل من خشب الساج ، وباب الدرمون لأن حاجباً أسود يحمل هذا الاسم كان يجلس عنده . ولم يكن أحد يستطيع أن يمر من الباب الأوسط سوى أحمد بن طولون نفسه . وكان جنده الذين بلغ عددهم ثلاثين ألفاً يمرون من البابين الجانبين . وكان الأمير يجلس في أيام عرض الجيش في مكان مرتفع يشرف منه على القطائع ، ويرى الناس وهم يدخلون من باب الصوالة ويمرون من باب السباع الذي كانت تحلوه مقصورة خاصة يجلس فيها في ليلة العيد ، حتى إذا

---

(١) أنشأها حاتم بن هرثة عامل الأمين العباسي على مصر على جبل القطم حيث جبل القطم الآن . المترجم .

(٢) أنظر كتابنا تاريخ مصر في العصور الوسطى ص ٦٠ - ٧١ . القريري : خطط ص ٣١٣ ، ٣١٥ .

(٣) يراد بذلك لعبة الكرة المعروفة عند الإنجليز باسم «بولو» Polo وهي شبيهة بلعبة كرة القدم . المترجم .

رأى أحدهم في حاجة إلى إصلاح حاله ، أمر له بما يصلحها : وكان هذا المنظر يمتد من هذه المقصورة إلى مدخل القسطنطينية وإلى النيل ، ولعلك كثيرا ما كان هذا الأمير يفضل الجلوس فيها .

وكان الماء يصل إلى القصر من عين في الصحراء الجنوبية عن طريق قناطر معلقة لا تزال آثارها باقية إلى اليوم — وليست هذه هي القناطر التي يجري فيها الماء من النيل إلى القلعة والتي ترجع إلى عصر متأخر كثيرا ، غير أن الناس بدأوا يتشككون في قيمة هذا الماء القراح الذي لم يتادوه من قبل حيث كانوا يشربون من مياه النيل والآبار العكرة . وقد اتصلت الشائعات بابن طولون ، فبعث في طلب الفقيه محمد بن عبد الحكم ليستجلى حقيقة هذه الشكوك . وقد روي هذا الفقيه تلك القصة فقال :

« كنت ليلة في دارى إذ طرقت بخادم من خدام أحمد بن طولون فقال لى : الأمير يدعوك ، فأيقنت بالهلاك وقلت للخادم : الله الله فى فإنى شيخ كبير مضعف مسن ، فتدرى ( كذا ) ما يراد منى ؟ فارحمنى ا فقال لى : حذار أن يكون لك فى السقاية قول ، وسرت معه وإذا بالمشاعل فى الصحراء وأحمد بن طولون راكب على باب السقاية وبين يديه الشمع ، فزلت وسلمت ، فلم يرد على ، فقلت : أيها الأمير إن الرسول أعنتنى وكدنى وقد عطشت ، فيأذن لى الأمير فى الشرب ؟ فأراد الغلمان أن يسقونى ، فقلت : أنا آخذ لنفسى ، فاستقيت وهو يرانى ، وشربت وازددت فى الشرب حتى كدت أنشقى ثم قلت : أيها الأمير اسقاك الله من أنهار الجنة ، فلقد أرويت وأغنيت ، ولا أدرى ما أسف ، أطيب ماء فى حلاوته وبرده أم صفائه ؟ أم طيب ريح السقاية ؟ فنظر إلى وقال : أريدك لأمر ليس هنا وقته فاصرفوه ، فانصرفت فقال لى الخادم : أصبت ، فقلت : أحسن الله جزاءك فلولاك لمهلك . »

على أن الأثر الذى خلفه اسم ابن طولون حقا ، هو جامعته التىبقى وحده من مدينة القطائع العظيمة بعد أن دهمتها الحرب الأهلية وفعل فيها الإهمال فعله . والواقع أن هذا المسجد أبدع ما فى مصر الإسلامية من آثار ، كما أنه نقطة تحول هامة فى تاريخ العمارة . وهناك عيثنان يميزان هذا المسجد بصفة خاصة : الأول أنه بنى من

مواد جديدة تماماً ، وليس من أسلاب الكنائس والمعابد القديمة ؛ والثاني أنه للثال الأول لاستعمال العقود المدية الشكل (١) ، وهي العقود التي لم تظهر في إنجلترا إلا بعد ذلك بقرنين على الأقل . وهذه العقود مدية فعلاً ، ولها قاعدة تماثلها قليلاً ، ولكن شكلها لا يشبه نعل الفرس . وروي لنا المقرئ كيف أن أحمد بن طولون عثر على كنز في تلال المقطم في مكان يسمى تور فرعون ، وأنه عول على أن يبنى فيه مسجداً جامعاً بعد أن ضاق مسجد العسكر بالمصلين ، وعمل على أن يكون الموضع الذي يبنى فيه ذلك المسجد تلك القمة الصخرية للسطحة بأعلى جبل يشكر ، لأنه مكان مبارك معروف بإجابة الدعوات ، إذ كان بعضهم يعتقد أن موسى كأم يهودا عليه . وفي هذا المكان وضع ابن طولون أساس المسجد في سنة ٨٧٩ م ( ١٤٦٣ هـ ) . وبعد سنتين تم بناؤه وأقيمت فيه الصلاة بحضور الأمير .

وقد واجه أحمد بن طولون صعوبة في الحصول على الأعمدة الثلاثمائة التي دعت الحاجة إليها لحل العقود . غير أن مهندسه — وكان مسيحياً وقبطياً من غير عك (١) — كتب إليه ، وكان مسجوناً في ذلك الوقت ، أنه يستطيع بناء المسجد بلا عمد إلا عمودي القبلة . ومن ثم أمر الأمير بإحضاره وقال له : « ويحك ! ما تقول في بناء الجامع ؟ فقال : أنا أصوره للأمير حتى يراه عياناً بلا عمد إلا عمودي القبلة » . فأمر بأن تحضر له الجلود ، فأحضرت ، وصورة ، فكان ذلك بلا عك أول ما عرف عن نماذج بناء الساجد . ووقف أحمد بن طولون على مزايا هذا التصميم في الحال ، فخلع على المهندس ، وعهد إليه ببناء المسجد ، وأعطاه مائة ألف دينار لتنفيذ مشروعه . ولما تم البناء أعطاه عشرة آلاف دينار أخرى . وبلغ ما أنفقه ابن طولون على بناء هذا المسجد ما يربو على مائة وعشرين ألف دينار ، أي نحو ثلاثة وستين ألف جنيه

(١) نرى في الواجهة الجنوبية الغربية لمسجد عمرو بن العاص بعد زيادته على يد عبد الله بن طاهر فتحات مدية هي الأولى في مصر ، ظهرت بعدها هذه العقود المدية في جامع ابن طولون .  
الترجم .

(١) أطلق المقرئ على هذا الرجل « النصراني » ، ولو كان يزنطياً لسماه « الرومي » . وروي المسعودي قصة طويلة عن المحادثات التي دارت بين ابن طولون وبين رجل قبطي ذكي كبير السن من أهالي الصعيد كان من المقرئين إليه ، وكثيراً ما كان ابن طولون يجلس معه ويستمع أشياء عجيبة كثيرة اكتسبها من خبرته .



وإن استعمال العقود والدعائم من الآجر بدل استعمال الأعمدة من الرخام يرجع إلى كراهة ذلك الأمير حرمان الكنائس للسيحية من أعمدتها الكثيرة ، كما يرجع بوجه خاص إلى رغبته في أن يكون مسجده بمنجاة من الحريق . وقد قيل له إنه إذا بنى مسجده من الآجر الأحمر والرماد والجير فإنه سوف يقاوم النار أكثر مما لو استعملت أعمدة الرخام في بنائه . ومهما يكن من شيء فإن الحقيقة التي لا ريب فيها أن هذا المسجد قاوم النيران التي دمرت سائر مباني القطاع ، وأن استعمال هذه الطريقة الجديدة في البناء ، وهي استعمال الدعامة المصنوعة من الآجر بدل الأعمدة الرخامية ، قد أدى إلى استخدام العقود المدية . كما أن استبعاد الرخام قد أوحى باستعمال الجص في الزخرفة التي لا يزال كثير منها محتفظاً بروعته إلى اليوم .

ويتكون الرواق الجنوبي الشرقي ، أي رواق القبلة ، من خمس بلاطات (Aislons) (١) ، ومن بلاطتين في كل من الأروقة الثلاثة الأخرى . والدعائم تعلوها عقود مغطاة بالجص ، وكذلك الزخارف التي تجدها بأعلى العقود وبواطنها وحول النوافذ قد صنعت بيد فنان عن طريق الحفر في الجص . والفرق بين هذه الزخارف الدقيقة والزخارف القلبية (٢) التي نشاهدها في قصر الحمراء والتي استخدمت فيها الآلة في الجص الرطب ، كالفرق بين الفنان والصانع .

وفي كل ركن من أركان الدعامة للمستطيلة التخطيط عمود متصل تاجه على شكل زهرة ، ومغطى بزخارف نباتية .

وعلى كل من جانبي العقود المشرفة على صحن الجامع — وهي أيضاً مدية الشكل ومحمولة على أعمدة متصلة — فتحات مقوذة مدية على أعمدة متصلة يكتنفها من جهتيها وريدة ، ويملأ جميع العقود والفتحات شريط يجرى حول الصحن مكون من وريادات يعلوها شرافات جميلة . أما العقود الداخلية فتختلف عن العقود التي

---

(١) البلاطة عبارة عن المساحة المحصورة بين صفين من العقود أو بين صف من العقود (Arcade) والحائط — المترجم .

(٢) يلاحظ تأثير فن سامرها على الزخارف الجصية في هذا المسجد . المترجم .



داخل رواق القبلة في مسجد ابن طولون

حول الصحن . وحول العقود والنوافذ الداخلية شريط من الزخارف النباتية يجري حولها ، ثم يسير أفقياً فوق الدعامات . ويسلو هذا الشريط شريط آخر يجري أفقياً تحت السقف عليه كتابات بالخط الكوفي منقوشة على الخشب ، ويمثل نموذجاً من الكتابة الكوفية في هذا العصر التاريخي . والسقف مغطى بعروق من الخشب تنظيها من أسفله ومن جانبيها ألواح من خشب الجوز مزخرفة بأشكال هندسية محفورة في الخشب ، وفي الرواق الشمالي الغربي المقابل لرواق القبلة ، نوافذ معقودة

معقود مدنية ومغطاة بزخارف هندسية ، عنصر الزخرفة بداخلها وريدة أو نجمة ، وهي محرمة في الجص (١) .

ويشبه مسجد أحمد بن طولون من حيث التخطيط مسجد عمرو بن العاص بعد أن أعيد بناؤه ؛ وهذا لا يختلف عن تخطيط مساجد القاهرة بين القرنين التاسع والثالث عشر . وكان صحن الجامع الفسيح للربيع الشكل ، الذي تبلغ مساحته ثلاثة أفدنة ، يتسع لأكثر عدد من المصلين . أما الأزوقة للسقوفة فقد حالت دون تسرب أشعة الشمس إلى جماعات الطلاب وأهل الورع والفقراء الذين كانوا يتخذون من المساجد مأوى لهم . والرواق الجنوبي الشرقي ، أو رواق القبلة أو قاعة الصلاة (٢) ، بما فيه من بلاطات عميقة ، كان يشتمل على المقصورة الخاصة ، على حين يوجه المحراب للمصلين نحو الكعبة . وهو تجويف معقود داخل في الحائط ، ومحمول من جهتيه على عمودين . أما اللبر والدكة فكانا — ولا يزالان — يساعدان المؤذنين والبلغين على سماع المصلين خطبة الجمعة وقراءة القرآن . وفوق المحراب قبة محمولة على مقرنصات ترجع إلى عصر السلطان لاجين .

أما من حيث الابتكار، أو التجديد فلا نجد في هذا الجامع شيئاً جديداً (٣) . ولا يبعد أن يكون العرب قد اقتبسوا شكله من معابد الساميين القديمة ، كما لا يبعد أن يمثل الصحن الفسيح الفناء الواسع في الكنيسة البيزنطية على شكل البازيليكا (Basilica) ، ويمثل الليوان أو الإيوان الكنيسة نفسها (٤) ، غير أنه يقوم على دعائم بدلا من السقوف المغطاة بالأقنية . كذلك نرى في الحائط المحراب المحجوف الذي يوجه المصلين نحو الكعبة . وما لا شك فيه أن هذا الأسلوب يلائم

---

(١) أنظر كتاب الفن العربي في مصر من ٥٤ — ٥٩ ، وهذه النوافذ لا يبعد أن تكون راجعة إلى عصر متأخر .

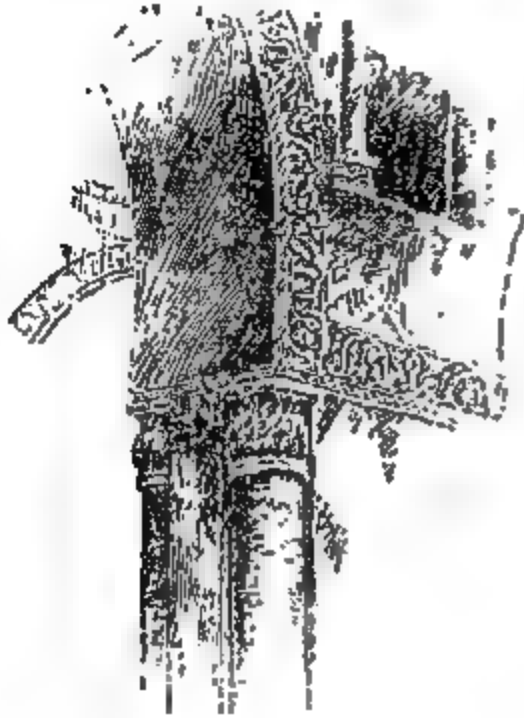
(٢) سماها لينبول «ليوان» وهي تسمية خطأ وتطلق على القاعة المغطاة بقبو ، وهي مفتوحة من جهة ومسدودة من الجهة الأخرى ، والأصل فيها إيوان كسرى بالملائن (طيشفون) . المترجم

(٣) يلاحظ أنه متأثر بمساجد العراق من ناحية التخطيط ومادة البناء والزخارف الجصية . المترجم .

(٤) المقصود بالإيوان هنا رواق القبلة . المترجم .

تمام الالة ما يتطلبه الجو ، فلم يكن ثمة حاجة إلى تغيير أو تبديل .

أما القبة والمثدنة ، وهما من مميزات مساجد القاهرة التي بنيت بعد ذلك ، فإن



زخرفة حول الطود والدعائم وأعلى  
الدعائم ونيجان الأعمدة

جامع ابن طولون يختلف عنها في شكل  
برج حلزوني درجاته من الخارج ، وهي  
تشبه الآثار الآشورية المعروفة بالزيجورات  
وقد بنيت على طراز « الملوية » وهي  
مثدنة مسجد المتوكل في سامرا على نهر  
دجلة . ولا يبعد أن يكون الجزء العلوي  
الذي نراه على شكل منبرة قد أعيد بناؤه  
في زمن متأخر . ولو أن منارة جامع  
ابن طولون كانت من غير شك لا تزال  
على حالها الأول في سنة ١٠٤٧ م حيث

وصفها ناصر خسرو ، فإنه من الصعب أن نسميها مثدنة بما تدل عليه هذه الكلمة (١)  
وليست هناك قبة ، إذ لا شأن لها بالصلاة وبالتالي بالجامع (٢) فهي التغطية الأصلية  
لسقف ضريح . ولا توجد إلا حيث يوجد تغطية هذه القبة ، أو على الأقل إذا عقد  
العزم على بناء ضريح تحت هذه القبة . ولا نجد قبة إلا حيث يوجد بناء ملحق

(١) يقول القريري (خطط ج ٢ ص ٢٨٥) إن مثدنة جامع أقبيا الصغير (الذي كان من  
بين مباني الأزهر والذي تم بناؤه في سنة ١٣٣١) كانت أول مثدنة بنيت من الحجر بالديار المصرية  
بعد المنصورية التي بناها المنصور قلاوون . ومن ذلك نستنتج أن مثدنة قلاوون (سنة ١٢٨٤ م)  
كانت أول مثدنة من الحجر عرفها القريري . ومن المحتمل أنه لم يكن يسمى منارة جامع أحمد  
ابن طولون مثدنة بالمعنى الصحيح . ومن الواضح أنه لم يعرف شيئا عن مآذن جامع الحاكم التي  
بنيت من الحجر . أنظر جامع الحاكم .

(٢) هناك قبة صغيرة فوق المحراب ، غير أن هذه القبة ، كالنمر والزخارف التي عملت في  
المسجد يرجع تاريخها إلى الإصلاح الذي قام به لاشين في سنة ١٢٩٦ م ، وكنا الميضاة التي  
تعلوها قبة في وسط الصحن ، فترجع إلى عصر متأخر إذ حلت محل الفوارة الرخامية المسقوفة  
والقائمة على أعمدة .

بالمسجد يضم في العادة قبر منشئ هذا المسجد أو أسرته . وليس من الضروري أن تكون هذه القبة قريبة من مكان الصلاة . علي أنه قد يكون من قبيل المصادفة أن يكون من مساجد القاهرة عدد كبير من هذه المساجد التي يضم كل منها حجرة تضم قبر مؤسس المسجد . وإن تلك القباب التي لا عدد لها والتي تشاهد من قلعة الجبل ، بما يوحى إلينا بهذه الفكرة الطبيعية ، وهي أن لكل مسجد من مساجد القاهرة ضريحاً خاصاً به . حقيقة أن معظم المساجد التي بها أضرحة قباباً ، غير أنه في الوقت نفسه لا ترى مسجداً لم يكن من المقرر أن يبنى فيه ضريح في أول الأمر ، يحتمل على فية ما . وقد ترجع القبة في أصلها إلى تلك القباب التي كانت تحلق قبور بابل والتي لا بد أن يكون الكثير منها مألوفاً لدى العرب ( بل أكثر من ذلك لدى الأتراك ) الذين احتفظوا بشكل القبة على حين لم يحملوا قط على استعمالها ، مثلهم في ذلك مثل القبط والبيزنطيين حيناً اقتبسوا سقوف كنائسهم وواجهاتها .

ولكن إذا لم يكن هناك إلا القليل من الابتكار في شكل المسجد ، فإن عقوده المدببة ونقوشه الجنية جديرة بالدرس . وكذلك نجد العقود المدببة في مقياس النيل الذي بنى في جزيرة الروضة سنة ٨٦١ م ، أي قبل بناء جامع أحمد بن طولون بخمسة عشرة سنة . ويقال إن المهندس الذي بنى هذا المقياس من أهالي فرغانة على نهر سيحون . وليس ثمة دليل على أن تلك العقود قد بنيت علي مثال الكنيسة القبطية ولكننا نجد من جهة أخرى أن النقوش المختلفة الحالية من التكلف والمصنوعة من الجص والتي وضع رسمها المهندس القبطي ، قد اقتبسها كلها بلا ريب من النقوش التي حذقها مواطنوه (١) . ولم يكن العرب في وقت من الأوقات ، من الفنانين أو حتى من الصناع المهرة . فقد استحضروا الفرس والروم لينوا لهم دورهم ومساجدهم ويزينوها . ولكنهم كانوا أكثر من هذا يستخدمون القبط الذين كانوا صناع مصر المهرة خلال آلاف السنين التي مرت بتاريخها . ونحن إذ نقارن بين النقوش المصنوعة من الجص في مسجد أحمد بن طولون وبين النقوش القبطية المخفورة التي نراها بدار الآثار المصرية في القاهرة ، وتلك التي أحضرت من مقابر عين الصيرة

---

(١) يلاحظ أن الزخارف الجصية متأثرة بالأساليب الزخرفية في ساسا .

والمودعة بدار الآثار العربية ، تبين لنا في جلاء مصدر الزخارف التي على شكل زهور ، والتي يرجع تاريخها إلى المدرسة البيزنطية في سورية ومصر (١) . أما النقوش الكوفية المحفورة على الخشب فهي ترجع في الواقع إلى الفن العربي الخالص ، وقد تطورات فيما بعد حتى أصبحت من أهم سمات الفن العربي (٢) . كذلك الزخارف الهندسية الموجودة في النوافذ ترجع إلى أصل إغريقي ، كما قرر ذلك مسيو بورجوان في رسالته المستفيضة عن الزخارف . غير أنه ليس من المؤكد أن تاريخ هذه الزخارف ترجع إلى المباني الأصلية . كما أن الأشكال التي على هيئة نجوم توحى إلينا بأن النوافذ المفتوحة قد تكون جزءاً من الإصلاحات التي تمت فيما بعد (٣) .

غير أن اهتمام أحمد بن طولون بالبناء لم يقف في سبيل مطامعه في الفتوح . فلقد قام بدور ملحوظ في سياسة بلاد العراق ، وكاد ينجح في أن يجعل الخليفة في قبضة يده . وكان الرئيس الديني في الإسلام (المعتمد) يسره أن يهرب من أخيه الطاغية وهو الموفق ، غير أن هذه الحطة قد منيت بالإخفاق . وبذلك فقدت مصر الفرصة التي أتيحت لها لتصبح مقر الخلافة الإسلامية ، وكان من أثر ذلك أن أصبح ذلك الأمير الطموح يلعب في مساجد العراق ، وكذلك عجز ابن طولون عن الاستيلاء على مدينة مكة المقدسة . غير أن حكمه انتهى بحملات مظفرة قام بها في وجه امبراطور الروم ، حيث هزمت القوات المصرية العدو على مقربة من طرسوس ، وقتلت — على ما يقال — ستين ألفاً من المسيحيين ، ووقع في أيديهم كثير من الصلبان الذهبية والفضية والمجوهرات والأواني المقدسة . غير أن ابن طولون سار نحو الشمال ليخضع نائبه . وكان الشتاء في ذلك الوقت قارساً فأرسل نائبه الماء من نهر الباردان ففاض على الأراضي وكاد يغرق عسكر ابن طولون في «أذنة» . وهناك يجاهد ابن طولون بدأ من العودة إلى انطاكية ، حيث شرب كثيراً من لبن البقر — على أثر ما شعر به

---

(١) توجلى القاعة المجاورة لدخل دار الآثار العربية إلى بين الداخل ، مجموعة من الزخارف التي تشبه زخارف سامها والتي قلت عنها .

(٢) هناك بعض نماذج للنقوش العربية المحفورة على الخشب من جامع أحمد بن طولون تراها

M. van Berchem, Notes d'Archéologie Arabe, Extr. du (٣)

Journal Asiatique, 125 (1891).

من الجوع والإجهاد في الحركة — ومرض بالهوسنتاريا وطلب العودة إلى مصر ،  
وثقل عليه ركوب الدواب ، فعملت له عجلة كانت تجرها الرجال ، ولما وصل إلى  
القسطنطينية ساءت حالته . وكان هذا الأمير في مرضه مصدر قزع أطبائه الذين لم  
يستمع إلى إرشاداتهم وأبى أن يتناول الغذاء الذي كانوا يشيرون عليه بتناوله  
ولما زادت علته أمر بضرب طبيبه بالسياط . وذهبت سدى صلوات المسلمين  
واليهود والنصارى ودعواتهم بشفائه ، ولم يستطع القرآن ، أو التوراة ، أو  
الإنجيل أن يقد حياته ، ومات في شهر مايو سنة ٨٨٤ م قبل أن يبلغ الخمسين  
من عمره .

ولقد أضاف خليفته خمارويه الكثير إلى حاضرة أبيه الزاهرة ، ولا غرابة فقد  
شارك أباه ميوله في إقامة المباني الفخمة وفي سياسته التي كانت تهدف إلى التوسع في  
الفتوح . لذلك زاد في القصر ، وحول « الميدان » إلى بستان غرس فيه الأشجار  
النادرة والرياحين على اختلافها . وتأنق في هذا البستان فكسى جنود الأشجار  
نحاساً مذهباً حسن الصنعة ، وجعل بين النحاس وجنود الشجر أنابيب الرصاص  
وأجرى فيها الماء . وكانت مياه هذه الأنابيب لا تزود الأشجار وحدها بالماء ، بل  
كان يخرج من تضاعيف الشجر عيون الماء المنحدرة إلى نافورات يفيض منها الماء إلى  
مجار تسقى البستان على اتساعه . أما الريحان فكان على صورة نقوش وكتابات  
يتعمدها البستاني بالمقراض . وزرع فيه النيلوفر الأحمر والأزرق والأصفر ، واستورد  
عيدان النيلوفر السجيب الشكل ، كما أهدى إليه من البلاد عيدان الثمار والزهور ،  
وطعم شجر الشمس باللوز والليمون وغيرها . وفي وسط البستان بنى خمارويه برجاً  
فيه أصناف القمارى والتونيات وغيرها من الطيور للشجيرة التي كانت تسبح في القنوات  
الجارية في البرج . كما طلي حيطان بيت الذهب في القصر بالذهب المحلى باللآلئ ،  
واتخذ على حوائطه صوراً بارزة من الخشب تمثل وتعلل حظاياهم ومنهياتهم بأشكال بلغت  
حد الكمال ودقة الزخرف . وطلى رؤوس تماثيل النساء ، أ كاليل من الذهب الخالص  
مرصعة بالجواهر ، وعلى آذانها المثبتة في الحوائط بمسامير ، أجراس تقال الوزن  
محكمة الصنع ، وقد لونت أجسادها بالأصباغ العجيبة التي تبدو للرائى كأنها ثياب حقيقية  
وبنى خمارويه أمام القصر فسقية مملوءة بالزئبق ، وقد أشار عليه طبيبه باتخاذ هذه

القسقية بعد أن شكا إليه ما كان يصيبه من الأرق . وكان طولها عشرين ذراعا وعرضها عشرين ذراعا ( ٢٢٥ متراً مربعاً ) . فلذا نام خمارويه على فرش من آدم يملأ بالريح حتى ينتفخ ، ارتج الفراش وتحرك بحركة الزئبق لأنه رجراج ، وإذا نام خمارويه سهر زريق ، أسده الأمين على حراسته ، وبعد أن زال القصر بزمن طويل جعل الناس يحفرون في الأرض التماسا للزئبق المنساب بين شقوق البركة التي كانت بمثابة أرجوحة للأمير .

كذلك بنى خمارويه في هذا القصر بيتا على مثال قبة الهواء أطلق عليه « الدكة » ، وضعت فيه الستائر والبسط الفاخرة ، وكان خمارويه يجلس في هذا المكان ويشرف على ما في قصره وبستانه ، فيشاهد النيل والجبل والصحراء ؛ وفي بيت آخر بناء أبوه أحمد بن طولون أقام للكبرون الذين كانوا يكبرون ويطنون أوقات الصلاة ، ويرتلون الآيات القرآنية الكريمة . وكان خمارويه إذا جلس لسماع الغناء وسمع المكبرين يكبرون ، أمر للغنيات بوقف الغناء ، وأخذ يسمع أصوات المكبرين في سكون وخشوع .

وقد أسهب القرينى (١) في ذكر عجائب دار الحيوان وما كانت تحويه من السباع والتمور والفهود والفيلة والزرافات ، واسطبلاته التي وقف عليها كوراً بأكلها كانت تزرع بها الملوقات ، ومطابخه التي كان ينفق عليها إثني عشر ألف دينار في الشهر ، وأبهة حرسه الذين جمعهم من عرب الهندا ومناصرة الضياع . « وكان مهابا ذا سطوة . وقد وقع في قلوب الكافة أنه متى أشار إليه أحد بأصبعه أو تكلم أو قرب منه ، لحقه مكروه عظيم ، فكان إذا أقبل لا يسمع من أحد كلمة ، ولا سعة ولا عطسة ولا نحنة ألبنة ، كأنما على رءوسهم الطير ، ومن المحزن حقا أنه لم يبق لكل هذه العظمة والأبهة من أثر بعد سنين قليلة — اللهم إلا آثار بركة الزئبق .

غير أن السبع أو الحرس الذي اتخذته خمارويه من شبان العرب الأشداء لم

(١) خطط ج ١ ص ٣١٨ .



يستطيعوا أن يعملوا على إنقاذه من غيرة حريمه . ففي مستهل سنة ٨٩٦ م انتهت للوامة التي دبرها له الخدم والجواري بذبحه في دمشق ، و صلب قتله . وفي غمرة العويل والصراخ ، دفن جثمان خiarويه إلى جانب جثمان أبيه على مقربة من قصره تحت سفح القطم .

ولم تدم أسرة خiarويه بن أحمد بن طولون بعده طويلاً ، ذلك أن ولديه الصغيرين لم يتمكنوا من مقاومة جهود الخليفة في سبيل استرداد ولايتي مصر وسورية الغنيتين ، اللتين ظلتا تحت سلطان أحمد ابن طولون وابنه ثلاثين سنة . ففي سنة ٩٠٥ م دخل القائد العباسي محمد بن سليمان مدينة القطائع ، وقتل جند الطولونيين من السودان وضرب مبانيها الجميلة . وهكذا أصبحت العسكر مرة أخرى مقراً للحكومة ، كما كانت في عهد ولاية العباسيين الأولين ، أما القطائع فإن ما تبقى منها بعد أن عاث فيها الجند فساد أربعة أشهر ، أخذ يهدم على مر الزمن ، وتوقفت المئمة ألف منزل — إذا كان لنا أن نصدق للتورخين — تدريجياً .

غير أن الخراب قد زال نهائياً في عهد المستنصر في القرن الحادي عشر حين انتشرت المجاعة وشاعت الفوضى في البلاد . وسوف نتحدث بعد عن هذا الحكم الملىء بالفوضى والاضطراب . غير أنه يجدر بنا أن نشير في هذا المقام إلى ما انتهت إليه كل من العسكر والقطائع . ففي سنة ١٠٧٠ م كانت هاتان المدينتان قد وصلت إلى درجة كبيرة من الخراب ، حتى إنهم بنوا سوراً على طول الطريق بين قصر القاهرة الجديد إلى القسطنطينية . وجبارة أخرى من باب زويلة إلى ما يقرب من جامع عمرو بن العاص — حتى لا يستاء الخليفة من منظر هذه المدن المتهمة إذا خرج محتطياً جواده . وقد أصبحت أطلال القطائع والعسكر كما لو كانتا محجراً يزود الناس بمواد البناء ليستعينوا بها في أماكن أخرى . كما أن القضاء الذي كان يقع بين القاهرة الجديدة والقسطنطينية قد تحول كله إلى ما يشبه الصحراء ، اللهم إلا بضع حدائق ومنازل ريفية . ومع أن الناس أخذوا يبنون دورهم خارج باب زويلة بعد سنة ١١٢٥ م ، بقي سائر موقفي هاتين المدينتين غير أهل بالسكان ، اللهم إلا حول جامع أحمد بن طولون . وقد ظلت الحال كذلك إلى اليوم الذي كتب فيه المقرئ في سنة ١٤٢٤ م .

ولا عجب إذا أصبح المكان القريب من جبل يشكر الذي يعرف بقلعة الكباش (١) — حيث قامت « مصطبة فرعون » في يوم من الأيام في المكان الذي قدم فيه سيدنا إبراهيم قربانه — مسكنًا للجن . وفي القرن الثامن عشر كان هناك تابوت قديم بداخله جثة سيده تنتمي إلى الأسرة السادسة والعشرين لا يزال يحتل مكان مصطبة فرعون ، وكل شيء كان الناس يحضرونه إلى هناك — حتى ولو كان كومة من البلح — لا بد أنه كان يتحول مباشرة إلى ذهب . أما الآن فإن علم الكيمياء قد انتهى ، واحتل التابوت مكانه في المتحف البريطاني حيث لم تحدث معجزة من هذا القبيل ، بل إن الجن قد هجر ذلك المكان .

---

(١) أظن صورة قلعة الكباش (شكل ١٥) وهذا البناء العجيب بناه الصالح — حفيد أخى صلاح الدين الأيوبي — حول سنة ١٢٤٥ ( ولا يعد أن يكون قد بناه على أساس قديم ) ، وكان يستعمل بمثابة قصر ملكي . وفي هذا المكان نصب بيوس الأول ، الخليفة الحاكم العباسي ، ثم أماد الناصر بناء قلعة الكباش في سنة ١٣٢٣ ، وطاش فيه الأمير صرغتمش ، وبنى له السور والأبراج المحيطة به . غير أن الأشرف شعبان هدم جدرانها وأصبح يستخدم للسكن ( المقرئ ج ٢ ص ١٢٣ ) .

## الباب الرابع

### مصر

مصر - الفسطاط الحاضرة التجارية - وزراء المحدثين - الإخشيدي - المسعودي  
في مصر - جزيرة الروضة - رجال الدين في مصر - الشعراء - بلاط كافور -  
ثورات المسلمين - حكومة كافور - مصر في القرنين العاشر والحادي عشر -  
وصف ناصر خسرو - حريق مصر - إعادة بعض المباني إلى ما كانت عليه -  
وصف ابن سعيد .

أصبحت مصر بعد سقوط البيت الطولوني ، ولاية تابعة للخلافة في بغداد . وبعد  
أن دمر الفاتحون مدينة القطائع ، اتخذ الحكام الجدد « العسكر » مقرا لهم ، غير  
أن إسم العسكر سرعان ما زال وأصبحت هذه الناحية جزءا من الفسطاط أو مصر .  
وفي طوال الوقت الذي قامت فيه أو زالت الأحياء الرسمية ، كانت مصر - حاضرة  
مصر الحقيقية - آخذة في النمو والازدهار . وكان الجند وموظفو القصر يقيمون في  
عزلة في هاتين المدينتين - في الوقت الذي حرم فيه بعض سكان المدن مزاولة بعض  
أنواع التجارة - قد خفف عنهم قسوة الجند السود وطفيان الموظفين الحكوميين ،  
كما تركهم أحرارا يزاولون ما شاءوا من أنواع التجارة وكان النصيب الأكبر من تجارة  
الهند وبلاد العرب مع أوروبا - تلك التجارة التي أصبحت فيما بعد ذات أهمية عظيمة -  
يمر بمصر ، التي كانت أرصفها مكدسة بالسلع الواردة من كثير من البلاد الأجنبية .  
حقا إن مصر وحاضرتها قد أصبحت بعد سقوط الطولونيين فريسة للاستبداد العسكري ،  
وكان قواد الخلفاء يفعلون ما يحلو لهم ، إذ لم يكن لأشراف بغداد عليهم سلطة قوية .  
تلك الأيام كانت أياما قاسية في مصر ، حين طرد أحد الشبان الثائرين - ويدعى الخننجي -  
الذي عمل على عودة الدولة الطولونية بمساعدة الشعب الذي تحمس لفكرته واستولى  
على الحاضرة وعلى الإسكندرية بل أحل الهزيمة بجيش جديد من بغداد وظل هذا الثائر  
متباديا في قوته حتى أعدم بعد ثمانية أشهر من ذلك الصراع ، سنة ٩٠٦ م على أثر  
مؤامرة دبرها له أعداؤه . وكان هذه الأحداث لم تكن كافية في ذلك الجيل ، إذ أرسل

الخلفاء الفاطميون القيروان الذين كانوا يختلفون في الذهاب الديني جيشا من الغرب إلى أهل مصر الوادعين وأغاروا على السكك الواقعة على النيل عند الجزيرة ، حيث خندق جيش الاحتلال الذي أرسل من بغداد بقيادة ذكا الرومي . و انتهت حملة الفاطميين على مصر في سنة ٩١٠ م بالفشل وطرد جند إفريقية غير أن أحوال البلاد لم تتحسن على الرغم من ذلك فقد كان الحاكم التركي يحتفظ بقواته في قصره الخاص لحمايته ، وبعد موته ، طرد ابنه من البلاد على أيدي الجند الذين طالبوا بما تأخر لهم من رواتب وهنا اختفى المادرائي عامل الخراج وأخذ الحكام المتنافسون يتنازعون على السلطة ويحشدون قوامهم وينتشرون في البلاد للتقسمة وتبع ذلك حدوث زلزال مروع آتى على كثير من الدور والقرى واقترب ذلك الزلزال بوابل من الشهب المفعزة التي أدخلت الرعب في قلوب الناس .

وكان أولئك الذين أفادوا من هذه القوضى أكثر من غيرهم الشرفين على بيت المال الذين يظهر أنهم تصرفوا في الموارد كيفما شاءوا ولقد شغل منصب عامل الخراج ثلاثة من أفراد أسرة المادرائي التي تنتسب إلى قرية مادرايا القريبة من البصرة على نهر دجلة . وقد تم بذلك المنصب أحد هؤلاء الثلاثة في عهد خمارويه وعهد ولديه بل في عهد بعض ولاة الخلفاء ثم في عهد الأسرة التي وليت حكم مصر بعد ذلك . وعلى الرغم من كل ما انتاب موارد الدولة ، جعل محمد المادرائي هذه الموارد تصل إلى مبلغ يربو على مائتي ألف جنيه في السنة ، عدا الايجارات المختلفة . غير أنه كان يجمع كثيرا ، ويعطي كثيرا أيضا ، فقد كان يوزع كل شهر على الفقراء ما يزن مائة ألف رطل من الطعام وحررا آلافا كثيرة من الرقيق ووقف الأموال على المؤسسات الدينية ، وكان ينفق في كل عام مبلغا يتراوح بين ستين ألفا وثمانين ألفا من الجنيهات على رحلاته لأداء فريضة الحج إلى مكة التي بلغت إحدى وعشرين ، لأنه كان رجلا تقيا ورعا ، يقوم بالفروض الدينية من صلاة وصوم على أكل وجه نمسا المسحف دائما في يده . وبما أثر عن إحسانه الواسع التطلق في موسم الحج أنه لم يكن ثمة شخص في مكة لم ينعم بخيراته ويشبه المادرائي هذا ، القاضي العظيم ابن حريويه الذي كان يستقبل حتى الولاة في زيارتهم الرسمية وهو جالس . وهذان الموظفان يبدان بحق من الأمثلة الاستثنائية النادرة للموظفين بين هذا العدد الكبير من المستبدين .

وفي النهاية تقلد زمام الحكم أحد الأتراك الأقوياء ، وإذا كان محمد « الإخشيد » الذي استمد لقبه من أسلافه ملوك فرغانة يلاذ ماوراء النهر لم يترك أى أثر في « مصر » كسلفه العظيم ابن طولون وإذا كانت سياسته قد قامت على الحيلة والحذر وقنع بأن يمتد ملكه إلى ماوراء دمشق بدلا من أن يمتد إلى نهر الفرات ، فإنه استطاع على الأقل أن يحفظ النظام في مصر ، ويبعد عنها الغزاة من أفريقية كما أشعل الحرب في سورية ، وجعل قصره العظيم في « بستان كافور » غربي سوق النحاسين الحالي - مقرا له . وهناك الكثير من القصص التي تروى عن بطولته التي تجلت في أثناء حربه مع ابن رائق ذلك الزعيم التركي الذي أصبحت له السيادة على سورية ردحا من الزمن . فقد أخذ الحزن هذا الأمير كل ما أخذ حين وجد جثة أحد إخوة الإخشيد بين القتلى . حتى إنه أرسل ابنه إلى خصمه رهينة يتصرف فيه كيف شاء . وهنا تجلت شهامة الإخشيد فخلع على هذه الضحية وأرسله إلى أبيه مكرما ، وتزوج هذا الشاب من ابنة مضيقة الباسل .

وفي صيف سنة ٩٣٥ م شهد سكان « مصر » موكبا رائعا من سفن الإخشيد الحربية وهي تتقدم في النيل من دمياط وتحتل جزيرة الروضة التي كان يصلها بالمدينة جسر يتألف من السفن العائمة . وفي أغسطس من تلك السنة دخلت القوات الحاضرة . وأخذت في السلب والنهب مدة يومين وظلت على ذلك حتى أصدر ذلك الأمير الحازم الأمر بالعدول . وبعد القوضى التي حلت بالبلاد خلال الثلاثين سنة التي تلت سقوط الطولونيين ، بذل الحاكم الجديد جهده في تغيير هذه الحال في سبيل خير البلاد ولقد عبر الناس عن مشاعرهم حينما قفز ابن الخالقي في حماس على الحصان الخشي القائم أمام قصره ثم ترك حماسة تطير إلى الأمير الجديد بعد أن عطرها بالمسك وماء الورد (١) وقد استعاد جامع عمرو العتيق ما كان له من مكانة سابقة باعتباره أهم دور العبادة كما زوده الإخشيد ببعض الحصر الجديدة وكذلك وضع فيه الكثير من المصابيح والعطور . وكان يحضر بنفسه في الليلة الأخيرة من شهر رمضان مرتديا الملابس البيضاء

---

(١) ابن سعيد : النصر العربي من ١٤٠

ومن ورائه خمسمائة تابع يحملون المشاعل وفي اليوم التالي وهو أول أيام عيد الفطر كان يقيم عرضاً على النحو الذي كان يقام به في أيام ابن طولون .

وقد جرت العادة أن يشترك الجيش في هذا العرض ، وكان الجيش الذي بلغ يسير طول اليوم يتبعه ثمانية آلاف عمال يحمل كل منهم درعاً لامعاً ويمر هؤلاء أمام دار الإمارة . وفي اليوم التالي — أي في اليوم الثاني من أيام العيد — كان الأمير يحضر الصلاة في الجامع وتفتح أبواب القصر للناس ولما أرسل الخليفة إلى الإخشيد الخلة والقلادة والسوار ازدانت الشوارع والأسواق بأغفر القرش والبسط الثمينة ، وغطيت أبواب الجامع الضيق بالديباج اللوحي بالذهب بمناسبة مرور موكب الأمير — وهو مرتد خلعتة الجديدة — وهو في طريقه إلى الصلاة في يوم الأربعاء (١)

تلك كانت أياماً زاهرة في مدينة « مصر » وقد كاد الناس ينسون المصائد الكثيرة وأعمال القسوة التي امتاز بها نظام الحكم الجديد إزاء هذه البهجة التي نعموا بها ، ولقد أخذ الأدب العربي في الإزدهار في الحاضرة الواقعة بجانب النيل ، على الرغم من أن للنافسة كانت لا تزال بيده عما كان بينها وبين حاضرة الخلفاء على نهر دجلة حيث كان للوثرات الفارسية أثر في ظهور دراسات لم يكن الجو قد تهيأ بعد لوصولها إلى حاضرة مصر التي كانت أكثر تمسكاً بمبادئ المذهب السني ومن ثم كانت الدراسات العربية لا تزال في المهد في أيام الإخشيد غير أن الشعر كانت مزدهراً على الرغم مما ساد من التقليد ، ولكن التاريخ أخذ يدون ، وأما العلوم فإنها لم تمتد إليها يد البحث اللهم إلا في صورة ناقصة تتمثل في علم التنجيم ، ولم تكن هناك أسماء عربية قد أخذت تلح في محيط الأدب إلا نادراً .

وكان الكتاب يتناولون حياة النبي ويصوغونها في شكل تاريخ ومن أشهر هؤلاء وأقدمهم إثنان هما : الطبري والسعدي وكانا معاصرين للإخشيد والواقع أن السعدي

---

(١) كان الإخشيد مولماً بالنبر . وقد اعتاد الناس أن يقدموا له كميات كبيرة منه في أول العام الجديد وفي أعياد الربيع ، وكان يبيعها بأعنان عالية . وبعثوا له أحرق منزل أرملة ووجد به من العبر ما يساوي خمسين ألف جنيه ( ابن سعيد ) .

زار مصر في سنة ٩٤٢ م ، ومع أنه — لسوء حظنا — لم يصف حاضرة هذه البلاد المصرية كما شاهدها فقد وصف « ليلة العطاس » وصفا شائعا — وكانت من اللوازم المسيحية — التي تبين لنا كيف احتفل بها أهل مصر احتفالا ينطوي على البهجة والسرور . وفي ذلك يقول : « ليلة العطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها لا ينام الناس فيها ، وهي ليلة عشر تمضي من كانون الثاني . ولقد حضرت سنة الثلاثين وثلاثمائة ليلة العطاس في مصر ، والإخشيد عهد بن طنج قد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب القسطنطينية مشعل . غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع . وقد حضر في تلك الليلة آلاف من الناس من المسلمين والنصارى ، منهم من في الزوارق ومنهم في الدور المجاورة للنيل ، ومنهم من على الشطوط لا يتناكرون الحضور ، ويظهرون كل ما يمكنهم إظهاره من الآكل والشارب وللألبس والآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهي والعزف والرقص ، وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأتملها سرورا ، ولا تغلق بها الدروب ويخطف أكرهم في النيل ، ويدعون أنه أمان من المرض » . (١)

ويحدثنا هذا الرحالة كيف أن الناس كانوا يطلبون من الإخشيد السماح لهم بالتنقيب عنهم يمترون على الكنوز التي ورد ذكرها في النصوص القديمة غير أنهم لم يجدوا سوى بضعة كهوف مملوءة بالمظالم والأثربة أو بقايا جثث للوثى . ويذكر لنا المسعودي مقياس النيل المدين أقما في جزيرة الروضة التي يسميها « دار الصناعة » أما المقياس الأول الذي لا يزال قائما إلى الآن ، فقد بناء أسامة ، وبني الثاني — أو على الأصح أعاد بناءه — ابن طولون ، ولم يكن يستعمل إلا وقت الفيضان . كما شاهد هذا الرحالة الجسر الذي كان يصل مصر بجزيرة الروضة ، والجسر الآخر الذي كان يصل هذه الجزيرة بالجزيرة من الضفة الغربية . وقابل في مدينة مصر تجارا من القسطنطينية . غير أنه لم يذكر لنا شيئا عن المدينة نفسها . غير أن ابن سعيد وغيره من المؤرخين لم يذكروا أن الإخشيد بنى في مصر دارا للصناعة حلت محل الأحواض

(١) المسعودي : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٦٤ - ٣٦٥ ولقد قابل المسعودي المؤرخ أوتيسيا Eutychius في مصر حيث انتهى من وضع كتابه « التنبية » وذلك سنة ٣٤٥ هـ .

القديعة بجزيرة الروضة حيث أقيم فيه حديقة ودار للنزهة ، وقد بلغ من ميل الإخشيد إلى الاقتصاد أنه لما بلغت قيمة نفقات إنشاء هذه الحديقة ، صاح قائلاً : ماذا ؟ ثلاثون ألف دينار لدار للنزهة ؟ ثم أمر في الحال بإقتصاص هذه التكاليف إلى خمسة آلاف وكما أن دار الصناعة في الروضة حلت محل دار صناعة مصر ، كذلك حلت محلها فيما بعد ميناء للقوس على بعد ميل منها . أما دار الإخشيد التي بناها للنزهة في جزيرة الروضة وراعى في بنائها الاقتصاد لم يبق منها أى أثر . غير أن جزيرة الروضة نفسها بقيت للسكان القدي كان يفضلهم الأمراء الذين ولوا حكم مصر ولا شك أن بناء الإخشيد قد هدم ليحل محله المودج وغير ذلك من مباني الأيوبيين التي تعد أكثر عددا ونخامة من مباني الإخشيديين . وكان شغل رجال العلم الشاغل في ذلك الوقت تفسير الشريعة القراء كما ورد ذلك في القرآن الكريم والحديث الشريف وأحكام الفقهاء . ولما كان القرآن من الكتب السبوية ، كان لزاما على القاضى المسلم أن يكون من رجال الدين . وكان علماء مصر في صدر الإسلام من الفقهاء بالمعنى الصحيح وكان للمدارس التي تمثل للذاهب الأربعة — الحنفي والشافعي والشافعي والحنبلى — سكان من جامع عمرو بن العاص . أما الشافعية والمالكية فكان لكل منهم خمسة عشر رواقا ، وأما الحنفية فكان لهم ثلاثة فقط . وكان صحن الجامع الكبير يضم بمنارعاتهم . وقد يبدو لنا الآن ضالة الفرق بين هذه للذاهب ، غير أنها لم تكن كذلك بالنسبة إلى المسلمين في ذلك الوقت ، فقد كانت فروقا لها أهميتها وخطورها ، وكثيرا ما كان علماء الدين يحتدون في أثناء مناقشاتهم وجدلهم في الجامع العتيق حتى أن الإخشيد اضطر إلى إزالة الحصر والوسائد وإغلاق المسجد إلا في أوقات الصلاة ومن ثم كانت المساجد — كما هي الحال بالنسبة إلى بعضها في الوقت الحاضر — دورا للعلم وليست مجرد مدارس دينية . وكان شعراء العرب قبل بعثة الرسول عليه الصلاة والسلام يتشدون قصائدهم في الأسواق أمام جمهور التقاد من مواطنهم . أما في العصر الإسلامى فقد كان النقد يتخذ صورة أخرى ، فلما نظم الشاعر شعرا زعم أنه قد أجاد فيه ، وأسرع إلى المسجد واشترك مع جمهور التقاد وهناك يجد فريقا من الفقهاء والشعراء والمفسرين وقد جلسوا جميعا القرفصاء على السجاجيد حول صحن الجامع ، وأخذوا يشرحون للقيف من الطلبة الجالسين من حولهم بلاغة الأسلوب



ودقته ، وكان الشاعر ينشد أمام النقاد في زهو وإعجاب آخر ما نظمته من القصائد ولكن في شيء من الخوف والوجل . تلك كانت تجربة قاسية لأن بعض المستمعين كانوا من المناقسين له ، كما كانوا جميعا نقادا لاذعين لا يسمحون بأية هفوة أو خروج عن الوزن أو خطأ في المعنى وكانت لهم فوق هذا طريقة للتعبير عن آرائهم . حينئذ كنت تسمع الجدل يحدث ، ثم تنشد بضعة أبيات من شعر الشعراء المتقدمين ويبدأ الإمتحان ، ويدافع الشاعر حيال هذا كله عن قصيدته ويدلى بحججه ، ولا ينصرف في نهاية الأمر إلا بعد أن يكون قد استهدف لأقصى تجربة مر بها . (١)

ولم يكن للمسائل الدينية وحدها صدى في جامع عمرو في أيام الإخشيد ، فإنه ، على الرغم من أنه كان هناك كثير من الفقهاء وعلماء الدين الذين دون ابن سعيد تاريخ حياتهم وغير ذلك . كان هناك كثيرون غير هؤلاء . كانت هناك أسرة طباطبا للشهورة التي ترجع في نسبها إلى علي بن أبي طالب - وكان كل أفرادها من الشعراء الذين حفل شعرهم بحب الطبيعة وبالحب نفسه . غير أن أحدهم لم يتدح الخمر ، على الرغم من أنه كان عيبا إلى شعراء الإسلام . ألم ينظم أحد هؤلاء الشعراء (٢) شعرا في الغناء كهذا الشعر الذي يقول فيه ؟

إذا الكرّوانُ صاح على الرمال      وحلّ البدرُ في برج الكمال  
وجعد وجبهُ برّكتنا هبوباً      تمرُّ به الجنوب مع الشمال  
وخرُّ كَتّ النصوصُ فشا بهتها      قدودُ سقّاتنا في كل حال  
فهاكِ الكأسَ مُترعةً ودعني      أبادر جِدَّتِي قبل ارتحال  
فكلُّ جماعةٍ لا بد يوماً      يُفرّقُ بينهم صِرْفُ الليالي  
ومن هؤلاء أبو الفضل الذي ينتسب إلى أسرة القرات للشهورة ، ومع أنه كان

(١) أنظر ما كتبه المؤلف تحت عنوان Arab Classic في كتابه . Among my Books, p. 90.

ص ٩٠

(٢) هذا الشاعر هو أبو محمد القاسم بن أحمد الرمي بن طباطبا . أنظر كتاب القرب لابن سعيد

ص ٤٩-٥١ - للترجم .

ثقة في رواية الحديث ، كان شاعرا مجيدا ، لم يزدركثيره من الفقهاء الكثيرين ،  
أن ينظم قصيدة جيدة من حين إلى حين . من ذلك قوله :

مَنْ أَخْلَ النَّفْسَ أَحْيَاها وَرَوَّحَهَا      وَلَمْ يَبْتَ طَلَوِيَا مِنْهَا عَلَى ضَجَرٍ<sup>(١)</sup>  
إِنَّ الرِّيحَ إِذَا اشْتَدَّتْ عَوَاصِفُهَا      فَلَيْسَ تَرَى سِوَى الْعَالِي مِنَ الشَّجَرِ

بل إن أبا الحسن منصور كان ينظم بعض الشعر الرصين ، مع أنه هو الذي أثار  
مثل هذه الجلبة حين أفتى بأعالة الزوجات للطلقات في عهد ولاية ذكا الرومي ، حتى  
إنه لم يجد بدا من السير في حراسة الجند ، حتى لقد قيل إنه كان حول نعش منصور  
ما بين سيف وسكين آلاف ، وأظهروا سب القاضي ، ونسب الناس سبب موته  
إليه إذ أنه قد نقل عنه في الدين كلام . وكان أبو القاسم سعيد المعروف بقاضي البقر  
شاعر البلاط الذي تقدمت به السن . معينا لا ينضب من القصص المسلية الممتعة ،  
حتى إن الإخشيد كثيرا ما كان يبعث في طلبه في المساء ويطلب إليه أن يروي له  
إحدى قصصه . وقد طلب منه الإخشيد أن يروي له قصة صغيرة وقال له : حدثني  
بحديث صغير ، فقال سعيد : ما في نفسي ، فقال الإخشيد : « صغير بطول الأصبع »  
فروى له قصة ذي الكلاع . وكان هذا الشاعر للسن الذي اشتهر بالمديح الذي  
يدخل على النفس العبلة والسرور هو الذي وصف كأس الراح في هذه الأبيات  
التي نكتفي بأن نقل منها هذين البيتين :

يَا رَبُّ دَعْنِي بِلَا صِلَاحٍ      يَا رَبُّ ذَرْنِي بِلَا فَلَاحٍ<sup>(٢)</sup>

يَدِي مَدَى الدَّهْرِ فَوْقَ رِدْفٍ      وَرَاحَتِي تَحْتَ كَأْسِ رَاحٍ

ثم اقرأ ما نظمه الزينبي الشاعر في مصر وفضائلها :

(١) ابن سعيد ص ٨٧ .

(٢) ابن سعيد : للغرب ص ١٠٣ . للترجم .

أنا بالفُسْطاطِ ثاوٍ ودع السلامَ يَلُحاً<sup>(١)</sup>  
كم به من عُصْنٍ بانٍ قد غدا يَطْلُعُ صُبْحاً  
أنا لا أترك مصرأً لا ، ولا أذكر شرّاً

أما السبجى المؤلف للشهور فقد عاش في مصر متأخراً ، إذ أنه لم يولد حتى سنة ٩٧٧ م . غير أن مؤلفاته كانت تصطبغ بما يصطبغ به القرن العاشر الميلادي (الرابع الهجري) في مصر . وقد كتب ثلاثين كتاباً تشتمل على نحو أربعين ألف صفحة ، تتضمن الكثير من الموضوعات المختلفة كالشعر والنقد ، وتاريخ مصر ودياتها ، كما دون رسائل في الحمر واللهو وألوان الطعام والطهي ، كما كتب في النجوم والسياطين والأحلام والرغائب والقسم والقصص والأمثال وغير ذلك من الموضوعات التي يمكن أن توصف بأنها « غريبة » . والواقع أن ازدهار الأدب يرجع في الغالب إلى ذلك العبد الحبشي المحب للهو ، وهو كافور الإخشيدي ، الذي حكم هذه البلاد بعد موت مولاه سنة ٩٤٦ م اثنتين وعشرين سنة . وقد تولى في بادئ الأمر الوصاية على ولده مولاه للتوفى . وقد عاشا في غموض لم يعرفا عن أمور العالم شيئاً اللهم إلا ما يتعلق باللهو والمجون .

أما السنتان أو الثلاث سنوات الأخيرة من حياته فقد تقلد فيها إمارة مصر بصفة رسمية . والواقع أننا قلنا نجد بين الشخصيات التاريخية ، أغرب من هذا العبد الخصى البطين . وكان قيحاً مشقوق القدمين ثقیل البدن مثقوب الشفة السفلى الأمور التي أخذ المتنبي — آخر شعراء العرب الكلاسيكيين — يسخر منها ويهزأ بها بعد أن وجد أن مديحه لتلك الأمير الأسود لم يحقق ما كان يرجوه منه وقد أصبح كافور بعد ذلك لوكولوس Lucullus وميسيناس Maecenas عصره . ذلك أنه نال قسطاً لا بأس به من الثقافة والمعرفة ، شأنه في ذلك شأن أغلب العبيد الأذكياء وكان كثر العبيد المجددين يدني الشعراء والنقاد وكانت تقرأ عنده في كل

ليلة السير وأخبار الخلفاء الأولين . وكانت هذه الحلقات تجمع كثيرين من العلماء  
المبرزين ورجال الفكر . هنا كنت ترى الكندي مؤلف كتاب « فضائل مصر »  
الذى يدين له المقرئ بالكثير مما كتب والبحترى النحوى المشهور وابن عاصم الذى  
كتب الكثير من الشعر الفنائى ، وكان كافور يثني على هؤلاء جميعا ويحيزهم وكان  
كثيره من السود يحب الموسيقى ، هذا إلى أنه كان يمتلك أموالا ضخمة كان ينفق  
منها على أصدقائه من الأدباء الذين قابلوا هذه الهبات بالإطراء والمدح الذى كان  
ينطوي على كثير من الملق والرياء . مثال ذلك أن أحد الشعراء حين نظم قصيدة  
ذكر فيها أن الزلازل المتكررة التى كانت تحدث فى ذلك العصر كانت ترجع إلى أن  
مصر كانت ترقص طربا لما كان يتحلى به كافور من فضائل ، تملك ذلك الأمير الحبشى  
السروى حتى إنه ثر على الشاعر ألف دينار وكانت مائدته تزخر بالكافور وكان  
كافور مسرفا فى كرمه وقد بلغ ما كان يجلب إلى مطبخ القصر فى كل يوم مائة شاة  
ومائة خروف وميس ، ومائتين وخمسين أوزة ، وخمسمائة دجاجة ، وألف طير من الحمام  
وغير ذلك من الطيور ومائة صحن حلوى وكان يعمل فى مطبخ كافور فى كل يوم  
ألف وسبعمائة رطل من اللحم عدا الطيور والحلوى ، وخمسون وعاء من  
القمح (١) كان يستهلكها الخدم وحدهم . وكان عصير السفرجل فى ذلك الوقت من  
الشراب للفضل ، لذلك كان قاضى أسىوط يرسل إلى كافور خمسين ألف سفرجلة  
فى كل موسم (٢).

وعلى الرغم من تمسك الناس بالدين فى ذلك الوقت وإيمانهم بالقضاء والقدر ،  
وما كان لذلك من أثر ، كان العرب فى العصور الوسطى يعرفون كيف يتمتعون بحياتهم  
كما كان يفعل أجدادهم فى الصحراء . والغريب فى أمر هذا المجتمع الإسلامى القديم  
أنه ظل كما كان على الرغم من ظهور الإسلام . ومع ما اقترنت به حياتهم الإجتماعية  
من صلاة وصوم وطقوس دينية مختلفة عرف المسلمون فى العصور الوسطى كيف

(١) هو شراب يتخذ من الشعير ، سقى بذلك لا يرضخ فى رأسه ويملؤه من الزبد

(٢) انظر كتاب Hist. of Egypt in the Middle Ages. pp. 88-89

واين سيمس ٧٨ وما يليها .

ينعمون بالحياة ، بل إنهم كانوا يجدون فرسا للرجح حتى في دينهم . فقد كانوا يقيمون كثيرا من الحفلات الدينية ويرتدون أغزر الملابس وينظمون الاجتماعات وقد يحتفلون بزيارة القبور وينقلون جميع الخدم ليروحوا عن أنفسهم في طرقات المدينة المضاءة بالأنوار المتلاثة التي كانت تحفل بالراقصات والمغنيات والمقربين ، أو في المساجد حيث كان السراويش يقومون بطقوسهم الدينية الغريبة . ومثل هذه الملامح كانت تضيئ على الحياة بهجة وبهاء وكان البعض يعتقد أن ما قدر له قد نقش على جمجمته ، كما وجد بعض المتقشفين من أهل الورع عزاءهم في إطالة النظر إلى حائط أبيض حتى يرى اسم « الله » يلعب عليه .

غير أن الطعام كان أكثر ما يدخل السرور على المسلم في العصور الوسطى . حقا إن العرب لم يعرفوا الطهي العلمي الذي نعرفه اليوم ، كما أنهم لم يتفنتوا في انتقاء ألوان الطعام . فقد كانوا يشربون حتى الثمالة ، ويأكلون حتى تمتلئ بطونهم ، ونحن نقرأ عن مأدبة عامة غطى السباط فيها إحدى وعشرون صفحة كبيرة يحتوي كل منها على واحد وعشرين خروفا مميذا وثلثمائة وخمسين من الحمام والدجاج وقد سكست هذه جميعها حتى بلغ ارتفاعها قمة الرجل ، وكان السباط يغطى بألوان الحلوى المختلفة . وبين هذه الصحف الكبيرة خمسمائة طبق أقل حجما من الأطباق الأخرى يحتوي كل منها على سبع دجاجات عدا الحلوى . وكانت الورود تنثر فوق المائدة وتزينها ويصنع الخبز على شكل فطائر . أما الحلوى فكانت توضع في صحنين كبيرتين على شكل قصر يزن كل منهما سبعة عشر قنطارا وكان يؤتى بها إلى المائدة فوق أعمدة يحملها الرجال على أكتافهم . وقد يستطيع الرجل أن يأكل خروفا أو خروفين دون أن يتعرض لأي ضرر ، وإذا أفرط في تناول الطعام تناول الخمر في إسراف على الرغم من أن النبي نهى عن شرب الخمر ، وكانت الكأس وقتئذ تسع رطلا كاملا من الخمر وطالما كان يعلأها من جديد .

ومهما يكن من أمر تلك المآدب وذلك الإفراط في الطعام فإن هناك مسألة يجب ألا تعزب عن بالنا . ذلك أن العربي لم يكن يروقه شرب الخمر في وحدته ، بل كان يحب نائما الاجتماعات التي يسودها اللبس والبهجة ، كما كان يحب أن تزخر مائدته

بالأزهار والعطور . وكان العرب ينون بملابسهم ويعطرون لحامهم بالمسك وماء الورد ولم تكن حجراتهم تخلو من مبخرة يحترق فيها الخبز الذي ينبعث في الحجرات . ولم تكن للأعياد عندهم بهجة بغير الموسيقى والغنين من الرجال والنساء على السواء ، فكانت ترى إحدى الجوارى ذات القوام المشوق ، والوجه الذي يشبه البدر في تمامه ، تنهى بصوت ساهر جميل بعض الأغاني الحزينة العذبة ، وكانت تصحب العود في غنائها ، حتى يستولى الفرح على قلوب السامعين ولم تكن أكثر الولائم تخلو من نكات أحد الظرفاء المشهورين بسرعة البديهة ، ولم يكن ذلك الظريف مجرد شخص قادر على استخدام الجنس من قبيل المزاح ، بل كان من الأدباء المتعمقين في الأدب العربي وسعة اطلاع وجمال النطق بحيث كان يستطيع أن يكمل في الحال أية عبارة مقتبسة ، وكان هذا الظريف بحق زينة الأدباء . ولقد بلغ من ولع الخلفاء والوزراء للشعر والغناء إنهم لم ييخلوا بأى شيء على من كان يدخل السرور عليهم من الشعراء . بل إن المنسول الذي كان يجيب بشعر رصين ، كان يملأ له وعاءه بالذهب . أما الأديب الذي يجيب إجابة مقحمة فقد يملأ له بالجواهر وخزانة ملابسه بأفخر الملابس . ولقد حدث أن توفي أحد الشعراء وخلف من ورائه مائة خلعة ، ومائتي قميص وخمسمائة عمامة .

ولكن كافورا كان أكثر من عجب للثروة أو مسرف في الملمات . لقد كان قويا كالحصان ، ولكنه كان طول المارد وكان عالى الهمة يميل إلى المرح كما كان سياسيا عنكا ، إذ كان يقضى كثيرا من وقته ، وينفق جهده في إدارة شئون الدولة . وكثيرا ما كان يظل حتى ساعة متأخرة من الليل ، واشتهر بالعدل والحلم والسكرم والتقوى ، وعلى الرغم من أنه ترك ثروة طائلة من الذهب والأحجار الكريمة والعيد والحيوان . فقد كان يندق الكثير في وجوه الخير وينفق في ذلك خير حساب وقد توفي في سنة ٩٦٨م وكتب على قبره في دمشق :

ما بال قبرك يا كافورُ منفردا بالصَّخْصَح للرت بحد السكر اللّجب  
يدرس قبرك آحاد الرجال وقد كانت أسود الشرى تخشاك في الكتب  
وفي هذه الكلمات شيء من الصحة ، ولو أنه مبالغ فيها كثيرا . حقيقة كان

كافور شجاعا ، غير أنه لا يمكننا أن نصفه بأنه كان قائدا ناجحا ، على الرغم من الانتصارات الذين أحرزها في أيامه الأولى في سورية . وإلى حنكته السياسية ومهارة موظفيه يرجع الفضل في الاحتفاظ ببلادهم — التي كانت تمتد إذ ذاك إلى حدود سورية الشمالية وتشمل بلاد الحجاز حيث نجد اللدينتين المقدستين مكة والمدينة — حتى سادها الأمن والطمأنينة وانتشر فيها الرخاء طوال مدة إمارته ، على الرغم من انخفاض النيل أكثر من مرة ، وما تبع ذلك من القحط والزلازل المروعة التي انتابت البلاد والحريق الهائل الذي دمر أكثر من ألف وسبعمئة منزل في مدينة مصر سنة ١٩٥٤ م . ومع ذلك فقد عرف الحصى الأسود كيف يحفظ النظام ، غير أنه لسوء الحظ لم يترك من يخلفه بعد موته ، مثله في ذلك مثل معظم الحكام المستبدين للشعوب . وكان من أثر ذلك أن غزت البلاد تلك القوات التي كان يدها الخلفاء العاطميون منذ زمن بعيد ، نتيجة للضعف الذي كانت عليه حكومة الأمير الجديد حفيد الإخشيد .

وليس هناك وصف يستحق الاقتباس لمدينة مصر في ذلك العصر الذي عرف بالثراء . غير أن الرحالة ابن حوقل قد أهدنا بوصف موجز بعد ذلك بقليل سنة ٩٧٨ م ، فيقدر مشاحتها بثلاث مساحات بغداد تقريبا ، وهو يخص بالذكر أسواقها البديعة وطرقاتها الضيقة ودورها البنية من الطوب ، وكان ارتفاعها يبلغ خمس طبقات بل سبعا في بعض الأحيان ، وكانت تقسم للمائتين من السكان . أضف إلى ذلك الحدائق وأما كن النهضة التي كانت تحيط بتلك المدينة . وكان مسجد عمرو بن العاص الذي يقع في وسط المدينة لا يزال أهم ما يلفت النظر من بين المباني القائمة ، بما يدل على أنه لم تكن هناك قصور نفخمة أو دور حكومية شاهقة .

وكان قصر كافور يقع في خارج المدينة ، وأغلب الظن أنه كان في الحديقة المسماة « بستان كافور » ، مع أنه بنى لنفسه في وقت من الأوقات قصراً جديداً كلفه مائة ألف دينار ، وكان بجوار بركة قارون على مقربة من جامع ابن طولون . غير أن العفونة التي كانت تنبعث من المياه الراكدة دفعت إلى ترك ذلك القصر . وكانت تلك الحاضرة تقع في مكان غير المكان الذي تقع فيه مدينة القاهرة الحالية ، لأن النيل كان قد أخذ في ذلك الوقت يغير مجراه نحو الغرب بما أدى إلى تكوين جزيرة بولاق أو « الجزيرة » .



شارع في مصر القديمة

وفي عصر الإخشيد ، كانت مياه النيل تجري تحت أسوار حصن بابليون ،  
وتحف بالعسكر ، ونمر بالمرأكز التي تعرف الآن بباب اللوق وباب الحديد (١) .  
وكانت المياه تغمر وقشند جميع أحياء مصر القديمة وقصر العيني وقصر الدوبارة وبولاق .  
وكانت الحاضرة تنتشر على جانبي النيل وتمتد إلى جامع ابن طولون تقريبا .  
ولعل أحسن وصف في هذا الصدد ما أورده ناصر خسرو الفارسي الذي زار

---

(١) أنظر القرطبي ج ٢ ص ١١٤ ، ١١٥ ، ١٦٣ ، ١٧٧ ، ١٨٥ وغيرها .



مدينة « مصر » في سنة ١٠٤٧ م أي بعد وفاة كلفور بثمانين سنة . حقا — ولو أن ذلك لبس من المحتمل — أن هناك تغيرات هامة قد حدثت في تلك الفترة ، وناصر خسرو هذا لا يعرف شيئا عن القطائع . ومن ثانيا وصفه لمصر كدينة بنيت على أرض مرتفعة وما إلى ذلك ، يتضح لنا في جلاء أن القطائع كانت في أيام ذلك الرحالة من أحياء مدينة مصر ، وأنه كانت لا تزال هناك بعض النور على الرغم من الدمار الذي أعقب سقوط البيت الطولوني . وكان مسجد ابن طولون يقع في ظاهر المدينة ومحيط به إذ ذاك سور مزدوج أقوى مما شاهده هذا الرحالة في بلد من البلاد ، اللهم إلا إذا استثنينا آمد وميافارقين . وليس من شك في أنه كانت هناك مأذنة قائمة في ذلك الوقت (١) . وكان هناك سبعة مساجد في مصر القديمة أهمها مسجد عمرو بن العاص بمحراجه المنطى بالرخام الأبيض الذي نقش عليه الآيات القرآنية كلها . وكان صحن المسجد يزخر بالأساندة والطلاب وغيرهم من مختلف الطبقات ، الذين كانوا يتخلدون هذا الصحن لعقد الاجتماعات العامة ويبحث شئونهم المختلفة . وقد انتهى أمر هذا الجامع إلى أن اشتراه الخليفة الحاكم الفاطمي — الذي سنتكلم عنه بعد قليل — بمائة ألف دينار . أما المسجد الذي بناه ابن طولون فقد كلفه خمسة وثلاثين ألف دينار فقط ، وأدخل عليه بعض إصلاحات وقدم إليه ثريا كبيرة من الفضة علق فيها سبعمائة قنديل . وقد بلغ من ضخامة هذا المصباح أنهم لم يجدوا بدا من خلع أحد أبواب المسجد ليتمكنوا من إدخاله . وكان قاضي القضاة حتى ذلك الوقت لا يزال يقعد مجالس القضاء في صحن المسجد .

أما في الخارج فقد كانت أبواب المسجد تطل على الأسواق ، وفي الشمال زقاق الفناديل الذي لم ير له ذلك الرحالة مثيلا في أي مكان آخر . ولقد أعجب بما عرض هناك من بللور وأصداف وغير ذلك من النقوش النقية ، كما شاهد كثيرا من سن الفيل وريش النعام وغيرها من منتجات السودان والحبشة . وفي ذات يوم — أو إذا شئنا الدقة في الثامن عشر من شهر ديسمبر سنة ١٠٤٨ — أحصى أنواع الأزهار والخضراوات والفواكه التي شاهدها في أسواق مدينة مصر : الورد الأحمر ، والزنبق

(١) ناصر خسرو : سفرنامه ( طبعة شيفر ) ص ١٤٥ وما يليها .

والترجس ، والبرقال ، والنارنج ، واليحمون ، والتفاح ، والياسمين ، والبطيخ ،  
والموز ، والزيتون ، والبلح ، والنب ، وقصب السكر ، والقرع ، والبصل ، والثوم ،  
والباذنجان ، والجزر ، والبنجر ، مع أن هذه كانت تظهر في مواسم مختلفة . وقد  
أضاف ناصر خسرو إلى ما تقدم أن مصر عبارة عن أرض فسيحة تنتج الفواكه التي  
تتمو في الجو البارد والحر على السواء ، وأن محاصيل جميع الكور كانت تجلب إلى  
الحاضرة حيث تكون معدة للبيع في الأسواق . وقد بلغ من إتقان الحرف أن ناصر  
خسرو كان يستطيع أن يرى يده من خلاله ، وبلغ من مهارة الصانع في طلائه أنه كان يشبه  
التياب القلونية . وكان هنالك أيضا زجاج أخضر شفاف غالي الثمن . ( وقد أيد  
هذا كله بقايا القمامة التي عثر عليها بين أطلال المدينة القديمة ) . وبما شاهد ناصر  
خسرو بعض الأواني النحاسية الكبيرة المصنوعة من النحاس الذي كان يستورد من  
دمشق . وقد حدث أن وجدت هناك امرأة تملك خمسة آلاف من هذه الأواني ،  
كانت تؤجر الواحدة منها بدرهم واحد في الشهر .

وكان من دواعي اغتباط ناصر خسرو أن كشف أنه لم تكن ثمة حاجة لأن يحمل  
المرء معه قارورة أو ورقة إذا ذهب إلى الأماكن التي تباع فيها المقايير أو إلى تجار الحديد .  
فقد كان هؤلاء يزودون عملاءهم بما يودعون فيه سلمهم ، والأغرب من هذا أن  
التجار كانوا يبيعون بأسعار محددة بدلا من المساومة .

وإذا سولت لأحد التجار نفسه أن يفس ، طيف به على حمل يسير في السوق  
وحمل جرسا وصاح يقول : لقد ارتكبت غشاً وهأنذا أنال جزائي ، ولعل الله أن  
ينزل عقابه بمن ارتكبون مثل هذا الجرم . وكان جميع التجار يذهبون من دورهم إلى  
حواليهم محتطين الحير ، وكانت هناك عند مفترق الطرق حمير للاجرة بلغ عددها  
خمسين ألفاً على ما نقله ناصر خسرو عن أهل مصر — ولم يكن يركب الخيل  
سوى الجنود .

وكانت المدينة تمتد على طول شاطئ النيل ، والأكشاك والفساطيط تشرف  
على النهر ، حيث كان الشخص يستطيع أن يحصل على الماء عن طريق الحبال .  
وكان السقاءون في ذلك الوقت يحملون الماء — كما يحملونه الآن — في قرب كبيرة  
يحملونها على ظهورهم أو على ظهور الجمال .

وبعض الدور تتألف من سبع طبقات ، في الطابق العلوى في كل منها حديقة ينمو فيها شجر البرتقال وغيره من أشجار الفاكهة ، تروىها ساقية يديرها ثور يحمل إلى أعلى الدار حين كان لا يزال عجلاً صغيراً . وقد بلغ حجم هذه الدور من الضخامة ٣٠ ذراعاً مربعاً ، حتى إن إحداها كانت تتسع لخمس وثلاثمائة من السكان .

وكانت بعض الطرقات والأسواق المسقوفة تضاء بالمصابيح باستمرار لأن ضوء الشمس لم يكن يصل إليها .

والكى يعبر المرء جزيرة الروضة كان هناك جسر مكون من ستة وثلاثين قارباً ؛ غير أنه لم يكن هناك في ذلك الوقت جسر آخر يصل الروضة بالجزيرة . ومن ثم كان على المرء أن يركب قارباً . وكان عدد القوارب في « مصر » — لحسن الحظ — أكثر منه في بغداد أو في البصرة . ويقول ناصر خسرو إن سكان هذه المدينة كانوا يتمتعون برخاء كبير في سنة ١٠٤٨ م . وقد حدث في ذلك الوقت أن ولد أمير جديد فأخذ الناس يقيمون معالم الزينة في المدينة ، حتى إنه اعتقد أن الناس لن يصدقوا ذلك الوصف .

والواقع أن ناصر خسرو لم يعرف قط بلداً يتمتع بما تمتعت به مصر من رخاء ونظام . وهو يحدثنا عن قصة رجل مسيحي موسر التقى به في مدينة « مصر » كان يمتلك مراكب للشحن لا عداد لها ، وأنه حين لجأ إليه الوزير في إحدى سنن القحط ، قال له ذلك الثرى إنه يمتلك مخازن من القمح تسد حاجة العاصمة ست سنين . أما الخان الذى كان يعرف بدار الوزير فقد بلغت إيجاراته اثني عشر ألف دينار في السنة ؛ وقد قيل إنه كان هناك مائتان من أمثال هذه الخانات .

ومن المحتمل أن تكون تلك المدينة التى وصفها هذا الفيلسوف الفارسى في سنة ١٠٤٧-١٠٤٨ م قد تخرت قليلاً في أواخر ذلك القرن الذى نعت فيه بالثراء . وكان أساس مدينة القاهرة قد فصل مرة أخرى البواثر الرسمية والقضائية عن مدينة « مصر » قبل زيارة ناصر خسرو لها بثمانين سنة . ومع ذلك احتفظت القاهرة

القديعة بما كانت تتمتع به باعتبارها مركز التجارة . وليس هناك ما يدعو إلى الزعم بأن شأنها قد انحط في المائة والشرين سنة التالية . ولقد سبقنا الحوادث حين وصفنا مصر على ما كانت عليه في القرن الحادى عشر الميلادى . ويجدر بنا هنا أن نختم هذا الموضوع بالكلام على ما انتابها من السعار في القرن الثانى عشر . ففي سنة ١١٦٨ م تقدم عمورى ، ملك بيت المقدس اللاتينى ، نحو القاهرة وقد عقد العزم على غزو مصر التى آمن الصليبيون بأهميتها لسلامتهم فى فلسطين . ففى شهر نوفمبر استولى على بلبس ولطخ اسمه بدمج كل رجل وامرأة وطفل . وقد دفع الخوف من وقوع أمثال هذه الفظائع وخطر وصول الغزاة إلى مكان قريب من القاهرة أن أمر شاور - وزير الخليفة الفاطمى فى مصر - بإحراق الفسطاط . ففى اليوم الثانى عشر من شهر نوفمبر أشعل عشرة آلاف من للشاعل وعشرين ألف برميل من النفط واستمرت هذه النيران أربعة وخمسين يوما . ولا تزال بعض آثار الحريق فى التلال الرملية جنوبى القاهرة وتمتد أميالا فوق هذه الآثار المظمورة . وكان الناس يهربون من الحريق كما لو كان قد نفخ فى الصور فإذا هم من الأجداث ينسبون . وقد هجر الأب بنيه وافتقد الأخ أخاه ، وتدافعوا إلى مدينة القاهرة لينجوا بأرواحهم الغالية . وقد استغل أصحاب الجبال هذه الكارثة المفجعة فكان الواحد منهم يؤجر جملة بثلاثين قطعة ذهبية لقطع مسافة ميل أو ميلين (١) . وكان الدخان المتصاعد من النيران يرتفع إلى السماء فى شكل سحب كثيفة سوداء ، مما اضطر الغزاة إلى أن يسكروا على مسافة بعيدة منها . وربما كان هذا الإجراء القاسى ضرورة لا بد منها ، على الرغم من أن مدينة القاهرة قد أمكن تخليصها بوسائل أخرى . غير أننا فى الوقت نفسه إذ نتطلع إلى تلك التلال الرملية القفيرة التى تهدد موقع مدينة الفسطاط الزائلة وتحمل إلى أذهاننا ذللك الأمن والرخاء اللذين شاهدهما الرحلة الفارسية ، يبدو لنا أن ألفا من غزاة الصليبيين كانوا أهون بكثير من ضياع تلك المدينة القديعة وهى « مصر » .

ومع أن هذه المدينة لم تسترد قط مكاتها بعد ذلك اليوم الذى أمت فيه النيران

---

(١) أنظر كتاب صلاح الدين للؤلف ص ٩٣ .

عليها ، يجب ألا نظن أن ثمة جهودا لم تبذل في سبيل إعادة بنائها . وليس من السهل أن يغير الإنسان للكان الذي اعتاد أن يعيش فيه ، فما أن طرد الصليبيون حتى أخذ الناس يعودون إلى هذه المدينة ويبحثون عن دورهم التي غطاها السواد ويحاولون إصلاحها للإقامة فيها من جديد .

ولما زار ابن جبير ، الرحالة العربي الأندلسي ، مصر في سنة ١١٨٣ م ، أي بعد أن شب فيها ذلك الحريق الهائل بأربع عشرة سنة فقط ، وجد المدينة أقل خرابا مما قد يتبادر إلى أذهاننا من العبارات التي دونت عن ذلك الحريق الذي دام أربعة وخمسين يوما . وقد قضى وقتا في فندق « أبي الشتاء » في زقاق القناديل ، وقد سمى بهذا الاسم لأنه كانت تقيم فيه طائفة من النبلاء أمام كل دار منهم « قنديل » ، كان لا يزال بالقرب من جامع عمرو .

وعلى الرغم من آثار ذلك الدمار الحديث أعاد الناس كثيراً من الدور المخرقة ، وأصبحت المباني الجديدة التي انتظم صفوفها لا تكاد تنقطع تكون مدينة عظيمة مع بقايا المدينة السابقة الممتدة من خلفها ومن حولها وعلى مقربة منها : وكل هذه المباني تبين في وضوح إلى أي حد كانت المدينة القديمة تمتد من قبل (١) .

غير أن الجهود التي بذلت لإعادة هذه المدينة القديمة إلى ما كانت عليه لم تصادف شيئا من النجاح . وليس أدل على هذه الحقيقة من نقص عدد السكان ، على الرغم من أن صلاح الدين وخلفاءه أسسوا في مصر وما حولها عشرة معاهد للعلم ، اعتقاداً منهم أن هذه المدينة سوف تسترد مكانتها ، فإنه لم يبن بها مسجد واحد بعد ذلك الحريق المروع ، وكانت القاهرة في ذلك الوقت قد بدأت تحل محلها بسرعة . ولما زار ابن سعيد مصر حول سنة ١٢٤٠ م ، أحزنه منظر حيطان هذه المدينة السوداء ودورها المتهللة وحالتها التي تم عن القفارة والإهمال . وكان لا يزال هناك جمهور كبير في الطرقات المتلوية ، ولقيف من الباعة المتجولين

---

(١) ابن جبير طبعة Wright ص ٥١ . إلى مدين استرجاى لي سترينج بهذه العبارة التي ذكرتها هنا .

ينادون على معلم بين الطلاب والأطفال في الجامع العتيق الذي كان يغطيه نسيج  
المنكبوت وتلقى فيه القاذورات . وكانت السفن التجارية الكثيرة لا تزال تختلف  
إلى مدينة القسطنطينية ، كما كانت هناك مصانع للسكر والصابون لا يزال يجري العمل  
فيها (١) . إلا أن الخراب كان برغم هذا يعم المدينة بأسرها ، ونهولت عظمة «مصر»  
إلى القاهرة .

## الباب الخامس

### القاهرة

الانقلاب الشيعي - الخلافة الفاطمية - المعز - فتح مصر - تأسيس القاهرة -  
- نتائج الانقلاب - القبط تحت الحكم الفاطمي - النيز - الجامع الأزهر  
يصبح جامعة - مدينة انقصر - القصر الكبير - أبواب القاهرة - باب زويلة  
- وصف « وليم الصوري » - البلاط الفاطمي - ميناء القصر والأسطول - الثروة  
والفن والترف أيام الفاطميين - جامع الحاكم - الخليفة الحاكم - دار العلم  
- ألوهية الحاكم - الاستبداد العسكري وضياع الأقاليم - القاهرة في سنة ١٠٤٧  
- جبر الخليج - اليازوري - الأتراك والنهب والسلب - مجاعة السبع سنين  
- بدر الجمالي - السور الثاني وأبواب القاهرة - الوزراء الأرمن - حكم  
الوزراء - الأغبيالات والاستبداد العسكري - ابن رزيق - فن العبارة الفاطمي

إن تأسيس مدينة القاهرة الحقيقية ، كما تتميز عن مدينة مصر القديمة وضواحيها ،  
ليدل على انقلاب خطير أبعد أثرا من مجرد تغيير دولة بأخرى ، أو انتقال موقع .  
فلقد كان الفتح الفاطمي الذي تمخض عن المدينة الجديدة بمثابة انقلاب في الدين  
وفي نظام الحكم والثقافة .

وإن الاختلافات الدينية التي حولت جامع عمرو مكانا لا نظام فيه ولا ترتيب  
في أيام الإخشيد ، لم تكن شيئا ، لبعد الشقة بين المذهب السني القديم وبين  
مذهب القادمين الجدد . وإذا أمعنا النظر في مذهب الشيعة مذهب الفاطميين  
وجدنا أنه لا يمت إلى الإسلام بصلة ما ؛ ذلك أنه لم يفعل أكثر من أنه اتخذ ذلك  
الانقسام الذي حدث في الإسلام أساسا تبنى عليه حركة سياسية واسعة النطاق . وقد  
نجم ذلك الشقاق القديم عمن يرث الخلافة ، ثم استحال إلى ذلك الخلاف بين نظريتي  
الانتخاب العام والحق الإلهي . فقد ذهب أصحاب المذهب القديم أو مذهب السنة  
إلى أن انتخاب الخلفاء الثلاثة الأول وهم أبو بكر وعمر وعثمان كان يتمشى مع نظام  
الشورى في الإسلام ، على حين ذهب الشيعيون إلى أن الحق الإلهي الذي يؤيد دعواهم

في الخلافة ينحصر في بيت النبي ، أى عن طريق علي زوج ابنته فاطمة وأولاده من بعده ، فهؤلاء وحدهم هم ورثة محمد صلى الله عليه وسلم . وهكذا أصبح على بدوره رابع الخلفاء الراشدين . غير أنه لقي معارضة مريضة وانتهى الأمر بقتله ، وأقصى أولاده ، وهم أحفاد النبي ، عن الخلافة . ولما حاول أحدهم ، وهو الحسين ، أن يطالب بحقه فيها ، هزم وقتل . ومنذ ذلك الوقت بدأت مأساة الاستشهاد في كربلاء تثير أعماق مشاعر الشيعة في شهر المحرم من كل عام .

وكان اضطهاد الخلفاء الأمويين لآل محمد ، داعيا إلى عطف الناس عليهم والتأثر بحسرتهم . غير أن أحدا من خلفائهم لم يلعب نجمة في سماء السياسة . ومن ثم فإن ثورات العلويين التي كانت تحدث في القليل النادر أهم من المحاولات الأخيرة التي قامت في اسكتلندة لإحياء دعاوى الدعى . ولم يكن من البعيد أن تتلاشى هذه الحركة على أنها لم تكن أكثر من عارض جديد في عالم السياسة ، أو بمثابة تجربة سجلت على صفحات التاريخ . غير أن شيئا من هذا لم يحدث بفضل التطور الذي أدخله على تلك الحركة في القرن التاسع الميلادي ( الثالث الهجري ) ، عبد الله بن ميمون . القداح الفارسي الذي كان يشتغل بالسحر والشعوذة معا .

ولقد دبر هذا الرجل الذي كان يضرر السكراهية والبغضاء للعرب وخلفائهم مؤامرة ترمي إلى القضاء على الدين الإسلامي بمساعدة هؤلاء الذين فتحوا بلادهم من غير أن يدركوا الأغراض التي كان يرمى إليها . أما عقيدته الدينية التي كانت تعدل على الإفادة من نظرية العلويين القائلة بالخلق للشيء ، فإنها لم تقتصر على جذب التحمسين الذين كانوا لا يزالون يكون مأساة كربلاء ، بل إنها عملت على استمالة جميع الذين لم يقبلوا اعتناق الدين الإسلامي الذي ينطوي على التحصب . وقد نشر عبد الله تعالىمه التي تقول إن الله قد تجسد دائما في شخص أحد الأئمة أمثال آدم وإبراهيم وهكذا حتى علي بن أبي طالب . كما قال إن العالم لم يكن أبدا بدون إمام ، غير أنه ليس من الضروري أن يكون هذا الإمام بما تراه العين ، وهذا هو بيت القصيد في الموضوع . وعلى ذلك فقد حدث أن قطعت سلسلة الخلافة بعد علي بن أبي طالب . غير أنه على الرغم من ذلك ، كان هناك في الوقت نفسه إمام مخفى يتحين.



الفرصة للكشف عن نفسه أمام العالم . وحينما ظهر هذا الإمام المحتق إذا بالناس يحدونه « المهدي » فيصرفون نظرهم عن الخلفاء الذين اغتصبوا سلطته . وفي أثناء هذه المدة كان لابد لأولئك الذين ينتظرون عودته من أن يعدوا عدتهم من الرجال . ولئن كان الإمام لا يزال مختفيا ، فإن هذا لا يمنع من أن يعمل أنصاره في حماسة على نشر الدعوة له . وفي أثناء غيبة ذلك الشخص الذي لا يعدو أن يكون لغزا من الألغاز والذي أودعت فيه كافة أسرار الله سبحانه وتعالى وجب على أنصاره أن يسيروا في البلاد ويدعوا الناس إلى الحق .

وهكذا كانت الدعاية قائمة على قدم وساق ؛ وكانت هناك جمعية سرية أحسن تدريبها تعمل في سائر بلاد العالم الإسلامي ، وكانت أنشط ما تكون في بلاد العرب والجزيرة وشمال إفريقيا . وكان الدعاة يختارون ويدربون على تعليم المبادئ التي يستطيع الدين دخولها حديثا في الدعوة قبولها في سهولة ويسر . فأما العامة والجهال فكانوا يلتقونهم ما يبدو في ظاهره دروسا من القرآن ويشيرون دائما إلى قرب ظهور المهدي تلك الشخصية الرائعة الغامضة . وأما للثقوف وذو العقول المستنيرة فكانوا يلجئون معهم إلى المناقشات التي تتناسب مع إدراكهم الواسع وميولهم حتى يصلوا بهم إلى ما ينفون من التشكك .

ولم يكن هؤلاء الدعاة كالمسلمين في عقيدتهم ، بل كانوا زنادقة فيما بينهم وبين أنفسهم ، وكانوا أي شيء أمام الناس . وكانت أهدافهم سياسية محضة ترمي إلى قلب الإسلام بما يدخلونه في تعاليمه ثم ينقضون على المسلمين فيسلبونهم سلطانهم . وقد استخدموا لبوغ غايتهم جميع مبادئ الدين دون حرج ، وكانت كلها في نظرهم باطلة ، وإنما اتفقوا بها للوصول إلى الأهداف التي كانوا يرمون إليها ، ويبذلون قصارى جهدهم في جذب الأتباع ، ولا يلتقونهم من أسرار منتهبهم إلا بقدر ما يضمنون ولاءهم . وكم استعملوا اسم علي بن أبي طالب وأحاطوه بهالة من القداسة وبشروا بقرب ظهور مهدي جديد ، لالاعتقادهم في هذا أوزاك ، ولالاعتقادهم في الخلافة أو في التجسد الروحي ، وإنما كان لابد لهم من أن يضربوا على وتر رنان يطرب لسماع قضاة الدهماء .

لقد أصاب دعاة الشيعة (١) ثلاث خطوات من النجاح : الخطوة الأولى هي سيادة القرامطة على بلاد العرب والجزيرة وسورية في القرنين التاسع والعاشر ، والخطوة الثانية هي امتداد الخلافة الفاطمية إلى شمال إفريقيا ومصر ، والخطوة الثالثة والأخيرة كانت انتشار مبادئ الإسماعيلية أو الحشاشين الرهيبية في بلاد فارس ولبنان . والذي يهتما هنا هو الخطوة الثانية ، ولو أن القرامطة والحشاشين كان لهما تأثير في مصر .

وكانت الخلافة الفاطمية التي اشتقت اسمها من فاطمة زوج علي بن أبي طالب وبنت النبي أقوى وأبرز ما تمخضت عنه حركة الشيعة ، التي وجدت في بلاد البربر تربة خصبة لنشر مبادئها بين البربر البسطاء . وأصاب أصحاب الدعوة نجاحا كبيرا بعد أن نجحوا في إيجاد خليفة لعلي بن أبي طالب وزوجه فاطمة في شخص عبيد الله المهدي في القيروان حاضرة البلاد التي تسمى تونس الآن وذلك في سنة ٩٠٩ م . ولقد خضعت بلاد المغرب من فاس في مراکش إلى الحدود المصرية لنفوذ المهدي بعد أن غزاها مرتين ، فورت بذلك ملك الأغلبية الذين كانت لهم أعظم قوة بحرية في الجزء الأوسط من البحر الأبيض المتوسط مائة سنة ، والذين أخضعوا بها صقلية وسردينيا وقرسقة ومالطة ، فدمرت أساطيل الفاطميين فرنسا وإيطاليا ، وكانت تسلب وتنهب وتحرق أينما حلت .

وكان الميرزا الرابع الخلفاء الفاطميين من أسرة المهدي ، وصاحب الفضل في فتح مصر رجلا قدرا نزيها ذكيا وسياسيا بارعا خيرا بشئون السياسة . وكان إلى جانب ذلك خطيبا مفوها ملما باللغات اليونانية والعربية ولغة البربر ، واشتهر بأنه مسلم عادل أمين لمذهب الشيعة . (٢) لقد كانت هناك اختلافات بين طوائف الشيعة في تعاليمها ،

---

#### (١) أو الإسماعيلية

(٢) يجمل بنا هنا أن نشير إلى القطيعة العامة التي كانت بينه وبين القرامطة على الرغم من أن هؤلاء كانوا مصدر الانقلاب الفاطمي ، مما دعاهم إلى غزو مصر مرتين بعد فترة وجيزة من الفتح الفاطمي وذلك في سنتي ٩٧١ ، ٩٧٤ م . وقد حاصروا القاهرة وشقوا لهم طريقا من أحد أبوابها . وليس ثمة ريب في أن كره للز الزائد لهذه الصابلات الأعرابية كان يرجع إلى أسباب سياسية ، غير أنه لو كان متمسكا بأراء الشيعة للعطوفة لما عادى كبير زعمائهم .

بعضها متطرف غامض وبعضها يظهر واضح الهدف ، ولكنهما متقاربان حتى إنه يصعب التمييز بينهما . والمعروف أن المعز كان كعظم من جاء بعده لا يشارك الشيعة المتطرفين آراءهم ، ولكنه كان يؤمن بمبادئ القرآن التي تتفق مع آراء العلويين .

ذلك هو الخليفة الفاطمي الذي عزم أخيرا — بعد أن أخضع ممتلكاته في إفريقية — ووصل بفتوحاته إلى المحيط الأطلسي (٩٥٩ م) ، على أن يتم غزو مصر التي حاول جده إخضاعها من قبل والتي كانت غاية ما تصبو إليه نفسه . فلم تكن أرض بلاد المغرب الجدياء ولا قبائلها النائرة لتقارن بوادي مصر الحصب وتجارتها النافقة . ومن ثم كان الخليفة قد وضع خطته لغزو مصر ، ولم يكن ذلك الغزو إذ ذاك أمرا عسيرا . ذلك أن مولا جوهرا الذي نشأ في الإمبراطورية الرومانية الشرقية سار إليها في شهر فبراير سنة ٩٦٩ م ، فسلمت إليه الاسكندرية ، لأن المصريين الذين قاسوا كثيرا من المجاعة التي أعقبتها وباء هالك فيه أكثر من نصف مليون من السكان في مصر وما جاورها وخضعوا لقيادة ضعيفة وتعرضوا لنهب الجنود الثائرين ، كانوا قد استمعوا لمؤلاء الذين اندسوا بينهم من أنصار الفاطميين ، فلم يقاوموا الغزاة مقاومة تذكر ، وتقدم جوهر فبحر النهر بعد أن اعتكب مع جند المصريين عند الجزيرة . عند ذلك تقدمت إليه نساء مصر يلتمسن منه الرحمة . وقد أعقب التسليم عفو شامل ، وأمر جوهر جنده بالكف عن النهب والسلب ، ودخل الجيش الفاطمي « مصر » في الخامس من شهر أغسطس .

وفي نفس تلك الليلة وضع جوهرا أساس مدينة جديدة ، أو على الأصح أساس قصر حصين لاستقبال مولا العظيم . وكان هو قد عسكر في الأراضي الرملية التي تمتد شمال شرق القسطنطينية على الطريق المؤدي إلى هليوبوليس . وهناك على مسافة تبعد عن النهر بما يقرب من الميل وضع حدود الحاضرة الجديدة . ولم تكن هناك مبان سوى دير العظام القديم ولا زرع سوى تلك الحديقة الجميلة المسماة بستان كافور مما يعين جوهرا من أعم خطته . وقد وضعت القوائم في مربع يبلغ كل ضلع من أضلاعه ألفا ومائتين من الياردات ، وأخذ للنجمون من الخاربة الذين كان المعز يثق بهم ثقة عمياء يتشاورون فيما بينهم عن تحديد موعد الافتتاح ، وعلقت الأجراس على

الحبال الممتدة من عامود إلى آخر في انتظار إشارة تعطى حينئذ يتفق هؤلاء العلماء للنجمون على حسن الطالع فتدق الأجراس ويبدأ العمل في الحال فوراً . غير أنه حدث ما عجل بالأمر وسبق كلمة للنجمين ، إذ وقف غراب على طرف أحد الأعمدة ، فأخذت جميع التواقيس تدق ، وبدأت المماول تعمل في الأرض وتحفر الحفر اللازمة للبناء . وكان ذلك طالما غير سعيد ، فقد كان كوكب المريخ (القاهر Mars) في صعود ، ولكن ماتم عمله لم يمكن نفيه . وهكذا سميت المدينة (القاهرة) نسبة إلى هذا الطالع غير السعيد أملاً في أن يتحول القال للشتوم إلى نتيجة مظفرة . والواقع أنه يمكن القول بأن القاهرة قد خيبت أوهام النجمين ، فقد حذف اسم الخليفة العباسي من صلاة الجمعة في مسجد عمرو بن العاص القديم ، وحرم لبس السواد شعار العباسيين ، فلبس الخطيب ملابس ناصعة البياض ودعا في خطبته للإمام المعز أمير المؤمنين ، وطلب له ولأجداده - علي بن أبي طالب وفاطمة وجميع أفراد أسرتها المباركة - الرحمة والرضوان . وكانت الدعوة إلى الصلاة من فوق المآذن مما يتفق وميول الشيعة . هذا وقد أرسلت كل هذه الأخبار السازة إلى الخليفة الفاطمي علي المهجن السريعة التي حملت ر. و.س القتل ، وضربت السكة باسم الخليفة ف ضرب علي أحد وجعها : « دعاء الإمام معذ بتوحيد الإله الصمد » ، وفي السطر الثاني : « المعز لدين الله أمير المؤمنين » ، وفي السطر الثالث : « (بسم الله) ضرب هذا الدينار بمصر سنة ثمان وخمسين وثلثمائة » ، وضرب على الوجه الآخر « لا إله إلا الله محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » ، على أفضل الوصيين وزير خير المرسلين (١) . واستمرت المساجد ودارصك النقود مدة قرنين من الزمان تنحو هذا النحو الذي يتفق وآراء الشيعة (٢) .

كان التعبير الذي تم أكثر من إبدال عقيدة بعبدة أخرى . ويرجع الفضل في ذلك إلى سياسة التسامح التي سار عليها الفاتحون وتجنب مبادئ الشيعة المتطرفة ، فقد رضى الناس بالنظام الجديد ولم يقابلوه بالاعتراض أو التعصب ، اللهم إلا عند ما جابههم

(١) انظر القرطبي : احاط الحفاص ٧٦ — للترجم

(٢) انظر كتاب مصر في الصور الوسطى .

الشيعة بالاحتفال باليوم الأول من شهر المحرم تكريماً له كرى شهداء كربلاء ، وظل السواد الأعظم من الشعب يدين بعائد الذهب السني ؛ أما التغيير الحقيقي فكان سياسياً ؛ فلم تعد القاهرة حاضرة ولاية تابعة للخلافة العباسية ، ولا ولاية مستقلة استقلالاً داخلياً داخل حدود الخلافة ، وإنما أصبحت حاضرة دولة مستقلة منافسة تشتمل على إمبراطورية من دول البحر الأبيض المتوسط . حقيقة إن الإمبراطورية لم تلبث أن فقدت ولاياتها الإفريقية البعيدة كما فقدت الجزر الأوربية وانكشفت حتى لم تعد تشمل سوى البلاد التي وصلت إليها في عهد أحمد بن طولون . غير أن قوة الدولة الفاطمية وغناها كانا شيئاً جديداً . وكان للتنافس بين القاهرة وبغداد ، أو بين خلافة الشيعة الناشئة والنظام السني المتداعي ، أثر جيد للذي في مضمار السياسة والحضارة ، إذ كانت قوة الفاطميين البحرية واتصالهم بدول أوروبا عاملاً جديداً في السياسة الخارجية وفي تنشيط التجارة وفي تغير حضارة مصر وسورية في نواح عديدة .

ومن جهة أخرى فإن عزلة القاهرة أدت إلى نمو حضارة خاصة بها لم تكن كلها في مصلحة مصر ، وذلك أن غلوها في نشر مذهبها قد عزلها عن المراكز الثقافية الهامة في العالم العربي في بغداد ودمشق وقرطبة . ثم إن الامتزاج القديم الذي كان من شأنه أن يجلب الأساتذة والطلاب من كل أنحاء الدولة الإسلامية إلى مساجد المدن الكبيرة قد أصبح مستحيلاً في حاضرة مثل القاهرة كانت المساجد فيها في أيدي رجال الدعوة الشيعية المتطرفين . ومن ثم كانت القاهرة بمعزل عن تقدم الدراسات الإسلامية في القرنين الحادي عشر والثاني عشر . وقبلما ظهر هناك قادة في محيط الفكر أو الأدب العربي تحت الحكم الفاطمي .

أما في بعض الفروع الأخرى كالفسلفة والعلوم الطبيعية والطبية فقد كان من المنتظر أن يظهر بعض التقدم نتيجة لسياسة حرية الفكر التي ينادى بها الشيعة . وذلك هو ما حدث فعلاً إذ سجل بعض العلماء والأطباء المسيحيين واليهود تقدماً يذكر . ولكن هذه الحالات الفردية لا تعد شيئاً إذا قورنت بالحسرة العامة التي عادت على مصر من عزلتها عن سائر العالم الثقافي . وقد تكون القاهرة قد استفادت شيئاً من

اختلاطها بأوروبا . غير أن أوروبا في القرنين العاشر والحادي عشر لم تكن شيئاً مذكوراً في ميدان الثقافة .

على أن الدين استفادوا حقاً من تغير الحكومة هم القبط للسيحيون ، فحق ذلك الوقت كان مصير القبط على الدوام يتوقف على مزاج حكام العرب أو الأتراك المختلفين . ولكن مع الخلافة الفاطمية بدأت فترة من التسامح لاعهد لهم بها ؛ فقد كان الحكام الجدد - إذا استثنينا واحداً منهم - يرعون على الدوام رعاياهم للسيحيين . وكثيراً ما بنيت أو أصلحت كنائس في عهدهم .

وكان للخليفة العزيز بن المزم - الذي حكم من سنة ٩٧٥ إلى سنة ٩٩٩م زوجة مسيحية . وكان اثنان من أخوتها بطارقة ملكانيين . كما كان للخليفة من بين اليعاقبيين رجلان من خاصة أصدقائه ، هما البطريق افرام وساديس أسقف الأشمونين . وكان الأسقف يشجع على الجبى ، إلى القصر والتحدث في اللاهوت مع رئيس القضاة ، كما أن البطريق قد سمح له بإصلاح كنيسة الانبا مكارىوس (١) في خارج مصر . ويحدثنا أحد الكتاب الأرمنيين أنه كانت لهذا القديس كنيسة تقع على ضفة النهر ، غير أنها كانت متهدمة ومستعملة كمخزن لقصب السكر . وذلك أنه حدث في أيام البطريق مكارىوس أن تساءل الناس عن صحة العقيدة المسيحية ومقدار صحتها أو كذبها ، فتجمع الأهالي من المسيحيين وذهبوا إلى الجبل وخرج المسلمون واليهود يشهدون الأمر بأنفسهم ، فصار المسلمون يصلون ويدعون الله أن يبين لهم الحق من الباطل ، وداموا على تهجدهم ينادون الله اكبر ، ولم تحدث المعجزة التي كانوا يرقبونها ، ثم جاء اليهود وقاموا بدورهم يطلبون من الله إظهار الحق ، ولكن لم يكن حظهم أوفر من حظ المسلمين . ثم تقدم البطريق مكارىوس يتبعه الدباغ الذى كان الله قد أجرى على يديه معجزة من قبل ، وتبعهما المؤمنون من الشعب ، فأخذوا في الصلاة والتمعاء وإحراق البخور ، ونادوا (كيرىاليسون - ارحمنا يارب ) ثلاثاً . وما أن أتى ذلك حتى حدثت المعجزة وتحرك الجبل ( جزء من جبل المقطم قريب من قلعة الكيش بين القاهرة ومصر ) بقوة إيمان الدباغ الذى قفاً عين نفسه في حضرة الخليفة العزيز بالله وكبار رجال حكومته

---

(١) كنيسة أبى سيفين بمصر القديمة الآن .

والفقهاء . ولما شاهد العزيز هذه المعجزة التفت إلى البطريق وقال له : كفى أيها البطريق فقد رأينا ما فعل الله لك وطلب إليه أن يتحنن عليه ما يشاء ليحققه له ، فتحنن البطريق أولاً . غير أن إلحاح العزيز عليه جعله يطلب إليه أن يأذن بإصلاح كنيسة قديمة كان قد لحقها الخراب ، فأجابته العزيز إلى ما أراد . ويقال إنها هي نفس كنيسة الانبامكارىوس (١) . وبما يستحق الذكر أن البطريق لم يقبل المال الذى منحه إياه العزيز لإصلاح الكنيسة ، ولكنه أصلحها من ماله الخاص ، وتم هذا العمل تحت حراسة قوات الخليفة التى كانت تحمى المسيحيين من ( عامة المسلمين ) الذين لم يكونوا يطبقون التساهل مع أولئك ( الشركيين ) .

وكان أحد وزراء العزيز يهودياً أسلم ووزير آخر مسيحياً ( ابن نسطورس ) . وكان المسلمون لا يظهرون بطبيعة الحال ارتياحهم لمثل هذا التسامح الدينى مما دحاهم إلى هجاء الخليفة . أما النساء فكان دائماً في صف المسيحيين ، وقد نجحن كما هي العادة . وحتى في أيام الخليفة الحاكم - الذى سبقت الإشارة إلى أنه كان دون الخلفاء جميعاً رعاية للقبط ، والذى جاء وقت اضطهادهم فيه اضطهاداً مريراً - كانت الوظائف الكبرى لا تزال في أيدي المسيحيين . وعلى الرغم مما حدث من السلب والنهب في أيام الوزير اليازورى في منتصف القرن الحادى عشر ، يبدو أن ذلك كان نتيجة عسر مالى وليس نتيجة اضطهاد دينى . وبما لا شك فيه أن الوزراء الأرمن في النصف الأخير من ذلك القرن كان لهم أثر عظيم في تمهين شعور العداء نحو المسيحيين ، حتى إننا نرى الخليفة الحافظ في القرن الثانى عشر يتلقى دروساً في التاريخ مرتين في كل أسبوع على يد البطريق الأرمنى ، كما أن كثيراً من الخلفاء الذين جاءوا بعده كانوا يزورون الحدائق ذات الظلال الوارفة في الأديرة القبطية حيث كان يستقبلهم الرهبان ويبالغون في إكرامهم . وكثيراً ما تقرأ عن مساعدات قيمة أسديت لإقامة إحدى الكنائس أو الأديرة . وقد اتخذ الخليفة الأمر راجعاً مساعداً له وبني نزلاً له في أحد الأديرة القريبة من الجزيرة ، كان ينزل فيه كلما خرج للصيد ويدفع للرهبان ألف درهم كل أزارم . وكان يداخله السرور كلما وقف في مكان القمس من الكنيسة ، ولو أنه كان إذا دخل

(١) أبو صالح طبعة إفتس :

سار إلى الخلف حتى يتجنب الانحناء إذا دخل من الباب المنخفض . وكذلك كان العاضد آخر خلفاء الفاطميين يلجأ إلى دير العنبراء على مسافة بضعة أميال من القاهرة ينعم بالهواء ويعتظر النيل الخلاب (١) .

وكما كان للكنائس نصيب من العناية في هذا العهد كان للمساجد نصيب لا يقل عنها . وعلى الرغم من أن عهد الفاطميين لم يكن مشهوراً بكثرة المساجد التي أقامها أهل الخير والإحسان كما كانت الحال في الشطر الأخير من عهد المماليك ، اقترن عهد الفاطميين بإنشاء جامعين كبيرين في القاهرة كانت تتقد فيهما اجتماعات حافلة . فقد كان أول مقام به جوهر بعد أن بدأ في بناء أسوار القاهرة أن وضع أساس ذلك الجامع الذي لا يزال قائماً حتى اليوم ، والذي اشتهر في العالم باسم الجامع الأزهر . وقد وضع أساسه في يوم الأحد ٣ إبريل سنة ٩٧٠ م ، وتم بناؤه في الرابع والعشرين من شهر يونيه سنة ٩٧٢ م .

وفي سنة ٩٨٨ م أصبح العلماء يؤمون هذا الجامع من كل حذب وصوب . ومنذ ذلك الوقت صار من أهم الجامعات الإسلامية كافة ، يجتمع فيه عدد كبير من الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامي من ساحل الذهب إلى ولايات الملايو . ولكل شعب رواق خاص به . ويتلقى هؤلاء الطلاب على أيدي الشيوخ دروساً في مختلف فروع الثقافة العربية القديمة : القرآن والحديث والتفسير والفقه والنحو وعلم العروض والنطق والبلاغة والجبر وما إلى ذلك .

وإلى سنة ١٩٠٩ كان يختلف إلى الجامع الأزهر أكثر من تسعة آلاف طالب يتلقون دروسهم على أيدي تسعة وثلاثين ومائتين من الأساتذة ؛ ويتعلم هؤلاء الطلاب بالجمان . ولم يخل أهل العلم والأدب في القاهرة وفي كثير من الحواضر الأخرى بعلمهم وثقافتهم على طلابهم ، وكانوا يكسبون عيشهم من التدريس ومن نسخ الكتب الخطية . وكان الغرباء من الطلاب لا يتلقون العلم بدون مقابل فحسب ، بل كانوا يعطون قدراً

---

(١) هناك أدلة كثيرة على هذه العلاقة الوثيقة بين الخلفاء والرهبان من القبط وردت في كتاب أبي صالح الأرميني للمسيحي الذي كتب بين عامي ١١٧٣ ، ١٢٠٨ والذي ترجمه وعلق عليه ونشره للستر إيفتس بمساعدة الدكتور بطر ( كنائس وأديرة مصر )



من الطعام ينفق عليه من المال الموقوف ( الجراية ) . وكانت الثقافة الأزهرية في بادئ الأمر محدودة ، ولكن على الرغم من ذلك قاتنا مثل طيب للتعليم الحر الذي يفتح أبوابه للفقراء دون تمييز في الجنس أو اللغة أو الطبقة .

وليس على المرء أن ينسى منظر الطلاب وقد التفوا على شكل حلقة حول أستاذهم وأخذوا يستمعون إليه كأن على رؤوسهم الطير ، أو منظرهم وهم يمشون مقبلين مدبرين يستظهرون ما تعلموه من أساتذتهم . والواقع أن هؤلاء يمثلون في أذهاننا ما كانت عليه الثقافة العربية في العصور الوسطى حيث الرغبة الصادقة في العلم التي لا يتحسس في طلبه بقصد الحصول على الجوائز أو اجتياز الامتحانات ، وذلك ما نفتقر إليه الجامعات الغربية .

والواقع أن قسما من البناء الحالي للأزهر يمثل البناء الأصلي القديم ، فقد أصلح أكثر من مرة ، وأعيد بناؤه على نطاق واسع في القرن الثامن عشر ، وفي منتصف القرن التاسع عشر . وعلى الرغم من أن بعض الأفاريز الكوفية والأروقة الفارسية التي يتميز بها الحكم الفاطمي ، نراه يصطبغ الآن على وجه الغنوم بصبغة حديثة .

ومهما يكن من شيء فإن الصحن للربيع الشكل يقع في نفس المكان الذي قام فيه الخليفة المعز بالصلاة في سنة ٩٩٣ م ، عشية دخل المدينة دخول الظافر المنتصر تسبقه نواييت جثت أسلافه حيث أودعها ترى تلك المدينة الجديدة التي بناها قائده الأمين جوهر دون أن يحفل بأمر مدينة القسطنطين الحاضرة الأولى التي كانت تستقبل الحاكم الجديد وهي في أبهى حلتها . ولقد أم الخليفة للصليبي في يوم عيد الفطر ، وخطب فيهم ، ثم غادر المسجد في موكب حافل يحوطه الوقار ويعف به جنوده ويحرسه أولاده الأربعة شاكي السلاح يتقدمهم اثنان من القيلة ، وظل على ذلك حتى وصل إلى القصر الذي كان قد أعده قائده جوهر لنزوله . ولم يكن الغرض من بناء تلك الأسوار الحصينة أن تضم حاضرة مصر ، إنما كان الغرض منها أن تضم مقر الخليفة ورجاله وعبيده وموظفيه وقواته من المغاربة . ولم يكن العامة من أهل مصر يدخلون إليها ، إذ لم يكن يسمح لأحد بالنخول من أبوابها بدون إذن ، حتى إن سفراء الدول

الأجنبية كانوا يترجلون حين يصلون إلى الأسوار ، ثم يعيشون إلى القصر في حراسة  
بعض الجند كما كانت الحال في يزنطة . وبالاختصار كانت القاهرة مقر الخليفة ولم  
تسكن مدينة عامة لجميع طوائف السكان . وكانت أسوارها للرفعة وأبوابها التي  
أقيم عليها الحراس تمثل العزلة والعموض الذي كان يشغف به الخليفة ، وإن اسمها  
الذي عرفت به وهو القاهرة ( المحروسة ) يوضع تلك العزلة وذلك العموض .

وكانت الأسوار الأصلية القديمة قد بنيت من الطوب الكبير الحجم الذي يبلغ  
طوله قدمين تقريبا وعرضه خمس عشرة بوصة . وكان ممك هذه الأسوار بحيث  
يسمح لفارسين أن يسيرا فوقه جنبا لجنب . ولقد قاس القريري ما تبقى من هذا  
السور الأول في سنة ١٤٠٠ م وقال إن الأيام لم تبقى على شيء منه (١).

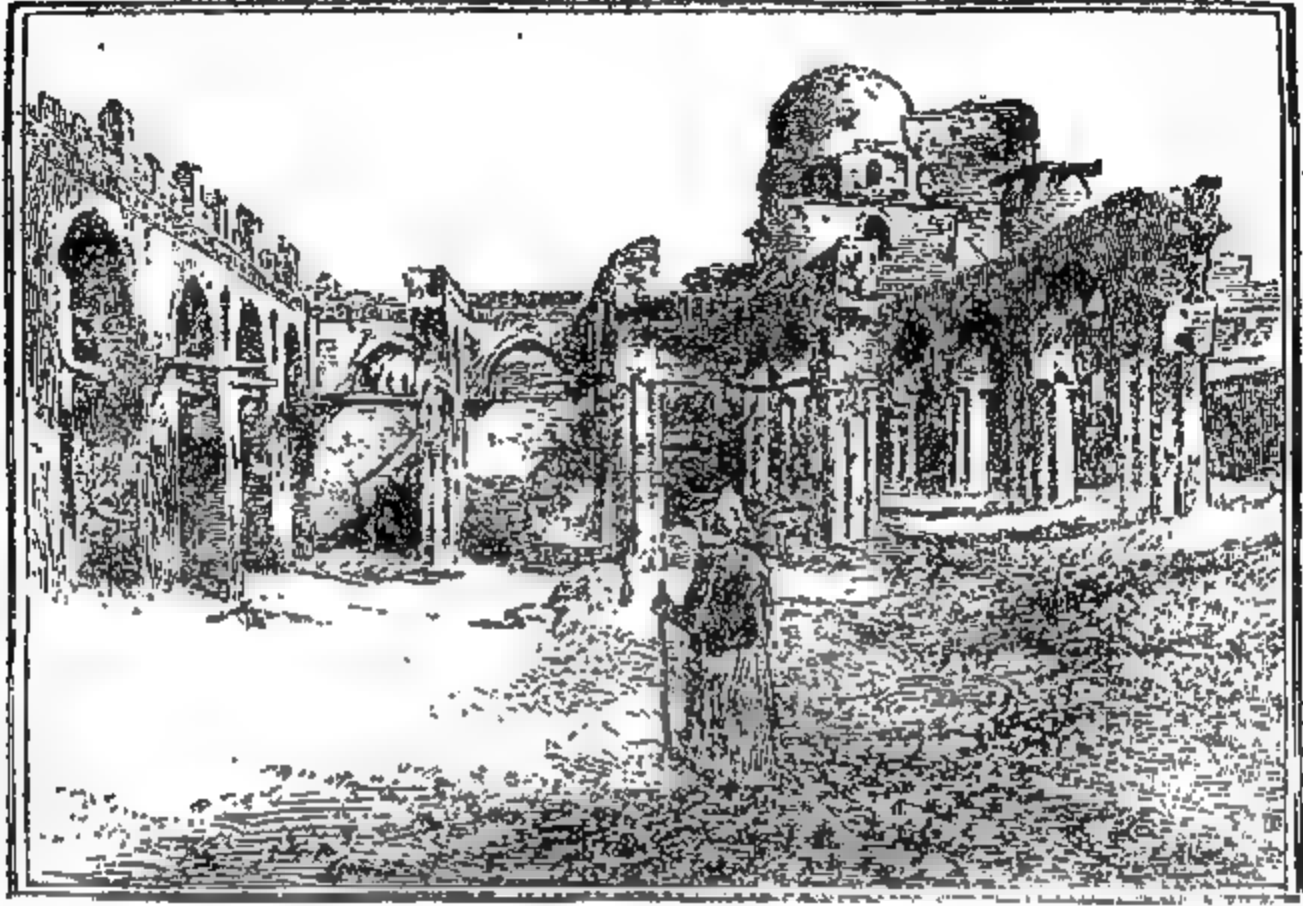
وكانت للساحة الأصلية القديمة أقل بمائة قدم من كل جهة من الساحة التي بني  
بها سنة ١٠٨٧ م . ومن السهل علينا أن ندرك طول المدينة الأصلية التي بناها  
جوهر ، إذا علمنا أن باب الفتوح الحالي ( بما في ذلك جامع الحاكم ) وباب زويلة  
( بما في ذلك جامع اللؤيد ) يقعان خارج الساحة الأصلية .

أما عرض تلك للمدينة فكان يمتد من باب الغريب خلف الأزهر شرقا إلى  
الخليج غربا ، والحد الغربي الذي كان يحاذي الخليج لا يزال يتمثل في الشارع الذي  
يسمى « بين السورين » في آخر اللوسكي . وهكذا كان السكان كله يبلغ طوله من  
كل جهة ألفا ومائتي ياردة وتقرب مساحته من نصف ميل مربع .

وبالقرب من وسط المدينة كان يقع ذلك اللبدان المسمى « بين القصرين » ،  
وهو الاسم الذي لا يزال يطلق على جانب من الشارع المعروف باسم سوق النحاسين ،  
والذي يتأخره الآن بعض للساجد التي يرجع تاريخها إلى ما بعد ذلك . وهذا الاسم  
يفسر نفسه ، لأن اللبدان الذي كان أعرض بكثير من الطريق الحالي ويتسع لعرض  
عشرة آلاف جندي كان يفصل بين قصرين يواجهانه .

هنالك كانت تعقد الاجتماعات العامة بالمدينة . أما القصر الذي كان يقع على

الجانب الشرقى فهو القصر الكبير الذى بناه جوهر المعز ، ويقع خان الخليلي على أحد جوانبه والحسينية على الجانب الآخر . وأما القصر الصغير الذى بناه العزيز فإنه



### جامع الحاكم

يواجه القصر الكبير . وقد بنى مارستان قلاوون على جزء من أرضه ، وبطل من الخلف على بستان كافور القسيح الأرجاء الذى بنى فيه قصر الإخشيد .

وقد أفرد المقرئى نحو مائتى صفحة لوصف هذين القصرين العجيبين ، فنقرأ فى هذا الوصف عن أربعة آلاف حجرة وعن باب من الذهب يوصل إلى ردهة من الذهب ، وعن مقصورة فخمة كان يجلس فيها الخليفة فوق عرش من ذهب يحيط به حجاباه وحاشيته ( وكانوا فى المادة من الروم أو السودان ) حيث يشاهد احتفالات المسلمين وراء ستر من الذهب . كذلك نقرأ عن قاعة الزمرد ذات الأعمدة للصنوعة من الرخام ، وعن الإيوان الكبير الذى كان الخليفة يختلف إليه فى يومى الإثنين والخميس ، فيجلس قريبا من المائدة وفوق رأسه قبة نخمة ، كما نقرأ عن الباب الذى يجلس

عنده الخليفة كل مساء يستمع إلى أصحاب المظالم ويقضى في شكاياتهم .

كل هذه الأبنية التي تكون في مجموعها ما يعرف بالقصر الكبير لم تكن وليدة سنة واحدة ولم تكن من عمل حاكم واحد . فقد بدأ جوهر في بناء القصر في نفس الليلة التي وضع فيها أساس مدينة القاهرة في يولية سنة ٩٦٩ . وفي شهر مارس التالي كان قد تم بناء بابين من أبواب هذه المدينة . وفي سنة ٩٧٠ — ٩٧١ أقيم سور حول القصر . ويقول ناصر خسرو — الذي كتب عن هذا السور بعد ذلك بثلاثة أرباع قرن — إن قصر الخليفة كان يبدو من خارج المدينة كأنه جبل لارتفاع بنائه ، غير أن المرء حين يقترب منه قلما يتبين منه شيئا ، وذلك لارتفاع السور الذي أقيم حوله (١) .

لما وضع الخليفة المعز رسم القصر الأصلي لم يكن يحوى نصف الأبهاء الفخمة التي وصفها المقرئى . فقد بنى الخليفة العزيز الذي اعتلى العرش من بعده قاعة الذهب والإيوان الكبير والقصر الصغير في الجهة الغربية ومنظرة اللؤلؤ في بستان كافور . وقد وسع الخلفاء والوزراء هذا القصر بعد ذلك وعدلوا فيه ، حتى إنه لما أطلق على هذه القصور اسم القصور الزهراء كانت تشمل بضعة مساكن منفصلة وعدة غرف بنيت في أوقات مختلفة . وكان للقصر الكبير وحده عشرة أبواب عدا ممر تحت الأرض يصل منه الخليفة راكبا بغلته إلى القصر الغربي الذي أفرد للحريم . وقد بلغ عدد الخدم في هذه القصور في القرن الحادى عشر اثنى عشر ألفا ، وإذا أضيف عدد النساء إلى هذا العدد بلغ من كانوا يقيمون في هذه القصور ثلاثين ألفا .

وقد قام مسيو رافيس برسم هذه القصور الفاطمية وخطط تصميمها مستعينا بوصف المقرئى في كتابين لها قيمتهما (٢) . وعلى الرغم من أن بعض التفاصيل يجب

---

(١) من الواضح أنه يشير هنا إلى سور القصر لأنه يذكر لنا في صراحة أن سور المدينة لم يكن له وجود .

(٢) يقع هذا الكتاب في مجلدين يجب أن يرجع إليهما كل من يرغب في دراسة القصور الفاطمية .



باب النصر

أن ينظر إليها على أنها ناقصة وعرضة للنقد وإعادة النظر ، فانها تمثل التنظيم الحقيقي للمدينة الفاطمية . وعلى ما جاء في هذه الأبحاث الشائقة نجد أن القصر الشرقي الكبير كان يحتوي أولاً على ثلاثة مبان مستطيلة الشكل مختلفة الأحجام تؤلف في مجموعها ثلاثة أرباع المربع . أما الباقي وهو المربع الشمالي الشرقي فقد كان به البهو الذي كانت تقام فيه الاحتفالات ، وهو مكان مكشوف يقع بين القصر الكبير ودار الوزارة حيث كان الأهالي يحتفلون بالأعياد . ويقع القصر الكبير القدي وصفناه بين دار الوزارة والأرهر . وكان الأزهر يشغل للساحة الواقعة بين خان الخليلي وحي الحسينية إلى شارع الجمالية حيث جامع بيرس الجاشنكير الآن .

وكانت الأبهاء والقاعات والدواوين المختلفة موزعة في تلك الباني . أما الإسطبلات والخزائن فكان لها أبنية أخرى جيدة منعزلة . وإلى الجانب الآخر من « بين السورين »



مآذن باب زويلة

يبدأ القصر الغربي حيث الارستان الآن ويمتد إلى حارة برجوان . وكان له جناحان بارزان في كلا الطرفين لكي يمتد بين القصرين . أما المسافة بين القصر الغربي وسور المدينة الغربي فكان يشغلها بستان كافور تتخللها أشجار مختلفة تطل على الخليج . وأما سائر المدينة للسورة خارج القصور فكانت فرق الجيش الفاطمي المختلفة تمسك في حاراتها مثل الجودرية والديلم وكنانة والبرقية وزويلة وحارة الروم وهكذا .

أما أبواب المدينة فكانت تتألف من باب النصر وباب الفتوح في الشمال وباب القنطرة المؤدى إلى جسر جوهر فوق الخليج وباب القرج أو باب الشعرية (١) — كما يسمى أحيانا — وباب السعادة (٢) وباب الخوخة في الغرب وتفتح على الخليج، وباب زويلة (٣) الذي كان عبارة عن بايين في الجنوب . أما في الشرق فكان هناك الباب المحروق الذي سمي بهذا الاسم ، لأن بعض المالك الماريين كانوا قد أحرقوه في القرن الثالث عشر الميلادي ، والباب الجديد الذي بناه الخليفة الحاكم ، وباب البرقية الذي يسمى الآن باب الغرب . وقد سبق أن ذكرنا بعض الخرافات الحديثة المتصلة بباب زويلة ، وكان دائما مرتما للأشباح ، وزلذه رهبة أن عقوبات الإعدام كانت تنفذ على مقربة منه . ويذكر لنا المقرئ أن الباب الأصلي الذي كان بجوار معبد سام بن نوح كان يتكون من بايين ، أحدهما يسمى باب القنطرة ومنه دخل المعز حين جاء إلى القاهرة في موكبته الرسمي الأول وحذا حذوه الناس جميعا . أما الباب الثاني فقد تشامم الناس ولم يدخلوا منه . ويقول المقرئ إن هذا الباب لم يكن له وجود أو أثر إلا أنه يفضى إلى الموضع الذي يعرف بالحجارين حيث تباع آلات الطرب مثل الطناير والعبدان وما إلى ذلك ؛ وما زال عائنا بين الناس أن كل من يسلك من هناك لا تقضى له حاجة . ويقال إن السبب في ذلك يرجع إلى أن الآلات الموسيقية لا توجد إلا في بيوت اللهو والعبث وفي دور المغنين والمغنيات من الرجال والنساء . ولكن الأمر على العكس من ذلك ، فإن هذا القول كان جاريا على ألسنة أهل القاهرة منذ دخلها المعز وقبل أن يصبح هذا المكان سوقا للمعازف (٤) . ولعل هذه التفاصيل الطبوغرافية تهتم رجال الآثار أكثر من غيرهم . وإنه ليتحتم علينا أن نبحث في أسفار الرحالة عن أوصاف أكثر وضوحا عن محتويات هذا القصر . غير أنه لسوء الحظ أن الأجانب الذين كانوا يزورون ذلك القصر

(١) نسبة إلى إحدى قبائل البربر .

(٢) نسبة إلى أحد قواد المعز ( وهو سعادة بن حيان ) — للترجم .

(٣) ينطق الاسم في اللغة زويلة بكسر الزاى ، أما النطق الصحيح فهو زويلة بفتحها نسبة

إلى إحدى قبائل البربر — للترجم .

(٤) المقرئ ج ١ ص ٣٨٠ .

الفاطمي قليلو العدد . ومن ثم فإننا قلنا نجد وصفا جديدا نضيفه إلى ما خلفه المقرئ ، حقيقة إن الرحالة الفارسي ناصر خسرو ذهب إلى هناك في سنة ١٠٤٧ م ، إلا أن وصفه لم يكن واضحا . وإنا لنلص غموضا ونقصا في وصفه قاعة الذهب وما كان يوشى جدرانها وسقفها من الرسوم والصور التي تمثل الصيد ، وفي وصفه الست المرصع الذي كان يفصل العرش عن الجزء الآخر من القاعة ، وكان من الذهب أيضا ، وفي وصف الدرجات المصنوعة من الفضة التي كانت توصل إلى العرش . ولعل أحسن وصف هو ما ذكره ولیم الصوري عن بعثة الصليبيين في سنة ١١٦٧ م حينما ادعى عموري أنه حامى الخليفة ، ولو أن القصر كان قد تغير كثيرا عما كان عليه منذ قرنين من عهد إنشائه . ولقد كان مثل السفراء المسيحيين في حضرة الخليفة أمرا لم يسبق من قبل ، حق إنه لم يكن ليتاح ذلك إلا لقليل من المسلمين من ذوي المسكنة الرفيعة . غير أن عموري كان قويا ، وبذلك تمكن من تنفيذ ما أراد . وقد أوفد هيو صاحب قيسرية وجوفري فلتشر أحد فرسان المعبد في هذه البعثة إلى الخليفة . ولما حضرا أوصلهما الوزير بنفسه في حفل رائع إلى القصر الفاطمي الكبير ، وسار بهما في ردهات سرية يحرس أبوابها جند من السودانيين شاكى السلاح ، ثم تخطى بهما فناء فسيحا مكشوطا تحيط به أروقة مقامة على أعمدة من الرخام ، وسقفها تفشاها صفائح من الذهب مزينة بالألوان ، وأرضها مغطاة بالفيفساء مما يهرأ نظار هذين السفيرين وتركهما في دهشة وإعجاب من إبداع في الصناعة والفن الذي لم يكونا قد رأيا له مثيلا من قبل في بلاد التبر . وكانا كلما سارا طالعهما عجب جديد : فهنا نافورات من المرمر وطيور ذات أصوات مختلفة وريش بديع اللون لا شبيه لها في العالم التري . وهناك في قاعة أخرى حيوانات أبدعت يد الفنان الماهر في رسمها وتصويرها أو تفتت قريحة الشاعر في نظمها في قصائده أو تخيلها نائم في أحلامه ، مما لا تجود به إلا بلاد الشرق والجنوب والتي لا يراها التبر أو يكاد يسمع بها .

وأخيرا بعد سير طويل في منعطفات وأروقة وصلا إلى قاعة الذهب حيث عرش الذهب فشاهدا عددا كبيرا من الخدم والأنباع بملابس مزركشة فاخرة بتناسب مع عظمة مولاى الخليفة . وهنا أخرج الوزير سيفه من غمده وانحنى أمام الخليفة في



خشوع زائد ثلاث مرات ، كما لو كان مائلا أمام معبود في أحد للعباد . عند ذلك فتحت الستائر الثقيلة الموشاة بالذهب والؤلؤ ، وظهر الخليفة جالسا على عرش من الذهب ، وقد ارتدى من الملابس الفاخرة التي لم توجد عند كثير من الملوك .

ثم قدم الوزير الفارسيين الأجنيبين في أدب جم وخشوع زائد ، وأعلن مولاه في صوت منخفض مقدار الخطر الخارجى ، ونوه بصداقة ملك بيت المقدس الوطيدة . فأجاب الخليفة الشاب في وقار وجلال وعبر عن رضائه عن العلاقة القائمة بينه وبين حليفه العزيز ؛ غير أنه حينما طلب إليه أن يمد يده دلالة على توثيق ذلك الرضا ، تردد قليلا وسرت في الحاضرين موجة من القضب على هذه الجرأة . إلا أن الخليفة ما لبث أن مد يده - والقفاز فيها - إلى السير هيو ، وكان رجلا صريحا جريئا . فقال : يا مولاي لا يحتاج الصدق إلى ما يخفيه عهد الأمراء ، وأخيرا ابتم الخليفة في ألم كأنما كان ينزل عن شيء من كرامته ، فخلع القفاز ووضع يده في يد السير هيو ، ثم أقسم بأن يرعى عهده (١) .

وليس من شك في أن الخلفاء الفاطميين كانوا أكثر الملوك الذين حكموا مصر حبا للمظاهر . ومع أن المعز لم يكن ميالا إلى الترف والنعم ، فقد كان يستمع بنفسه على الدوام إلى كل كبيرة وصغيرة من شئون الحكم ، وكان ينظر في المظالم ويدير شئون الجيش الذى كان يستمد منه قوته وسلطانه ، كما بنى دارا للصناعة عند القس بالقرب من الأزبكية في شمال دار الصناعة القديمة التي كانت في الروضة وفي مصر . واستمرت القس ميناء القاهرة ودار صناعتها حتى تغير مجرى النهر فحلت محلها بولاق .

وقد بنيت في القس بعد ذلك سفينة ، وقد شاهد ناصر خسرو في سنة ١٠٤٧ م بعض سفن المعز راسية هناك ، وكان طول كل منها نحو ٢٧٥ قدما

---

(١) راجع كذلك كتاب صلاح الدين الأيوبي للمؤلف ، ويلاحظ أن المؤرخين العرب لم يذكروا أمر هذه البعثة .

وعرضها ١١٠ أقدام (١) . وعلى الرغم من أن العز كان يميل إلى الجد والعمل ، كان في الوقت نفسه محباً للآبهة والظهور . فقد كانت تحيط به العظمة والجلال حين يشرف حفلة جبر الخليج ، وينفق أموالاً طائلة في صنع مكسوة الكعبة بعد أن اعترفت مكة بسلطانه . وكان يمرض هذه المكسوة على الناس في عيد الأضحى . والمعز هو الذي وضع رسم مباني جميع القصور . ولم يكن جواهر إلا المنفذ لإرادته والقائم على أعماله المختلفة . وكانت هذه المدينة الجديدة العظيمة أكبر دليل على ميل الخليفة إلى الترف وعلى تعدد موارده وكثرتها . والواقع أن ثراء الفاطميين كما يصوره لنا المؤرخون كان يفوق كل وصف . وإنا لنقرأ عن بنتين للعز ، تركت إحداها مليونين وسبعمائة ألف من العملة الذهبية ، وتركّت الأخرى حبرات متعددة ملائى بالجواهر ، من بينها خمسة أكياس من الزمرد وثلاثة آلاف قطعة فضية وثلاثين ألف ثوب صقلى ، حتى كان الشمع الذى استعمل في الختم على هذه الثروة أربعين رطلا . وقد اشترى المعز نفسه مقطعا من النسيج الفارسى قدر بائى عشر ألف من الجنيهات رسمت عليه أقطار العالم وبلدانها . كما أنفقت زوجته في سنة ٩٦٦ م مالا كثيراً في بناء مسجدتها بالقرافة ، الذى رسمه الحسن الفارسى وتولى زخرفته ونقشه جماعة من الفنانين من أهل البصرة .

وكان من أثر ذلك قبول الآراء الفنية التى كان يمثتها السنيون والى عمل على تشجيعها الفاطميون . من ذلك رسم صور الأشخاص وتمثيلهم في مختلف نواحي الفن ، وكان ذلك محرماً في أيام النبى (٢) .

وطى أى حال فإن مسجد القرافة فاق كل ما بنى في مصر من قبل إذا استثنينا ما قبل عن قصر خاوريه في القطائع . وكان رسمه كرسم غيره من المساجد ، وكان مربع الزوايا ، وطى جوانبه أروقة كالأزهر . غير أن النقوش التى على جدرانه كانت في غاية الإبداع ، وكانت المقصورة يدخل إليها من أربعة عشر باباً مربعة ،

---

(١) سفرنامه — طبعة شارل شيفر .

(٢) كتاب فن العرب في مصر من ١٠ و ١٦٣ و ٢٠١ و ٣٤١ .

أمام كل باب قنطرة مقوسة على عمودين من الرخام في ثلاثة صفوف . وكانت الأبواب مدهونة بالأزرق والأحمر والأخضر ، كما كانت السقوف ملونة بمختلف الألوان . وكان أمام الباب الأوسط قنطرة على هيئة قوس ، ملونة بألوان مختلفة ، يكاد الناظر إليها يخالها شكلاً طبعياً . وقد حاول النقاشون أن يحاكيوها فلم استطاعوا .

وإننا نقرأ كذلك عن اثنين من الفنانين كان أحدهما ينافس الآخر ، أولهما القصير والآخر ابن عزيز العراقي ، وكانا يمتنعان برعاية الوزير اليازوري . وقد صور أحدهما راقصة في ثياب بيض ، في قوس ملون بالسواد ، يخيل إلى من رآها أنها داخله فيه . وصور الآخر راقصة أخرى في ثياب حمراء في قوس أصفر ، يخالها الناظر بارزة عن القوس . وكان في إحدى دور القرافة صورة للكتامي أحد نقاشي جامع القرافة تمثل يوسف عليه السلام يتهدأ للراحة وهو في الحب (١) .

وكانت نفقات ذلك العصر الفخم وسكانه الذين تراوح عددهم بين عشرين ألفاً وثلاثين ألفاً يعيشون في بذخ وترف . وكانت هذه النفقات تأتي من الضرائب والأجور للتأخرة من جراء من نظام جديد للضرائب بدل نظام الضرائب القديم ، وقد جمعت كل دوائره في مركز واحد في دار الإمارة المجاور للجامع ابن طولون ، وتشددت الحكومة في تحصيل ما تأخر منها . وكان من أثر هذه السياسة أن زادت موارد الدولة زيادة كبيرة ، حتى لقد بلغ ما كان يستخرج من القسطنطين في يوم واحد مقدارا يتراوح بين خمسين ألفاً ومائة وعشرين ألف دينار . وكانت الضرائب كلها تدفع بالعملة العاطمية الجديدة ، أما العملة العباسية فقد أبطل استعمالها .

أما العزيز - الخليفة التالي - فقد كان خيراً بالجواهر ، ابتدع نوعاً جديداً من الصائم محلاة بخيوط الذهب وسروجاً معطرة بالعنبر . وكانت أسلحته محلاة بالذهب ، واقتنى كثيراً من الطرف يزين بها موائده . وشغف - كخارويه بن أحمد بن طولون - بجوارح الطير الغريبة ، وجلب لذلك الطيور والحيوانات من السودان . غير أنه في

---

(١) راجع القرزى : خطط ج ٢ ص ٣١٨ .

الوقت نفسه شابه أياه في حبه للسياسة وإدارة البلاد، ولم يشغله عنها حبه للترف والنعيم .  
وقد بنى العزيز أسطولا لمحاربة الإمبراطور بازيل ، وقام بنفسه بحملة موفقة ضد  
سورية السفينة التي لم تكن قد خضعت لسلطان الفاطميين . كان عهده عهد سلام  
لمصر ، وكان اسمه يذكر في صلاة الجمعة في المساجد من جزيرة العرب إلى المحيط  
الأطلسي ، كما كان يؤم الناس في الجامع الأزهر باعتبار مرتيسا دينيا ودينويا . أما الجامع  
المعروف باسم جامع الحاكم ، فيرجع الفضل في وضع أساسه في أواخر سنة ٩٩٠ م  
إلى الخليفة العزيز ووزيره ابن كلثوم الذي آتاه ، وأقيمت فيه صلاة الجمعة بعد ذلك  
بسنة . أما الزخرفة والمآذن وغير ذلك من الأعياء الثانوية فإنها لم تتم إلا في عهد ابنه  
الحاكم الذي بدأ جميع الأعمال في سنة ١٠٠٣ م ، وأتم نقش المنبر وزخرفته في شهر  
مارس من سنة ١٠١٣ م . وهكذا شهدت القاهرة مسجدها الجامع الثاني ، وكان  
يسمى في أول الأول (الجامع الجديد) (أو الجامع الأنور) (على غرار الجامع الأزهر) ،  
ثم أطلق عليه اسم جامع الحاكم . ولقد مرت بهذا الجامع أحداث أفسى مما حدثت  
لجامع عمرو ، فإنه لما احتل الصليبيون القاهرة في سنة ١١٦٧ م حولوا جانباً من جامع الحاكم  
إلى كنيسة . ولما أعاد الأيوبيون المذهب السني إلى مصر وأبطلوا استعمال الجامع  
الأزهر ، لأنه كان مركز التعاليم الشيعية ، أصبح جامع الحاكم الجامع الرسمي للحكومة  
إذ ذاك .

ويبدو أن هذا الجامع قد استعمل بعد ذلك لمرابط الخيل . وفي سنة ١٣٠٣ م قوض  
دعائمه زلزال مروع ، ثم أعاد يبصر بنائه في العام التالي . وماجأت سنة ١٤٢٠  
التي كُتب فيها للقرنيزي عن هذا المسجد حتى كان قد تهدم مرة أخرى بفعل الحريق  
والإهمال، وبدأ سقفه تتساقط لبناته واحدة بعد أخرى . ومنذ ذلك العهد غدا الدهر  
يقسو عليه يوماً بعد يوم . أما القناء فقد تحول إلى ملعب ثم إلى منشئ للبلابس ، ثم  
إلى طريق عام يصل إليه السائر من داخل مقهى أوحانة أو مصنع للساج والحرز . وخير  
ما استعمل له هذا المسجد أنه صار متحفاً للفن العربي الذي ظل في العشرين سنة الماضية  
يشغل جانباً من أروقته الشرقية التي احتفظت بنقوشها الكوفية وأروقته الجميلة  
القديمة ، فصارت أنسب مكان تدخر فيه هذه الكنوز النادرة من الفن العربي .

وعلى الرغم من اليأس الذى يبدو على صحن جامع الحاكم وما حوله من الجدران والأروقة التهدمة ، مازال يحتفظ بقسط كبير من أهميته . ويلاحظ أن الأروقة الشائعة فى جميع للبانى الفاطمية هى الفارق الوحيد الذى يميزها عن البناء الفارسى . ويمزى هذا إلى أن بناءه كان فى أوائل عهد الفاطميين ، وإلى محاكاة هذا البناء لجامع ابن طولون . وما يميز به هذا المسجد مأذنته التى يطلق عليها عادة اسم مبخرا لها من شكل عجيب انفردت به . ويلاحظ أن القواعد المربعة الثقيلة لا دخل لها ببناء المآذن الأصلية التى بنى الجزء الأسفل منها من أحجار منتظمة الشكل عليها نقوش فاطمية . وقد تدع أبحاث هرتزبك وفان برشم ما يدعو إلى الشك بأن الطوب الذى استعمل فى المآذن يرجع إلى الإصلاح السريع الذى عمل فى سنة ١٣٠٤ م عقب حادث الزلزال الذى تقدمت الإشارة إليه . ذلك أن يبرس لم يعن بإعادة بناء المآذن إلى الأسلوب القديم ، ولكنه استعمل الطوب ، وربما أحاط القاعدة وغطاها بمكعبات قبيحة الشكل خدعت كثيرا من علماء الآثار فى حقيقة شكل المآذن الأصلى . ولا يبعد أن يكون تاريخ هذه المكعبات راجعا إلى العصر المتأخر الذى شاهد بناء أبواب المدينة . على أن بقايا المآذن الحجرية له أهميته ، لأنه يمدنا بالدليل الوحيد على أن أسلوب بناء هذا النوع من المآذن يرجع إلى عهد الفاطميين لا إلى ذلك العهد الذى كتب فيه المقرزى ، وذكر أن بناء المآذن من الأحجار لم يعرف قبل عهد قلاوون أى قبل سنة ١٢٨٤ . وهذه المآذن تشبه المآذن التى بنيت فى آخر عهد المماليك ، فهى تبدأ من أساس مربع يتحول إلى شكل مشمن ( ذى ثمانية أضلاع ) ، وأخيرا ينتهى إلى جزء أسطوانى . أما من الداخل فكانت هناك درجات حلزونية الشكل تؤدي إلى نوافذ كان المؤذنون ينادون منها إلى الصلاة (١) .

ويعتبر الخليفة الحاكم من أبرز شخصيات التاريخ المصرى ، ولو أن شخصيته متناقضة غريبة ، حتى إن المؤرخين الذين كتبوا عنه كانوا فى آخر الأمر يفسرون

---

(١) فان برشم — مذكرات عن الآثار العربية طبعة ١٨٩١ .

سلوكه بضعف قواه العقلية . وكان الحاكم بن العزيز الوحيد ، وكانت زوجته المسيحية التي كانت شقيقة اثنين من البطارقة ، وذلك مصداق ما قيل من أن أقارب رجال الدين ليسوا أفضل من سائر الناس في أحوالهم العامة . ولم يكن الطفل الصغير يدرك شيئاً عن الحكم حينما وجد نفسه يجلس على العرش طفرة واحدة وهو في سن الحادية عشرة . وكان قائده برجوان عبداً صقلياً — ما زال اسمه يطلق على إحدى الحارات التي لا تبعد عن بين القصرين — وكان يرتع ويلهو في قصر اللؤلؤة في بستان كافور بينما كان الجند من البربر والترك يتقاتلون في الشوارع . وقد رأى الحاكم في صباح رجال الحرس من الأتراك يقدمون له رأس زعيم قواد البربر بعد أن انتصروا عليه . ولم يكن هذا إلا مقدمة لقتل نائب الملك نفسه . وبعد ذلك بأربع سنين قضاها الحاكم تحت وصاية ضعيفة تسلم أمور الدولة وكان قد بلغ الخامسة عشرة .

وكما بدا الخليفة الصغير أمام الشعب ظهر شذوذه وتناقضه . وكان وجهه الغريب وعيناه الزرقاوان الخفيفتان تجعل الناس يهابونه ، وكان صوته الأجش يجعلهم يرتجفون منه . وكان معلمه يسميه الحرذون ( سحلية ) ، لأنه كانت له طريقة خاصة في التسلل بين الناس كما تفعل الحرذون . وكان مشغوقاً بالظلام ، حتى إنه كان دائماً يجمع مجلسه في الليل . وكثيراً ما ركب حماره الأنثى وجاب به الشوارع يتجسس على الناس ليطلع على آرائهم وماتنطوى عليه هموسهم تحت ستار التفتيش على الموازين والمكاييل في الأسواق حتى صار الليل نهاراً والنهار ليلاً . ذلك أنه أمر بمباشرة الأعمال ومزاولة التجارة ليلاً ، فسكان تفتح الحوانيت بعد غروب الشمس وتضاء المنازل .

وكان شديد الوطأة على من يسوء إليه ، وقد حرم على النساء مغادرة منازلهن ، وعلى الرجال الجلوس على المقاهي ، ومنع صانعي الأحذية من أن يحملوا أحذية للنساء حتى لا يتمكن من مغادرة المنزل .

ولم يكن يسمح لمن أن يقترب من نوافذ المساكن أو الاختلاف إلى أسطح المنازل لاستنشاق الهواء . كما حرم على الناس التمتع بأنواع الطعام والشراب . وكان الحاكم لا يشرب الخمر ، شأنه في ذلك شأن كل مسلم يحافظ على تعاليم دينه

فقد حرم شرب الجعة وصادر النبيذ والخمر واقتلع الكروم ومنع تجفيف العنب  
وحرم أكل الملوخية ، وجمع العسل وألقى به في النيل . ومنع لعب الشطرنج وأحرق  
لوحاته وقطعه ، وأمر بقتل الكلاب كلما عثر عليها في الطرقات ، وقتل من ذبح  
خيار للماشية إلا في عيد الأضحي .

وكان يعاقب كل من تسول له نفسه مخالفة أمر من الأوامر بالجسد أو بقطع  
الرأس ، أو بالقتل بإحدى الطرق الجديدة التي تخفى هذا الخليفة الغريب الأطوار  
في ابتداعها . وليس من شك في أن كثيرا من هذه الوازع والتعليقات قد أملت روح  
الإصلاح ؛ غير أنها كانت روح مصلح مجنون .

لقد كان الواجب أن لا يترك لنساء القاهرة للرحلات ، الجبل على الغارب يفعلن  
ما يبدو لهن . ولكن من كان يظن أن يكون السيل إلى ذلك هو مصادرة أحذيتهم ؟  
أما تحريم الخمر ولعب الليسر وغير ذلك من وسائل التسلية ، فقد كان صادرا عن شخص  
متطرف في أمور الدين مبتعد عن زخرف الحياة ومباهجها ، رائده في ذلك العمل  
على رفع المستوى الخلقي في البلاد ، غير مراعى ما جره ذلك من استياء وعياء وسخطهم .  
ولكن العس بالليل والأحكام التصفية والقبود التي لا داعي لها كانت كلها تشير إلى  
عقل غير متزن . وإذا كان الحاكم يقصد الخير فقد كان الطريق إليه غريبا غير  
مألوف . ومن الصعب علينا أن نسرغور هذا الجنون أو أن نخط عنه اللام . فقد  
كان المسيحيون في بادئ الأمر يتمتعون بقسط كبير من العدالة والتسامح ، ولكن  
حول سنة ١٠٠٥ م بدءوا يتعرضون لسلسلة من الاضطهادات والضائقات . فقد  
اضطروا إلى لبس شارات مميزة لهم وملابس خصة بهم ، كما تعرضوا إلى مصادرة  
أموالهم وهدم كنائسهم . علي أن المسلمين لم يكن حالهم أحسن منهم ، فقد كان الوزراء  
من المسيحيين والمسلمين يقتلون أو يشتقون بلا تمييز أو تحقيق ، حتى إن ابن جوهر  
القائد العظيم اغتيل داخل القصر ، كما أن كثيرا من الموظفين على اختلاف طبقاتهم  
قتلوا أو عذبوا لأسفه الأسباب . ويقال إن أحد القواد المشهورين - بعد أن أخذ  
ثورة أقامت مصر وأعدتها مدة عامين - حضر حين كان الحاكم يقطع طفلا كان  
قد قتل - فقد حياته جزاء إزعاج مولاه حين كان مشغولا - كل هذا كان يحدث

بينما كان الخليفة الشاب يشرف على تجميل مسجده (١) وإنشاء المعهد المعروف بدار العلم داخل حرم القصر الكبير حيث كان المثقفون على اختلاف آرائهم يجتمعون ويتناقشون في أي موضوع شاءوا ، تغذيتهم مكتبة قيصة . وهذه الاجتماعات تذكرنا بالمصلى الذي بنىه أ كبر في أجرا . وليس هذا هو وجه الشبه الوحيد بين هذين الرجلين العظيمين ، على الرغم من أوجه الخلاف العديدة بينهما . فقد سمح أ كبر لنفسه أن يعبد الناس كأنه إله ، ووصل الحاكم في النهاية إلى نفس النتيجة . وكان هذان الرجلان يتأثران بتعاليم الشيعة .

وليس ثمة ريب في أن جولات الحاكم الفردية فوق حمارة الأعشيب في تلال القطم المقفرة ، وتلك الليالي الطويلة التي كان يقضيها في المرصد فوق المنحدرات حيث كاد يرصد النجوم ويسبح في الأوهام تدل على عقل تشبع بتعاليم الشيعة الفاضلة . فقد كان في نظر نفسه الإمام الذي تقمصت فيه روح الله لتظهر له بالمجاهل ، وهو الوحيد المطلع على الأسرار الإلهية . ومن السهل أن ينتقل بعد ذلك إلى الاعتقاد بأنه إله . لقد استغرق وصوله إلى هذه المرحلة أكثر من عشرين سنة ، وساعده في ذلك بعض المنصوفين من الفرس . حقيقة لم ينجح هؤلاء الدعاة في نشر دعوتهم وإثبات ألوهية الحاكم ، فإن الناس كانوا لهم بالمرصاد ، فقد قتلوا واحدا وذبخوا الآخرين الذين دنسوا مسجد عمرو بكفرهم ، حتى إن البرزى زعيم المذهب للشعور في جبال لبنان هرب من ثورة الأهالي والناس في إثره حتى دخل القصر ولم ينجه من أيديهم إلا تدخل الخليفة نفسه .

لم يقبل أحد التعاليم الجديدة التي كانت غير مقبولة في نظر السنيين . ولم يكن السواد الأعظم من الأهالي من الشيعيين للتدلين بل كانوا في الحقيقة سنيين من ذوي الآراء القديمة . وكانت مصر كلها تلي ، وكانت قاب قوسين أو أدنى من الثورة ، إلا أن الجنود السود قاموا بأعمال وحشية ، فهبت الحاضرة القديمة واقتحموا

---

(١) مما بناه الحاكم كذلك مصلى اليد بجوار باب النصر وجامع القس بجوار النيل وآخر في الحى الذي كان يسمى راشدة جنوب القطائع على مقربة من القطم . انظر كتاب مصر في المصور الوسطى من ١٢٦٠ ..



الهدور وأساءوا إلى النساء وأشاعوا الرعب والفرع في البلاد ، قضى على الثورة في مهدها ، وتجمعت الرجال في الساجد تطلب المعونة والرحمة .

وجاءت المعونة من مصدر لم يتوقعه أحد . ذلك أن القوات السودانية لما أسرفت في أعمالها الوحشية تعاون جند الأتراك مع البربر ضد السودانيين ، لا رحمة بالأهالي ولكن لمجرد كبح جماح السودانيين . وقعد الخليفة الحاكم سيطرته على الجيش ونقر منه نساء القصر ، إذ كان قد طعن في شرف أخته ، التي أبت أن تقف إلى جابه وتندراً عنه الأحطار ، ونأمرت عليه . فيينا هو في إحدى جولاته على تلال المقطم يسير في غير مبالاة ولا اكتراث كما جرت عادته ، إذا به يلقى مصيره في اليوم الثالث عشر من شهر فبراير سنة ١٠٢١ م . وقد وجد الحمار الذي كان يركبه والملابس التي كان يرتديها وعليها آثار الطعنات التي لا شك في أنها قضت عليه . غير أنهم لم يقهوا على أثر لجنته ، وظل الناس ردحا طويلا من الزمن يتوقعون عودته في خوف ووجل كما يفعل المصريون في لبنان إلى اليوم .

وبعد زوال ذلك الكابوس المروع كانت القاهرة في حاجة إلى الراحة والاستقرار ، وقد تحقق لها ذلك بعد فترة من الزمان . فقد أعقب الحكم العسكري القاسي فترة حكم فاسد على يد عصابة من رجال البلاط ، ثم حدثت في سنة ١٠٢٥ م مجاعة دفعت بالشعب الجائع إلى قطع الطرق ، وأرهقت ميزانية الدولة ، وسلك عبيد القصر سبيل التمرد والعصيان ، وأعلنت سورية الثورة . كل ذلك والخليفة الجديد - الظاهر ابن الحاكم - يلهم مع المنين والرافعات . غير أن حسن طالع الفاطميين لم يكن قد لارقهم بعد حيث هدأت أحوال البلاد نسبيا ، فقد جاء وفاء النيل في مواعيده تباعا ، ونشط عامل سورية في قمع الثورة هناك ، وهدأت حركات الجند بعد أن اختتمت الحزازات بين عناصرها . وشاهدت مصر ربيع قرن من الهدوء والاستقرار . وكان الوادي ( مصر ) هو كل ما بقي للفاطميين من أملاكهم ، فقد انسلخت بلاد البربر عنهم في سنة ١٠٤٦ م ، وانتهى سلطانهم على البحر الأبيض المتوسط إلى الأبد ، ولم يكن يربطهم بسورية إلا قوة السلاح . وأما بلاد العرب من المدينة إلى اليمن وحضر موت ، فعلى الرغم من أنها كانت تخضع للخليفة في مصر ، كان أميرها

الشيعة يكاد يكون مستقلا ، ولم يكن يذكر اسم الخليفة الفاطمي في صلاة الجمعة في بغداد مدة أربعين أسبوعا في سنتي ١٠٥٨ و ١٠٥٩ م راجعا إلا إلى الدساتير السياسية في أراضي الخلافة الشرقية وليس بسبب قوة الخلافة الفاطمية .

وعلى كل حال ، لم يكن هناك ما يقلق الفاطميين في مصر : فقد اعتلى الخلافة في سنة ١٠٣٩ م طفل صغير يبلغ من العمر ثمانية أشهر ، يدعى للسقنصر ، الذي استطاع — دون أن يكون له أي نفوذ — أن يحتفظ بالخلافة حتى سنة ١٠٩٤ م . وقد اقترنت هذه الفترة الطويلة منذ أن اعتلى العرش — ولا يصح أن نقول منذ أن حكم — بالسعادة والثوس . وعلى الرغم مما كان لوالدته السودانية من أثر سيء ، إذ جلبت من أبناء جلدتها كثيرا من ذوى البطش الذين ارتكبوا كثيرا من الأعمال الوحشية لإحداث الرعب والفرع بين سكان الحاضرة وإرهابهم — على الرغم من ذلك ، ساد هذه البلاد عهد من الاستقرار والهدوء في أواسط القرن الحادي عشر لم تره إلا نادرا . يدل على ذلك ما كتبه ناصر خسرو بين سنتي ١٠٤٧ و ١٠٤٩ م ، حيث قال إن مصر عامة كانت في ذلك الوقت في مجبوحة من العيش وإنها كانت في هدوء واستقرار لم تشهد من قبل (١) . وكان الخليفة للسقنصر محبوبا من الشعب ، ولم يكن أحد يخشى سلبا أو تمديدا في ظل حكمه . ولقد ساد الأمن والنظام في وقته ، حتى إن تجار الجواهر والصابغ لم يكونوا يحفلون بإغلاق حوانيتهم ، إذ كانوا لا يخشون عليها من اللصوص . وكان في القاهرة وحدها ما يربو على عشرين ألف متجركانت كلها ملكا خاصا للخليفة . وكان لإيجار كل منها في الشهر يتراوح بين دينارين وعشرة دنائير .

وقد قيل إنه كان يمتلك عشرين ألف منزل ، يبلغ ارتفاع أحدها خمسا أو ست طبقات ، وكان لإيجار أحدها في المتوسط يبلغ أحد عشر دينارا في الشهر ( أي سبعين

---

(١) كان المتعد أن الخليفة الباسي سوف يرسل أسيرا إلى القاهرة ، وأن منافسه الفاطمي كانت لديه عربة ذهبية صنعت خصيصا من أجله . وأنه أهدى مليوني ديناراً لتهيئة النصر الغربي لاستقبال ضيفه . والواقع أن العرش الباسي والملابس والهدايا الباسية قد بقيت جميعها في القاهرة إلى عهد صلاح الدين الأيوبي الذي استرد الملابس . أما العرش فقد احتفظ به ، ثم نقل فيما بعد إلى جامع ميرس الجاشنكير — انظر كتاب مصر في الصور الوسطى ص ١٣٩ .

جنيتها في السنة ) . وكانت الدور محكمة البناء ، مينة بالحجر لابلان ، يفصل بعضها عن بعض حدائق بهيجة . ولم يكن هناك أسوار للمدينة ( إذ كان السور القديم قد تهدم ولم يكن الثاني قد بنى إلا بعد أربعين سنة من ذلك الوقت ) . غير أن النازل للرفعة كانت في حد ذاتها - كما يقول الرحالة - كالحصون في مناعتها ، وكل قصر منها حصن منيع . (١) وكانت للمدافة بين القاهرة ومصر تبلغ ميلا في طولها ، وكانت للمساحة التي تغطيها الحدائق وللنازل الرغبة عريضة لأن تغطي عليها مياه الفيضان فتبدو كالبحر .

واقعد شهد الرحالة الفارسي ناصر خسرو أحد الاحتفالات التي تقام في مصر كل عام . وهي الاحتفال بوفاء النيل أو جبر الخليج . فقد كان يحتفل به بحضور المستنصر نفسه ، وفي ركبه عشرة آلاف فارس يمتطون الخيول المطهجة الملجمة ، ويلبسون اللروع المحلاة بالذهب ، والأحجار الكريمة ، للكسوة بديع مطرز باسم الخليفة . وبلي هؤلاء صفوف من الجبل عليها هودج مزركشة ، وكذا كانت عدد البغال عليها من الزينة والجواهر شيء كثير . وكانت فرق الجنود تسير فصيلة تلو فصيلة ، مبهمين فم الخليج ، وتتكون جنود البربر من قبيلة كتامة . وكان عددهم ٢٠٠٠٠ و ٢٠٠٠ من سلاة أبطال المعز ، ومن المغاربة ١٥٠٠٠ ، ومن الصامدة ٢٠٠٠ ، ومن الأتراك والفرس وهم المشرقيون ولو أنهم وفدوا في مصر ١٠٠٠٠ ، ومن بدو الحجاز ١٥٠٠٠ ، ومن السودان ٣٠٠٠ (٢) . وبلي كل هؤلاء الأرقاء والحجاب

(١) يذكر لنا ناصر خسرو أن المدينة كانت في ذلك الوقت مقسمة إلى عشرة أحياء وهي : حارة برجوان ، وحارة زويلة ، وحارة الجودرية ( نسبة إلى قوات خاصة أصلها من بلاد المغرب ) ، وحارة الأمراء ، وحارة الديالة ( الفرسي ) ، وحارة الروم ، وحارة الباطلية ( نسبة إلى بعض جنود جوهر ) وقصر الشوق ( وهو قصر ثانوي ) وعبيد الشراء ، وحارة الصامدة ( المغاربة الصودة ) . وهو يذكر لنا أيضا خمسة أبواب فقط : باب النصر ، وباب الفتوح ، وباب القنطرة ، وباب زويلة ، وباب الخليج .

(٢) كان يطلق على هؤلاء : عبيد الشراء - للترجم .

والموظفون على اختلاف مراتبهم ، والشعراء والأطباء والأمراء من مراکش واليمن ، وأمراء النوبة والحيشة وآسيا الصغرى والقوقاز وتركستان ، حتى الأمراء من أبناء سلطان دهلي ، وكانت أهمهم تقيم في القاهرة إذ ذاك .

وكان الخليفة شابا في مقتبل العمر ، بهي الطلعة ، حليق اللحية ، يرتدى كساء طويلا ناصع البياض ، وكان الخليفة يمتطي بخلة عارية من كل ما يزينها ، يسير في ركابه ثلاثمائة من الديلم ، حاملين المماول مرتدين الحلل السندية المصنوعة في بلاد الروم . ويسير إلى جانب الخليفة أحد كبار رجال الدولة يحمل مظلة الخليفة (١) ، ويحفظ بهما خصيان يطلقون البخور . وكان الناس إذا مر الخليفة سجدوا له إكبارا واجلالا ، حتى يصل إلى القسطنطينية المصنوع من الحرير الذي أقيم له عند فم الخليج . فإذا ألقى الخليفة عصاه على السد ، قام الجميع بمحاولهم ، حتى تنساب مياه النيل في الخليج . ومن ثم يهرع الناس للتزح في زوارقهم في النهر فرحين جزلين ، يتقدمهم زورق يحمل جماعة من الصم والبكم تبعنا وتفاؤلا .

كان الرحالة ناصر خسرو حسن الحظ بزيارة مصر في ذلك الوقت ، إذ أن البلاد تمرضت بعد مدة وجيزة من زيارته إلى شر مستطير ، فقد قامت بها أعمال السلب والنهب ، وواجهت من أسباب الخراب ما واجهته لأول مرة منذ إنشائها منذ قرن من الزمان (٢) . ولقد استطاع الوزير الكفاء اليازوري أن يسيطر على جميع الأحزاب ويقضي على الخلافات الحزبية ، كما أنه بذل جهودا موفقة في تخفيف وطأة المجاعات المتكررة . وربما كانت خرائب مخازن الغلال الكائنة في مصر القديمة والمعروفة باسم مخازن يوسف — هي المخازن التي كان يستعملها اليازوري لحفظ ما يسد حاجة البلاد في أيام القحط ، إذ لم يكن في ذلك العهد رجال من أمثال ولسكس وسكوت منكريف ، لوضع تصميم القناطر والخزانات التي تخضع النيل لخدمة الفلاح الفقير . فإن مياه النيل كانت في أيام الفيضان إذا لم تصل إلى ارتفاع خاص من مقياس النيل بالروضة — وهو الذي كان يطلق عليه اسم تاكروونكير — تحدث المجاعة ويصحبها

(١) كانت عمامة صاحب اللظة مزينة بالأحجار الكريمة ، وكان ثوبه من جنس ثوب الخليفة . أما اللظة فكانت مرصمة بالالء والأحجار الكريمة — الترجم .

راجع : القاطمين في مصر للدكتور حسن إبراهيم حسن ص ٢٥٠ .

(٢) يقصد الفترة التي حلت بالبلاد في عهد كافور الإخشيدي — المترجم .

الوباء ، وكثيراً ما كانوا متلازمين . وبعد انتشار القحط تحمل القومى وتكثر الجرائم . وقد أجدت مخازن اليازورى الخطر عن الحاضرة بعض الوقت ، ولكن بعد أن مات هذا الوزير بالسقم في سنة ١٠٥٨ م ، لم يبق هناك من يستطيع منع الاختلافات والسيطرة على الأحزاب . وهل أدل على عدم الاستقرار من تعاقب أربعين وزيراً في الحكم في فترة لا تتجاوز تسع سنوات ؟ .

وكان الخليفة يستمع إلى نصيحة كل من يتقدم إليه ، حتى أصبح صفار القوم ومن لا رأى لهم يشنون بحالسه . أما الحكماء الحقيقيون فكانوا هم الأجناد التركية الذين تحالفوا مع جنود البربر ، وطردوا الجنود السودانية من القاهرة وطاردوهم إلى الصعيد ، حيث عاثوا فيها وأدخلوا الرعب إلى قلوب أهلها حتى ترك الفلاحون مزارعهم وأراضيهم .

ثم غدر الجنود الأتراك بالبربر وطردوهم من القاهرة ، فهاجر البربر إلى الوجه البحري وتعمدوا إفساد نظام الري لنشر القحط بين الفلاحين . أما الجنود التركية فقد كانت السلطة في القاهرة في يدهم ، ينهبون وينسبون ، ويجردون قصور الخلفاء بما فيها ، قبيدوا المجموعات الفنية التي لا تقوم بحال (١) والأحجار الكريمة والجواهرات . وأمعن من هذا الإجرام بخرتهم محتويات المكتبة النفيسة التي لم يكن لها نظير ،

(١) كُتب القرى كشفاً باسماء ما كان في قصور الخلفاء من الكنوز ، ما لا يستطيع أن يرويه كله ، ولكننا نقبس منه هنا : — هذا السكيات الوافر من الأحجار الكريمة والأواني الفضية والأوعية المصنوعة من الذهب والبلور والملابس الموشاة بالذهب وجميع أنواع الفخار — كؤوس نقش عليها اسم هارون الرشيد وأوان نقشت بليلاء تأهدهت الخزائن من إمبراطور الروم ، وسيف النبي ودرع الحسين شهيد كربلاء وسيف المنز ، وكيات من الرماح المرسعة بالجواهر ، وجراب وأسلحة ومخاف ومخابر من ذهب ، وعدد كبير من الشطرنج ، رقعة من الحرير موشاة بالذهب ، وقلمه من الأبنوس والماج ، ومرايا من الصلب ، وأكواب من النبر ، ومنضدة من العقيق ، وطاووس من الذهب له عينان من الياقوت الأحمر ، وريش من المعدن بليلاء وطي مرصع باللائم وعمامة مرصعة بالجواهر تزن سبعة عشر رطلا ، وثمانية وثلاثون زورفا ملكياً بينها واحد من الفضة وفسطاط الخليفة الظاهر والأوتار المصنوعة من الفضة وفسطاط اليازورى ذى القروش اليدوية التي استخرق منها تسعة أعوام كاملة عمل خلالها غصون رساما ، وكان يبلغ طول عمودها مائة وعشرين قدماً ومحيط الفسطاط بحوالى ألف قدم .

والتي كانت تحوى ضمن ما تحويه مائة ألف مخطوط لا يزال للعثريون يجدون في البحث عن بعضها . ولقد استخدم هؤلاء العاشون تلك الكنوز الثمينة النفيسة في رفق أحذيتهم وفي إشعال النيران ، بل كانوا يلقون بها فوق أكوام القاذورات .

ولما أصبحت مصر العليا والسفلى في قبضة جند السودان والبربر ، انقطعت المئون عن الحاضرة وبدأت المجاعة الكبرى في سنة ١٠٦٦ م واستمرت سبع سنين ، قاست منها مصر الأميرين ، وأصبحت على شفا الخراب ، وظل الجنود للسرحدون يلقون الرعب في قلوب الفلاحين ويشلون حركتهم في أعمال الزراعة ، ولم يكن هناك من يخفف من سوء الحالة الناشئة عن انخفاض النيل أو من يقوم بئذ حبوب العام التالي . وبانقطاع استيراد المئون العادية إلى القاهرة ومصر أحس الناس في هاتين المدينتين بالضيق والحرمان ، ومسهم الضر ، حتى إن عن الرغبة بلغ ثمانية جنيهات وللنزل يستبدل بربع من البقيق ، والنساء يلقين بمجوهراتهن النفيسة لأنهن لم يجدن من يأخذها مقابل شيء من الطعام . وكانت الخيل والكلاب والقطط تباع بأعنان فادحة ويقبل الناس على التهام لحماها ، وسرعان ما عدمت أمثال هذه الحيوانات حتى لم يبق في المدينتين دابة تدبج . وقد أقفر إسطنبول الخليفة ، حتى إن خدمها الجوع لم يبق عندهم إلا ثلاثة أفراس هزيلة عجاف ، وبدأ الناس يخطفون بعضهم ليسدوا رمقهم ، ويبيع لحم الإنسان عند القصابين ثم أعقب ذلك وباء حصدة الأرواح بمنجبه حصداً ذريعاً ، واكتسح الديار داراً بعد دار لا فرق بين غنى وفقير ، حتى إن البسادة للترفين كانوا يمرضون أنفسهم في الحمامات العامة لقاء كسرة من الخبز . أما الخليفة فكان مدينياً يحفظ حياته لابنة أحد الفقهاء بما كانت تقدمه له من الطعام ، إذ كانت تجري عليه رغيفين في كل يوم ، بعد أن سلبه الأتراك ما عنده وهجرته طاشيته وفزت زوجته وبناته إلى بغداد خوفاً من الطاعون .

ولم يحدث أن مر بمصر في حياتها كلها مثل تلك السنين السبع العجاف . غير أن لكل شيء نهاية ، فقد جاء محصول سنة ١٠٧٣ م وفيراً ، وقتل قائد الجنود التركية وقطعت جثته إرباً ، ثم من الله على البلاد بوزير خطير في سنة ١٠٨٤ م فأخذ الدولة من الدمار — ذلك هو بدر الجلى الذى أرسل إليه الخليفة يستدعيه في محنته . وكان بدر أرمينياً ، ولكنه لم يكن مسيحياً . وقد نشأ نشأة مملوك ، ثم رفعته عبقرته إلى

أهل الناصب ، فكان واليا على دمشق ثم عكاه ، وكان بدر هذا رجل الساعة . وقد حدث أن دخل على الخليفة ، وللقريء يتلو بين يديه : « ولقد نصركم الله ببدر » (١) . فتفاهل الخليفة وقاطع للقريء . ولم يتركه يتم قراءته وقال : ألا لو قلت بعد هذا شيئا لقطعت رأسك . لم يتوان القائد العظيم في التخلص من طائفة الأتراك فأعمل في قوادهم القتل ونجى مصر من عهد الإرهاب . وقد قلده الخليفة قيادة الجند ، ومنصب قاضي القضاة وداعى دعاة الشيعة ، وصار رب السيف والقلم . ومالبت أن أعاد الأمن إلى الحاضرة ، ثم وجهه إلى الأقاليم ، فأخضع البربر والسودان والعرب وأعمل فيهم السيف حتى ساد الأمن والنظام في كافة البلاد من الإسكندرية إلى أسوان . وقد بدأ الفلاحون - بعد أن عاد إليهم الأمن والطمأنينة - في فلاحه أراضيهم مرة أخرى ، فزادت - وازدادت الدولة بسرعة واستردت البلاد خلال عشرين عاما نشاطها وحيويتها .

والواقع أن القاهرة قد استفادت إلى حد جيد من تلك السياسة الرشيدة التي اتبعها ذلك الأرمي العظيم - بدر الجمالي - فقد كان التجديد في مبانيها قد وقف منذ أن بنى العزيز قصره الغربي ومنظرة اللؤلؤة قبل قرن من الزمان ، ولو أن الحاكم أتم بناء مسجده الأول ، وبناء دار العلم . أما المستنصر فكان يفضل منظرة التي بناها في هليوبوليس على مثال بناء الكعبة الشريفة بمكة ، وأنشأ بجوارها بركة من خمر متحلا فيما عمل بيتر زمزم حيث كان يطيب له أن يتوسم على الحجر الأسود وعلى مياه البئر الآسنة بما لم يجرؤ عليه رجل من المسلمين . وما أن بدأ بدر الجمالي عهده حتى سمعت أصوات آلات البنائين ، وكان لا بد من تحصين القاهرة لتأمين شر تمرد الجند وعصيانهم كما حدث من قبل . وكان السور القديم للبنى بالآجر قد هدم في الوقت الذي اتسعت فيه رقعة المدينة لامتدادها خارج الأسوار التي بناها جوهر ، فهدمت الأبواب وأعيد بناؤها بالحجارة بين سنتي ١١٨٧ و ١١٩١م بحيث ضمت بينها مساحة أكبر من مساحة المدينة القديمة : من ذلك إلى اليوناني في الجنوب الذي دخل في نطاق المدينة . وبنى سور جديد من الآجر قام صلاح الدين الأيوبي بتوسيع مساحة الأرض التي يضمها ، ولكن أسوار بدر الجمالي مازالت باقية إلى الآن ،

(١) يشير بذلك إلى غزوة بدر ، أولى غزوات الرسول .

من سورة آل عمران - للترجم

وتصل باب النصر باب الفتوح من جهة الشمال وتمتد إلى طاية على مسافة ثلثمائة وثلاثين قدماً غربي باب الفتوح ، وإلى زواية شرق باب النصر ما يقرب من مائتي قدم ، كما توجد قطعة أرض أخرى محاذية هذه الأسوار بين المنازل التي تقع على مقربة من باب زويلة ، كما كانت هناك قطع أخرى من تلك القطع التي كانت في داخل الأسوار حتى سنة ١٨٤٣ م غربي الأزبكية .

ولم يطرأ على الأبواب الثلاثة الكبيرة تغيير يذكر إلا ما كان منها خاصاً بأبراج باب زويلة ، حتى اقتطع منها قليلاً بحيث يسمح لما أذن مسجد للؤيد الذي بنى في القرن الخامس عشر بالظهور . وهذه الأبواب هي في الحقيقة أروع آثار الفاطميين ، إلا أنها بيزنطية وليست عربية . ويقول أبو صالح الأرمني إن راهباً قبطياً يقال له حنا هو الذي قام بعمل الأسوار والأبواب للوزير الأرمني ، غير أنه مهما يكن ما قام به هنا في تصحيح الأسوار أو الأبواب ، فإنه لا يمكن أن يكون هو المهندس الذي وضع رسم هذه الأبواب التي أقيمت على الطراز النورماني (١) . وعلى ذلك فإن المقرئ كان على حق في نسبتها إلى ثلاثة إخوة من أهالي الرها ، وهي مدينة يكثر فيها الأرمن وكان من الطبيعي أن يلجأ إليها بدر الجمالي - وهو الخير بسورية - للبحث عن المهندسين الذين يحتاج إليهم ، وقد بنى كل واحد منهم باباً . وبما يؤيد صحة هذا القول أن هذه الأبواب بنيت على الطراز المعروف بالسوري البيزنطي ، وأنها تحمل عواهد كثيرة من أساليب العمارة البيزنطية . وعلى الجملة ، فإن أبواب القاهرة وأسوارها ، كما ذكر فإن برشم ، بنيت على مثال فرسان المعبد - تميزاً له عن الطراز الفرنسي - في الهندسة العسكرية ، وهو طراز فرسان المعبد البيزنطي العظيم الذي يمكن أن تتبع خصائصه في مختلف البلدان والصور في القسطنطينية ونيقية وبيروسة ، وفي الحصون العربية القديمة في شمال سورية ، وفي الصور التي تلت الحروب الصليبية في أسوار بيت المقدس . وأهم ما يميز هذا الطراز من البناء هو الأبراج المربعة ونوافذها المربعة أو المستديرة التي تختلف عن الطراز الفارسي ذي الأقواس ، ورومانيت على غرار المساجد الفاطمية

(١) أبو صالح والمقرئ أخر مذكرات فان برشم (طبعة ١٨٩١) ص ٣٧ - ٧٢ في بحث هندسة الأسوار والأبواب .



والأبراج المستديرة الموجودة في سور صلاح الدين . ويتراوح سمك الجدار فيها بين أحد عشر وثلاثة عشر قدما ، وتقع فيه حجرات الرماة بالقوس وآلات الدفاع الأخرى ، وتكون هذه الأبواب من فتحة منقطة سقفها القوس مستدير . وعلى جانبيها أبراج أعدت بها أما كن الرماة بالقوس أو بإلقاء الأحجار ، ويتصل بعضها ببعض بطرقات فوق قنطرة الباب . وبما يزدان به باب النصر درجات حلزونية بديعة الشكل وأفاريز رائعة الصنعة ، ودروع منقوشة وكتابات كوفية جميلة (١) تمثل عقيدة الشيعة ، شأنها شأن كتابة ممائة على باب الفتوح . على أنها بقيت ثمانية قرون دون أن تمحوها الحكومات السنية التي حكمت مصر في هذه الالة . والخلاصة أن الأبواب الثلاثة الكبيرة هي أثر رائع لأحد وزراء القاهرة العظام في العصر الوسيط . وقد أفادت مصر كثيرا من حكم الأرمن مدة ستين عاما .

ومات بدر الجمالي في سنة ١٠٩٤ م ، وهي السنة التي مات فيها الخليفة المستنصر . ولكن الأفضل خلف أباه بدر الجمالي في منصبه وظل على ذلك حتى أمر الخليفة الأمر بقتله في سنة ١١٢١ م . وفي سنة ١١٣١ م كان أبو علي بن الأفضل يحكم نيابة عن الخليفة المنتظر . وهكذا نرى العودة إلى نظرية الشيعة القديمة التي تقول باختفاء الإمام متجاهلين بذلك حقوق الفاطميين .

ولما قتل أبو علي بن الأفضل وهو في طريقه إلى ملعب الكرة (بولو) تقلد الوزارة يانس أحد عبيد الأفضل ، ثم خلفه بهرام الأرمني المسيحي حتى سنة ١١٣٧ م . وقد أدى نفوذ الأرمن للترايد إلى حصر المناصب الرئيسية في مختلف دواوين الحكومة في أيديهم . وكان لهذا رد فعل طبيعي أدى إلى طرد بهرام وألفين من بني جلادته ، وزال نفوذ الأرمن بعد أن خدموا البلاد خدمات جليلة وحكموا حكما يتسم بالعدل وبعد النظر واتساع الأفق . ولا شك في أن بدر الجمالي وابنه قد أسديا إلى مصر خدمات جليلة . ولئن قيل إنهما جمعا ثروة طائلة — إذ بلغ ما جمعه الأفضل ثلاثة ملايين من الجنيهات ، وبلغ دخله من بيع ألبان ماشيته خمسة عشر ألفا ومبجائة وخمسين ألف من الجنيهات — فإن آل الجمالي قد جمعوا ثروتهم مجددهم وذكائهم . وكان العدل

---

(١) نشر هذه الكتابة للستر . ل كاي في مجلة الجمعية الآسيوية الملكية

والكرم من شيختهم . أما سياستهم نحو القبط فقد لمجت الألسنة بالشكر والثناء عليهم . ومع أن أبا على أحيا تلك النظرية الشاذة الخاصة بالإمام المختفي الذي نقش صورة على النقود ، فقد ورث عن أبيه وجده صفاتها الطيبة وتسامحا إزاء المسيحيين ، وأظهر اعتدالا ، كما كان صديقا لم ونصيرا للعلم .

وسوف نرى أنه منذ عهد وزارة بدر الجبالي أصبحت مصر لا يحكمها الخلفاء ، وإنما يحكمها الوزراء ، وهذا يشبه النظام الميروفنيجي الذي كان عماده ناظر السراي أو القهرمان (١) .

والواقع أنه منذ عهد الحاكم الذي اتسعت سياسته بالاستبعاد ، لم يحاول أي خليفة أن تكون له سلطة مباشرة في شئون الدولة ، اللهم إلا الخليفة الأمر الذي حاول أن يكون وزير نفسه بمساعدة الراهب ابن كنة . غير أن هذه التجربة قد أخفقت ، فقد تملك الراهب الزهو والفرور ، وأمر الخليفة بقتله ، فضرب بالسياط حتى مات . ولما كان الأمر قاسيا كرهه الناس ولم يلبث أن قتله أحد الإسماعيلية وهو في طريقه من المودج ، وهو المنزل الريفي الصغير الذي بناه في جزيرة الروضة إرضاء لميول زوجته البدوية ، وكان ذلك في سنة ١١٣٠ م . ولم يكن له أثر إلا بناء المسجد الأحمر بين القصرين . ومنذ مقتل الأمر نزل الخلفاء عن السلطة للوزراء الذين أصبحوا هم أنفسهم أداة تحريك الأحزاب العسكرية . أما التقشف والعزلة التي نادى بها الفاطميون من رجال الدين ، فقد كانت لا تزال تراعى في ذلك الوقت كما ذكرنا في وصف الفارسيين الذين أرسلهما عموري ملك بيت المقدس ؛ غير أنه يجب أن نعرف أن ذلك التبجيل والاحترام الزائد قد صار أقرب إلى الهزل منه إلى الحب . فإن قتل الأمر والظاهر ، وحبس الحافظ ، وقتل الوزير الشاعر وضوان أمام مسجد الأحمر على يد حراسه السودانيين المدمنين على الخمر ، ودس الخليفة السم لابنه على يد طبيبه المسيحي ، ومنظر سفك الدماء للروع في القصر حيث عرض الطفل العائز أمام رجال القصر بصفته إمامهم الروحي ، وهم يرتجفون من الخوف

---

(١) نسبة إلى أول ملوك الفرنجة في فرنسا ، والامم مشتق من ميروفنيج جد كلوفس ملك الفرنجة — المترجم .

والفرع (١) — كل هذا لا يدل على أى احترام حقيقي لخلافة الشيعة الفاطمية . وقد عرفت بغداد العلماء الذين لا سلطة لهم منذ عهد طويل ، وكان منافسهم على صفاف النيل أيضا أشباحا لمجد غابر .

وكان الرعب الذى حل بالبلاد أخيراً أكثر مما يجتمعه سكان القاهرة الذين طامنا قاسوا الشدائد واحتملوا : فإن قتل الخليفة الظاهر بعد قتل الوزير الكردي بن السلال بفترة وجيزة ، والمذبحة المروعة التى حدثت فى القصر ، والجرائم التى تمت بتدبير الأقرباء والندماء ، والوحشية التى انطوى عليها عرض الخليفة الطفل وهو فى سن الرابعة وسط هجوم من الرعب والهلح — لاشك أن ذلك كله قد أثار روح الانتقام . وسرعان ما هرب الوزير الجديد عباس ورجله الأهالى بالحجارة حتى قتل بالقرب من البحر الميت . أما نصر ، وهو القاتل ، فقد ألقى جماعة فرسان المعبد القبض عليه وسلموه إلى نساء القصر لقاء مبلغ ثلاثين ألفاً من الجبهات ؛ فقمّن بتعذيبه وقطع أوصاله وسمن عينيه ، وبعث ليشرهه فى شوارع القاهرة ثم يصلب على باب زويلة . وكانت النساء قد أرسلن فى أثناء اشتداد المحنة بهن خصائل من شعورهن إلى والى الأشمونين فى صعيد مصر يستنجدون به ؛ فلبى طلائع بن رزيق نداهن فى سنة ١١٥٤ م ، وركب إلى القاهرة وهو يلوح تلك الخصائل ، ووركا به تابع عربى واحد ، وتسلم الوزارة فى دار للأمن (٢) ، فاستمدت الجاضرة منها . وكان طلائع قد تشبه بالوزراء المحدثين ، فاتخذ لقب ملك ، ولقب نفسه الملك الصالح . وبعد طلائع هذا آخر دعامة للدولة الفاطمية للتداعية .

وكان طلائع رجلاً مثقفاً شاعراً واسع الإدراك ، كريماً متواضعاً ، يتعهد الأمور فى كياسة وحكمة . ويدل مسجده الذى لا يزال بالقرب من باب زويلة ، على تقواه

---

(١) هذا المشهد يصفه لنا الأمير العربى أسامة بن محمد الذى كان يقيم فى القاهرة فى ذلك الوقت ، والذى كان صديقاً لنباس قاتل الخليفة والوزير على السواء . أنظر حياة أسامة تأليف دبرامدج ص ٢٠٥ — ٢٦٠ .

(٢) شيد هذا القصر أحد الوزراء السابقين ثم حوله صلاح الدين إلى مدرسة ، ويقع بالقرب من جامع الأشرف الخالى فى شارع النورية .

وصاحته ، كما يدل على ما بذل من جهد في سبل تجنب مصر العواصف التي كانت تتركز في سورية وفلسطين نتيجة الارتباك السياسية . إلا أن نساء القصر وجدن أنهن قد استدعينه لإقماذهن ، ولكنه كان مؤدبا قلسيا ، فتمين فضله ودبرن أمر مقتله . وكان آخر ما قال إنه آسف لعدم غزو بيت المقدس واستئصال شأفة الفرنجة ، وحذر ابنه من شاور العربي أمير الصعيد . وكان على حق في نصحه ، لأن شاور عزل رزيق ( ابن الوزير ) ثم قتله في مسهل سنة ١١٦٣ م . ولم يمض عام حتى كان ملك بيت المقدس المسيحي في مصر .

وقبل أن تنتقل إلى غزو الصليبيين للقاهرة وإلى وصول صلاح الدين الأيوبي إليها وانتهاء حكم الفاطميين بموت العاضد آخر خلفائهم - يجمل بنا أن نذكر شيئا عن بقايا المدينة التي خلفتها تلك الدولة الفاطمية وهيأت لها كل عوامل الفخامة والأبهة التي لا مثيل لها ، إذ لم يبق مما شيد من الأبنية التي تشهد لهذه الدولة بالعظمة سوى الأبواب الثلاثة العظيمة وجانب من الأسوار وبقايا أربعة مساجد (١) . أما القصور فقد عنت آثارها ، ذلك أن الذين خلفوا الفاطميين لم يستعملوها ، فتهدمت على مر السنين ، ورتاها الشاعر عمارة اليمني في سنة ١١٧٤ م ، كانهدمت دار العلم ودار المسامون ودار الوزراء وغيرها من قصور الخلفاء الفاطميين وحاشيتهم . ولم يكن ذلك نتيجة تخريب أو تدمير متعمد ، ولكنه كان نتيجة إهمالها وعدم موالاتها بالتعمير حتى تداعت من تلقاء نفسها

ومن بين الآثار الباقية نجد أن أقدمها وأصدقها شاهدا على عظمة الفاطميين هو جامع الحاكم . ذلك أن الأزهر لا يحتفظ إلا بالقليل من بنائه الأصلي وزخرفته القديمة ، يتلوه جامع الأقر الذي بناه الخليفة الأمر بين القصرين ، وهو أول مسجد بني من الحجر إذ كانت جميع المساجد من قبل تبنى بالآجر . على أن واجهته فقط هي التي بنيت من الحجارة ، وكانت منتظمة الشكل جميلة النقش . أما الأروقة الداخلية فكانت من الآجر وأعمدتها من الرخام . وعلى صغر حجمه وتهدمه ، فإنه من بين المساجد الفاطمية يتميز بواجهة جميلة تختلف كثيرا عن الواجهات العادية البسيطة للمساجد الأخرى . وبما يسترعى الاهتمام جمال النقوش التي زينت بها جوة المحراب

---

(١) بني مسجد الظافر في سنة ١١٢٩ ، ولمزال قائما في أحد أركان شارع السكرية (سوق السكر) ، ويعرف باسم جامع الفكاهان ، وقد أعيد بناؤه في سنة ١٧٣٥ م .

والكتابة الكوفية والنقش الذي يزين المشكاة الجانبية وما يحاورها من الأفاريز .  
ومن هذه النقوش ، اثنان يحملان اسم الخليفة الأمر . ويرجع تاريخهما إلى سنة  
٥١٩ هـ ( ١١٢٥ م ) ، وهو تاريخ بناء المسجد . كما أن هناك نقشين آخرين يسجلان  
إعادة البناء على يد الأمير يلغا السلي سنة ٧٩٩ هـ ( ١٧٩٦ م ) . ومن حسن الحظ  
لم تؤد إعادة بنائه إلى تغيير كبير فيه . وعلى الرغم من أن مسجد طلائع بن رزيق في  
١١٦٠ م بالقرب من باب زويلة قد تهدم ، إلا أنه يرينا تقدما ملحوظا في فن النقش  
إلى حد أننا لا نرى بين النقش العربي شيئا أبعد من هذا في أي مسجد بني بعد ذلك  
التاريخ . وهناك أمثلة عديدة في دار الآثار العربية تصور لنا في جلاء قوة الفاطميين  
وبراعتهم في فن النقش ، نخص بالذكر منها تلك الأبواب المبنية بالصفايح الرقيقة كالورق  
من أيام الحاكم والمحارب الثلاثة ، وقد أخذ اثنان منها من الأهرر ونقش عليهما  
ما يفيد أنهما صنعتا على يد الخليفة الأمر في سنة ١١٢٥ م ، والثالث أخذ من ضريح  
السيدة رقية ، ويرجع تاريخه إلى سنة ١١٣٥ م ، ويحوى نقوشا هندسية معقدة بين  
الزخرف العربي والكوفي .



جامع الجيوشي

ومن سوء الحظ أن العقائد المخالفة للسنة، ولو أنها قد عملت على تشجيع النواحي الفنية، إلا أنها في الوقت نفسه كانت السبب في هدمها وإزالتها، إذ لو لم يكن الفاطميون مغالين في معتقداتهم الدينية، لأبقى من جاء بعدهم من الحكام السنيين على هذه القصور الجميلة وتلك التحف النادرة، ولما تحمس مخالفوهم في العقيدة لإزالة كل أثر من الآثار التي قضاها عهدهم في تشييدها، مما كلفهم أموالاً طائلة ومجهودات فنية عظيمة.

## الباب السادس

### قلعة صلاح الدين

صوامل غزو مصر — الأتراك والصليبيون — شاور وضرغام — عموري وشيركوه في مصر — صلاح الدين يتخذ الوزارة — عزل الخليفة الفاطمي — حروب صلاح الدين — أعمال صلاح الدين في القاهرة — الأسوار الجديدة — القلعة — الثورات في القاهرة — رأس الحسين — صلاح الدين يشيد المدارس الدينية — أقوال ابن جبير — المستشفيات — خصائص المستشفيات والمساجد — أثر إحياء الفقه السني وتشجيع العلم .

كانت القاهرة في مستهل القرن الثالث عشر الميلادي ، مدينة تختلف تمام الاختلاف عنها يوم أن كانت مقرا للفاطميين . ذلك أنها صارت أوسع رقعة ، وكانت تحوي عددا من المباني الجديدة ذات صفة لم تعرفها مصر من قبل ، كذلك كان بها قلعة . وكل هذه التغيرات يرجع الفضل فيها إلى صلاح الدين الأيوبي ، ولو أنه لم يشق حتى يراها وقد تم تشييدها . وإذا أردنا أن نتبع في شيء من التفصيل الأسباب التي أدت إلى غزو مصر على يد ملك بيت المقدس الصليبي ثم طرد الفرنجة على يد جيوش نور الدين سلطان دمشق ، فخرجنا بذلك عن الموضوع الأصلي الذي نكتب فيه . غير أن أهم العناصر في الموقف السياسي يتلخص في تقسيم سورية بين قوتين جديدتين متعاديتين : الصليبيين والأتراك السلاجقة . فإن تسرب القواد الأتراك إلى خلافة بغداد أدى إلى غزو كبير بقيادة السلاجقة الذين لم يكتفوا في أواسط القرن الحادي عشر ، بإخضاع بلاد فارس وبلاد الروم واتخاذ الخلافة السياسية آلة في أيديهم ، بل غزو أملاك الفاطميين في سورية ، وكانت قبضتهم عليها ضعيفة في كل وقت . وقد استولوا على دمشق في سنة ١٠٧٦م ولم يمنعهم من غزو مصر قسما سوى ما أقامه الوزير الأرمني بدر الجمالي من الاستحكامات الحربية والرشوات التي كان يقدمها لهم . لقد تفككت الدولة السلجوقية في أواخر ذلك القرن ، ومع ذلك لم تكن سورية تحت قيادة الأتابك زنكي وابنه نور الدين بأقل خطراً على الفاطميين من الدولة السلجوقية للوحدة .

وفي الوقت نفسه جد عامل زاد السياسة السورية تعقيداً ، فقد بدأت الحملات الصليبية وأعاد المسيحيون بيت القدس في سنة ١٠٩٩ م وأقاموا هناك مملكة لاتينية ، وبدأت جيوش الفاطميين تتقدم نحو الجنوب . وحاول الأفضل بن بدر الجمالي أن يتفاوض مع الصليبيين ، فلما أعياه ذلك حاربهم ردحا من الزمن في فلسطين ، ولكنه لم يستطع رد الصليبيين أو إيقاف تقدمهم فسقطت طرابلس في سنة ١١٠٩ م ، وصدر في سنة ١١٢٤ م ، وقامت عسقلان وهي آخر معاقل الفاطميين مدة طويلة ولكنها استسلمت في سنة ١١٥٣ م . وأصبح الصليبيون على الحدود المصرية ، وقطعت حصونهم في الكرك وفي منتريال الواقعة عند البحر الميت مواصلات الفاطميين مع سورية ، ولم تسكن إحدى المملكتين : اللاتينية في بيت المقدس وسلطنة دمشق التركية من القوة بحيث تستطيع أن تسحق الأخرى ، فكانت مصر هي القوة المرجحة ، فلذا استطاعت إحدى القوتين الاستيلاء على النيل ، تمكنت من مهاجمة منافستها وكتب لها الفوز . وكان طبعاً أن تتآلف المملكتان الإسلاميتان في دمشق والقاهرة ، ولكن اختلاف المذاهب الدينية وقف حجر عثرة في سبيل هذا الائتلاف ، إذ كان نور الدين سنيا متحمساً لمذهبه لا يطبق مواءمة دعاة الشيعة ، ولم يشجع للمعارضات التي فاعمه فيها . الوزيران ابن السلاط وطلائع ، وبقي جيداً عن مصر ، حتى رأى جيش الصليبيين في القاهرة ، وحينئذ فقط رضى أن يرسل جيوشه لمساعدة مصر .

وكان سبب هذا التدخل أن الوزيرين شاور وضرغام كانا يتنافسان على ما بقي للفاطميين من سلطان ، فلما تطلب ضرغام على منافسه شاور وطرده من الوزارة ، استنجد هذا الأخير بنور الدين . أما ضرغام فقد تحالف مع عموري ملك بيت المقدس الذي كان قد قام فعلاً بغزو مصر ليطالب بالأتاوة المالية السنوية ، التي كانت الحكومة الفاطمية المتداعية قد ألزمت نفسها بدفعها لجارتها المسيحية . وفي سنة ١١٦٤ م عاد شاور يماونه جيش سوري بقيادة شيركوه ، ومن بين هيئة أركان حربه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي ، وهزم ضرغام في بليس وأرغمه على أن يحتفي بالقاهرة ، على حين عسكر شاور ومن معه في مصر .

وكان لضرغام من الصفات ما حجب فيه الناس ، فقد كان عريياً شجاعاً ، قاتل الصليبيين في غزة ، وكان يقود كتيبة من الجيش الفاطمي من أهل برقة ، غير أنه



أساء إلى نفسه حين امتدت يده إلى أموال الأوقاف ليدفع منها مطالب جيوشه ، فامتنع الخليفة عن مساعدته وتخلّى عنه أتباعه . وكان منظره في آخر مواقفه يدعو إلى الأسى ، فإنه عندما اشتد عليه القتال أمر بدق الطبول ، وتنهخ في البوق يدعو المحاربين إلى أماكنهم على الحصون ، لم يجبه أحد ، ووقف الأمير اليأس في خشمائه من حرسه أمام قصر الخليفة إلى التروب يستحلفه بأجداده أن يظل على الناس ويدعوهم لمؤازرته ، والخليفة يصر أذنيه عن نداءه . وقد بدأ الحرس ينفذ من حوله حتى لم يبق معه إلا ثلاثون رجلاً . وسمع من يحدّره ويطلب إليه أن ينجو بحياته ، وقد دقت طبول شاور آتية من باب القنطرة ، وحينذاك ركب القائد المخدول متجهاً إلى باب زويلة ، إلا أن اللذبيين من أفراد الشعب قطعوا رأسه وطافوا به الشوارع فرحين مهالين ، وتركوا جثته فريسة للكلاب . وهكذا كانت خاتمة سيد شهم انصف بالبطولة وقرض الشعر .

وما أن تخلص شاور من منافسه حتى استدار الوزير الخائن وطلب من عموري ورجاله من الصليبيين أن يساعدوه في طرد متغذيه السوريين . وبعد معارك طويلة عقد الفريقان هدنة ، وانسحب الجيشان المسيحي والسوري دون أية نتيجة حاسمة . غير أن الغزو الذي قام به السوريون كان بداية احتلال دائم ، إذ بينما كانت الجند السورية عائدة في طريقها إلى دمشق أخذت تشر أخباراً عن ضعف الحكم الفاطمي وتحت نور الدين على غزو مصر موضحة له أهمية ذلك . ولكن السلطان كان حذراً فلم تفره هذه الأقوال إلا بعد أن علم أن عموري يتآمر مع شاور . وحينذاك أرسل الجيش السوري للمرة الثانية لغزو وادي النيل ، فعبّر النهر في نفس الوقت الذي وصل فيه جيش الصليبيين في سنة ١١٦٧ م ، واحتل مدينة القاهرة وعقد المعاهدة التي سبق أن أشرنا إليها حينما أرسل الفارسين سيرهيو صاحب قيسرية وجوفري فواشر أحد فرسان المعبد (١) .

أما شيركو . فقد احتل الوجه القبلي ، بينما احتل صلاح الدين الإسكندرية وبقى بها

خمس وسبعين يوما ، ثم عقد الصليبيون والسوريون هدنة ثانية ورجع الجيشان إلى بلادها . غير أن الصليبيين تركوا ثانيا عنهم في القاهرة وأقاموا حرسا منهم على أبواب المدينة ، وعسكر بعض جنودهم في جامع الحاكم . وكانت تقارير هؤلاء الشهود عن ضعف الحكومة وتخطيطها للحكم ، سببا في قدوم عموري في السنة التالية ، وقد عقد النية على ضم مصر لأملأه نهائيا .

وكان هذا التدرج من جانب الصليبيين والمذبحة الشنيعة التي أقدموا عليها في بلبيس ، بما أشاع القزع والرعب في قلوب المصريين ودعاهم إلى الاستنجاد بسلطان دمشق ، حتى إن الخليفة حرك شعور نور الدين بإرساله خصلات من شعر نسائه ليخفف إلى نجدته . وللأسفة الثالثة دخل شيركوه مصر بصحبة صلاح الدين في سنة ١١٦٩ م ، وقد صبح عزمهما على البقاء نهائيا ، وانسحب عموري دون أن يشترك مع شيركوه في قتال . أما شاور فقد حاول اغتيال منفذيه بتدبير المؤامرات ضدهم ، ولكنه أخفق وألقي القبض عليه وأعدم . فتنازل شيركوه الوزارة وبقي في ذلك المنصب شهرين . ولما وافته منيته خلفه عليها صلاح الدين الأيوبي في سنة ١١٦٩ م .

كان مركز صلاح الدين مركزا شاذا ، باعتباره وزير الخليفة الفاطمي الشيعي ، والجندي النائب عن سلطان دمشق السني . وعلى الرغم من أنه اضطلع بأعباء الحكم مدة عامين ، كانت الخلافة الفاطمية قد آذنت بالزوال ، في وقت كان آخر الخلفاء يلفظ أنفاسه الأخيرة . وكانت الفرمة مواتية للتفكير المنتظر ، ففي صلاة الجمعة في العائس من شهر سبتمبر سنة ١١٧١ م ، ذكر اسم الخليفة العباسي السني في الخطبة في جميع مساجد القاهرة . وقد ذكر لنا أحد الرحالة العرب وصفا شبيها بهذا حدث في أسبانيا بعد ذلك بآنتى عشرة سنة .

قال ابن جبير - في أحد المساجد قام الخطيب اليوم في صلاة الجمعة ، متبعا الطريقة للأثورة عن السنيين : « فأكثر بالصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله ، ورضى عن أصحابه ، واحتص الأربعة الخلفاء بالتسمية رضي الله عن جميعهم ، ودعا لعلى النبي صلى الله عليه وسلم حمزة والعباس ، والحسن والحسين ووالى الرضى عن جميعهم ، ثم دعا

لأمهات المؤمنين زوجات النبي صلى الله عليه وسلم ، ورضى عن قاطعة الزهراء وعن خديجة الكبرى بهذا اللفظ . ثم ألقى عظمه عبارات بليغة ، أثرت في السامعين حتى لانت له ألقى القلوب وسالت من العيون الدموع الغزيرة ، « وكان لا يسا ثوب سواد — وهو شعار العباسيين — مرسوما بذهب ، وعليه طيلسان شرب رقيق ( بسميه الأسبان الأحرار ) ، ومتعما بجامة سوداء مرسومة أيضا ، وعلى عاتقه السيف يحسكه يده دون ثقله . فعند صعوده في أول درجة ( قلعه المؤذن المذكور السيف ) ثم ضرب بنعله سيفه فيها ضربة أصمغ بها الحاضرين — إشارة منه إلى التزام السكون — ثم في الثانية ثم في الثالثة ، فإذا انتهى إلى الممرجة العليا ضرب ضربة رابعة . ثم أخذ يتلو الدعاء وهو واقف بين عشرين أسودين عليهما علامات يضاء ، وقد ثبتا في أعلى المنبر ، « ثم دعا للخليفة العباسي أبي العباس أحمد الناصر ( لدين الله بن المستضيء ) ثم لإصلاح الدين أبي المظفر يوسف بن أيوب ولولي عهده أخيه أبي بكر بن أيوب » (١) .

ولم يدهش هذا الدعاء جمهور المسلمين الذين سمعوه لأول مرة في سنة ١١٧٩ م ، ولم يبد أحد تذمرا (١) . وربما كان ذلك لأن الدعوة الشيعية لم تتغلغل في قوس أهل القاهرة ، واستمر الجمهور متأثرا بعقيدته السنية ، على الرغم من سيادة غلاة الشيعيين مدة قرنين . وعلى كل حال فقد تم الانقلاب دون مقاومة ومات آخر الخلفاء الفاطميين ( العاضد ) قبل أن يعلم بزوال ملكه . وأما أهله وأقاربه فقد عوملوا معاملة كريمة في الأسر . غير أن حاشيته وعبيده قد استغنى عنهم وذهبوا حيث شاءوا . ولما كانت تصور الخلفاء من الفخامة بما لا يتفق ومطالب صلاح الدين المتواضعة فقد أنزل بها قواده ، واكتفى هو بقصور الوزراء . أما المكتبة النخبة التي كانت تضم مائة وعشرين ألف كتاب جمعت بناية بعد أن أتلقت المكتبة الأولى منذ قرن من الزمان ، فقد أهديت إلى القاضي العاضل ، ووزعت النقائس التي اقتناها الفاطميون أو بيعت .

(١) ابن جبير ( طبعة رابطة ) ص ٤٦-٤٧ .

وهذا هو نفس ما ورد بهذا الصدد في ابن جبير ، وأورده الترجمة ، كما أنه هذا الرحالة في كتابه .

(٢) عبر المؤرخون عن ذلك بقولهم : فلم يتطع فيها عتران — للترجم .

وهكذا زالت قصور الفاطميين بالتدريج ، وبقيت مساجدهم ، وساد المذهب السني مرة أخرى في مصر .

وكان أغلب حياة بطل الإسلام العظيم في خارج مصر . ذلك أن صلاح الدين الأيوبي لم يقض من مدة حكمه التي بلغت أربعة وعشرين سنة سوى ثمانى سنوات في مصر ( ونقول حكمه لأنه كان يحكم فعلا ، وما كانت تبعيته للملك دمشق التي دامت خمس سنين إلا تبعية اسمية ) . كما أن أعظم انتصاراته وهزائمه القليلة كانت في سورية وبلاد الموصل وفلسطين . ولما غادر الباهرة في اليوم الحادى عشر من شهر مايو سنة ١١٨٢ م وخرج رجال القصر لتوديعه ووقف الركب عند بركة الحبش وصدحت للوسيقى ، سمع صلاح الدين شاعرا ينشد شعرا تشاءم منه ووقع في نفسه أنه لن ير مصر بعد ذلك اليوم . وقد صبح حدسه فلم تسكتحل عينه بمراى مصر بعدها . وقد غزا أرض الفراتين ، واستولى على دمشق التي كان قد ضمها إلى أملاكه بعد موت نور الدين ، وانتصر على الصليبيين في موقعة حطين ، واسترد بيت المقدس التي كانت مقدسة بالنسبة إليه كما كانت بالنسبة إلى المسيحيين ، وأخضع الأرض المقدسة بأسرها ، وحارب فرسان أوروبا حول عكا ، نحو ستين ، ونازل آخر الأمر ريتشارد نزالا جعل اسم صلاح الدين يتردد على كل لسان حتى في أوروبا نفسها . وأخيرا أمضى معاهدة الصلح في الرملة بعد أن هاجم يافا وصد عنها . ومات صلاح الدين في شهر مارس سنة ١١٩٣ م في دمشق .

لقد انتهت الحرب المقدسة وانتهى معها صراع خمس سنوات ، فلم يكن للمسلمين قبل موقعة حطين ( يولييه ١١٨٧ م ) شبر واحد من فلسطين غربي الأردن . أما بعد صلح الرملة الذي عقد في شهر سبتمبر سنة ١١٩٢ م ، فقد أصبحت جميع الأراضي في أيدي المسلمين إذا استثنينا جزعا ضيقا من الساحل بين مدينتي صور ويافا . لقد دعا البابا العالم للسيحي أن يحمل السلاح لتخليص بيت المقدس وعملكة أورشليم . وقد امتعجاب لندائه الإمبراطور وملوك إنجلترا وفرنسا وصقلية وليوبولد صاحب النمسا ودوق برغندية وكونت الفلاندرز ومئات من مشاهير البارونات والفرسان من جميع الأقطار ، وانضموا إلى ملك بيت المقدس وأمراء فلسطين وفرسان المعبد والكنيسة .

غير أن الامبراطور أقدم مات وعاد للوك من حيث أتوا ، وقد تركوا أنبل جماعة من رعاياهم قتل في الأرض المقدسة . غير أن بيت المقدس بقيت في يد صلاح الدين ، ولم يبق للملك الإسماعيلي إلا قطعة صغيرة من الأرض حول عكا . لقد تجمعت كل قوى العالم المسيحي في الحرب الصليبية الثالثة ، ولكنها لم تستطع أن تنال من قوة صلاح الدين وسلطانه . ولما انتهت خروب السنوات الخمس وخفت عنها مصائبها لم يكن لصلاح الدين منافس يحكم الأقطار التي تقع بين جبال كردستان وصحراء ليبيا . وكان ملك جورجيا وكاثوليك أرمينية وسلطان قونية وإمبراطور القسطنطينية — وكلهم وراء الحدود — يتوددون إليه يخطبون وده ويتوقون إلى محالته (١) .

وعلى الرغم من أن مدة إقامة صلاح الدين الأيوبي لم تطل في القاهرة ، لم يترك أحد ممن سبقوه من الحكام فيها مثل ما خلف من الآثار الخالدة . فإليه يرجع الفضل في اتساع الحاضرة ، وتنسيق هندستها التي كانت تفخر بها إلى عهد قريب : فالقعة وهي أبرز معالمها من إنشائه ، والدرسة التي بناها هي أكثر عمارتها ذيوها وشهرة ، وكل هذه التغييرات تمت بفضل توجيهاته . ولما غادر صلاح الدين القاهرة بعد أن مكث فيها ثمان سنوات ، ظل يبحث في طلب إمدادات مها بماوته في حروبه السنوية . وقد ترك بها من القواد والأقارب من قام بإتمام ما بدأه من أعمال ، كان بعضها من أجل الدفاع عن البلاد وبعضها في سبيل الدين . فأما الأعمال الدفاعية ، فقد تجلت في إنشاء القلعة والسور وجسر النيل ، وكلها من الأعمال المستعجلة التي لم يسبقه إليها أحد ، إذ أن الحكام الذين جاءوا قبله جعلوا هدفهم بناء مبان حكومية أو ضواح ملكية ، كل يعد عن سابقه نحو نصف ميل إلى الجهة الشمالية الشرقية من المدينة ، حتى إن القاهرة الماطمية نفسها لم تكن تشمل سوى قصور الخلفاء والوظفين ولم تكن حاضرة البلاد المصرية . أما صلاح الدين فكان أول من وضع بأحكام ، تصميم شامل لحاضرة عظيمة ، إذ أنه بدلا من أن يحدو حذو من سبقوه من الحكام ويقيم ضاحية جديدة كما أقام أسلافه ، فقد ألزم على توحيد جميع الأحياء الآهلة بالسكان وإحاطتها بسور عظيم وتوحيدها بقلعة منيعة . وكانت مدينة مصر التي أتى عليها الحريق ، تناضل ما استطاعت لتفرض عن نفسها الرماد وتصلح ما فسد منها ، ومد صلاح الدين يد العونة لها . وكان لابد له من

(١) متانلي لينبول — صلاح الدين ص ٣٥٨ و ٣٦٠

أن يجمع شتات المساكن المبعثرة في الأطراف وأن يضم ميناء القس إلى المدينة مد الأسوار إليها ، كما كانت يروس بالنسبة لآئيننا . وقد أراد أن يكون السور من الأحجار وأن يكون امتدادا لسور بدر الجمالى الأرمى حتى للقس غربا وإلى جبل للقطم جنوبا ، ومن هناك يمتد إلى النيل ليضم بقايا مدينة الفسطاط . غير أن هذا المشروع العظيم لم يتم قط لأن واضعه صلاح الدين كان منشغلا بحروبه في سورية ، ولم يتمكن أعوانه في القاهرة إلا من جمع الأموال والرجال اللزمين له في حروبه والقيام بالضرورى فقط من البانى . وربما هباه تفكيره هو وأعوانه إلى أن حالة مبانى مدينة مصر المتهمة لا تستحق ما كان سيفقد من الأموال على مد الأسوار إليها ، وكل ما تم هو مد سور بدر الجمالى في الشمال من الخليج إلى نهر النيل حيث أقيمت أبراج للقس المحصنة . أما من جهة الشرق فقد مد السور القديم جنوبا إلى باب الوزير بالقرب من سور القلعة الجديدة ، إلا أن موت السلطان قد أوقف العمل قبل أن يتم ضم الأسوار ، أما الأسوار الجنوبية فلم يكن قد بدء بعد في بنائها . ولا تزال بعض أسوار صلاح الدين قائمة إلى الآن ، ولو أن بعضها قد اختفى من بين المنازل ، غير أنه يمكن تتبعها فيما بين الخليج وباب الحديد الذى كان يسمى باب البحر بالقرب من حسن القس الذى اندثرت معالمه . ويمكن المقارنة بين الأبراج الفاطمية القديمة والأبراج المستديرة في سور صلاح الدين بما فيها من أبراج ومنافذ للمراقبة .

ونجد هذه المميزات في السور الشرقى الذى يفصل المدينة عن قرافة قايتباى ، ثم يظهر طراز جديد عند باب الوزير (١) ، فإن جانبا من السور عند الزاوية الشمالية الشرقية - بما في ذلك برج الظافر - يتوغل في الصحراء ، مما يدل على أن المدينة قد انكسبت في هذه البقعة إلى حدودها التى كانت عليها في القرن الثانى عشر الميلادى . والواقع أن الأسوار لم تكن إلا امتدادا لأسوار بدر الجمالى . أما العللة فقد كانت فكرة جديدة ، ربما استوحاها صلاح الدين من كراهيته للسكنى في القصور الفاطمية ، التى تربط ارتباطا وثيقا بالشيعة ودعاتها . وعلى الرغم من أن صلاح الدين

(١) انظر مذكرات فان برشر طبعة (١٨٩١) ص ٦٨٤٥٥ - ٧٠

لم يتخذ مقامه في القلعة مدة طويلة كان ينوى أن يجعل فيها مقر إقامته كما فعل  
حلماءؤه . على أن التفسير الظاهر لذلك ، هو أن صلاح الدين بنى القلعة مسترشداً بما رأى  
في سورية ، حيث كان لكل مدينة كبيرة قلعتها أو حصنها . وكان من الطبعي أن  
يدرك صلاح الدين ، وهو الجندى المحنك ، أن أصلح مكان لبناء قلعة هو سفح جبل  
للظيم . ولم يكن يقلل كثيراً من مركزها — وهي تشرف على « مصر » من ارتفاع  
مائتين وخمسين قدماً — وجوداً ما كن أخرى من الجبل أكثر منها ارتفاعاً ، ذلك  
لأن أسلحة الحروب في ذلك الوقت كانت تنحصر في قذف الأحجار بالقلاع والمنجنيق .  
وإذن كانت القلعة حصناً منيعاً في نظر مهندسي القرن الثاني عشر ، كما أنهم عملوا على  
تحصينها من الأسفل اتقاء خطر العتق والثورات في المدينة .

وقد بدأ العمل في سنة ١١٧٦ — ١١٧٧ م تحت إشراف الأغا قراقوش أحد  
أمراء صلاح الدين المخلصين ، الذي اختلط اسمه لسوء الحظ بذلك المهرج المشهور ،  
على الرغم مما قام به هذا الجندى العظيم من الخدمات الجليلة والأعمال الحربية المتعددة .  
ولم تتوج القلعة باسم مؤسسها إلا بعد بنائها بست سنوات ، وما زال يعلو باب المدرج  
في الجزء الأصلي ( القربى ) من القلعة .

وهذه هي الكتابة النقوشة على باب القلعة :

« بسم الله الرحمن الرحيم : أمر بإشياء هذه القلعة الباهرة ، المجاورة لمروسة  
القاهرة بالعرمة التي جمعت قعاً وتحصينا واسعة ، علي من التبعاً إلى ظل ملكه  
وتحصينا ، مولانا الملك الناصر صلاح الدنيا والدين أبو الظفر يوسف بن أيوب محيي  
دولة أمير المؤمنين في نظر أخيه وولي عهده الملك العادل سيف الدين أبي بكر محمد  
خليل أمير المؤمنين ، على يد أمير مملكته ومعين دولته قراقوش عبد الله للمكي  
الناصر ، في سنة تسع وسبعين وخمسمائة هـ (١) .

كانت إهرام الجزيرة الصغيرة تتخذ محاجر جلبب الأحجار اللازمة ، وكان الأسرى

---

(١) ترجم المؤلف هنا النص إلى اللغة الإنجليزية . وقد رجسنا إلى الأصل  
بأوتبتناه — للترجم .



قلعة المكيش

من الفرنجة والأوروبيين الذين وقعوا في قبضة صلاح الدين في حروبه يستخدمون في أعمال البناء .

ولقد زار الرحالة الأندلسي ابن جبير مصر في سنة ١١٨٣ م ، وشاهد العمل في بناء القلعة يجري على قدم وساق ، فقال : « وشاهدنا أيضا بنيان القلعة وهو حصن يتمل بالقاهرة حصين المدة ، يريد السلطان أن يتخذ موضع سكناه ويمد سوره حتى ينتظم بالمدينتين مصر والقاهرة . وللسخرون في هذا البنيان والمتولون لجميع أمتياناته ومشوته العظيمة كنشر الرخام وتحت الصخور العظيم وخفر الخندق المحقق بسور الحصن المذكور ، وهو خندق ينقر بالمعارل تقرا في الصخر عجبا من العجائب الباقية الآثار ، الملوج الأسارى من الروم ، وعددهم لا يحصى كثرة . ولا سبيل أن يمتن في ذلك البنيان أحد سوامم . والسلطان أيضا بمواضع آخر بنيان ، والأعلاج يخدمون



فيه ، ومن يمكن استخدامه من المسلمين في مثل هذه المنفعة العامة ، موقفة عن ذلك كله ولاوظيفة في شيء من ذلك على أحد» (١). وذلك لأن السخرة لم تكن شيئا جديدا في مصر ، ولو أنها بدت غريبة في نظر الرحالة الأندلسي .

ولم يكتمل بناء القلعة إلا في سنة ١٢٠٧ — ١٢٠٨ م ، حين كان الكامل ابن أخى صلاح الدين سلطانا على مصر. ولما كانت القلعة مقر حكام مصر حتى سنة ١٨٥٠م فقد أجريت بها تعديلات كثيرة ، ووسعها كثير من سلاطين المماليك ، وقام محمد علي باشا نفسه ببعض التعديلات ، حتى إنه يبق حينذاك من المساجد أو القصور التي بنيت في عصر صلاح الدين شيء. إذ أن المسجد القديم كان قد بناء الباصر محمد في سنة ١٣١٨م ، وأما المسجد الذي اشتهر بمآذنه التركية الدقيقة فهو من بناء محمد علي في سنة ١٨٢٤م ، وبر يوسف التي يعتقد الكثيرون أنها من بناء صلاح الدين لم تكن سوى جانب من أحد قصور المماليك . كذلك الأبراج الداخلية لم تكن من البناء الأصلي ، وبنى الباب الذي يؤدي إلى الرملة في أواسط القرن الثامن عشر . وعلى الرغم من ذلك كله ، لم تزل هناك أجزاء من البناء الأصلي بخلاف البئر الشهيرة المعروفة باسم بئر السبع سقايات التي يبلغ عمقها مائتين وعشرين قدما ، والتي حفرها قراقوش . وهناك أيضا أجزاء من السور التي بناها صلاح الدين . ولكن لكي نميزها بما ينبغي بعد ذلك يجب أن يكون المرء على شيء من العلم بفن البناء ، كما أن بعض الممرات الداخلية يرجع تاريخ بنائها إلى وقت بناء القلعة . وبما هو جدير بالذكر أن شيوع استعمال الأبراج المستديرة البارزة التي تحمي جانبا من السور ، وانعدام الممرات الداخلية ، والحجرات والفتحات في الجزء الأسفل من الأسوار ، وكثير من النقط الصغيرة الأخرى — يكشف لنا أن هندسة البناء الأصلي أقرب إلى الطراز السوري الفرنجي منه إلى الطراز البيزنطي .

وآخر الأعمال الدفاعية ، كان جسر الجيزة الذي شيد على الضفة الغربية قليل . وقد وصفه ابن جبير فقال : « من مفاخر هذا السلطان وآثاره الباقية المنفعة

---

(١) أثبتنا هنا النص الذي أورده في هذا الصدد : الرحالة ابن جبير — المترجم .

المسلمين ، القناطر التي شرع في بنائها بخرى مصر ، وعلى مقدار سبعة أميال منها بعد رصيف ابتدئ به من حيز النيل بإزاء مصر كأنه جبل محدود على الأرض تسير به مقدار ستة أميال حتى يتصل بالقنطرة المذكورة ، وهي نحو الأربعين قوسا من أكبر ما يكون من قسى القناطر . والقنطرة متصلة بالصحراء التي تفضى منها إلى الإسكندرية . له في ذلك تدير عجيب من تماير الملوك الحزمية — إعداد الحادثة نظرا من عدو يدهم جهة ثمر الإسكندرية عند فيض النيل واقتدار الأرض به وامتناع سلوك المساكر بسببه ، فأعد ذلك مسلكا في كل وقت إن احتيج إلى ذلك . والله يدفع عن حوزة المسلمين كل متوقع ومخدور بمته . ولأهل مصر في شأن هذه القنطرة إنذار من الإنذارات الحداثية ، يروون أن حدوثها إيدان باستيلاء الموحدين عليها وعلى الجهات الشرقية . والله أعلم بغيبه ولا إله سواه (١) .

وليس هناك شك في أن الغرض من بناء هذا الجسر ، هو الدفاع عن البلاد . فلم ينس صلاح الدين قصة غزوات الماطميين المدينة من ليبيا ، حيث أنه لم يكن هناك ما يصد عن الوصول إلى النيل ، ولهمنا اتخذ الحيلة لصد مثل هذا العدوان . ويذكر

(١) أثبتنا هنا النص الذي أورده في هذا الصدد الرحالة ابن جبير (طبعة رابت ص ١٩) — المترجم .

وقد أشار المؤلف لينبول في كتابه (حاشية ١ ص ١٨٠) إلى أن القريري (المخطوط ٢ ص ١٥١) قد تكلم على قناطر الجزيرة . فذلك رأينا أن شئت هنا نص ما أورده القريري عن تلك القناطر : « إن القناطر الوحيدة اليوم في الجزيرة من الأبنية العجيبة ، ومن أعمال الجبارين . وهي ولبف وأربعون قطرة ، عمرها الأمير قرقوش الأسدي ، وكان على الممار في أيام السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب بما هدمه من الأهرام التي كانت بالجزيرة وأخذ حبرها ، فبقي منه هذه القناطر وبني سور القاهرة ومصر وما بينها ، وبني قلعة الجبل وكان خصيا روميا سائى الهبة ، وهو صاحب الأحكام المشهورة والحكايات للذكورة ، وفيه صنف الكتاب المشهور المسمى بالعاشوش في أحكام قراقوش . وفي سنة تسع وتسعين وخمسمائة ، تولى أمر هذه القناطر من لا بصيرة عنده ، فسلحها رجاء أن يمحس الماء ، فقويت عليها جرية الماء ، فزلزلت منها ثلاث قناطر ، وانثقت ، ومع ذلك لما روى ملوبا أن يروى . وفي سنة ثمان وسبعمائة ، رسم الملك المنظر بيرس الجاشنكير يرمها ، فعمر ما خرب منها وأصلح ما قد فيها ، فعمل النفع بها . وكان قراقوش لما أراد بناء هذه القناطر بنى رصيفا منجارة اجداً به من حيز النيل بإزاء مدينة مصر كأنه جبل ممتد على الأرض مسيرة ستة أميال حتى يتصل بالقناطر » — المترجم .

ابن جبير أنه كانت هناك مخاوف من هجوم الموحدين الذين غزوا الجزائر وتونس وطرابلس في سنة ١١٥٨ م ، بعد أن أخضعوا مراکش وبلاد الأندلس حتى صارت طلائع جيش عبد المؤمن القائد المتصر على مقربة من حدود مصر الغربية . لقد أحسن صلاح الدين باتخاذ الحيلة ، على الرغم من أن الغزو الذي كان منتظراً لم يقع .

هذه الأعمال الدفاعية ضد الأعداء في الخارج ، كان يصحبها في الوقت نفسه إجراءات أخرى خاصة باستتباب الأمن في الداخل ، إذ يجب أن يكون معلوماً أن إقرار النظام قد صادفته عقبات عدة ردحا من الزمن . ومهما كان شعور عامة الشعب بالنسبة إلى حاكم شهم كريم شديد المراس مثل صلاح الدين ، فإن التقاليد التي درجوا عليها منذ قرنين من الزمان لم يكن من السهل القضاء عليها بين عشية وضحاها . كما أن أنصار الفاطميين كان لهم نشاط موفور ، فقد قامت القوات السودانية بالثورة قبل موت الخليفة العاضد ، وساعد الخليفة نفسه على إذكاء نارها ، ولم يستطع صلاح الدين إخماد هذه الثورة إلا بعد جهد شديد . وبعد أن أعمل فيهم السيف ودانوا له بالطاعة ، أمر بطردهم من المدينة ، وكانوا يقطنون الحى المعروف بالمنصورة في خارج باب زويلة ، وأحرق هذا الحى عن آخره وحوله إلى حدائق غناء وبساتين نضرة ، حتى إن صلاح الدين لما خرج من النصر إلى اقلعة ووقف بجوار ابن طولون استضع أن يرى باب زويلة ، إذ لم يبق بينهما بناء قائم . ثم أعقب ذلك مؤامرات أخرى في الإسكندرية بإيعاز من الفرنجة استلزمت استعمال القوة في قمعها . واستمرت الأخطار تهدد البلاد ، طالما كانت هناك جهة قوية تعطف على أسرى الدولة الفاطمية . ويمكن إدراك مدى تخمس الشيعة في ذلك الوقت ، من وصف الرحالة الأندلسي للضريح الذي يحوى رأس الحسين شهيد كربلاء في المسجد المجاور للقصر الفاطمي الكبير . يقول ابن جبير : « فمن ذلك المشهد العظيم الشأن الذي بمدينة القاهرة ، حيث رأس الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما وهو في تابوت فضة مدفون تحت الأرض ، قد بنى عليه بنيان حويل ، يقصر الوصف عنه ، ولا يحيط الإدراك به ،

بجمال بأنواع الديباج ، محفوف بأمثال العمد الكبار فمما أبيض . ومنه ما هو دون ذلك قد وضع أكثرها في أتوار فضة خالصة ، ومنها مذهبة وعلقت عليه قناديل فضة ، وخف أعلاه كله بأشكال التفافيح ذهبا في مصنع شبيه الروضة ، يقيد الأبصار حسنا وجمالا . فيه من أنواع الرخام انجزع الغريب الصنعة البديع الترصيع ، ما لا يتخيله للتخيلون ولا يحق أدنى وصفه الواصفون . والدخل إلى هذه الروضة على مسجد علي مثلها في التأنق والفرابة ، حيطانه كلها رخام على الصفة المذكورة . وعن يمين الروضة المذكورة ومما لها بنيان من كليهما المدخل إليها ، وهما أيضا على تلك الصفة بعينها ، والأستار البديعة الصنعة من الديباج معلقة على الجميع . ومن أعجب ما شاهدناه في دخولنا إلى هذا المسجد المبارك ، حبر موضوع في الجدار الذي يستقبله الداخل ، شديد السواد والبصيص ، يصف الأشخاص كلها كأنه الرآة الهندية الحديثة الصقل . وشاهدنا من استلام الأسس للقبر المبارك وإحداقهم به وانكبابهم عليه ، وتمسحهم بالكسوة التي عليه ، وطوافهم حوله مزدحمين داعين باكين متوسلين إلى الله سبحانه وتعالى ببركة التربة المقدسة ، ومنصرعين بما يذيب الأكباد ويصدع الجفاد ، والأمر فيه أعظم ومرأى الحال أهول . نعمنا الله ببركة ذلك للشهد الكريم (١) .

وإن المظاهر التي تتمثل فيها العواطف الصاخبة للأساسة الفارسية ، لتبين لنا أنه كان هناك في مصر شعور شعبي قوى بعد وفاة آخر خليفة فاطمي بائتي عشرة سنة . وقد قام صلاح الدين بمعالجة مثل هذه الأحوال بطريقته الفنية . فهو برغم سماحته وطنية قلبه كان لا يمتنع عن استعمال القسوة في قمع هذه الشائعات لوضع الأمور في نصابها : فقد كان سنيا ، قويا ، عالما باللبادى السنية ، كثير الاتصال بالعلماء ومناظرتهم ولذا كان قاسيا على اللحدن وكل من خرج على للبادى السنية . وقد دل اضطهاد القبط وتخريب كنائسهم بعد عودة المذهب السنى ، على أن سماحة صلاح الدين لم تصل

(١) ابن جبير ( طبعة راييت ) ص ٤١ - ٤٢ .

وقد أثبتنا هنا المسألتى أوردته ابن جبير في هذا المصدد .

جد إلى حد التساهل في العقائد الدينية ، ولكنه في حالة الشيعة رأى أنه أمام حركة قوية وخطيرة بدأت منذ قرنين من الزمان ، تم لها خلالها السيادة والسلطان ، فكان لا بد له من أن يقابل الدعاية بعثها ، ورأى أن أهل القاهرة في حاجة إلى أن يتعلموا أصول الدين ، وحيث أنه ليس ثمة خوف من الإلحاد . ولما لم يكن بالقاهرة عند تولية الحكم معاهد يتلقن الناس فيها أصول الدين ومبادئ السنة ، أسرع في إنشاء المدارس أو المعاهد الدينية التي أصبحت بعد ذلك الحين أهم ما تصطبغ به القاهرة في مضمار البناء . ففي سنة ١١٧٦ م بنى أول مدرسة في مصر وكانت تجاور ضريح الشافعي صاحب المذهب السني الذي يهتدى به السواد الأعظم من المسلمين في مصر في عبادتهم . ولا شك أن الناس لا يزالون إلى يومنا هذا يزورون ضريح الإمام ، في وسط القبور البعثة في القرافة جنوبي القاهرة ، ولو أن هذه المدرسة قد اختفت معالمها منذ أمد بعيد .

ويصف لنا ابن جبير هذا الضريح في سنة ١١٨٣ م فيقول إنه : « من المشاهد العظيمة احتفالاً واتساعاً ، وبني بإزائه مدرسة لم يهر بهذه البلاد مثلها لا أوسع مساحة ولا أحفل بناء ، يحيل لمن يتطوف عليها أنها بلد مستقل بذاته ، بإزائها الحمام إلى غير ذلك من مرافقها . والبناء فيها حتى الساعة والنفقة عليها لا تحصى . قولي ذلك بنفسه الشيخ الإمام الزاهد العالم الحروف بنجم الدين الخبوشاني ، وسلطان هذه الجهات صلاح الدين يسمع له بذلك كله ويقول زد احتفالاً وتأنقاً وعليها القيام بثبوت ذلك كله ، فسبحان الذي جعل صلاح دينه كاسمه . ولقينا هذا الرجل الخبوشاني المذكور تبركا بدعائه ، لأنه قد كان ذكر لنا أمره بالأندلس ، فألقيناه في مسجده بالقاهرة . وفي البيت الذي يسكنه داخل المسجد المذكور ، وهو بيت ضيق الدناء ، فدعا لنا وانصرفنا ، ولم نلق من رجال مصر سواه » (١) .

---

(١) أئتمناها النص الذي أورده في هذا الصدد الرحالة ابن جبير (طبعة راييت ص ٤٤ - ٤٥) المترجم . هذا الرحالة القدير الذي ندين له بقى . نشر من الوصف الحاشي مصر صلاح الدين قد أمدنا بوصف دقيق للرافة الكبرى جنوبي القاهرة ، التي تعتبر إحدى الأماكن العظيمة التي تعود بنا إلى

وإلى جانب المدرسة الشافعية ، بنى صلاح الدين مدرسة على مقربة من حصن الأعداء ، وهو ضريح الحسين ، وحول قصر المأمون القديم إلى مدرسة سيف الدين لعلاء الخنفة ، ومدرسة رابطة الشافعية وخامسة للمالكية في مدينة مصر . ونحن إذ نسجل هذه الأعمال الخيرية ، لا ننسى المستشفيات التي بناها ، فكل من يعرف المارستان أو مستشفى السلطان قلاوون المملوكي في سوق النجاشيين ، ولكن الذي لا يعرفه الناس أن هذا العمل الإنساني العظيم كان قد سبقه إليه صلاح الدين .

وهنا يقول ابن جبير : « وما شاهدناه أيضاً من مفاخر هذا السلطان - المارستان الذي بمدينة القاهرة . وهو قصر من القصور الرائعة حنا واتساعاً . أبرزه لهذه الفضيلة تأجراً واحتساباً . وعين قيا من أهل المعرفة وضع لديه خزائن العقاقير ومكنه من استعمال الأشربة وإقامتها على اختلاف أنواعها . ووضعت في مقاصر ذلك القصر أسرة يتخذها المرضى مضاجع كاملة الكسب ، وبين يدي ذلك القيم خدمه

---

== أيام الفتح الإسلامي . فهذه ترقى عظام معظم المحاربين الأولين والشعراء ورجال الدين ينتمون إلى النسطاط ، على الرغم من أنه لا يميز قبورهم الآن إلا الرواية وحدها . ومن الواضح أن تميزها في أيام ابن جبير كان يكتنفه الشك ، وذلك لأنه أبى أن يجزم بسعة ما نقله عن المؤرخين ، ولو أنه يهول أن صحة روايتهم لا ينطرق إليها الشك . ونحن لئلا نلزم تلك الروايات عن المار مثل ضريح النبي صالح وضريح آسية زوج نمرود ، نجد وصفاً عن أربعة عشر قبراً من قبور خيرية على بن أبي طالب من الذكور وخمسة من النساء لكل قبر منها ضريحه الخاص وحارثه وله أوقاف محبوسة عليه ، منها ضريح زين العابدين ابن الإمام الحسين ، وزينب حفيذة أبياته وأم كلثوم بنت الإمام السادس جعفر الصادق ، وعقبة حامل لواء النبي ، وأبو الحسن صفيه ، وسارية الجبل الذي له مسجد في القلعة (ولو أن لاعلاقة له بمصر) ، ومنها قبور اثنين من أولاد أبي بكر الصديق وعبد الله بن الزبير قائد عمرو وابن عبد الحكم والجوهري وغيرهم ممن اشتهر بالكرامات والأعاجيب من أمثال الرجل الذي كان ينلو القرآن وهو في قبره ، والرجل الذي لبث أربعين عاماً لا يتكلم أبداً ، والروس التي حدثت لها معجزة عندما رقت عن نفسها الحجاب لزوجها . وكذلك كانت هناك قبور الشهداء الذين سقطوا في الحروب وهم يدافعون عن الإسلام بقيادة سارية تملأ السهل . وكانت جميع اللبان في القرافة ، سواء منها المساجد أو الأضرحة ، ملاجئ يؤوى إليها الفقراء من العلماء والأعيان كما كانت مفتوحة لأبناء السبيل . ولكل بناء ثقة شهرية رصنت له باسم السلطان ، سواء في ذلك ساهد القاهرة أو مصر . ويقال إن هذه الإعلانات كانت تزيد عن أثنى دينار مصري في الشهر ، وهو ما يماوى أربعة آلاف من دنانير مراكش . وأما جامع عمرو في مصر فقد قيل لنا إن دخله بلغ ثلاثين ديناراً يومياً لا تصرف عليه ودفع مرتبات المعلمين والفقراء وغيرهم .

يتكفلون بتفقد أحوال المرضى بكرة وعشية ، فيقابلون من الأغذية والأشربة ما يليق بهم . وبإزاء هذا الوضع موضع مقتطع للنساء المرضى ، ولهن من يكفلهن ويتصل بالموضعين المذكورين موضع آخر متسع القناء فيه مقاصير عليها شبائيك الحديد ، اتخذت محابس للمجانين ، ولهم أيضا من يتفقد في كل يوم أحوالهم ، ويقابلها بما يصلح لها ، والسلطان يتطلع هذه الأحوال كلها بالبحث والسؤال ، ويؤكد في الاعتناء بها والتأمر عليها غاية التأكد . وبمصر مارستان آخر على مثل ذلك الرسم بعينه . وبين مصر والقاهرة للسجد الكبير المنسوب إلى أبي العباس أحمد بن طولون ، وهو من الجوامع العتيقة الأنيقة الصنعة الواسعة البنيان ، جملة السلطان مأوى للغرباء من القارية يسكنونه ويخلقون فيه ، وأجرى عليهم الأرزاق في كل شهر . ومن أعجب ما حدثنا به أحد المتخصصين منهم أن السلطان جعل أحكامهم إليهم ، ولم يجعل يدا لأحد عليهم ، فقدموا من أنفسهم حاكما يمشلون أمره ويصاكون في طواريء أمورهم عنده واستصحبوا الدعة والمأوى وتمرغوا لعبادة ربهم ، ووجدوا من فضل السلطان أفضل معين على الخير الذي هم بسبيله . وما منها جامع من الجوامع ولا مسجد من المساجد ولا روضة من الروضات المبينة على القبور ولا محرس من المحارس ولا مدرسة من المدارس ، إلا وفضل السلطان بهم جميع من يأوى إليهم ويلزم السكن فيها ، تهون عليه في ذلك نفقات بيوت الأموال (١) .

كانت عمارة المدارس التي أنشأها صلاح الدين فتحاً جديداً في عالم البناء في القاهرة ، خلق ذلك الوقت كانت للمساجد ذات شكل واحد ، هو شكل الجامع ( وقد سمى كذلك لأنه كان يجمع الناس في المناسبات العامة ) التي تؤدي فيه صلاة الجماعة . وقد كان كبيراً بحيث يتسع للجسم التغير من الناس ، فالإيوان القنطري في الطرف الشرقي كان معداً بحيث يتسع لكثير من المصلين السجود والركوع . وإذا زاد العدد عما يحتمله الإيوان خصوصاً في المواسم والأعياد ، فهناك القناء المكشوف حيث يجتمع عدد كثير متجهين نحو القبلة . أما الأروقة التي تحيط بالقناء فكانت مخصصة للأساتذة يستعملونها فصولاً للدراسة أو مأوى يأوى إليه الفقراء وأبناء السبيل ، ولم تكن

---

(١) ألفتنا هنا النص الذي أورده في هذا الصدد ، الرحلة ابن جبر - للترجم .

هذه الأروقة جزءاً أساسياً من الجامع التي كان كما يدل عليه اسمه مكاناً تعقد فيه الاجتماعات العامة للصلاة فقط .

ولما زار ابن جبير القاهرة لم يكن هناك سوى أربعة جوامع من هذا الطراز ، وهي : الجامع الأزهر ، وجامع الحاكم ، وجامع بن طولون ، وجامع عمرو بن العاص . أما المساجد القليلة الأخرى مثل مسجد الأقمر ، ومسجد الصالح طلائع ، ومسجدان أو ثلاثة مثلها فقد لحقها الخراب سرياً . ومع أنها كانت على شكل الجامع ، وكانت تستخدم في وقت من الأوقات لصلاة الجمعة ، فإنها لم تضر طويلاً ، ولم تصبح من المساجد العصرية بعد وفاة مؤسسها . بعد ذلك أسست مساجد كثيرة من حين إلى حين ، ولا تزال أغلبها من أهم المساجد إلى وقتنا هذا ، ولكن لم تكن من هذا الطراز .

الجوامع (١) التي يطلق على كل منها اسم مسجد كانت قليلة العدد نسبياً ، وكانت صغيرة الحجم لا تستعمل لصلاة الجمعة (٢) . وكثيراً ما كانت تسمى زاوية ، ولا فرق بينها وبين المسجد في شيء ، اللهم إلا إذا كانت تستعمل مأوى للفقراء من الطلاب أو المجاورين . ولا يتميز المسجد عن الزاوية في شيء ، فكلاهما بناء متواضع لا يعتقد أن أحداً من الزائرين العاديين لمدينة القاهرة قد شاهد واحداً منها أو استرعى نظره أحدها أكثر من كونه يزين أحد الأزقة .

والواقع أن الأبنية التي يعرفها الناس باسم مساجد هي في الحقيقة مدارس أو معاهد علمية ، وهي أهم ما كان في المدينة من العمارات مثل : مساجد السلطان حسن ،

---

(١) أورد المؤلف هنا اشتقاق كلمة Mosque من اللغات الإيطالية والأسبانية .  
(٢) يصف لنا القرطبي تسمية معمر مسجداً فقط ( بخلاف ما كان بالترافة ) من بين سبعة وثلاثين مسجداً . ويبدو أن المساجد التسعة معمر لم يكن لها شأن كبير ، وكانت مما بناه القاطميون أو الأيوبيون ، وكلها خرج أبواب زويلة والنصر والقطر والسادة أو في بستان كافور ، ولو أن ثلاثة منها كانت بين القصرين أو قرية منها ، وقد زالت معالمها الآن . ويذكر القرطبي كذلك خمسة وعشرين زاوية كانت كلها - عدا واحدة - من بناء للمالِك . وكان سبع منها خرج باب النصر أو باب الفتوح وأربع خرج أبواب أخرى ، وخمسة عند المقس . وبالجملة فإنه يبدو أن كلمة مسجد كانت تطلق في أيام القرطبي على أماكن البادية الرخية القديعة ، وأما كلمة زاوية فكانت تطلق على ما شيد منها في أيام المالِك .



وبرقون ، وابن مظهر ، والناصر ، وقلاوون ، وما إلى ذلك . وهي تختلف تماماً عن الجوامع في أشكالها وفي الغرض الذي شيدت من أجله . ذلك أنها لم تشيد لأداء صلاة الجمعة ، بل كانت تبقى لتلقى العلوم الدينية فيها ، وبطبيعة الحال كان لهذا أثر في تصميم المسجد وشكل بنائه . فبدلاً من الصحن الفسيح للكشوف التي كان يتسع لجمهور كبير من المصلين في أيام الجمعة ، كانت في المساجد الحديثة (المدارس) مربع صغير في الوسط ، مستوف في أغلب الأحيان بألواح من الخشب اللطلي ، تتوسطه قبة أو كوة صغيرة ، ويحيط بهذا الصحن من جوانبه الأربعة أروقة طويلة مقنطرة السقف كأنها أجنحة المسجد . فأما الجناح الشرقي وهو أطولها فيخصص لإيواء الصلاة ، وفيه المحراب والمئذنة والدكة وغيرها مما يحتاجه الصلوة . وهنا كانت تمام الصلاة — إلا صلاة الجمعة — وكانت الأروقة الأربعة تستقبل طلابها كلاحسب مذهبهم : فأحدها للحنفية ، والثاني للشافعية ، والثالث للمالكية ، والرابع للحنابلة — وكان الطلبة والمعلماء يبيتون في رواقهم حيث قامت الدرس والكتاب والمعامل .

تلك إذن كانت خطة صلاح الدين في مقاومة الشيعة ، وهي بناء معاهد لتعليم المذهب السني والإتيان على هذه المعاهد من بيت المال . ولم تكن الفكرة من مبتكراته ، وإنما هي فكرة نقلها من سورية حيث كان مولاه السلطان نور الدين يقوم ببناء المعاهد السنية لنشر مذهب الحنفية في دمشق وفي غيرها من المدن . وكان نور الدين نفسه يحدو حدو السلطان ملكشاه السلاجوقي الذي بنى له وزيره العظيم نظام الملك صديق عمر الحيام المدرسة النظامية الشهيرة في بغداد . وإذا كان من الطبيعي أن يقوم صلاح الدين — وقد نشأ في كنف أمثال هؤلاء العظام — ببناء هذه المعاهد . إلا أن مجرد تنفيذ الفكرة في مصر ، كان فتحاً جديداً وأخلاقياً في أسلوب الثقافة وفي طراز البناء ، فقد أعمحت آثار الشيعة ، واجتذبت هذه المعاهد الجديدة رجال الثقافة والعلم من أنحاء العالم الإسلامي .

وكانت السلطة في مصر في أثناء غياب السلطان إما في يدي ابنه أو أخيه ، وكلاهما كان يستشير في أموره القاضي الفاضل ، وهو عربي من مستقلان ، ذو ثقافة واسعة

وعقل راجع . وكانت مؤلفاته خيـض بالحكمة والاتزان . وبفضل تأثيره بدأ الغرباء من الطلاب يـخـدون إلى مصر ومساجدها ، وانضمت مصر مرة ثانية إلى رابطة الثقافة الإسلامية واجتمع فيها علماء جاءوا إليها من أقصى بلاد فارس وتركستان بعلماء من قرطبة واشبيلية . ومن أمثله ذلك أنه في سنة ١١٧٦م وقد إلى مصر أجنبي ( ابن فرو ) من أقصى بلاد الأندلس ، استهوته حركة إحياء العلوم والثقافة في الشرق ، ونظم قصيدة من ١١٧٣ بيتاً ، تتضمن دروساً مختلفة مقتبسة من القرآن وتدل على عظمة الخالق . وكان هذا الرجل السجيب يحمل في رأسه من العلوم ما ينوء بحمله ذو البأس الشديد . ولما جلس هذا العالم في حلقة الدرس ، احتشد حوله جمهور من المستمعين لم يكن في قوله كلمة واحدة لا موضع لها . فلا عجب أن قر به إليه القاضي الفاضل — وكان قاضي القضاة وحاكم مصر . من قبل صلاح الدين — وأنزله في داره ، وواراه التراب بعد موته في مقبرته الخاصة . وقد خفف وجود هؤلاء الفلاسفة من غلواء الرؤساء ، الذين عرف عنهم الميل للقيام بأعمال النهب والسلب ، إذ أن كبار رجال الحرب اعتادوا مجالسة هؤلاء العلماء .

وكان نور الدين عباً لمجالس العلم والشعر ، وكان الكتاب يحضون به وينضمون إلى حاشيته ، كما كان صلاح الدين عباً لمناقشة رجال الفقه وأصول الدين (١) . وقد ذكره عبداللطيف طيب بـنـداد ، فقال : — وجدته أميراً جليلاً مهيب الطلعة جديراً بالاحترام والتقدير ، وديماً متواضعاً ذكياً مبع النفس واسع الإدراك . ثم قال : وجدته في ندوة من العلماء يتذاكرون العلوم ، ورأيتـه وهو يحسن الإنصات ثم يشترك في الحديث . ويكفي صلاح الدين غمراً أنه أدخل نظام المساجد المدرسية في القاهرة ، وقد يتسم التعليم في هذه المدارس بالنسب وضيق الأفق ، ولكنه كان النظام السائد في العالم الإسلامي ، وكان تطبيقه في القاهرة مما جعلها في مصاف مراكز العلم الإسلامية الشهيرة .

---

(١) لينبول : صلاح الدين ص ٢٠٠

## الباب السابع

### بناء القباب

العاقل سيف الدين - الجماعة العظمى - غزو الصليبيين - فردريك الثاني -  
الكامل - نظام للمالك - عبدة القدر والمالك البحرية - حلة لويس التاسع -  
المالك الأكراد - حروبهم ضد المغول - حروبهم ضد الفرنجة - إحياء  
الخلافة العباسية - بيرس - قصر المالك - طيش الأمراء - بيت قلاوون -  
الناصر - التسامح الديني بالنسبة للمسيحيين - التصبب المحبوب - الفتن - الناصر  
بواب القداء - الإنتاج الفني - مساجد الأمراء - أسلوب المالك الأول في البناء  
- السلطان حسن - مسجد السلطان حسن - المالك العرا كسة - الفساد -  
الحروب - القوق الراقى - فن البناء - قايتباي - مبانى قايتباي - المساجد  
داخل الجدران - الوكالة - مساجد الأمراء والقاضي ابن مظهر - المدرسة الجديدة  
- مبانى القورى - الفتح الثاني .

### أولا - للمالك البحرية

استطاع صلاح الدين الأيوبي أن يرفع القاهرة مرة أخرى إلى مرتبة العواصم  
العالمية الشهيرة ، وذلك بفضل تحصيناته لها من هجمات العدو ، وماشيده فيها من أما كن  
لنشر الدين والعلم ، حتى أصبحت حلقة ذات قيمة في سلسلة الثقافة الإسلامية العظيمة .  
وليس ثمة ريب في أنه أضاف كثيراً إلى أعباء حكام مصر القبلين ومسئولياتهم ، حيث  
وجدوا أنفسهم أمام مشاكل ونضال وحرب مع حكام مدن سورية من أقرباء  
صلاح الدين الذين لم يكن لهم شأن كبير ، وكذلك مع فرنجة ساحل فلسطين الذين لم يكن  
قد فارقهم بعد حلمهم العزيز وهو تحرير بيت المقدس ، والذين كان يدور بخلدكم وقتئذ  
أن الطريق الذى يؤدى إلى المدينة المقدسة - ولو أنه كان يبدو ملتوياً - كان يهترق  
مصر . ونحن لا نحينا عند التحدث عن تاريخ القاهرة أن نورد قصة الحروب التى شنها  
العاقل سيف الدين شقيق صلاح الدين وصديق الملك ريتشارد الذى نصب أحد أبناء  
سيف الدين فارساً ، كما سبق أن نصب همفري ، صلاح الدين نفسه فارساً من قبل .

غير أن العادل جد أن حكم إمبراطورية أخيه في سنة ١٢٠٠ م . أثبت بحق أن البلاد قد وجدت فيه بعض العزاء عن موت ذلك البطل العظيم . فقد خدم صلاح الدين في حياته بإخلاص ، وكان ساعده الأيمن مدة ربع قرن . وفي خلال ربع قرن آخر ، وجدناه يقبض على زمام الإمبراطورية التي لم يأل أقاربه جهداً في العمل على تشتيتها وتقسيمها . ولقد استخدم القنطة في إبقاء علاقته مع الفرنجة بنزوله عن ميناءين من اللوانى في فلسطين ، ولم يقلل كل عداء حدث برغم هذا التساهل من منزلته العالية مثقال ذرة . ولقد وصفه أحد معارفه بأنه رجل كثير الخبرة ، واسع المعرفة ، بعيد النظر ، قوى البنية ، في وسمه أن يأكل حملاً بأكله في وجبة واحدة . ويذكر لنا أحد شعراء العرب المعاصرين مقدار نشاطه وسيطرته على جميع أنحاء مستعمراته الواسعة .

ومهما يكن من أمر يقظته ، فإنه لم يستطع أن يدرأ عن البلاد تلك البكارثة التي طالما هددت مصر في العصر الوسيط . وهى قص الفيضان وما كان يصحبه من وباء وفساد ومجاعة . ولقد حدث ذلك في سنة ١٢٠١ م ثم تكرر حدوثه في سنة ١٢٠٣ م وكانت النتائج وخيمة إلى حد بعيد . ولدينا رواية شاهد عيان تنطوى على صورة صادقة لما ساد ذلك العهد من رعب وفزع .

دون عبد اللطيف - طيب بخداد الذى عاش في القاهرة عشر سنوات ( ١١٩٤ - ١٢٠٤ م ) ، واستمع إلى محاضرات الأستاذة في جامع الأزهر - ماصحب المجاعة من أحداث مروعة . فلقد بلغ من عظم النكبة أن كان السكان يرحلون جماعات عن أحياء المدينة وعن القرى التي أصبحت خالية من سكانها . أما أولئك الذين بقوا حيث كانوا فقد كات تواجهم أخطار لا قبل لهم بها . وكان من المألوف أن يأكل الناس اللحوم البشرية ، وحتى الآباء كانوا يذبحون أبناءهم ويطهون لحومهم ، ولقد وجدت امرأة وهى تأكل لحم زوجها نيئاً . وكان الرجال يكمنون للنساء في الشوارع ليستولوا على أطفالهن ، بل إن الناس كانوا يتبشرون القبور بحثاً وراء الطعام . كان كل هذا يحدث في مصر من أقصاها إلى أقصاها ، فقد أصبحت الطرقات مكسدة بجثث الموتى ، وساد القتل والسرقة دون حساب ، واستباح الفجار الدين تركت لهم الفوضى الحبل على الغارب أعراض النساء . وكانت القتيات من الحرائر يعن بمبلغ يساوى خمسة شلنات لكل واحدة ، كما أن كثيراً من النساء كن يمتن متوسلات لكي تباع

الواحدة منهم كالجوارى حتى لاهلك جوعاً . وكان الثورياع بسبعين ديناراً والمد (١) من القمح بما لا يزيد كثيراً عن عشرة شلنات . وكانت الجثث تبقى في الشوارع والمنازل من غير أن تدفن ، مما أدى إلى انتشار طاعون عفيف في أنحاء الدلتا . وكانت العقبان والضباع تتبع للوتى في الريف وفي طريق القوافل ، كما كان الرجال يخرجون صرعى بجوار المحرات بفعل الوباء . ولقد حدث في يوم واحد أن أدى أحد أئمة المساجد في الإسكندرية صلاة للوتى على أكثر من سبعمائة شخص ، كما حدث أن انتقلت إحدى الثروات إلى أربعين وريثاً على التوالى في شهر واحد . وقصت قصة الممتلكات إلى حد عجيب ، ونظراً إلى تناقص عدد السكان انخفضت إيجارات المنازل في القاهرة إلى سبع ما كانت عليه . وكان أنثاء القصور وتحفها تكسر لتوقد بها الأفران . هذا إلى أن الزلازل العنيفة التي شعر بها الناس في سورية ووصل تأثيرها شمالاً حتى أرمينيا قد أخذت تهدم عدداً لا حصر له من المنازل ، وتخرب مدناً بأسرها ، فتزيد بذلك من هول البلاء .

ثم إن غزو جان دي بريين الذي استولى على دمياط جعل مصر في قلق وجزع ثلاثة أعوام ( ١٢١٨ - ١٢٢١ م ) . غير أن العادل - الذي توفي في مستهل ذلك الضيق - خلف من بعده ابناً كفئاً ، هو الكامل ، الذي دفع بالصليبيين وجعلهم يخرجون أذيال العار باندحارهم ، ولما آتى الإمبراطور فردريك الثاني بنفسه على رأس الصليبيين إلى فلسطين ، رأى السلطان من الحكمة ألا يكتفى بالسباح له بأن يتوج نفسه في بيت المقدس ، بل عقد معه محافة دفاعية ضد الفرنجة في سورية ( ١٢٢٩ م ) .

وبالرغم من أن المدينة المقدسة والطريق المؤدى إليها سلبا للمسيحيين ، احتفظ المسلمون بالمسجد الأقصى وما يحيط به ، وهو كل ما يحفظون به . وكانت المعاهدة المتقدمة الله كر أغرب ما تم بين قوتين إحداهما مسيحية والأخرى إسلامية ؛ غير أنه يجب ألا يعزب عن بالنا في الوقت نفسه أن البابا أطلق على فردريك أنه من أتباع محمد ، وأن مراسلات الإمبراطور مع الفيلسوف العربي ابن سبين والناقشات التي قامت بينه وبين سفراء الكامل ، في العلوم العقلية ، كانت كلها تدل على وجهات النظر التي تتطوى على التسامح ، ولو قام بها رجال أقل مقاما لكان جزاؤهم للوت لكفرهم . وكان كتاب العرب يحجبون

(١) لد : مكيال بسم ٢٥ أقة .

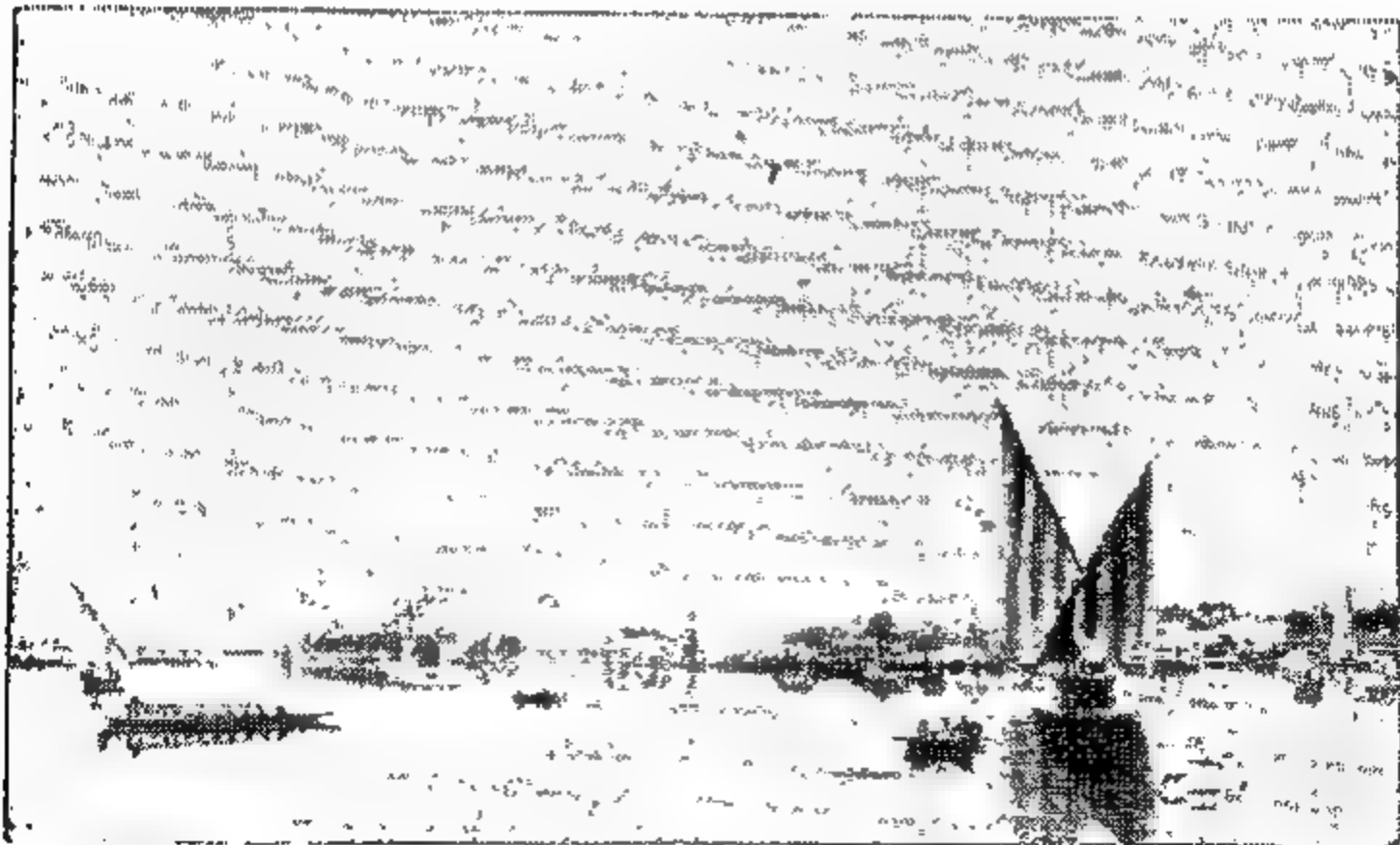
كثيراً بفردريك ويشيدون به . أما الكامل فقد أثبت بحق أنه واسع العقل ، إذ رحب برسول الإمبراطور — وهو الأسقف برنارد — في القاهرة ، وأطلق سراح المسجونين الذين أسروا في « حملة الأطفال الصليبية » ، كما وقى بعهد في المحافة . فلا عجب إذا نظر إليه التزمتمون من المسلمين نظرة البابا إلى فردريك ، وهم في ذلك غطثون . إذ أن الكامل كان مسلماً كاملاً بالإيمان وإعماً تعاهد مع المسيحيين في صالح السلام . ثم إن للعهد الذي بناه « دار الحديث » أو « الكاملية » والذي لا تزال آثاره بين القصرين ، يشهد على مبلغ غيرة حي الإسلام واهتمامه به . ولطالما كانت عقلية والده الجبارة تسود عقلية الابن حين كان يشترك في اجتماعات العلماء في قصره مساء كل خميس . هذا إلى أن القاهرة تدين له بإتمام بناء القلعة التي اتخذها مقراً له . كذلك تحسنت مصر من الناحية الزراعية بفضل إشرافه الدائم على شئونها ، وحفره الترع وتوسيعها وزيادتها وإقامة الجسور والحدود .

وكانت الخطوة الجديدة التي انتهجها الأيوبيون من خلفاء صلاح الدين قد أوجدت شيئاً آخر إلى جانب نظام الحكم وإحياء العلوم والثقافات القديمة . ذلك هو نظام الإقطاع الذي ساد مصر — لحسن حفظها أو لسوءه — ستائفة عام ، مما كان له أثر ظاهر في الحياة الاجتماعية ، وفي الفنون والآداب والنواحي المادية في القاهرة . ويمكن القول إن فترة للمالك بدأت بصلاح الدين . وفي الواقع أنه كان هناك بمالك — أي أرقاء من البيض — منذ أمد بعيد ، وأن كثيراً منهم قد أصبح له شأن كبير . فابن طولون — أو على الأصح أبوه — كان مملوكاً ، كما أن كثيراً من الحكام الذين جاءوا بعد ذلك ينتمون إلى نفس طبقة السيد العتقين ، سواء الأتراك منهم أو اليونانيين المستوردين من آسيا الصغرى أو من التركستان . ولقد استطاع السيد في عهد الخلفاء الفاطميين أن يرقوا إلى أسمى الدرجات ، فقد كان جوهر — مؤسس القاهرة — من اليونانيين أو السقالية ، ولو أننا لا نستطيع أن نذكر من أيهما كان هو على وجه التحديد . كذلك رأينا أن العبد الأرمني « بدر » قد أصبح في الواقع سيد مصر . فليس الرق في الشرق إذن من العار في شيء ، بل على العكس من ذلك نجد العلاقة بين السيد وعبيده تطفي وتعمو على مجرد الخدمة . ذلك أن العبد كان يعتبر في العادة كأحد الأبناء ، وإنما نجد مثلاً لطيفاً لهذا الشعور يتجلى

في وصمة العار التي انطبعت على جبين الأمير المشهور قوصون في القرن الرابع عشر ، لأنه لم يكن له الحظ في أن يكون عبداً لأحد ، شأنه في ذلك شأن سائر أبناء طبقة في ذلك الوقت . وكانت جيوش الفاطميين حافلة بمثل هؤلاء المماليك الذين أحرزوا جاهها وثروة ، غير أن هذا النظام لم يكن قد وصل إلى الكمال الذي نشاهده في عهد خلفاء صلاح الدين . ولقد تبرع بطل الإسلام العظيم في كنف النظام المملوكي ، الذي وضع أساسه السلاجقة وأتباعهم ، الذين كانت تستند قوتهم إلى نظام عسكري يتألف من قوات من المتطوعة أو من عبيد الشراء ، تدفع لها رواتبها من إقطاعات الأراضي والقصور والمدن ، أوحى من ولاياتها كلها . وكانت هذه القوات تقوم على أساس نظام عسكري بالغ الصرامة . وكان كبار أصحاب الإقطاعات يؤجرون جانباً من إقطاعاتهم لأتباعهم الأقل شأناً منهم ، وكان عليهم أن يحضروا عدداً معيناً من الرجال لسيدهم كما أن هذا السيد بدوره كان ملزماً بأن يحضر جنوده لمساعدة السلطان في حروبه ، وكان هذا النظام سائداً في جميع الولايات التي يحكمها قواد دولة السلاجقة . ولقد عمل نور الدين ، الذي كان من قواد السلاجقة على إدخال هذا النظام في سورية ، كما أن صلاح الدين - الذي درج في ظل نور الدين - أوجده في مصر ، حيث كانت الأراضي والقرى تقسم على قواد جيوشه الذين كانوا يعيشون فيها في الشتاء . فإذا ما أقبل فصل الصيف ، وهو موسم الحرب في ذلك الوقت ، ساروا على رأس أتباعهم ليلحقوا بسيدهم الأعظم .

وهكذا كان نظام الإقطاع هذا سائداً في مصر منذ دخلها صلاح الدين وجنده الأتراك حتى تولى محمد علي باشا الحكم في القرن التاسع عشر . وقد تجلت سيادة هذا النظام في القاهرة حين كون الصالح - حفيد العادل - فرقة مختارة من المماليك في القصر الجديد وفي الشكنات التي بناها فوق جزيرة الروضة في مواجهة مدينة مصر . ومن موقع هذه الشكنات على النهر ( البحر ) ، عرف أولئك المماليك باسم « المماليك النيلية » أو « المماليك البحرية » . وقد قررت بسالتهم الرائعة في موقعة المنصورة بقيادة يبرس وهزيمتهم أمير فرسان أوروبا مصير حرب لويس التاسع الصليبية ، ومن ذلك الحين أخذوا يحكمون مصر مدة قرن ونصف . وعلى الرغم من القوضى والاستبداد والجور والفسائس والمناجح - التي سادت في

ذلك الوقت - بعد حكم المماليك البحرية من أروع الصفحات التي سجلها تاريخ القاهرة . ويجب ألا يعزب عن بالنا أن انتصارهم الباهر في موقعة المنصورة لم يكن بالشيء اليسير ، إذ كانت تحكمهم في ذلك الوقت امرأة . ونحن نعلم أن التاريخ الإسلامي لا يشتمل على ملكات إلا فيما ندر . ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم حال دون ذلك ، غير أنه من بين النساء الملكات الثلاث أو الأربع اللاتي ارتقين العرش ، كانت الملكة « شجرة الدر » تحتل المكانة الأولى ، ولم تكن هذه سوى واحدة من الجوارى قد ماتت سيدها وزوجها الصالح - حفيد العادل - أثناء الحرب مع الصليبيين ، ومن ثم هبت هي في الحال للقيادة ، وجعلت من خبر موت السلطان سرا مطويا حتى يحضر ابنه من أقاصي الامبراطورية . وهكذا قبضت على زمام الحكومة ، ونظمت الدفاع ، وأصدرت أوامرها إلى القواد والحكام الخاضعين لها . وبذلك استطاعت بفضل شجاعتها وفائق ذكائها أن تسيطر على أمور الدولة كلها . ولما حضر الوريث في سنة ١٢٥٠م تخلت عن نيابتها لذلك ، غير أن المماليك الخائفين لما قاموا في وجه الوريث القاسي وقتلوه - وكان ذلك بعد شهرين تقريبا -



جزيرة الروضة



استعادت شجرة الدر سلطانتها . ويمكن القول إن القديس لويس يدين بحياته إلى كرم أخلاق شجرة الدر وشهامتها لقبولها القدية منه .

كانت شجرة الدر ذات صفات عظيمة ، تحمل لقباً انتهى إليها بولادتها ابناً للسلطان (الصالح) الأيوبي الراحل . وبالرغم من وفاة هذا الطفل ، كانت تدعم مركزها في الحكم بهذه الأمومة . وكان توقيعها وتقودها (١) تحمل صنوفاً من الألقاب النسائية . انتهى (بأم الملك خليل) للتصبر ولو أن الملك الطفل لم يكن يعلم أنه ملك .

لم تتمتع شجرة الدر بالحكم منفردة مدة طويلة ، لأن فكرة تولى النساء العرش كانت أكثر من أن يحتملها تحيز المسلمين . فقد تدخل خليفة بغداد في الأمر بكل ما أوتي من قوة وسلطان . وكتب إلى أمراء القاهرة يقول : « إذا كانت الرجال قد عدت عندهم ، فأعدونا حق نسير إليكم رجلاً . ومن ثم تزوج القائد «أيك» الملكة شجرة الدر وأشرك معها في الحكم طفلاً من أقارب صلاح الدين ، ليبقى مظهر الحكم في الأيوبيين ، واستمرت شجرة الدر تحكم بالفعل ، إذ وضعت يدها على الخزينة ، ولم تكن تعامل زوجها الجديد بالاحترام الواجب . ولما كانت امرأة قبل كل شيء اتتبتها غيرة النساء حتى إنها جعلته يطلق زوجة أخرى ، ولما سولت له نفسه الزواج من إحدى أميرات الموصل ، استسلمت شجرة الدر باديء الأمر وطوت الخبر على حقد مرير ، ثم ما لبثت أن استدرجته بكلماتها المصولة إلى القلعة حيث أسلمته إلى غلمانها فقتلوه في الحمام ، وكان ذلك في سنة ١٢٥٧ م . وكان جزاؤها على هذه الفعلة الشنعاء سريعاً وراحوا ، فلم تمهل أكثر من ثلاثة أيام إذ قبض عليها المماليك واعتقلوها في البرج الأحمر حيث أخذت تسحق مجوهراتها وحلبها في هاون حتى لا تزين بها امرأة أخرى من بعدها . وكان الحقد يمزق فؤادها تمزيقاً ، ثم سبقت أمام الزوجة التي أكرهت زوجها أيك علي تطليقها . وما لبثت أن لقيت مصرعها بقباقيب النساء ، وبقيت جثتها في فناء القلعة حتى تكون عبرة لغيرها ، إلى أن جاء أخيراً بعض ذوى الخير وتولوا دفنها . ويمكن مشاهدة قبرها الذي لا يزال قائماً بجوار

---

(١) العملة التي تحمل اسم شجرة الدر توجد في المتحف البريطاني (انظر كتاب المؤلف (فهرس العملة الشرقية الفصل الرابع ص ١٣٦) . وكان لقب شجرة الدر «عصمة الدين السلطان» لأن «سلطنة» ليس لقباً عربياً .

ضريح «السيدة قيسية» . وقد قام أحد أفاضل القوم قنطاه بمائش تمش عليه بالذهب اسم شجرة الدر .

من ذلك الوقت بدأ حكم للمالك البحرية خالصاً لم دون أن يشترك فيه أحد من بيت صلاح الدين ، ولو أن هذا الحكم لم يسلم في الوقت نفسه من المعارضة والنسائس من جانب أفراد الأسرة في سورية ، ولامن العداء من جانب عرب مصر الذين ظلموا بحركة وطنية ، ولكم لم يلبثوا أن سكنوا حينما استخدمت معهم القسوة والقوة . والواقع أن مجرد تعاقب ثلاثة وعشرين سلطاناً من الممالك البحرية وجميعهم من الأتراك . وأغلبهم من القفجاق الذين خلفوا «أيك» وحكموا من سنة ١٢٥٧ إلى سنة ١٣٨٢ م . قد يضلنا ما لم نضع نصب أعيننا الظروف التي أحاطت بحكمهم . وليس بين هؤلاء الثلاثة والعشرين من حكم فترة طويلة سوى أربعة فقط : فمجموع الفترات التي حكمها بيرس وقلاوون والناصر وحسن يبلغ نصف الفترات التي حكمها الثلاثة والعشرون سلطاناً . ولم يكن السلطان في الواقع أكثر من مملوك كبير للنظام ينتخبه رقماؤه ، وكان أحدهم يشعر بأنه نقيب له . مثال ذلك أنه لما انتخب لاجين سلطاناً نتيجة دسائس الأمراء ، سار هؤلاء في ركابه وأقسموا له بيمين الطاعة والولاء ، غير أنهم في الوقت نفسه جعلوه يقسم ، ثم يعيد القسم ، بأنه سوف يكون واحداً منهم ، لا يعمل شيئاً دون أن يستشيرهم ، ولا يؤثر مالياً فيهم . ولما حث في يمينه وخص بعضهم دون البعض الآخر ، لم يكن نصيبه سوى الاغتيال على أيدي هؤلاء الأمراء ، والواقع أنه لم يكن يصمد طويلاً في ذلك للنصب الخطير سوى الأقوياء وحدهم . ولعل بعض الفضل في بقاء بيرس طويلاً في منصبه ، يرجع إلى تلك الحروب الرائعة التي قام بها في سورية . ولما أطاح القدر بحياة هذا الرجل القوي ، كان على ابنه أن يعتلي العرش سداً للثمة التي حدثت ، على حين أخذ الأمراء للتنافس ويتبارون في إظهار قوتهم ، فيقدون الاجتماعات ، ويستميئون الحشود ، إلى أن يتقدم أعظمهم قوة — أو أكثرهم سياسة ودهاء — فيزيج عن العرش من يكون مترجماً عليه مؤقتاً ، ويعتليه هو محتفظاً به أطول مدة مستطاعة . ثم تضي السنوات ، وتظهر المشكلة من جديد ، وهكذا دواليك .

على أنه يجب علينا أن نوفي للمالك حقهم كجنود أكفاء ، فقد كان عليهم

أن يواجهوا أبشع الغارات التي شنتها عليهم قبائل المغول بقيادة خلفاء جنكيزخان ، أربع مرات وكانوا في كل مرة يردونهم على أعقابهم . فقد حمل قطز عبء القتال في المرة الأولى ، وكان رسله هولاكوه من المغول يهدون على القاهرة ، يطلبون الإذعان والتسليم في سلف وقعة . إلا أن قطز قطع رؤوسهم وعلقها على باب زويلة ، ثم تقدم إلى سورية فهزم المغول هزيمة منكرة عند عين جالوت في سنة ١٢٦٠ م ، وخلص البلاد من شرهم . كما أن « بيرس » عبر نهر الفرات على رأس قواته عائداً وهزم المغول عند پرا سنة ١٢٧٣ م ، ثم اتجه إلى الغرب حيث قتل سبعة آلاف من الأعداء في أبلستين ، وارتقى عرش السلاجقة الذي اغتصبه المغول ، عند مدينة قيصرية في كبادوكيا . أما قلاوون فقد رد غزوا آخر في سنة ١٢٨١ م ، واستطاع بفضل سيطرته وسلطانه أن يجند جيشاً من مختلف الأجناس ، فمنهم المماليك من الحرس ، ومنهم الأتراك ، ومنهم بدو الصحراء ، ومنهم العرب من ناحية الفرات والحجاز . وكان يشد أزر هؤلاء جميعاً جود حماة الخنكون وكان لا يزال عليها أمير من بيت صلاح الدين . فاستطاع السلطان بكل هؤلاء أن يحرز نصراً مبيناً عند حمص حيث خاض جيشه غمار معركة حاسمة . وهكذا حرر السلطان سورية مرة أخرى من جموع المغول ، التي كانت تحتل البلاد وتنتشر فيها انتشار الجراد . غير أن المغول ما لبثوا أن عادوا في عهد ولده الناصر ، وفي هذه المرة حلت بالجيش المصري الهزيمة في موقعة الحزن دار بالقرب من حمص عام ١٢٩٩ م . وقد سقطت مدينة دمشق ، وظهر في القاهرة رسل المغول مرة أخرى ، ليرغموا السلطان على الإذعان . إلا أن المماليك على الرغم من هذا لم يفقدوا روحهم المعنوية ، فقد نشط صناع الأسلحة في القاهرة ، وكان المجدون يهدون زرافات ووحدانا . وبلغ من هذه الحاجة إلى الجياد أن ارتفع ثمن الحصان من إثني عشر جنياً إلى أربعين جنياً . أما سورية فكانت تخيم عليها سحابة من الرعب ، بعد ما خلفه فيها المغول من فوضى . إلا أن كبار الأمراء - من أمثال بيرس الجاشنكير وغيره من رؤساء المماليك - كبرياء وساروا في طريقهم إلى النصر ، وهكذا تقابل الجيشان المتعاديان مرة أخرى . وفي سهل « مرج الصفر » في سنة ١٣٠٣ م ، وللمرة الرابعة والأخيرة ، هزم المغول وطردوا من سورية ، وعاد الناصر إلى القاهرة متوجاً بأكليل من المجد والتضار . وكان الرسل قد أذاعوا

الأخبار ، وأخذ الأمراء يتنافسون فيما بينهم على إقامة السراييل والحيام النفيسة على جانبي الطريق الذي سوف يجتازه الوكب ، وكان محرماً على العمال في ذلك الوقت أن يقوموا بأي عمل آخر سوى تشييد تلك الزينات الفاخرة ، وأجرت الحجرات التي على جانبي الطريق ، حتى تراوح إيجار الحجرة الواحدة منها بين جنيتين وأربعة جنيهات في ذلك اليوم . وقد بسطت الطنافس الحريرية على طول الطريق ، وأخذ السلطان الفخور يمر في ركبته بين الزينات الرائعة التي أقامها له الأمراء ، بينما سارت جموع الأسرى من المغول ، كل أسير منها يحمل رأس زميل له مكدودة إلى عنقه لتكمل بذلك النظر بهجة النصر . وكانت الأصوات والهمهمات تنبعث من كل مكان ، كما كانت أتغام الموسيقى وقرع الطبول يسم الأذان .

لم يكن المغول وحدهم هم الذين لقوا الأمرين ولمسوا بأس الماليك ، فإن ييرس الأول العظيم وهو تركي أزرق العينين أصيب بمرض في عينيه جعل منه في سوق الرقيق لا يزيد على عشرين جنياً قد آتى من بلاد القفجاق . وعلى الرغم من نشأته المتواضعة ، كان له من الشجاعة والحماس ما جعله يطمع في أن يصبح يوماً مثل صلاح الدين . ومن ثم نراه يقوم بالحرب المقدسة عشر سنوات في فلسطين ، حيث كان الفرنجية يميلون إلى التحالف مع المغول : ولقد استولى على كل من قيصرية وأرسوف في سنة ١٢٩٥ م. بعد أن أحاطها أطلالا ، ثم جر حمتها إلى القاهرة يجررون أذيال الدل والعار ، وهناك أمر بعرضهم وهم يحملون الأعلام المنكسة والصلبان المكسورة . وعلى الرغم من أن بيت المقدس كانت قد استردت من المسيحيين قبل ذلك بعشرين سنة كانت آثار الحرب الصليبية لا تزال تضطرم نارا تحت الرماد على الساحل وفي بعض الحصون الداخلية . لذلك عقد ييرس العزم على أن يخمد آخر جذوة منها ، ففي سنة ١٢٩٨ م فتح يافا ، أما أنطاكية وهي حاضرة شمال سورية المسيحية فقد حوصرت وأحرقت عن آخرها . وبعد ذلك بثلاث سنوات سقطت قلعة فرسان المبد العظيمة ونكست أعلامها ، وقعد الفرسان الجرمان (١) موفت فورت ، وحتى جزيرة

---

(١) تم زوال سلطان الصليبيين حين غزا قلاوون طرابلس وفتح خليل حصن عكا عنوة سنة ١٢٩٢ م ، أما سائر المدن فقد سقطت في أيدي الماليك بعد ذلك بقليل ، وهكذا زالت قوة الصليبيين .

قبرص التي كان الفرنجة يستوردون منها ، مؤنهم قد غزاها أسطول المماليك ، وتم الاستيلاء على الحدود الواقعة على الجبال وتجردها من السلاح . وقبل أن يلتقى بيرس حقه كانت أوامره تطاع من البحر الميت (١) ووادي نهر الفرات شمالاً إلى جنوب بلاد العرب وشلال النيل الرابع جنوباً كما أصبحت للدين المقدسة : مكة ، والمدينة ، وبيت المقدس ، داخلة في أملاكه . وكذلك استولى على مينائي سواكن وعيذاب على البحر الأحمر ، وكان عرب الصحراء جميعاً طوع أمره ، كما أدى له الجزية رؤساء المغاربة . وكان الخان الأعظم للقبائل القهية على نهر الفولجيا حليفاً له ، وقد أرسل له ابنته لتعير زوجة له . وعلى الرغم من أن بركة خان كان مغولياً ، فإنه كان عدواً قديماً للغول فارس الذين كانوا قد انتشروا في سورية ، كما أن السفارات كانت قد تبودلت مع إمبراطور الدولة الرومانية الشرقية الذي سمح ببناء مسجد في القسطنطينية ، بينما زوده بيرس بأحد البطاركة . كذلك كانت هناك علاقات سياسية وتجارية مع كل من منفريد صاحب صقلية ، وجيمس صاحب أرغون وألفونسو صاحب إشبيلية وشارل صاحب أيجو . ولكي يتوج بيرس انتصاراته بإكليل من الفار ، عمل على إحياء الخلافة العباسية القديمة التي أزالتها الغول من بغداد في سنة ١٢٥٨ م . ومن ثم أحضر إلى القاهرة رجلاً من سلالة الخليفة العباسي ، وأسكنه في القلعة تحوطه الأبهة والجلال ونصبه خليفة شرعياً للإسلام . وقد مثل بيرس بين يدي خيفه الخليفة في خشوع وتسلم من يده البردة والعمامة السوداء والخاتم وهي الخلع التي جرى العرف أن يتسلمها السلطان الشرعي من صاحب السلطة الدينية العليا . ومنذ ذلك الحين أصبح في القاهرة خليفة — على الرغم من أنه كان ألعوبة في يد السلطان — حتى جاء الغزو العثماني وتحولت الخلافة إلى سلاطين العثمانيين في سنة ١٥٣٨ م (٢) .

كان بيرس جندياً عنكاً وسياسياً قديراً — ولو أنه لم يكن يؤمن جانبه — وكان قادراً على إدارة شؤون البلاد في قوة وحزم . ففي عهده تمت السيطرة على الأراضي المقدسة ، ولم تكن جهوده في ذلك لتخفى على أحد . وكان يبدو كأنه في عدة أماكن في وقت

(١) من مياه كلب بالشام .  
(٢) اكتشف أ . ت . روجرز بك في سنة ١٨٨٣ م مقبرتين لاثنين من الخلفاء العباسيين . وبعض أفراد البيت العباسي في مصر ، وذلك بالقرب من مسجد السيدة خديجة جنوب القاهرة .

واحد ، لأن رحلاته كانت سرية وخفية . ومن الأمور المحيية إليه أنه كان يظل مخفياً في القلعة بضعة أيام يراقب أعمال نوابه ، في الوقت الذي كان يسود فيه الاعتقاد بأنه سافر إلى سورية . ولقد أمضى الجانب الألباني من حكمه في حروب ونضال في خارج مصر ، ولكنه كان يمضي شهور الشتاء في القاهرة عادة ، حيث كان يريح جنده في الوقت الذي تعوق الأمطار والثلوج سير الجيوش . وكان ينتهز تلك الفترات ليقوم بالإصلاحات اللازمة في حاضرة البلاد وفي ريفها . ولم يكن شغفه بالشئون العامة لينجلى في بناء المساجد والمدارس أو في إعادة بنائها ، أو إعادة بناء دار العدل عند سفح القلعة بل إنه عمل على توسيع جداول الري القديمة وحفر أخرى جديدة ، كما شق الطرق وبنى الجسور ، وحصن مدينة الإسكندرية وأصلح منارتها . كذلك عمل على حماية مصي النيل من خطر الغزو الأجنبي ، وأعاد الأسطول المصري إلى ما كان عليه بأن بنى أربعين سفينة مصرية . وقد بلغ عدد قواته المنظمة اثني عشر ألفاً ، عدا الجنود المصريين والعرب والجند المؤقتة . ومن الطيبي أن ثقات الحرب الطائفة كانت تقتضي جمع ضرائب باهظة . وعلى الرغم من أنه حينما تولى الحكم أراد أن يستميل الناس إليه بتخفيض الضرائب التي فرضها قطز إلى ستمائة ألف دينار في السنة ، وجد نفسه مضطراً في نهاية الأمر إلى مواجهة ثقات حروبه بفرض ضرائب ثقيلة . ومع ذلك فإننا نقرأ عن إلغاء ضرائب قديمة أكثر مما نقرأ عن فرض ضرائب جديدة . كما أن خزينة الدولة لم تكن تملؤها الضرائب التي كانت تجبي في مصر بقدر ما كانت تملؤها الأموال المرسلة من البلدان المهزومة ومن أنحاء سورية ، ومن الولايات التابعة له ، ومن رسوم الجمارك .

وكانت حكومته مستنيرة عادة حازمة . فلقد واجه مجاعة سنة ١٢٦٤ م القاسية باستمداد سريع ينطوي على كثير من التحلل والكرم ، ذلك أنه نظم مكياي القمح وعمل — وأرغم الأمراء والقواد على أن يعملوا معه — على إيجاد ما يكفي المعوزين من القوت ثلاثة أشهر . كما أنه لم يسمح للخمر ولا للعبة ولا لحشيشة الدينار بالدخول في ممتلكاته ، رغم أن الضريبة التي تفرض على الخمر كانت تصل إلى ستة آلاف دينار في العام ، كذلك حاول أن يتأصل شأفة الأمراض المعدية بواسطة الطرق العلمية . وكان بالغ الصرامة فيما يختص بأخلاق رعاياه ، إذ أخلق الخانات والمواخير

وأقصى النساء الأوريات عن المدينة ، وعلى الرغم مما كان يعرف عنه من انهما كه في المملكات ، لم يكن مترفاً ، فقد كان يقبل على العمل في نشاط قلما نجد له مثيلاً . فإذا أمضى نهاره في الصيد والرماية والرياضة على اختلافها أمضى ليله في أعمال الدولة ، حتى إن الرسول الذي كان يصل في وقت السحر يتسلم الرد بعد ثلاث ساعات دون تأخير أو إهمال . وكثيراً ما كان يملئ أكثر من خمسين رسالة ثم يوقعها ويختتمها في المزيغ الأخير من الليل بعد أن يكون قد أمضى وقتاً طويلاً في رياضة عنيفة . وكان البريد يرسل مرتين في الأسبوع علي ظهور الخيل ، هذا إلى الاستعانة بحمام الزاجل للنظم .

فهل من عجب إذن أن يكون مثل هذا الرجل محبوباً من الشعب الذي اتخذته مثلاً للملك الذي تتجلى فيه صفات الكرم والشجاعة ؟ وهل من عجب أيضاً أن الشعب لا يزال يستمع بشغف حتى اليوم إلى القصص التي يرويها ( الشاعر ) عن الظاهر بيبرس في مقاهي القاهرة . وحتى رجال الدين كانوا يسحبون به ويمجدون فيه ملكاً يرعى معاهد الدين بهيأته ، ويعدل في معاملة رجال المذاهب السنية الأربعة فيعين لكل فئة قاضياً منهم . بيد أن الأمراء والقواد وحدهم هم الذين كانوا يخشونه ، لأنه — وإن كان يحسن معاملة الصالح للطبع — لم يكن يخفر للفساد ، وكانت شكوكه تلاحقهم على الدوام في حركاتهم ومسكناتهم . فكان من الطبيعي أن ينتقم منه أحد الدين بمقتدون عليه . وقد حدث أنه مات في سنة ١٢٧٧ م مسموماً من كأس شربها ، وربما كان قد أعد لها لغيره ، بعد أن دام حكمه الزاهر سبع عشرة سنة .

كان بيبرس المؤسس الحقيقي للقوة المملوكية وواضع نظام الحكم المملوكي . ومنذ اليوم الذي تولى فيه قيادة حرس الممالك البحرية ضد لويس ملك فرنسا في موقعة المنصورة ، دأب على تقوية الجيش ورعايته ، والتوسع في حركة التجنيد ، وتشجيع العناصر النفيسة عن طريق توزيع الإقطاعات بسخاء . وكانت السياسة الخارجية التي سارت عليها مصر مدة طويلة من وضع بيبرس ، كما كان بلاطه آموذجاً للسلطين المتعاقبين . وكان قصره بالغ الروعة والبهاء ، حيث كان يجلس السلطان يحيط به كبار رجال الدولة ورجال البلاط ، وهم نائب السلطان ، والقائد الأعلى للجيش والأستادار ( مدير القصر ) ، وقائد الحرس ، وحامل السلاح ، وأمير آخور ( المشرف

على الركائب السلطانية ( والساق ، والجاشنكير ( ذواق الطعام ) ، والجندار ( حامل البقعة أو الثوب ) ، وأمير شكار ( لشرف على الصيد ) ، والجوكان دار ( حامل مضرب البولو ) ، والبشمقدار ( حامل الخف ) ، وصاحب المجلس ، والجندار ( حامل اللبوس ) ، والسليقة ، وأنابك الجيوش ومساعدو أمراء الطبليخانة الثلاثون يتبع كلا منهم أربعون فارساً ، وجوقة مكونة من عشرة طبول وأربعة أبواق ، ثم القلمان ، والفرسان ، والحجاب ، وكاتبو السر ، وأطباء البلاط ، والقضاة ، ورجال الدين (١) ، كل هؤلاء الموظفين كانت تخصص لهم الرواتب والإقطاعات ، فأمر الطبليخانة كان يصل دخله إلى ما يقرب من ستة عشرة ألفاً من الجنيهات في العام ، ونستطيع أن نقدر الأموال التي كانت تنفق على القصر ، إذا علمنا أن عشرين ألف رطل من المأكولات كانت تمد في الأهرام السلطانية ، وأن أثمان اللحم والخضر التي كانت ترد إلى القصر في عهد الناصر تتراوح بين ثمانمائة وألف ومائتي جنيه في اليوم الواحد .

وكان كبار موظفي القصر وقواد الجند هم بطبيعة الحال أكثر الرجال سلطة بعد السلطان ، وكان كل منهم يعد نفسه خلفاً صالحاً للسلطان . وكانت سلامة السلطان وتقوذه يتوقفان على مقدار ولائهم ، وبخاصة على ولاء حرس السلطان الخاص ، وهو لواء مكون من عدة آلاف من الجند المختارين من ذوي الإقطاعات الواسعة في البلاد . وكان كل واحد من الأمراء العظام - سواء أكان من قواد الحرس أو من رجال البلاط أو كان مجرد نبيل من النبلاء للقريين - صورة مصغرة للسلطان المملوكي . فقد كان له كما للسلطان حرس خاص من العبيد . وكان هذا الحرس يقف بباب القصر في انتظار النبيل لاستصحابه أينما سار ، كما كان رهن إشارته في افتتاح الحمامات العامة واختطاف النساء منها ، والدفاع عنه إذا حاصر قصره نبيل آخر منافس له . كما كان يسير معه إلى ميدان القتال كلما دعي إلى ذلك . وكان هؤلاء النبلاء وأتباعهم خطر يهدد السلطان الحاكم باستمرار . فقد كان الساخطون منهم يكونون حلفاء يعضده

(١) معظم مدلولات هذه الوظائف مستقاة من كتاب « دراسات في تاريخ المماليك » للدكتور علي إبراهيم حسن - المترجم .



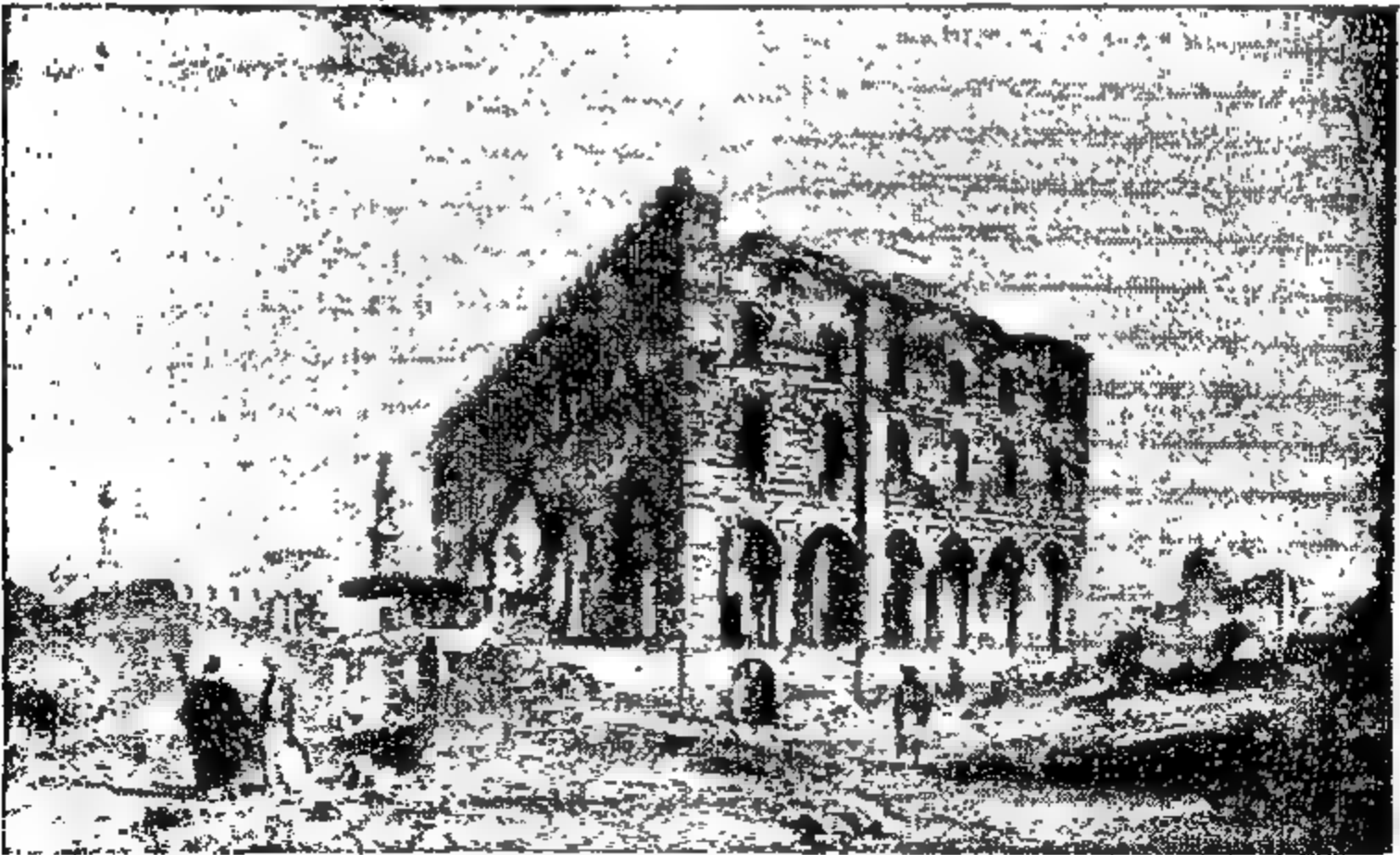
بعض رجال القصر أو الحرس الخاص ، فيجتمع أشبايعهم في الطرق المؤدية إلى القصر  
بينما يسد السائق — أو غيره من الموظفين الذين تسمح أعمالهم بالاقتراب من السلطان  
وملازمته — الضربة القاضية لسيدته ، أو يدمي له السم في الكأس ، ثم ينتخب  
للتأمر من بينهم من يعتلى عرش السلطان الشاغر . ولم تكن هذه الأعمال دائماً  
لتخلو من المقاومة ، ذلك أن حرس السلطان الخاص لم يكن من السهل رشوته أو  
التغلب عليه ، كما لم يكن الحال يخلو من وجود نبلاء يرون من صالحهم أن يضلوا  
الولاء للسلطان الجالس على العرش على الولاء لغيره من الأمراء الآخرين ، وحينئذ  
ينتقل القتال إلى الشوارع ، فيخلق التجار حوانيتهم فزعين ويضرون إلى منازلهم ،  
ويوصد الناس الذين استولى الرعب على نفوسهم الأبواب الكبيرة التي تفصل بين الأحياء  
وتخلو الأسواق في المدينة ، وتتقدم الأحزاب المتنافسة من المالك ، فتطوف بالشوارع  
التي لم يجرها الناس بعد ، ويستمر السلب والنهب وخطف النساء والأطفال ،  
ويتقاتل الجنود في الشوارع ، وتطلق السهام والحرايب من النوافذ . وكان تجار القاهرة  
الأثرياء يقفون خلف أبوابهم الضخمة يرتجفون رعباً وفزعاً . ويقال إن خان الخليلي  
— وهو السوق الكبيرة في القاهرة — كانت تقفل مدة أسبوع بينا يحارب الجنود  
في الشوارع للجاورة .

ولقد حدث مثل هذا حينما عزل كتبغا السلطان الناصر وهو طفل فترة من  
الزمن . ذلك أن الأشرفية ، أو بمالك السلطان الراحل الأشرف خليل ، قاموا بثورة  
وحاصروا القلعة . وحينئذ ركبت قوات كتبغا لقمع الثورة ، واخترقت جموع التأمريين  
وأعملت فيهم السيف . فمنهم من فقد بصره ، ومنهم من فقد عضو من أعضاء جسمه ،  
ومنهم من غرق في النهر ، ومنهم من طاح رأسه وعلق على باب زويلة ، وهكذا بدأ  
حكم جديد في سنة ١٢٩٤ م . ثم أعقب ذلك انتشار الوباء ، حيث أخرجت سبعائة جثة  
من أحد أبواب المدينة في يوم واحد . ولم يكف يصفو الجو حتى تلبد بالغيوم مرة ثانية ،  
وظهرت مؤامرة جديدة اضطر كتبغا معها إلى الهرب ، فانتخب النائب لاجين خلفاً له ،  
وبذلك حلت الزينات في الشوارع محل المجازر البشرية وإراقة الدماء ، وساد الفرح  
والارتياح بين أفراد الشعب ، ذلك أن السلطان الجديد كان رجلاً كريماً ، وقد وعد  
بالتسامح في جميع الضرائب ، ورخص ثمن الخبز . وهكذا أصبح لاجين محبوباً من الشعب

ومع أن فكرة الوراثة في الخلافة كانت غريبة عن النظام المملوكي ، فقد كان فيها الخلاص من تلك للشاهد النامية التي كانت تحدث من آن إلى آخر لاغتصاب العرش ، وسرعان ما أخذ المالكي بها وراثته القوي ، وقد خلف خليل أباه قلاوون ، ثم جاء بعده أخ أصغر يسمى الناصر محمد في سنة ١٢٩٣ م . وعلى الرغم من أن هذا الأخير عزل فترة من الزمن وهو لا يزال طفلاً ، عاد إلى العرش مرة أخرى في سنة ١٢٩٨ م بعد قتل صهره لاجين وحاول ييرس الجلائك من جديد في سنة ١٣٠٨ م ، أن ينتصب العرش ، ولكن الناصر استرد عرشه وبدأ حكمه للمرة الثالثة ، واستمر يتنعم به إحدى وثلاثين سنة ( ١٣١٠ - ١٣٤١ م ) . وبعد وفاته جلس خلفاؤه الضعفاء على العرش ، ولم تكن لهم أي سلطة حقيقية ، وقد ظلت الحال على ذلك حتى نهاية عهد هذه الأسرة . وهكذا نجد أنه في الفترة التي تقع بين سنتي ١٢٧٩ - ١٣٨٢ م ، عداست أو سبع سنوات ، كان يحكم مصر أفراد بيت واحد ، هو بيت قلاوون ، وكان مؤسس هذه الأسرة - الذي يدحض تاريخه النظرية القائلة بأن حكم هؤلاء الأجانب في مصر كان مجدياً - شخصاً له مكانة رفيعة وكان قائداً شجاعاً ، وسياسياً حكيماً ، ومشجعاً للتجارة وتقدمها ، فقد كان يحمي تجارة الدين يسافرون إلى الهند والصين ، ويبلل أقصى ما في وسعه لتنمية تجارة البلاد . وكان مشغولاً بالمهارة ، شأنه في ذلك شأن أغلب سلاطين المالكي . ومن عجب أن يقوم هؤلاء القوم بالمهارة خلال حياتهم المليئة بالحروب والمؤامرات ؛ فقد بنت الملكة شجرة الدر - وهي أول من حكم مصر من المالكي - ضريحاً لزوجها الصالح أيوب في سنة ١٢٥٠ م ، وهو لا يزال قائماً فوق جانب من موقع قصر الفاطميين القديم فيما بين القصرين . وبني ييرس مدرسة في سنة ١٢٦٢ م في مكان آخر من القصر القديم عرف باسم « قاعة الخيمة » ، كما بني مسجداً كبيراً خارج باب الفتوح في سنتي ١٢٦٧ - ١٢٦٩ م ، وما زالت المدرسة والمسجد قائمين إلى الآن ، ولو أن المدرسة قد أصبحت خراباً ، وكان المسجد يستعمل مخبأ للقوات الفرنسية منذ قرن ، ثم تحول أخيراً إلى سلكانة تدعى فيها المواشي الخاصة بالجيش البريطاني . أما قلاوون فقد ابتلاه مرض خطير ، فأخذ على نفسه عهداً بأن يبني مستشفى ، ما زال قائماً بجهة النحاسين . وعلى الرغم من أن مارستان قلاوون لا يستعمل للغرض الذي بني من أجله ، فقد كان مأوى للجائنين إلى القرن الماضي ،

ويقع هذا البناء بجوار مسجد قلاوون وضيعة . ويتميز هذا الضريح بالنقوش التي على الجص ، والأعمدة للقامة من الجرانيت الأحمر ، والسأذنة البنية من الحجارة ذات النقوش البديعة ، والنحت المقيق . وقد سار قلاوون في بناء مستشفى كما سار سلفاه ابن طولون ، وملاح الدين الذين بنى كل منهما مستشفى من قبل .

وكانت حجرات النوم تحيط بفناءين ، بينما تحيط بفناء آخر العنابر ، وحجرات الدرس ، والمكتبة ، والحمامات ، والصيدلية ، وكل ما كانت تحتاج إليه المستشفيات في ذلك الوقت من آلات الجراحة ، حتى الموسيقى كانت تستعمل لتخفف من آلام المرضى ، كما استخدم القرون ليرتلوا كلام الله فتشع قلوب الزلاء للذكر الحكيم ، وكان الفقراء والأغنياء على السواء يعالجون دون أجر ، وأنشئت بجوار المستشفى مدرسة تضم متين يتلمذون العلم بالمجان . ولا تزال القبرة التي دفن فيها السلطان الناصر العظيم وابنه مزاراً يقصدها الناس ، فيتبركون بلبس ملابسهما اعتقاداً منهم بأنها وسيلة لشفائهم من عائلهم وأمراضهم على اختلاف أنواعها .



قاعة يوسف — قصر الناصر في القلعة

كان عهد الناصر الطويل عصرًا ذهبيًا لقن البناء والعمارة الملوكية . ومما قيل من أن السلطان قد أقاد هو نفسه من الاستقرار الذي أوجده نظام الوراثة ، فإن ثباته على العرش مدة طويلة ، يرجع — إلى حد كبير — إلى صفاته الشخصية ، إذ لا شك في أن الرجل الرزين ، الصلب الإرادة ، الحاكم للفرد السعيد ، القمى ، المنظر ، القصير القامة ، الأعرج الساق ، الأرمد العين ، ذا الملابس البسيطة ، والأخلاق الصارمة ، والدهن المتقد ، والنشاط الذي لا يعرف المودة ، والدوق السليم المذهب ، والآراء المستنيرة ، والنبهاء السياسى الذى تعالى فيه حتى صار خداعا لا غاية منه ، والشكوك المتبقطة ، والحقد الجائر ، وهو فى الوقت نفسه صاحب البلاط الذى تضرب بفخامته الأمثال ، وصاحب العائر الرائحة — ذلك الرجل يعد من أبرز شخصيات العصر الوسيط . كما تعد أيام حكمه الثروة التى وصلت إليها المدنية المصرية وثقاتها ، ولقد أكمل الناصر الأعمال التى بدأها من قبله بيبرس وقلأوون ، لحافظ على محالفة القبيلة الذهبية المغولية ، وتزوج أميرة من بلاد نهر الفولجا اسمها طلية ، لا يزال قبرها إلى الآن فى المقابر الشرقية حيث دفنت جنبها مع جثة زوجة أخرى ، كما حافظ على حدود الإمبراطورية من يراموس ونهر الفرات شمالا حتى سواكن وأسوان جنوبا ، وأقام علاقات سياسية مع إمبراطور القسطنطينية ، وملك باغاريا وبلاد العرب ، ودان لنفوذه بعض حكام الحبشة ، ولو أن هذه المحالفات لم تكن محالفات سياسية بالمعنى المعروف . وقد زوج إحدى عشرة من بناته لأكبر النبلاء فى بلاده ، وقد كلفته كل زوجة منها نصف مليون من الجنيهات .

ولم يكن الناصر سياسياً خصب ، بل كان مزارعا ، ومدربا للخيل ، ورياضياً . وكان يشتري الحصان بأربعة آلاف جنيه . وكان له سجل خاص بالخيل ، فيعرف أصل خيله ، وأنسابها ، وأثمانها ، وأعمالها ، وكان يروض ثلاثة آلاف مهر فى كل سنة مستعينا فى ذلك بالبدو فى خدمتها . وكان يشعلها فى السباق ، ويحنى بها هو وأمراء دولته العناية كلها . وكان فى حوزته ثلاثين ألف رأس من النعم يستورد خير أنواعها من البلاد الأجنبية ، كما كان مغرما بالصيد بالباز ، شأنه فى ذلك شأن معظم السلاطين . وقد وفد إليه ابن بطوطة الرحالة المشهور سنة ١٣٢٦ م فقال عنه إنه ذو خلق نبيل وفضائل جمة ، كريم ، سمح النفس ، متابر ، لا يحمل ما أخذ نفسه به

كان يجلس مرتين كل أسبوع ليستمع بنفسه إلى المظالم . وقد سعدت مصر في مدة حكمه ، إذ ألغى الضرائب الفادحة وسن نظاماً جديداً لمسح الأراضى ، وعاقب بالجلد الطحانين والحبازين الذين حاولوا رفع الأسعار في السنوات التى أصاب القحط البلاد فيها . ويروى عنه أنه بلغه أن الأمير العظيم « قوصون » زوج إحدى بناته اغتصب ما ليس له ، فأحضره وصفعه بسيفه وجده وكيل أعماله بالسياط ، وكانت يقطته وسهره على أمور الرعية سبباً في خفض الأسعار ، كما أدت القسوة التى تميزت بها عقوبته إلى منع شرب الخمر واختفاء البغاء . وعلى الرغم من أنه جمع الكثير لنفسه بمصادرة كثير من أملاك النبلاء عاد النظام الجديد الذى وضعه على البلاد بالسعادة والرخاء .

وكان الناصر متسامحاً حتى مع القبط ، على الرغم من أن المسيحيين لم يجدوا في أيام للماليك من المعاملة الحسنة ما تعودوه في أيام الفاطميين وفى عهد الملك الكامل . فقد خربت الكنائس بعد أن دخل صلاح الدين مصر ، ولو أن ذلك التخریب لم يكن نتيجة تعصب الغزاة بل كان نتيجة إحراق مدينة مصر وأحداث الحرب ، ولم يكن صلاح الدين صديقاً للمسيحيين ، فقد كان متشدداً في دينه الإسلامى ، حتى إنه كان لا يتسامح مع الخارجين عليه ، وعلى الرغم من ذلك لم يكن يضطهدهم أو يلحق بهم الأذى ، ويرجع خروج بطريرق الأرمن وأتباعه إلى علاقة الأرمن الوثيقة بحكومة الفاطميين أكثر مما يرجع إلى التعصب الدينى . وعلى الرغم من أن الحروب الصليبية في فلسطين قامت في وجه العنصر اللاتينى من الكنيسة الكاثوليكية المسيحية ، أساءت المزاراة التى تولت من هذه الحروب إلى القبط المسيحيين ، وكان العادل أخو صلاح الدين ، يعامل رعاياه المسيحيين معاملة بالغة الصرامة والقسوة ، وكثيراً ما كان ابنه الكامل يشفع لهم عنده . ولما اعتلى العرش ، أظهر روحاً نادرة من التسامح لم تكن معروفة في هذه الأيام ، حتى إنه أحسن استقبال القديس فرنسيس الأسيسى ، حين جاء إلى الكامل ليطلبه الدين الصحيح كما يراه هو . وقد أجمع المسيحيون على أنهم وجدوا في أيام الكامل من التسامح ما لم يروه في أى عهد من عهود الملوك الآخرين ، ويبدو أن ابنه الصالح سار سيرة أبيه ، خلال الفترة الوجيزة التى حكم فيها ، كما يستدل مما كتبه إلى البابا « إنوسنت الرابع » من أنه يأسف لعدم تمكنه من مخاطبة الرهبان الدومينيكان بسبب جهله اللغة اللاتينية . ومن الطبع أن تغلب

الحرب الصليبية التي شنها لويس التاسع هذه العلاقات الودية رأساً على عقب . وليس  
بحيب أن يوجه المسلمون انتقامهم إلى أكثر الكنائس في مصر ، فأتوا عليها نهياً  
وعزياً . ولم يكن من المتظر أن يتمتع الرعايا المسيحيون بحطف السلاطين المتعاقبين ،  
وقد أسكرتهم انتصاراتهم للتكررة على بقايا الفرنجة في حورية . وقد أحدثت المدارس  
الجديدة التي أنشأها صلاح الدين تغييراً في طابع أهل القاهرة ، فقد كان أساتذة هذه  
المعاهد الدينية ينشرون روح التعصب وشجعونها ، وكان قهوهم يقوى على مرور  
الأيام . ففي سنة ١٢٨٠ م فصل جميع الكتبة من القبط الذين كانوا يعملون بدبوان  
الجيش من مناصبهم وحل محلهم المسلمون . وفي سنة ١٣٠١ م استهدف القبط لاستئان  
كرامتهم بإعادة الأحكام التي كانت تعرض عليهم زياً خاصاً يلبسونه ليميزهم عن  
غيرهم . وفي سنة ١٣٢١ م تعرض المسيحيون للاضطهاد نتيجة سلسلة من الثورات  
والاضطرابات المحلية ، وقد نشأت من تقدم أعمال الحفر في بركة الناصر ، على مقربة  
من قناطر السباع غربى باب اللوق ومن مسجد طيرس ، أن وصلت إلى أسفل  
جدران كنيسة الزهرى التي كان الناصر قد أمر بالآتمس بسوء . غير أن الأهالى  
لم يكادوا ينتهون من صلاة الجمعة حتى توجهوا إلى كنيسة الزهرى فجأة — دون أن  
تعلم الحكومة بوجهتهم — فأعملوا فيها العاول حتى هدموها عن آخرها ، ثم انتقلوا  
منها إلى كنيسة الأنبا مينا في الحراء فنهبوا ، ثم اتجهوا إلى كنيسة العذارى ، بجوار  
الطواحين السبع ، فأخرجوا الراهبات عنوة ، وأتوا على الكنيسة سلباً وحرقاً .  
غير أن السلطان حين رأى المخاض يتصاعد من الكنائس للحرق ، اتابته ثورة  
من الغضب ، وأرسل من فورده بعض القوات لكبح جماح الشعب . وفي تلك الأثناء  
ترامت الأنباء بأن ثمة كنيستين قد ألفتا في أحياء زويلة والروم ، وأن الشعب  
يتعدى على كنيسة المعلقة بحسن بابليون . ومن حسن الحظ أن قوات السلطان  
وصلت في الوقت المناسب لتحمل الكنيسة من عبث العابثين . ومن الواضح أنه كان هناك  
هياج عام ، ينفذ المتعصبون والمشعوذون ، إذ كان الواحد منهم يقف في المسجد ويهتف  
بسقوط كنائس الكفار وصييح في المجمعين : إلى الكنائس ، إلى الكنائس .  
وكان مثل هذا يحدث في جميع أنحاء البلاد ، فأحرقت كنائس في الإسكندرية ، وفي  
دمشق ، وفي قوص .

ولم يمض شهر على ذلك حتى أخفت ألسنة النيران تندلع في جهات مختلفة من القاهرة ، وكانت الرياح العاتية تساعد على انتشارها ، وأخذ الناس يصعدون المآذن ويضرعون إلى الله أن يكشف عنهم البلاء ، وهم لا يشكون في أن المدينة بأسرها سوف تلتهمها النيران ، وكان هناك صراخ وعويل ، حزنا وحسرة على تلف المنازل والأمتعة ولقد بذل الناس كل جهد لإخماد النيران ، فجاء السقاة يحملون القرب وتطوع أربعة وعشرون أميرا من أكبر رجالات الدولة للعمل بمساعدة جموع من العمال ، فصاروا يحولون المياه من الحمامات والأحواض ، ويهدمون المنازل والقبيلات لإفصاح الطريق حول المباني التي شبت فيها النيران ، وكان الشارع الذي يمتد من باب القلعة إلى باب زويلة تتدفق فيه المياه كأنها تجري في نهر . ولا يكاد الناس يحمدون النار في مكان حتى تشب غيرها في مكان آخر ، وهكذا دواليك ، ثم تبين للناس أن النيران تندلع بالقرب من المساجد ، وأنها تهدف نحوها ، وأن اندلاعها كان عمدا بدليل ما كانوا يثرون عليه من القماش المشبع بالزيت والقطران والنفط . وقد ضبط أحد المسيحيين في داخل مسجد الظاهر ويده جرة مبللة بالنفط والقطران وهو يوقد فيها النار . وقد اعترف في التحقيق بأن الحرائق كانت عملا منظما من صنع المسيحيين . وكذلك اعترف راهبان ، بعد تعذيبهما ، بأنهما أشعلا الحرائق عمدا ، انتقاما لما حل بكنايسهم من خراب ودمار . وقد استدعى بطريرك القبط ، فأعلن ، والسمع ينحدر من عينيه ، بأن مشعل النيران ، هم أفراد من غلاة التعصبين رأوا أن ينتقموا من الذين خربوا كنائسهم بنفس طريقتهم للحقاء فأعيد إلى بيته مكرما دون أن يحسه أذى ، ولولا جنود السلطان الذين كانوا يحرسونه لما نجوا من سخط العامة الذين كانوا يريدون تمزيقه إربا . وقد اكتفوا بإحراق أربعة راهبان من دير الملكانيين المعروف بدير القصير بجبل المقطم .

وحدث أن قبض على رجلين من المسيحيين متلبسين بجرعة إحراق المنازل انتقاما ، فأمر السلطان بحرقهما أحياء على مشهد من الناس ، وتصادف أن مر بالقوم وكيل أعمال مسيحي ، فكاد القوم يلقونه في النيران لولا أنه ارتد عن دينه ليرضيهم . وكانت هذه الحوادث مما يزيد من خطر الدهماء يوما بعد يوم .

وقد أزعج ذلك السلطان ، فرأى أن يأخذ الشعب بالحزم لهدئة النفوس ، فأصدر أوامره إلى الجند بالتفرق في جميع أنحاء القاهرة لمنع التجمهر دون التعرض للوادين . فطارت أنباء هذه القوة إلى الأسواق قبل أن تصل الجند ، فطاوصلت وجدت الأسواق قد أغلقت وأن الناس قد هجروها ، وأقفلت الشوارع التي تقع بين القلعة وباب النصر . غير أن الجنود قبضوا على نحو مائتي رجل بالقرب من النيل وأحضروهم أمام السلطان . فأمر بقتل بعضهم وقطع أيدي البعض الآخر . وعبثا حاول هؤلاء النكودون إثبات براءتهم ، وحاول بعض النبلاء أن يشفعو لديه فيهم . غير أن الناصر رأى أن يجعل منهم عبرة حتى لا يعود الشعب إلى الاضطراب والثورة ، فأمر بنصب المشاقق من باب زويلة إلى الرملة وعلق هؤلاء المسلمون البائسون من أيديهم .

وقد تمخضت هذه الاضطرابات عن إعادة الأحكام القديمة التي حاول الناصر إبقائها منذ سنة ١٣٠١ م التي تتعلق بتمييز المسيحيين بلباس خاص ، فحرم المسيحي من ركوب الخيل ، ومن لبس العمامة البيضاء ، ومن ضبط مخالفا قتل على الفور . وقد ألوموا بوضع العمام الزرقاء ، وتعليق الأجراس حول أعناقهم في الحمامات ، وسمح لهم بركوب الخيل دون سواها ، على أن تكون وجوههم في مواجهة أذيالها . ومنع الأمراء من اتخاذ خدمهم من المسيحيين ، كما أوصدت أمامهم أبواب الوظائف الحكومية ، ولم يكن أحدهم ليجرؤ على الظهور أمام الناس ، حتى اضطر كثير منهم إلى اعتناق الإسلام . وكان هذا الاضطهاد أسوأ ما تعرض له المسيحيون منذ أيام الخليفة الحاكم الفاطمي قبل ذلك بثلاثة قرون . غير أنه يجب أن لا يمزب عن بالنا أن هذا الاضطهاد كان نتيجة تحرش الفريقين بعضهما ببعض ، وكان وليد غضب الشعب ولم يكن من تعصب الهيئة الحاكمة وقد تعرض القبط طوال عهد للمالك للاضطهادات ، ولو أنها لم تكن عنيفة كالاضطهاد السابق . ويظهر أن القبط الذين نعموا بالتسامح وحسن المعاملة في الشطر الأخير من حكم الفاطميين كانوا قد أبطرتهم النعمة ، وبدءوا يتعالون كثيرا ، فجاءت هذه الاضطهادات ، فأصبحوا قلة لا حول لها ولا قوة ، واستمروا على هذه الحالة إلى الآن حيث بدءوا يتنفسون الصعداء مرة أخرى .



وبينما كانت الكتائب تهدم ، كانت المساجد تشيد بسرعة تدعو إلى الإعجاب ، حتى إن المهندسين ورجال العمارة لم يروا عهداً كهذا للناصر ، وقد كان القدوة لرجالهم في حسن الدوق وسمو الثقافة ، وكان مشجعا للعلماء وللتطيق ، وصديقاً للتأريخ العالم أبي الفداء الذي أعاد إليه ولاية حماء التي كانت متوارثة في أسرته منذ أيام الملك العادل أخى صلاح الدين ، وكان عهده عهد إنتاج فني رائع ، وما أنفقته السلطان وأمرأؤه في البناء والنقش والزخرفة ليدل على ما وصلت إليه الدولة من الثروة والغنى وعلى أنها عرفت كيف تنفق ثروتها في حكمة وتدير . ولقد أمكن الاحتفاظ ببعض أثار قصر الناصر ، فهناك منضدتان مطعمتان بالفضة ، محفوظتان في دار الآثار العربية بالقاهرة ، كما أن أشهر ما بنى من العائز - وهما مدرسته التي تقع بين القصرين على مقربة من المارستان الذي يرجع إلى سنة ١٣٠٤ م ، والتي أحضر بابها ذا الطراز القوطي أخوه خليل من عكا ، ومسجده القديم في القلعة الذي يرجع بناؤه إلى سنة ١٣١٨ م - يشهدان له بحسن الدوق ، على الرغم من أنهما لا يحتفظان - لسوء الحظ - إلا بالقليل من سابق عظمتيهما وجلالهما.

فقد تهدمت القبة العظيمة التي كانت تعلو مسجد القلعة ، واختفت أغلب الأحجار الرخامية الملونة التي كانت تزين القبلة وحديد النافذة التي تطل على مقصورة السلطان ، وما زال هناك صف من النوافذ العلوية في جميع جهات المسجد ، زال زجاجها الملون ونقوشها الزخرفية ، وإنك لتدرك من الأعمدة الجرانيتية المشتركة ، ومن الرخام المزخرف على الجدار الجنوبي ، ومن البقايا الأخرى ما كان عليه المسجد ، من الروعة . ولعل أهم ما يميز هذا المسجد ، مأذنته للشيدة بالطوب الأخضر اللون ، مما قد يعزى إلى النفوذ التركي ، الذي وصل إلى مصر مع زوجة الناصر التي كانت تنتمي إلى القبيلة الذهبية الثرية ، ويوجد الفضل في عدم تهدم مسجد القلعة نهدياً تاماً إلى عناية الكولونيل س. م. واتسون . ( حامل نيشان القديسين ميخائيل وجون ) ، حيث حال دون استعماله مخزناً للجيش ، ورفع الفواصل الخشبية التي كانت قد أقيمت حين كان المسجد يستخدم سجنًا للجنود .

وكان بالقصر الأبقى الذي بناه الناصر في القلعة بهو تتخلله الأعمدة ، مشيد من

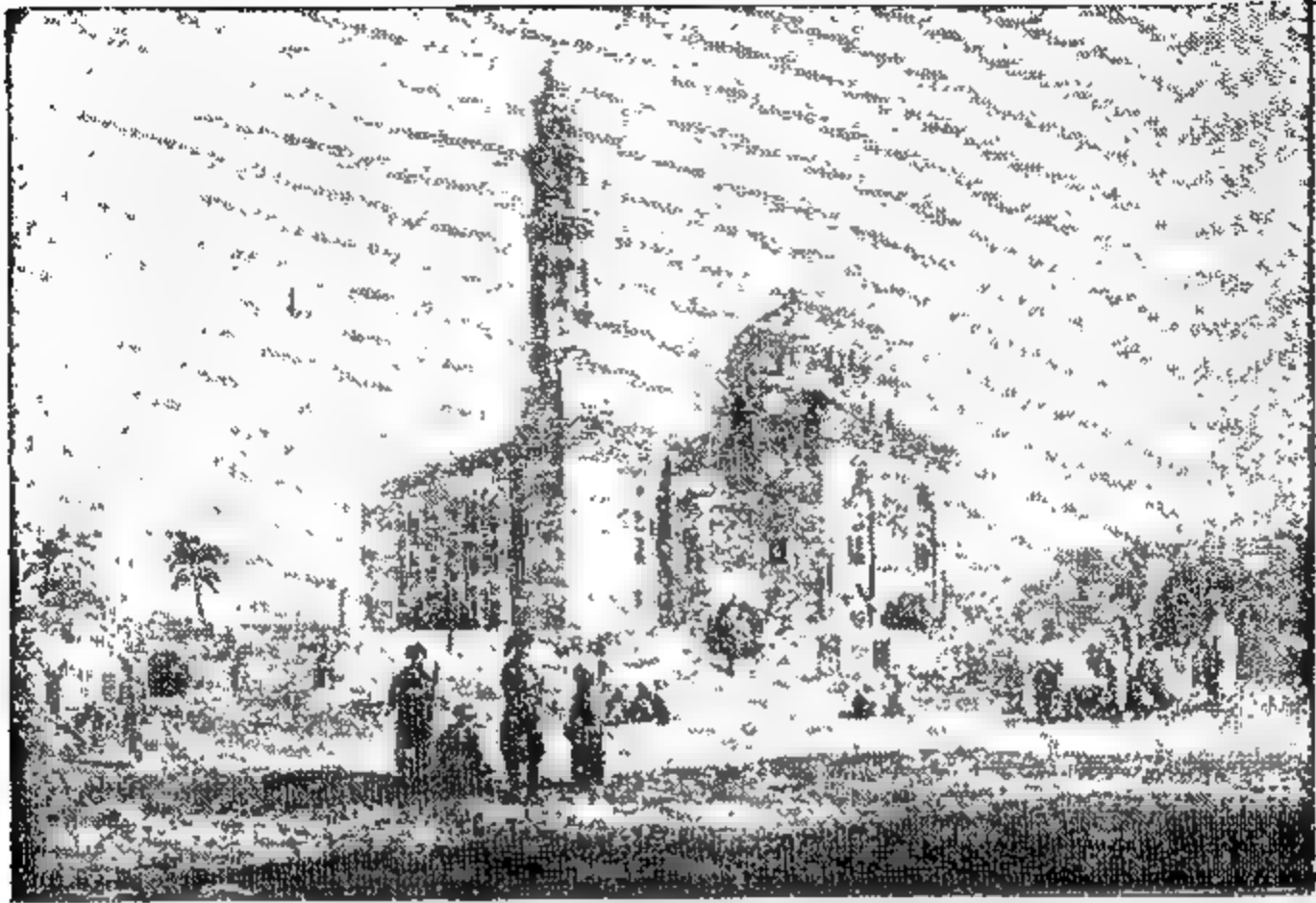
حجارة سوداء وأخرى بيضاء ، ويقال إن تكاليف بنائه بلغت عشرين مليوناً من الجنيهات — ولو أن هذا المبلغ يبدو خيالياً — لا يزال قائماً منذ خمس وسبعين سنة ،



#### القنطرة المعلقة خلف طواحين المياه السبع

وقد أمدد الناصر تنظيم الحصن وزاد فيه . وينسب إليه بناء القنطرة التي كانت تمد القلعة بماء النيل في سنة ١٣١١ م ، ولو أن البعض يزعم أنها إلى صلاح الدين ، ويعزوونها البعض الآخر إلى عهد الأيوبيين ، وينسبون إلى الناصر إعادة بنائها كما ينسبون إلى الغوري ترميمها . هذا إلى أنه بنى مسجد بجوار ضريح السيدة نفيسة ، وقبة النصر بالقرب من الجبل الأحمر وغير ذلك من المساجد .

وكما قام الناصر بعمل هذا حذوه رجال البلاط والحاشية ، فلم يبدأ لأحد الأمراء في ذلك العهد باله ، حتى بنى مسجداً ، أو مدرسة أو ضريحاً ، ينهض دليلاً على تقواه ، ويتقرب به إلى الله ، الذي جعلته أعماله في شدة الحاجة إلى التقرب إليه . ولقد تأثر الرحالة المغربي ابن بطوطة — الذي بقى في القاهرة في سنة ١٣٢٦ م — بما رأى من غيرة الأمراء وتنافسهم في بناء المساجد والتكايا وأخوات التعبدية ، كخلاوة الخانقاه



مسجد السلطان حسن

وتسكية بيرس الجاشنكير التي لا تزال قائمة ، كما يصف لنا نظام هذه الحلوات والتكايا (١) ويقول إن المدارس أكثر من أن يحصوها العد ، ثم يبدى إعجابه بمارستان قلاوون وما كان يحويه من أجهزة وعقاقير ، ويتكلم عن نفقاته فيقول إنها تبلغ ألف دينار في كل يوم .

ولقد بنى أكثر من أربعين مسجداً ومدرسة بين سنتي ١٣٢٠ — ١٣٦٠ م — أي أكثر من ربع العدد الذي دونه التاريخ منذ القرن الأول الهجري حتى أيام المقرئى — ولا يزال أكثر هذه المباني قائماً إلى اليوم يشهد على سخاء هؤلاء النبلاء العظام ، ومن تلك المساجد : جامع الأمير حسين (٨٧١٩ = ١٣١٩ م) ، وجامع ألماس

حاجب السلطان الذي بني في سنة ٥٧٣٠ هـ ، وجامع قوصون الذي شيد في سنة ٥٧٣٠ هـ ، وجامع يشناق (٥٧٣٩ هـ) ، وجامع التنبغا المرداني الساقى (٥٧٤٠ هـ) وجامع إسلام حامل السلاح (٥٧٤٦ هـ) ، وجامع أقسنقر (٥٧٤٧ هـ) ، وجامع أرغون الإسماعيلي (٥٧٤٨ هـ) ، وجامع منجك الوالى (٥٧٥٠ هـ) ، وجامع شيخون (٥٧٥٠ هـ) . ومن المدارس : مدرسة السلطان التى بناها حامل السوالمجة فى سنة ٥٧١٩ هـ ، ومدرسة منجر الجاولى (٥٧٢٣ هـ) ، ومدرسة أحمد المهندس (٥٧٢٥ هـ) ، ومدرسة السلطان أقبغا القهرمان أو ناظر المطابع (٥٧٣٤ هـ) ، ومدرسة صرغتمش رئيس الحرس السلطاني (٥٧٥٧ هـ) ، ومن التكايا والخلاوات الدينية خاتمه الجاولى (٥٧٢٣ هـ) ، وخاتمه قوصون سنة (٥٧٣٩ هـ) وخاتمه شيخو (٥٧٥٦ هـ) هذا إلى جامع السيدة مسكة إحدى جواري الناصر وتدعى همدك (٥٧٤٠ هـ) ، ومدرسة السيدة تتر الحجازية بنت الناصر (٥٧٦١ هـ) ، والجامع الكبير المعروف بجامع السلطان حسن بن الناصر الذى يواجه القلعة (٧٥٧ — ٥٧٦٠ هـ) .

وإذا أردنا أن نصف كل المساجد التى بنيت فى عهد الناصر ، لاحتجنا إلى مجلد كبير قائم بذاته . وقد تهدم بعض هذه المساجد ، ولم يبق بها من البناء الأصلي إلا أجزاء قليلة . كما أن بعضها، مثل مسجد أقسنقر والمسجد الإسماعيلي — فى سبيل إتمام إصلاحهما — أحدهما قام بإصلاحه بذوق سليم ، إبراهيم أغا فى سنة (١٦٥٢) ، والآخر قد قام بإصلاحه أحد أفراد الأسرة الحديوية منذ خمسين سنة ، ولم يكن فى ذلك شيء من الفن . وعلى كل حال فإن ما تبقى من البناء الأصلي فى المساجد الأحد والعشرين ، التى ذكرناها ، يدلنا على مقدار التنوع والتحرر من المحاكاة فى التفاصيل ، وفى النقوش ، حتى إن الوصف لا يمكن أن يغنى عن المشاهدة . والواقع أن كل عمارة من هذه العمائر جدير بالبحث الدقيق والحرص ، ومهما يكن من شيء ، فإننا نستطيع أن نذكر هنا ثلاث ميزات اقتصرت بها هذه الأبنية فمن المعروف أن المساجد القديمة كانت خالية من أى نقش من الخارج ، فحدرانها كانت فى غاية البساطة . وإذا استثنينا جامع الأقمر الذى شيد فى أواخر حكم الفاطميين ، فإننا لا نجد لأحد للمساجد واجهة مميزة . أما مساجد المماليك — التى اقتبس طرازها بلا شك من مباني الصليبيين فى فلسطين — فإن لها واجهات نفحة ، وفوارير غائرة ، ومداخل غير نافذة ، وأقاريز منقوشة .

والميزة الثانية في مساحه البابك ، هي التطور الذي أدخل على بناء المكان فقد أصبحت أكثر روتقا وحملًا ، واستعملت فيها الحجرة الملاء ، وأصبحت أدق في



شارع مسجد السلطان حسن

شكلها ، فتدرجت من الشكل المربع ، إلى المثلث ، إلى الأسطوان . كما استعملت فيها الزوايا المدلاة وقواعد الشرفات . أما لليرة الثالثة : فهي استعمال القباب الكبيرة فقد كان الشائع قبل ذلك هو بناء قبة فوق المحراب أو فوق مدخل المسجد . أما القباب فقد أدخل بها خلفاء صلاح الدين ، ومن أمثلة ذلك القبة المقامة على

ضريح الإمام الشافعي في القرافة ، وربما في عمائر أخرى ، غير أن ما تبقى من عهد الأيوبيين قليل جدا لا يساعد على وصفها وصفا دقيقا صحيحا .

على أن المماليك كانوا يحق سادة بناء القباب ، وكان جانب غير قليل من مساجدهم ومدارسهم بمثابة أضرحة لمؤسسيها ، فكان الضريح يلاصق البناء الرئيسي ، وكانت القباب خاصة بالأضرحة . وهكذا بدأت المدينة منذ عهد المماليك تزدان بتلك القباب الجميلة التي ما زالت حتى اليوم تضيئ على مبانيها صبة خاصة . ولقد تدرجت من قبة بسيطة تعلوها قبة صغيرة ، إلى قبة محفورة خطوطا إلى قبة مزدانة بالنقوش والأشكال الهندسية والرسوم الدقيقة المحفورة على الأحجار . ومن أروع هذه التخاريف ما قام به السلاطين الشراكسة أو البرجية في القرن الخامس عشر ، ولو أن القباب كانت قد احتلت مكانا ملحوظا في طراز العبارة العربية في القرن الرابع عشر .

ولعل أحسن مثال لأسلوب البناء في القرن الرابع عشر ، هو جامع السلطان حسن الذي يحوى أغلب بميزات عصر الناصر ويعرضها لنا على نطاق واسع . ولم يكن السلطان حسن هذا شخصية محبوبة أو ذات منزلة تاريخية . فقد جلس على العرش من سنة ١٣٤٧ إلى سنة ١٣٥١ ثم عزله الأمراء ، ثم عاد إلى العرش وحكم من سنة ١٣٥٤ إلى سنة ١٣٦١ م . غير أن مسجده المشهور الذي بناه بين سنتي ١٣٥٦ و ١٣٥٩ م ( ٧٥٧ — ٧٦٠ هـ ) هو العمل الوحيد الذي رفع اسمه . ويقال إنه كان يكلفه ألف دينار في اليوم إلا أننا لا نصدق هذه الأرقام التي تعود مؤرخو الشرق الغلو فيها .

واقعد بلغ من شدة إعجاب السلطان حسن بمسجده الرائع ، أن أمر بقطع يد المهندس الذي أشرف على تشييده حتى يحد من تلك العبقرية فلا يشيد مسجدا مشابها له . ولقد بنى المسجد على طراز المدارس العادية في ذلك الوقت ، وهي عبارة عن صفين من البناء متقاطعين على شكل صليب ، يتوسطه فناء تخرج منه أربعة أروقة ، وأما ضريح صاحب المسجد فيقع وراء الرواق الشرقي خلف المحراب . ولا يرى الناظر إلى المسجد من الخارج ، الأضلاع على شكل الصليب ، لأن الزوايا الواقعة بين الأروقة

قد بنيت فيها الحجرات والمكاتب (١). ولعل أول ما يلاحظه الناظر إلى هذا المسجد من الخارج ارتفاعه العظيم إذا قورن بالمساجد الأخرى. جداره يبلغ ١١٣ قدما ، وهو مشيد من الحجارة الحقيقية التي أخذت من الأهرام ، ونوافذه — تعلو اثنتين منها عقود على هيئة حدود الفرس ، وأما الباقي فهي مجرد فتحات غطيت بالحديد المصبع ، وهذه الفتحات هي كل ما يزدان به الجدار الشاهق العلو. ولكن أجمل ما في هذه الجدران ، ذلك الأفريز البديع التكوين الذي يتوج الجدار ويتركب من ستة صفوف طباقية . وفي زوايا البناء أعمدة رشيقة مناسكة مع البناء ، كما أن للدخل الرائع مقام في مشكاة مقوسة يبلغ إرتفاعها ٦٦ قدما ، ومركز في قبة مكونة من اثني عشر صفا من الحجارة المنقوشة المدلاة مزينة بالأفريز الهندسية والأعمدة الركنية والرسوم العربية .

أما في الداخل ، فإن أول ما يسترعى النظر هو إتساع المسجد لا زخرفته ، فالمسافة العظيمة بين الأروقة الأربعة التي يبلغ إرتفاعها في الجهة الشرقية ٩٠ قدما و ٧٠ قدما



ضريح برقوق وفرج

(١) أنظر الرسم من ١٩٧٠. وفارن أعمال هرتر بك — جامع السلطان حسن — وبه صور فوتوغرافية رائعة ورسوم وتصميمات .

لا نظير لها في مساجد القاهرة بأسرها . غير أن الطلاء الداخلى من الجص ينتقص من عظمة البناء ، كما أن الرخام والتقوش الملونة ، ولو أنها جميلة ، إلا أنها لا تصل في تصميمها وتناسقها إلى نظائرها في محاريب للمساجد الأخرى . هذا إلى أن الألوان السوداء والبيضاء والصفراء التي دهنت بها الأفاريز أزهى مما يجب . وكذلك الحال في ألوان المنبر ، إلا أن المحراب بديع النقش ودكة المبلغ مقامة على أعمدة من المرمر الملون لا على أعمدة من الخشب البسيط الصنع كما هو الحال في نظيراتها في المساجد الأخرى ، وفي أعلى الجدران إفريز على بالكتابة الكوفية الجميلة . وأما الضريح الذي يصل إليه الزائر عن طريق المحراب من باب جميل الصنع ، فهو مصفح بالبرونز على الطراز العربي ومحاط بسائر من المرمر إرتفاعه ٢٥ قدما علفت عليه آية من القرآن الكريم منقوشة على الخشب ، على حين تنامت زواياه إلى دائرة القبة الموشاة بالزخارف الخشبية المدلاة التي ظهرت عليها آثار القدم . وفي وسط هذه الحجرة ، القبر المصنوع من حجارة المرمر البسيط الصنع . ويظهر أن القبة حديثة الصنع ، لا تتناسب صناعتها مع غمامة المسجد ، أما القبة الأصلية التي أعجب بها « يتروديلافالى » في سنة ١٦١٦م فقد انهارت في سنة ١٦٦٠م . كانت للآذن في الأصل أربعة ، ولم تكد الثالثة تشيد حتى هوت وسقطت تحتها نحو ثلثمائة طفل من تلاميذ المدرسة المبنية تحت هذه القبة ، وكان ذلك في سنة ١٣٦٠م . ولم يمسح السلطان حسن بعد الفراغ من بناء هذه القبة إلا ثلاثة وثلاثين يوما حيث قتل . أما المآذنتان اللتان بقيتا فقد تهدمت إحداها وأعيد بناؤها في سنة ١٦٥٩م . وقد احتفظت دار الآثار العربية بالمصاييح البرنزية العظيمة والمشاكى الزجاجية المحلاة بالمينا . أما الباب المصفح بالبرونز ، فقد نقله السلطان المؤيد إلى مسجده في سنة ١٤١٠م .

وكان من أثر اختيار مسجد السلطان حسن في هذا الموقع أن أصابه التلف ، ذلك أن سطحه القسيح كان مكانا رائعا لإطلاق النار منه خلال الثورات المتعددة التي اشتهر بها حكم المماليك ، وكثيرا ما تبادل الجنود إطلاق النيران فوق هذا المسجد وبين القلعة إلى أيام محمد على باشا الكبير . ويمكن مشاهدة أثر الرصاص على



جدرانه. إلى اليوم . ولما وجد يرقوق أن هذا المسجد مصدر خطر بالغ للهجوم أمر بهم درجاته الأنيقة وإغلاق بابه الضخم .

ولقد حدث مرة أن بقى المسجد متلقا نحو نصف قرن . وكان على الطلاب والمصلين أن يدخلوه عن طريق إحدى النواقد أو أحد الأبواب الجانبية ، كما حدث أن عد حبل بين مأذنته الكبرى وبين القلعة ومشى فوق هذا الحبل أحد الرياضيين الأوروبيين أمام الجماهير المعجيين ببراعته ، وكان ذلك في منتصف القرن الخامس عشر .

ومن الواضح أن هذا المسجد كان يمكن أن يسلم من كل ما أصابه لو أنه بنى في مكان أكثر هدوءا . ولكن على الرغم من ذلك ، ومن تشويه جدرانه بالرماس ، وزوال قبته ومأذنه الأصلية ، لا زال أبهى وأجل آثار الفن العربي في القرن الرابع عشر .

## الممالك البرجية

جد أن حكم سلاطين الممالك من خلفاء الناصر محمد أربعين عاما ، لاقوا فيها ما لاقوا من تحكم بعض الأمراء الأقوياء من أمثال قوصون وشيخو وصرغتمش وغيرهم ، اغتصب الأمير برقوق السلطة في سنة ١٣٨٢م ، ولم يحدث هذا تغيرا يذكر في حكومة مصر . لقد انتهى أمر الحكم الوراثي ، ولم يعمل به بصفة جدية إلا في أواخر القرن التاسع عشر ، وكانت الأسرة الحاكمة الجديدة طائفة من الأمراء لا يكاد يتولى أحدهم الحكم حتى يتغلب عليه من هو أقوى منه فيغتصبه ، وكثيرا ما كان أحدهم يوصى بالعرش لأحد أبنائه ، فيظل الابن حتى يأتي من يغلبه عليه ، ولم يستطيع أحدهم أن يؤسس بيتا ملكيا كما فعل قلاوون . وقد أطلق على الأسرة الحاكمة الجديدة اسم «الممالك البرجية» أو «ممالك الحصن» أو «الممالك الشراكسة» لأنها تنتمي إلى لواء من الجند كان يقيم في القلعة منذ جنده قلاوون قبل ذلك بما يقرب من مائة سنة . ولما كانوا جميعا من الشراكسة وليس بينهم تركي ولو أنه كان بينهم اثنان من الروم — أطلق عليهم اسم «الممالك الشراكسة» .

وعلى الرغم من تغير الاسم ، لم يكن ثمة فارق كبير بين الشراكسة وبين أسلافهم الأتراك ، وإن كان هناك فارق بينهم ، فهو فارق النسب إلى أسوأ ، ذلك أن سلاطين الأسرة المملوكية الجديدة قد أصبحوا تحت سيطرة قوات الجماعات العسكرية أكثر من ذي قبل . ثم إن حرس السلطان أخذ يكون لنفسه حزبا مستقلا فكان يسمى باسم الجالس على العرش حينذاك ، فهو أشرفي أو مؤيدي أو ناصري ، ويبقى هذا الحزب متمتعا بالنفوذ حتى يتغير الجالس على العرش بالموت أو بالعزل ، فيبقى ممالكه عاملا قائما بذاته في السياسة ، يشترك فيما يحدث في عصره من مؤامرات واغتيالات وثورات . ولم يكن السلاطين من القوة بحيث يستطيعون كبح جماح جنودهم إلا نادرا وإن كثرة تغير الحكام ليدل على عدم استقرار العرش . فقد حكم ستة من السلاطين البرجية مدة مائة وثلاث سنوات من مجموع فترة حكم الممالك البرجية بأجمعها التي تبلغ مائة وأربع وثلاثين سنة . ومعنى ذلك أن الإحدى والثلاثين سنة الباقية من هذا

الحكم قد جلس فيها سبعة عشر سلطاناً على العرش ، أى أن كل سلطان منهم جلس على العرش أقل من سنتين .

ولم يكن خلق الحكام يختلف كثيراً عن خلق من سبقهم ، وإن اختلف في شيء فإنما يختلف إلى ما هو أسوأ . ولما كان بينهم ملك اشتهر بالفروسية وحب الحرب ، وهذا يفسر لنا إلى حد كبير عدم اتصافهم بالهنية والقوة . ولم تخرج الأيام من بين صفوفهم جندياً من أمثال بيرس أو قلاوون ، لأن الشراكة لا يجدون من المحاربين وإنما يجدون من الغامرين . وكان اعتمادهم في الاحتفاظ بالسلطة على المؤامرات والخداع وإفساد الدم أكثر من اعتمادهم على النجاح في الحروب أو على الشجاعة الشخصية . فقد تفوق أحدهم وهو خورشيدم اليوناني الأصل على أقرانه في مصانعة الأحزاب المتعارضة وفي انتزاع الرشوات الفادحة ممن كانوا يتطلعون إلى شراء الوظائف العامة . فقد كلفت ولاية دمشق الطامع فيها خمسة وأربعين ألف دينار ، على حين بيعت وظيفته الأولى لشخص آخر بمئة ألف . أما وزراء الدولة فكانوا يزلون كلما تمكن من يريدون عزهم من إشباع مطامع الأمير . أما زيارات هذا السلطان الفداهية لرعاياه ، فكانت تكلف من يتشرفون بها كثيراً من المال . وقد ساد الفساد جميع البلاد في خلال حكم الشراكة ، ولم يكن للعدل أو لنزاهة الحكم وزن في سير الأمور ، حتى إن شيخ الإسلام ، وهو الحاكم الديني ، كان يختلس أموال الودائع . وكان الجند ، وهم من الرقيق الأبيض ، من اليونان والشراكة والأثرانك والقوقاز ، يعيشون في الشوارع ، حتى إن الحرائر من النساء لم يكن يمررن على مفارقة منازلهن خوفاً منهم .

وكان الفلاحون يخشون جلب حاصلاتهم إلى الأسواق مخافة أن ينهبها المالك أو أن تقع غنيمة في يد الحكومة . ولقد تناقص سكان الريف من وطأة ظلم الجنود وزال الأمن والنظام في الحاضرة . وكثيراً ما تناحست الأحزاب فتراشقوا بأنيران من فوق أسوار القلعة ومن سقف مسجد السلطان حسن للواجه لها وحصنوا الشوارع بالتاريس وجعلوا من الأسواق ميادين للقتال ، وكانوا يقرنون التمرد بسروج الجمال وييقنون كذلك حتى يرسمهم للوت . وهكذا كانت تمر الأيام .

وعلى الرغم من كل هذا العنف والفساد ، استطاع السلاطين البرجية أن يوسعوا رقعة أملاكهم وأن يزيدوا تجارتها غوراً ويقفوا في وجه تيمورلنك في سنة ١٣٩٩ م . ولو أنهم وجدوا آخر الأمراء من الأفضل قبول شروطه فإن العاصم العظيم رأى بدوره عدم غزو مصر . ثم إنهم قاموا بحملات شديدة في آسيا الصغرى حيث أخضعوا كرمان وقيصريّة وقونية وفتحوا جزيرة قبرص في سنة ١٤٢٦ . وكانت هذه البلاد وكراً للقرصان الذين كثيراً ما هددوا الملاحة للصربية وقد استعملوا في ذلك أسطولا بنوا سفنه في بولاق . ثم جاءوا بجيمس أمير لوزينيان (ملك قبرص) الذي أسروه في موقعة كيروشيت وجاءوا معه بتاج قبرص وأعلامها المخذولة ومشوا به إلى القلعة في القاهرة حيث قبل الأرض بين يدي السلطان بارسباي . وبعد أن افتداه قنصل البندقية وبعض التجار الأوربيين وأصبح تابعا لمصر ، سمح له بأن يخترق شوارع القاهرة وأسواقها في موكب عظيم يليق بمقامه وظلت قبرص تدفع الجزية لمصر في عهد المماليك الشراكسة . وقد حاول هؤلاء غزو رودس مراراً بين سنتي ١٤٤٠ و ١٤٤٤ م ، إلا أن القرصان ردوهم على أعقابهم . ومع ذلك استمرت الحدود المصرية الشمالية إلى آخر عهد الشراكسة تمتد من البراموس والقرات . ولعل أغرب ما يروى في تاريخ الشرق هو اقتران ذلك الفساد والانحلال والوحشية بذلك السمو في الحضارة المادية والغيرة على الفن الذي تلمسه في سلاطين المماليك . والواقع أن المماليك الشراكسة لم يكونوا أقل من أسلافهم الأتراك حباً للعمارة وهندسة البناء . وكان كثير من سلالة المماليك المتأخرين ذوي ثقافة عالية إذ كان برقوق والمؤيد وقايتباي عميين للعلماء والأدباء وللمجتمع المثقف . وكان بارسباي ، على جهله باللغة العربية ، ميالاً إلى الجلوس إلى العيني والاستماع له وهو يتلو شيئاً من تاريخ الأتراك . كما كان تمرغنا اليوناني الأصل لغوياً ومؤرخاً ومتبحراً في العلوم الدينية . وكان الشراكسة من الصادقين في إسلامهم ، وكانوا يصومون بانتظام ويتطوعون له ويمتنعون عن شرب الخمر ، ويعجبون ببيت الله الحرام ، ويرجون الآخرة ببناء المساجد ومعاهد العلم والمستشفيات والمدارس إلى غير ذلك .

ومن أمثلة ذلك ، أن السلطان المؤيد الذي كان أضغف من أن يجمع الاضطرابات ويحمد الثورات في عهده ، كان رجلاً صالحاً قتيلاً في الدين ، بارعاً في الموسيقى ،

متبحراً في نظم الشعر ، مفوها في الخطابة ، مدققاً في مراعاة شعائريته ، بسيطاً كل البساطة في ملابسه ، مقتصداً في معيشته ، يخرج للناس لقضاء واجباته الدينية كواحد منهم ، لا فرق بينه وبينهم ، حتى إنه لبس رداء من الصوف الأبيض البسيط الصنع مشاركة للناس في أحزانهم على ما جره عليهم الوباء من ويلات .

وما زال الرواق الشرقي في مسجده الذي بناه بين سنتي ١٤١٥ — ١٤٢١ م في شارع السكرية ، باقيا حيث يتلقى فيه عدد من الأطفال العلم إلى اليوم تحت غراب على بالذهب ومزين بالنقوش البديعة الصنع . وقد أعادها إلى رونقها الأصلي هرتز بك الذي يرجع إليه الفضل في الكشف عن الزخارف الأصلية ، وكاد مرور الزمن أن يطمس معالمها ، وقد بنيت مأذن هذا المسجد على الأبراج الجانبية لباب زويلة ، وله مستشفى تهرم الآن ويعرف باسم المارستان للویدی ، وقد بنى في سنة ١٤١٨ م ويقع بجوار القلعة مما يشهد لصاحبه بالتقوى وحب الخير ، ولبارسبای مسجد كبير بنى في سنة ١٥٢٣ م في أحد أركان اللوسكى الموصلة إلى القورية ويعرف بالأشرفية ، ولا زال مفتوحاً تؤدي فيه الشعائر الدينية ، وقد بنى برقوق في سنة ١٤٨٦ م مدرسة جميلة في المكان المعروف باسم بين القصرين — وقد قام بإصلاحها هرتز بك أخيراً — وبعد الضريح الذي بدأ برقوق تشييده وأمه ابنة فرج في سنة ١٤١٠ م من أجل مافي القرافة الشرقية من الأضرحة ذات القباب الرائعة الشكل والمآذن الدقيقة الصنع ، واسكن درة هذه المجموعة من الأضرحة ، ذلك الضريح الذي بلغ الذروة في الفن والذي يمثل الطراز المملوكي المتأخر في العمارة وهو ضريح قايتباي الذي بنى في سنة ١٤٧٢ م والواقع أن النقوش العربية الرائعة التي زينت قبة الجيلة والانتقال التدريجي الذي ينطوي على المهارة في تشييد مأذنته البديعة من المربع إلى المثلث ومن المثلث إلى الأستواني ، ثم الإبداع في ملء الزوايا المختلفة ، أضف إلى ذلك رخام الإيوان المنقوش ، كل هذه الأشياء تعتبر تحفا فنية رائعة على الرغم مما تعرضت إليه من الإهمال والتخريب على مر السنين .

أما قايتباي الذي تعتبر مدة حكمه ، التي امتدت إلى ثمان وعشرين سنة (١٤٦٨ — ١٤٩٦) ، حادثاً تاريخياً عجبياً في تلك الدولة المشهورة بسرعة تعاقب ملوكها ، قد شق طريقه بنفسه من نشأته المتواضعة . فقد اشترى بارسبای بخمسة وعشرين جنياً ،



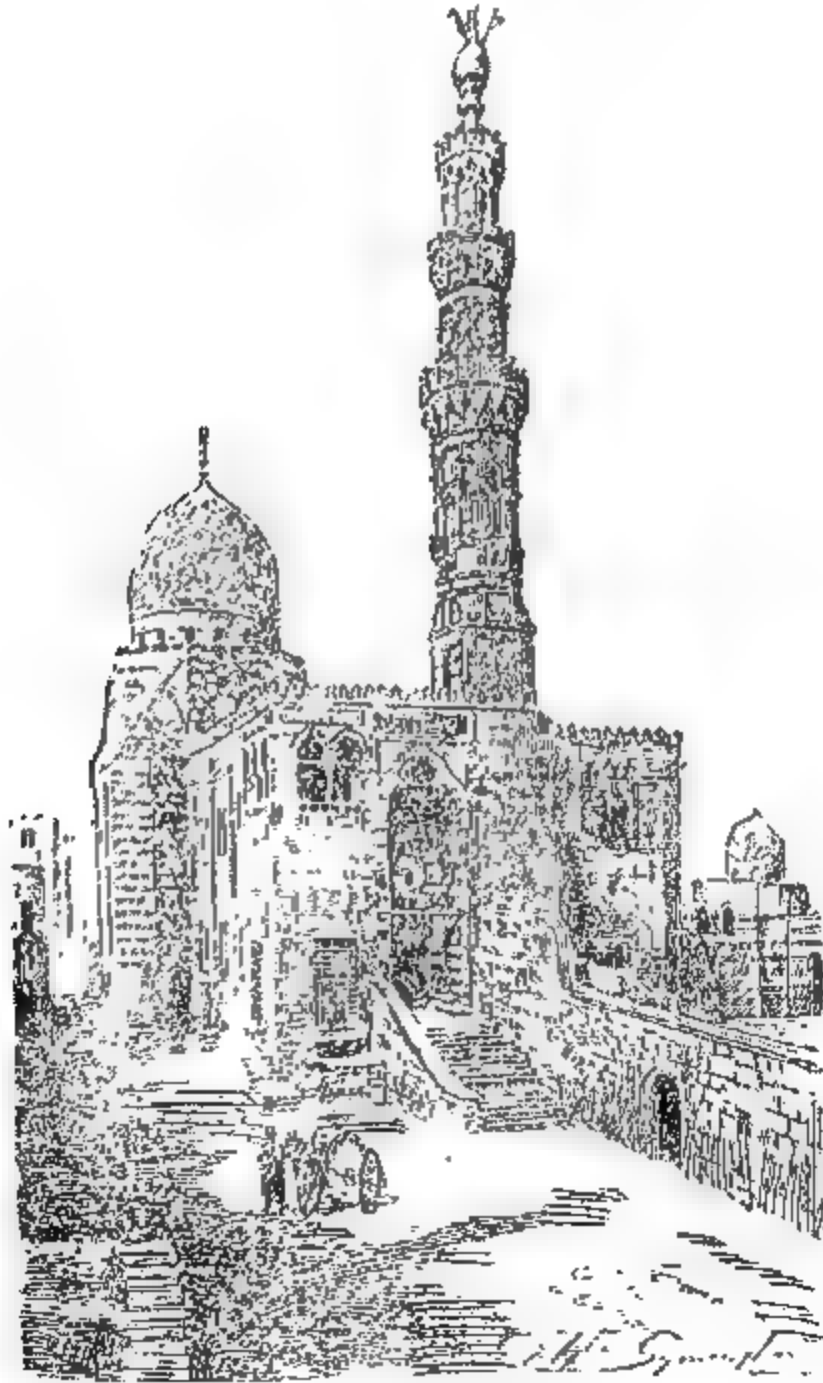
القرافة الشرقية مقابر الخلفاء

وصار يتنقل من سيد إلى سيد ، ويرتقى من درجة إلى درجة ، حتى أصبح القائد الأعلي للجيش في أيام تمر بنا اليوناني الجنس ، وكاد هذا الجيش يكاف السلطان ثلثمائة ألف جنيه في السنة ، وهو اعتماد ضخم في القرن الخامس عشر .

وكان قايتباي جنديا محنكا ، بارعا في رمي الرمح ، وقد اكتسبته حياته خبرة ودراية بالعالم ، وكان يتصف بالشجاعة والعدل وبعد النظر وبالنشاط والحزم ، وقد طغت شخصيته على ممالكه ، فأكسبته ولاءهم وأخرست منافسيه فهابوه . وكانت قوته الجسدية تظهر حينما كان يستعمل السوط في تأديب رئيس مجلس الدولة أو غيره من كبار الموظفين إذا قصرُوا في جمع الأموال الخزانة الدولة ، وكانت هذه الأموال التي تجمع اغتصابا أو تجمي ضريبة ، لمواجهة مصروفات الحروب التي كان يشنها ، ولم يكن يكتفى بالضريبة المفروضة على الأراضي ، وكانت تصل إلى خمس المحصول ، بل أضاف إليها ضريبة العشر (وهي ما يوازي نصف درهم عن كل أردب من الحبوب) . أما أغنياء اليهود والمسيحيين فقد كان يبتز منهم الأموال بلا رحمة أو شفقة ، وكثيرا ما تعرض الأبرياء لصنوف من الوحشية والجلد بالسياط حتى الموت ، حتى إن عليا بن

المرشوش السكيميائي قد عملت عيناه وقطع لسانه لأنه عجز عن تحويل المعادن الخبيثة إلى ذهب نضار .

وقد عرف عن هذا السلطان البخل إلى درجة الشح، ومع ذلك فإن ثبت الأعمال العامة التي قام بها — لا في مصر وحدها بل في سورية وبلاد العرب — تدلنا في جلاء، على أنه أنفق دخل البلاد في أعمال رائدة . فمسجده في القاهرة ، وأحدها خارجها قليلا فيما يسمى بمقابر الخلفاء (١٤٧٢) والآخر بجوار جامع ابن طولون (١٤٧٥) ، والوكالات التي بناها ، تعتبر من أجمل نماذج الزخرفة العربية في فن البناء الإسلامي .



جامع قايتباي في القاهرة الشرقية

ثم إنه لم يأل جهداً في إصلاح آثار أسلافه التي ظهر فيها أثر التهم، كما تشهد الكتابة للنقوش على المساجد والمدارس وعلى القلعة وغيرها من مباني القاهرة العديدة. وكان كثير الأسفار . فقد رحل إلى سورية وإلى نهر الفرات ، وسار في مصر صعيدها وريغها ، كما حج بيت الله الحرام في مكة، وإلى المسجد الأقصى في بيت المقدس، وكان حينما ذهب ترك آثاراً من تقدمه ، بين طرق ممهدة وجسور ومساجد ومدارس وحصون واستحكامات إلى غير ذلك من الأعمال الجيرية والمنافع العامة ، والواقع أنه ليس هناك عهد في عهود المماليك ، عدا حكم الناصر محمد بن قلاوون ، خلال فترة حكم المماليك الطويلة ، يفوق حكم قايتباي ، في ميدان البناء والفنون المختلفة . لقد دفع الشعب ثمن هذه الأعمال غالياً ، ولكن جمالها بقي لتشهد بعظمته الأجيال للتعاقبة (١) .

وينتهي الإبداع في الفن العربي الصميم ونقوشه الهندسية ، في المباني التي شيدها قايتباي ومعاصروه، ففي العهد الأول من ظهور الطراز العربي كانت الزخارف تنقش على طبقة من الجص الرقيق بالآلات اليدوية ، ولم يكن العمال يستعملون القوالب أبداً ، فاكسب النقش بهذه الطريقة حرية في الأداء لمطاوعة المادة التي ينقشون عليها ومن أمثلة ذلك ما رآه من النقوش في مسجد ابن طولون .

وقد استمر استعمال الجص في زخرفة الأقباز وحافات الجدران طوال حكم الدولة الفاطمية كما ترى في الأروقة الأصلية القديمة في الجامع الأزهر وفي المصلى الشرقي من جامع الحاكم ، وأبدع هذه الزخارف ما شاهدته في ضريح قلاوون حيث تتكون حافات الأقواس التي تحمل القبة الأصلية ، وكذلك حافات أقواس النوافذ العليا من سلسلة من النقوش المتداخلة الدقيقة كاللنتيلا على طبقة من الجص حتى لا يمكن معرفة مبدأ النقش ونهايته . وقد استمر استعمال الجص حتى أيام الناصر محمد ، حيث أخذ في استعمال اللام ، أما بعد ذلك فقد استعمل الحجر ، ولو أن الجص استعمل بعد ذلك قليلاً كما تدلنا قبة جامع أقسنقر وقبة مسجد القداوية، أما نقوش مسجد السلطان حسن ،

---

(١) أنظر كتاب المؤلف تاريخ مصر في العصور الوسطى، ص ٣٤٤



ماعداء الأفاريز المكتوبة بالخط الكوفي، فكلها على الحجارة . ولما كانت المادة المنقوش عليها صلبة ، ظهر في النقش شيء من الصلابة وميل إلى استعمال الرسوم الهندسية مكان النقوش العربية القديمة ، وإنا لنعلم أن النبر الذي أقامه قايتباي في سنة ١٤٨٣ م في ضريح برقوق ، أدق الأمثلة للرسوم الهندسية المنقوشة على الحجارة في القاهرة ، فشكلا الجانبين مثلث كما في المنابر المصنوعة من الخشب وفي المساجد الأخرى ، ولكن بدلا من الألواح الخشبية المنقوشة واللطعة التي يتركب منها جانب النبر نرى هنا النبر من أوله إلى آخره مصنوعا بمهارة من قطع من الحجارة المتلاصقة ، وقد غطت سطحها الرسوم الهندسية كشبكة من الخطوط المبوكة على هيئة نجمة بارزة حولها رسوم عربية على شكل أوراق الشجر كما يحل جدران النبر الفريد في نوعه من الداخل وسله وقبته رسوم ونقوش مشابهة .

وكان قايتباي أكثر معماري القاهرة دقيقا ، إذ لم يتسارع في أي إهمال في مبانيه مهما كان بسيطا . وكان خير ما أودعها من نقوش وزخارف عفورا على الحجر الجيري ( الكلسي ) والرخام (١) وإنك إذ ترى مسجده داخل المدينة بالقرب من مسجد ابن طولون تدرك مقدار ضخامة هذه الزخارف حيث يتكون العقد الأصلي من ثلاثة وعشرين حجرا على كل جانب ، يتناوب فيها الحجر الأبيض والحجر الأحمر بانتظام ويزين الحجر منها رسوم عربية وأشكال هندسية بحيث لا يتكرر الرسم في حجرين منها إطلاقا . أما الرسوم العربية فتتكون من زهرة الرسم العادية محاطة بزخارف جميل من أوراق الشجر المناسبة للشكل .

أما الأشكال الهندسية ، ولو أنها تبدو لأول نظرة مكونة من أشكال خماسية أو سداسية غير منتظمة ، فإنها متناسبة التركيب بحكمة الصناعة . وفي أركان العقد العليا يرى الزائر إطارات ( وهي كثيرة في القاهرة ) نقش عليها اسم السلطان

---

(١) لم يكن استخدام الرخام شائعا قبل القرن الثالث عشر الميلادي ، وكان ما استعمل منها في تزيين مداخل الأبنية ، وظهر الرخام في أبهى صورة في تزيين الأرضية أو ترصيع الجدران بالسيفساء ، وهذا الترصيع يكون إما بالصاق قطع متعددة الألوان من الرخام بواسطة الملاط أو إدخالها في لوح من الرخام بواسطة الحفر .

وبعض عبارات الدعاء له . كما يشاهد الزائر إطاراً تفتت عليه آيات القرآن الكريم فصلتها عن بعضها رسوم عربية مما يجعل المنظر كله منسجماً انسجاماً عجيباً وبالاختصار لا يكاد يوجد مكان لم تمتد إليه أيدي النقاشين وقد أودعوا فيه غاية ما وصل إليه قهيم . ولم يكن قايتباي أقل دقة في زخرفة وكالاته وفنادقه . وليس في القاهرة كلها بناء تعدت فيه الرسوم والزخرفة كما تعدت في وكالة قايتباي في الشارع الواقع جنوبي الأزهر . أما داخل هذه الوكالة فقد ظهر فيها أثر الإهمال والمهجر ، وبما لا شك فيه أنها نالت حظها من الزينة والزخرف يوماً ما . أما واجهتها فما زالت في حالة جيدة وهي تستحق دراسة دقيقة ممن يرغبون في فهم النقوش العربية والزخرفة الهندسية في أحسن صورها وأجلاها (١) . وقد يترض على هذا الوصف من يقول إن بعض النقوش قد تكرر معكوساً ، وهذا لا يتفق مع الأمانة الفنية التي كان يتمسك بها رجال الفن القدامى الذين كانوا يحتملون تكرار الزخرف في أي رسم من رسومهم . غير أنه يجب أن نعلم أن الناس في عهد قايتباي قد أدركوا أن لوحدة الشكل جمالا معيناً ، كما وجدوا أن تناسق الرسوم وتكرارها يحدث تأثيراً رائعا ، وأن هذا التغيير ما هو إلا جزء من الاتجاه العام إزاء الهندسة الموحدة والزخارف الرتيبة التي تميز أسلوب الشطر الأخير من عهد المماليك . ومما يمكن من شيء ، فما زال هناك تنوع كثير في النقوش العربية والزخارف الهندسية في المداخل التي تملأ الحوائط الثلاثة عشرين في واجهة الوكالة . كما نرى ذلك في قبة للدخل المعمور في الوسط وفي الأعمدة الجانبية المتصلة وفي أعمدة قبة السيل . وليس ثمة ريب في أن هذه الوكالة أو الفندق كانت في حالتها القديمة من أروع الأبنية وأبهائها ، بل إنها الآن تعد مثلاً أعلى يرجع إليه في الزخارف العربية .

والواقع أن عصر قايتباي في البناء كان ترديداً لعصر الناصر محمد الزاهر في العمارة . وكانت مساجد المماليك الشراكسة هي للبانى التي تستهوى أفئدة المهندسين كما تستهوى

---

(١) عند ما كنت في القاهرة سنة ١٨٨٣ استخرجت على ورقة ( عليها طبعة من الجص الباريسى المزوج بالفراء ) جميع النقوش الموجودة في هذه الوكالة . ويمكن معاينة بعض النقوش التي صنعت من هذه القوالب في متحف جنوب كنفستيجون .



أضرحة

أفئدة الزائرين من العامة لما فيها من الإعجاز في الدوق والنظام في تناسق تكوينها ، ودقة صنع منارتها ، وجمال نحت قبابها ، وإحكام صناعة سقوف مداخلها للدلالة ، وأفاريزها ، واستدارة زواياها ، ونقش رخامها وزينة قبلاتها . وإلى جانب مسجدى قايتباى الفاخرين ، نجد مساجد الأمراء أربك اليوسفى (١٤٩٥) وخيربك (١٥٠٢) وأمير آخور قانى بك (١٥٠٣) كلها حافلة بالنقوش الدقيقة البديعة . إلا أن درة الفن للمعماري الشركسى يوجد في مدرسة القاضى أبى بكر بن مظهر ( ١٤٨٥ ) التى قامت لجنة إحياء الآثار العربية بتجديدها بعناية فائقة ، ولم يترك مهندسها العلامة هرتز بك جهداً إلا وبذله في تتبع أصل الرسوم والبحث عن ألوانها الطبيعية الأصلية ، ثم حاكاه حتى برزت كما كانت في أول العهد بها . وهناك تجديد دقيق آخر في مسجد الأمير كجاس الإسحاقى (١٤٨٣) . وفي كلا العمليتين يظهر التحسين في أعمال الإصلاح والتجديد بعد التجارب الأولى في مدرسة البرقوقية .

وبما يجب ملاحظته أن أغلب مدارس القرن الخامس عشر قد عدلت في شكل مبانيها المتقاطعة على شكل الصليب ، وعلى الرغم من أنها لا زالت معاهد للعلم بدأت

تجذب الناس لصلاحة الجملة ، واكتفى بها عن بناء مساجد جديدة ، فلم يشيد بعد ذلك إلا القليل منها مثل جامع المؤيد وجامع بارسباي وجامع أزيك . كما أن الفناء الأوسط والرواق الشرقي قد زاد اتساعه على حين قل اتساع الأروقة الأخرى حتى صارت لا قيمة لها . وربما يعزى ذلك إلى أن غالبية السكان كانت إما شافعية أو حنفية ، على حين لم يكن للذهبيين الآخرين أنصار عديدين ، فلم يعد هناك داع لوجود قاعات الدرس في الجناحين المخصصين لها ، وهكذا تقارب شكل الجامع وشكل المدرسة في البناء الشرقي حتى صار الرواق الشرقي فيها جميعاً متسعاً والأروقة الجانبية صغيرة . ويتجلى ذلك بوضوح في مدرسة بكجاس (١) .

وقد احتفظ للمالك الشراكسة بنشاطهم وجهم للفن حتى هددم الغزو العثماني ، ولم يبق بعد قايتباي من سلاطين الشراكسة من يستحق الذكر ، إلا السلطان القوري الذي اعتلى العرش في سنة ١٥٠١م وهو طاعن في السن بعد أن اعتلاه أربعة من السلاطين الضعفاء في أربع سنوات متوالية . وكان حازماً نشيطاً ، أعاد الأمن والنظام إلى القاهرة بعد الفوضى التي كانت ضاربة أطنابها فيها ، وقد جمع ضريبة عشرة أشهر دفعة واحدة بجمرة قلم ، فحلاً بذلك خزانة الدولة ، وفرض ضريبة على السواقي والمراكب والجمال ، وعلى اليهود والمسيحيين والخدم وعلى كل مورد يمكن استغلاله ، وزاد الرسوم الجمركية ، واغتصب الضياع الواسعة وفرض ضريبة ثقيلة على الموتى ، وبعد أن أنعش دخل الدولة واقترن اسمه بأعمال السلب والاعتصاب ، بدأ ينفق في سخاء على الأعمال العامة العظيمة ، كنميد الطرق وحفر الترع وتحصين السواحل وتقوية قلعة القاهرة وتمهيد طريق الحج إلى مكة ، وما زالت مدرسته (١٥٠٣) وضريحه - الذي لم يدفن فيه - يواجه أحدهما الآخر في الشارع الذي يحمل اسمه ، النورية . وبما يذكر أن الإصلاح الذي أدخل عليه منذ ثلاثين سنة شوم هذين البنائين كثيراً وأساء إلى شهرتهما . ولم يكتب القوري بذلك بل بنى مثبته للجامع الأزهر ومسجداً عند مقياس النيل بجزيرة الروضة وسيل للؤمنين في الرمية وطواحين الماء في مصر القديمة ، كما أصلح قنطرة الماء التي تصل بالقلعة . وكان القوري أتيقاً في بلاطه ، يجزل العطاء للشعراء

---

(١) أنظر كتاب فان برشم : مجموعة الكتابات العربية من ٥٣٣ عن تعديل شكل المدراس .

والموسقيين ، على حين كان يتز للسال من ورثة نبلائه ويسلب اليتامى أموالهم .

ولما كان السلطان العورى يعلم أهمية التجارة مع الهند ، التي بدأ البرتغاليون يهددون بها ، سارع إلى إنشاء أسطول بحرى فى البحر الأحمر وسيره إلى الهند ، حيث اتحد مع حاكم وديوه وهزما معا الأسطول البرتغالى الدخيل تحت إمرة لليدا الصغير فى موقمه قريبة من شاول ١٥٠٨ . وأخيراً قاد جيشه ، بعد أن سبق السيف العزل ، لمحاربة العثمانيين الذين تقدموا إلى سورية ، وعلى الرغم من أنه كان قد بلغ السادسة والسبعين من عمره ، قاد جيشه والتهم مع العثمانيين فى مرج دابق بالقرب من حلب فى اليوم الرابع والعشرين من شهر أغسطس سنة ١٥١٦ ، وكان يحث جنوده على القتال عندما انسحب جناحاه تحت قيادة خير بك والغزالي خيانة وغدرآ ، وترك أسلطانهم يقابل العدو بحرمه فقط . ومات الشيخ الشجاع وهو يحارب ووطأته سنابك الخيل . ولم ينجح للمالك بعد ذلك فقد أنزل بهم العدو هزيمة كبيرة شمال القاهرة عند هليوبوليس . ولقد أراد طومان باى أن يدافع عن القاهرة . ووقف للعدو عند باب النصر ، واسكنه لم يستطع أن يصمد للسلطان سليم العثمانى الذى تعقبه فى الشوارع ، ودارت الحرب حتى دخل الأتراك القلعة عنوة ومثلوا بطومان باى وصلبوه على باب زويلة ، وصارت مصر ولاية عثمانية .

## الباب الثاني

### مدينة ألف ليلة وليلة

إتباع القاهرة - ظهور بولاق - المساجد - مدخل بولاق - ألف ليلة وليلة  
في القاهرة - تجارة الترامنت في مصر - حوايت التجار - خان الخليلي - خان  
مسرور - وكالة قوصون وسوق الأزهار - الشوارع والأحياء - فن النقش  
على الفضة - صناعة المعادن في القاهرة - البندكية - تحت الحشب - عمل المهرية  
- خصائص الفن العربي - رجال الأدب في عهد المماليك .

اتينا في الباب السابق من الكلام على تاريخ القاهرة باعتبارها حاضرة لدولة  
مستقلة ، ووصفنا بعض الباني الجيلة التي كان السلاطين المماليك والنبلاء يزينون بها المدينة .  
إلا أن حياة المدينة لا تقتصر على ما يدور في بلاط الملك ، ونحن إذ تقتصر على التحدث  
عن السلاطين وما يشيدون من مساجد ومدارس ومقابر لا نكون قد كونا فكرة  
صحيحة عن القاهرة في العصر الوسيط . فعلى الرغم من أن هذه المدينة قد وقعت  
فريسة تحت سنايك خيول الفاتحين ، استمرت حياتها الخاصة قوية تتمثل في تجارتها  
النامية وسفادتها الاجتماعية وثقافتها الأدبية . ولم يعد المجتمع المصري مقصورا على رجال  
البلاط بين جدران القصور الفاطمية الشاحنة ، ولكنه امتد في كل الجهات ماعدا  
الجهة الشرقية ، إذ جاوز الأبواب الشمالية ، واختط ضاحية جديدة سماها الحسينية ،  
وعمرها بالمساجد والأضرحة ، وامتد إلى التراب فملا الفضاء الذي كان يلي السور  
الفاطمي القديم إلى النيل ، وقد حدث أن تراجع النهر فهد لتكوين ميناء بولاق  
الجديدة ، ومكن الناس من بناء مجموعة من المساكن فوق الأرض التي انحسر عنها  
النهر ، وقد حدث أن جنحت سفينة تسمى القيل نشأ عن تحطمها وغرقها أن تكون  
شاطئ رملي أطلقوا عليه اسم جزيرة القيل ، فتغير مجرى النهر وترك فضاء صالحا  
للبناء عليه ، أما جهة الجنوب فإن السلحة التي كان يحدها جامع ابن طولون والقلمة  
والسور الفاطمي ، والتي كانت تزينها الخدائق والمساكن الصيفية والبرك الكـ

تملاًها مياه النيل في فيضانه في عهد صلاح الدين ، قد صارت إذ ذاك عامرة بالسكان والمساجد للملوكة الشهيرة بقبايها وما ذنها .

ومن الممكن تتبع اتساع القاهرة وامتداد العمران بها عند قراءة ذلك السجل القيم الذي وضعه للقرنيزي عن بناء للمساجد وما يستلزم ذلك من انتشار السكان . ويدل مسجد يونس (٧١٩) ومسجد ابن الطباخ (ابن طاهي الناصر) في حي اللوق (٧٤٦) على أن النهر ارتد عن المكان والذي كان يجري بالقرب منه . كذلك يدل بناء مسجد الغازي (٧٤١) ومسجد الطواشي (٧٤٥) خارج باب البحر القديم وبناء زاوية أبي السعود (٧٢٤) خارج باب القنطرة على امتداد المدينة من جهة الغرب ، ولو أن الأرض في هذه الجهة لم يكن يغمرها ماء النيل قبل ذلك ، أما الامتداد إلى ناحية الشمال ، وهو الذي حدث نتيجة ارتفاع أرض جزيرة النيل قبيل سنة ١٢٠٠م وظهور بولاق بعد ذلك بمائة عام ، فقد ورد ذكره في تاريخ المساجد الذي وضعه للقرنيزي حيث يقول إن جزيرة الفيل لم يكن يفرقها النيل إلا في أيام الفيضان ، أما في سائر السنة فكان يترك سلسلة من الكتبان الرملية والحشائش الخشنة . وكان الممالك يلعبون عليها ويمارسون الرماية إذ كانوا يجولون لعبة الجولف . ولكن بعد أن انحسر النيل عنها نهائياً استعملها الناصر محمد وحفر فيها قنوات التي عرفها الناس باسم الخليج الناصري ويعرفونها الآن باسم الإسماعيلية ، فصارت مصرفاً للمياه جفف بها الأرض ودعا الناس في القاهرة . ومصر بأن يسارعوا إلى البناء ، فبدأ السكان من سنة ١٣١٣ م يبنون منازلهم عليها ، وتبارى الأمراء والجنود والتجار وعامة الشعب في تعميرها ، وهكذا نشأت بولاق (١) . ويضيف القرنيزي إلى ما تقدم أن المياه كانت تؤخذ من النيل بواسطة السواقي التي بنى مكانها بعد ذلك مسجد الحضيري ، مما يدل على أن النهر لم يتراجع كثيراً منذ ذلك الوقت ، لأنه لا زال يجري حتى الآن بالقرب من هذا المسجد الذي بناه أيمنر في سنة ٧٢٧ هـ على قطعة من الأرض كانت تغمرها المياه قبل ذلك التاريخ بثلاثين سنة ، وكان بين المساجد الأخرى التي بنيت في بولاق مسجد ابن صارم والباسطي (٨١٧) .

أما شرق بولاق ، فقد كان في الأرض التي يطلق عليها الآن اسم العباسية جزء مجاور لجزيرة الفيل يسمى أرض الطبالة ، وقد سمي كذلك لأن الخليفة المستنصر كان قد أقطعها إحدى الفتيات المنفيات التي أشادت مرة بمجد الفاطميين وهي تدعى طبلها . هناك أيضا بدأت تعمير الجهة ، إذ تسابق الناس في بناء المنارل ، كما شيد الكياحق مسجده على القناة الجديدة في سنة ٧٩٠ هـ . وكان الأسىوطى قد شيد قبل ذلك مسجده في سنة ٧٤٠ هـ في جزيرة الفيل ، وكما شيد مسجد ماروجا على ضفاف الخليج في بركة الرطل . هذا وقد عيد كثير من المساجد في الأحياء الجديدة في شرق أرض الطبالة وخارج أسوار المدينة الفاطمية القديمة منها جامع الملك ( ٧٣٢ ) وجامع ابن الفلك في حي الحسينية ، وجامع عكوشى وابن المقرئ على الخليج ، وخلوة يونس الجينا ( ٧٥٠ ) وابن غراب ( ٧٩٨ ) وزاوية الجبرى ( ٦٨٧ ) ونصر ( ٧١٩ ) والقنديرية ( ٧٢٢ ) والجملق ( ٣٣٧ ) وكلها خارج باب النصر ، مما يدل على مقدار امتداد المدينة في الناحية الشمالية .

والواقع أن القاهرة قد بلغت في اتساعها مساحة لم تتمدها في الخمسين سنة الماضية ، أى قبل أن تمتد الضواحي الأوروبية الحديثة على نهر النيل ، كما أنها لم تتغير في مظهرها الخارجى ولا في طريقة الحياة التي تهيأها الطبقتان الوسطى والدنيا عما كانت عليه في القرن الخامس عشر وما كانت عليه حين زارها وكتب عنها وصورها من الأوروبيين رجال من أمثال ولكنسون وبرخارت ولين وجون فيليب وهائى ، وذلك في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وقد وضعنا في هذا الكتاب بعض ماصوره هائى واو ، ب. كارتر في سنة ١٨٣٠ ، وهي تمثل حقيقة مدينة تحمل طابع العصر الوسيط . ولم كانت القاهرة تبدو غريبة للزائر الذي يفسد عليها من الإسكندرية عن طريق قناة الممودية ، ثم عن طريق النيل حتى ترسوبه السفينة في بولاق . وكان على الزائر أن يقطع نحوًا من ميل وهو راكب من بولاق إلى باب الحديد حيث يدخل المدينة من الجهة الشمالية الغربية ، وكان لا يرى في طريقه أي مسكن في حين أنه يحترق اليوم حيا مزدحما بالسكان والمنارل . قال لين<sup>(١)</sup> إنه كان هناك طريقان رئيسيان متماثلان

(١) القاهرة منذ خمسين عامًا من ٣٤ و ٣٥



تقرىبا في الطول يصلان بولاق بالقاهرة ، أما الطريق الشمالى - الذى يتعرج فى بعض الأحيان - فإنه يعتبر الطريق الرئيسى للتجارة ( إذ لم تكن هناك سكك حديدية فى ذلك الوقت ) ويصل القاهرة من جهة باب الحديد . وأما الطريق الجنوبى فكان يعبر فنائين ثم يدخل القاهرة من الجانب الغربى للأزبكية .

ونحن إذ نسلك الطريق الجنوبى عر بمسجد أبى العلاء على الجانب الأيمن ، وقد عمل الفرنسيون فى أثناء احتلالهم مصر على تغطية هذا الطريق بضعة أقدام فوق مستوى السهل حتى يكون بعيدا عن تأثير الفيضان ، وكان فى نيتهم مده حتى يخترق المدينة ويصل إلى القلعة ، وهذا الطريق مستقيم ومتسع ، إلا أنه غير عميد ، وينقصه صف من الأشجار على جانبيه القبلى يستظل بها الناس ، أما الأراضى المجاورة فإنها تتحول فى فترة الفيضان إلى مستنقعات وحقول مفرقة ، وإذا ارتدت عنها المياه بذر فيها القمح والفول والبرسيم وغير ذلك ، وهنا وهناك بعض النخيل والجيز وشجر السنط ، وكان يحده السهل فيما مضى من جهة الشرق تلال من الردم ( هى بلا شك بقايا للقس ) ، وكانت توجب المدينة عن النظر ، ولم يكن بد من عبور قناتين فوق كل منهما جسر مبنى من الحجر ، وعلى طول الجانب الغربى من القناة الثانية ، وإلى يمين الطريق مرتفع من الأرض مكون من الردم والأقماص ، ومن فوق هذا المرتفع وعلى بعد نحو من ربع ميل من باب الأزبكية .

ذلك هو طريق الوصول إلى القاهرة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وإذا كان الوصف مملا فإنه يرينا كيف كان المكان موحشا خشنا قبل أن يدخل للمهندس الأوروبى . فحينما كان السائح يسير مكشودا فى طريق غير معبد بين حقول الفول فى سنة ١٨٣٥ ، كان يخترق نفس الطريق التى سلكها فرسان الباليك ، وكان يقترب من مدينة لم يتغير فيها شيء عن المدينة التى جاء وصفها فى كتاب ألف ليلة وليلة . فلم يجد هناك أدنى شك من الأدلة الباطنية ، أن هذه القصص التى طبقت شهرتها الآفاق قد أخذت صيغتها النهائية فى القاهرة ، وقد يمكن تتبع أصولها إلى بلاد فارس أو إلى بلاد الهند ، ولكنها مهما طافت فى أفكارها أو مقتبساتها ، غفاعة لللطاف فى وضعها التى ظهرت به أمام الناس كان فى مصر ، وإذا قيل إن كثيرا من مناظرها كان يستند

إلى بغداد حيث استطلعت شخصية هارون الرشيد ليكون بطلها ، فإنه لا يسع أى عالم فى الجغرافيا إلا أن يرى أن كتاب هذه القصص لم يكونوا يعرفون الكثير عن حضرة الرشيد ، وأن المدن التي كانوا يصفونها لم تكن سوى القاهرة مهما أسموها فى قصصهم ، وهناك بعض الأوصاف العارضة تجعلنا نعتقد أنه من الجائز جداً أن تكون هذه القصص قد تبلورت وأخذت شكلها النهائى قبل القرن الرابع عشر ، ولما كان آخر أبطالها هو صلاح الدين ، فإن كثيراً من الأدلة يكاد يجمع على أن هذه القصص قد جمعت وكتبت بشكائها الأخير فى فترة إحياء العلوم التي ازدهرت فى العصر الذهبي للحضارة المملوكية فى مصر ، فالمجتمع الذى تصفه ألف ليلة و ليلة هو المجتمع الذى يعرف فى زمن المماليك ، مجتمع إسلامى سنى على ما تعهد القاهرة .

ولعله من الغريب أن يكون أمر ذلك الكتاب الشهير محل شك . إلا أن تفسير ذلك من السهولة بمكان ، فقد كان المثقفون ورجال العلم فى الشرق فى كل الأزمنة ينظرون إلى أمثال هذه القصص نظرة احتقار واستعلاء ، لأنها كانت خلوا من القيمة الأدبية التي كانت فى المسكان الأسمى عند العلماء والمفكرين . ومن ثم لم يكلف أحد منهم نفسه أن يذكر كتاب ألف ليلة و ليلة بين المراجع إلا فى حالتين أو فى ثلاث حالات فاضية ، لا تلقى ضوءاً على تاريخها . فقد كتبت ألف ليلة للشعب حيث يجتمع الجمهور فى المقاهى ليستمع إلى ما يسرده القصاصون المحترفون للطبقة الوسطى وهى كثيرة العدد متواضعة الثقافة ، تزدهم بها القاهرة . وهذا هو ما يجعل لهذه القصص قيمتها فى نظر الباحثين فى تاريخ الشرق فى العصور الوسطى . فأعمال الملوك والأمراء وحياتهم يعرفها الباحث فى كتابات العلماء والمؤرخين أمثال المقرئى وغيره ، وأما حياة الشعب ، وهى تختلف اختلافاً بيناً عن حياة الملوك ، وبينها هوة قلما يسمي الكاتب المصرى إلى اجتيازها ، فهى مسطورة فى كتاب ألف ليلة ، إذ تقرأ فيها عن التجار وأصحاب الحوانيت . وقد تقرأ فيها عن الخلفاء والسلاطين والوزراء ، كما تقرأ عن الجن والنفاريت والمردة . غير أن أبطال القصص دائماً من طبقة التجار وأصحاب الحوانيت ، ومنهم من يسير البحار ويزور الأمصار . وقد يكون السندباد قد سمع فى بادئ الأمر شيئاً عن مغامراته من أفواه الجماهير التي كانت تحتشد على أرصفة ميناء مصر من كل حدب وصوب ، فقد سمع ابن سعيد وهو واقف

في الميناء يشاهد بنفسه شحن السفن في سنة ١٢٤٦ م كثيراً مما يقول البحارة الذين وصلت سفنهم بعد أن طافت كثيراً من الأقطار . وقد قال إن تجارة البحر الأبيض وتجارة البحر الأحمر التي تصل إلى مصر لا تقع تحت حصر وهي تفرغ في مصر لأرض القاهرة، ومنها توزع إلى كل جهات القطر المصري . وما كان يحدث في ميناء مصر والقس قبلاً صار يحدث بعد ذلك في ميناء بولاق التي خلفتها ، ومنها خرج على المصري إلى دمياط بعد أن بدد ثروته في اللهو والنعم مع زوجته في جزيرة الروضة لبحث عن ثروة جديدة عن طريق التجارة . وإن ترديد الإشارة إلى الرحلات التجارية والمكاسب الطائلة ، ليدلنا على ما يحدث لشعب لم تقتصر ثروته على أرباحه من التربة الخصبة ، وإنما تحولت إلى التجارة الأجنبية النافقة .

وما يدل على مقدار تجارة الترانسيت في مصر في أيام المماليك ، يكفي أن يعلم الإنسان أن السفينة الواحدة التي كانت تفرغ حمولتها في الإسكندرية كانت تدفع رسوم جمركية مقدارها واحد وعشرون ألف جنية . وقد رأت الجمهوريات الإيطالية ضرورة وجود قناصل يمثلونها في مصر . وهل هناك أدل على ثراء التجار الأوربيين من قدرتهم على أن يضمنوا فيما بينهم بزعامة قنصل البندقية اقتداء ملك قبرص بمبلغ مائة ألف من الجنيهات ؟ ولقد كان تجار البندقية يتمتعون في مصر بمزايا خاصة بهم من أيام الملك العادل سنة ١٢٠٨ حيث جمع لهم أن يبنوا فندقاً ( سوقاً ) خاصاً بهم بالإسكندرية . وقد تجدد هذا الامتياز في سنة ١٢٣٨ م ، كما كان لتجار ييزا قنصل خاص بهم . أما على البحر الأحمر فقد كانت هناك ميناء السويس وميناء الطور وميناء القصير وعيناب ودهلك وسواكن : وهناك كان المماليك يفرضون رسوماً جمركية تبلغ عشر قيمة البضاعة ، ولقد نمت تجارة الهند وازدهرت في أيام سلاطين المماليك البرجية . وكان هناك تنافس شديد وتطاحن بين الموانئ المصرية والموانئ العربية في جمع الرسوم الجمركية التي كثيراً ما تعدت العشر المفروض . وما يروى أنه في سنة ١٤٢٦ دفعت أربعون سفينة عملة بالبضائع من الهند وفارس مبلغ ستة وثلاثين ألف جنية رسوماً في ميناء جدة التي كانت تابعة لمصر ، كما كانت ميناء يفتح أيضاً تابعة لها . ولم تكن الرسوم مقصورة على تجارة الواردات بل كانت الحكومة تحتكر

بعض السلع كالسكر والفلل والحشب والمصنوعات المعدنية ، فلم تكن تباع إلا في مخازن الحكومة ومستودعاتها بالأسعار التي تفرضها الحكومة ، كما كانت خاضعة للرسوم الجمركية العادية كثيرها من السلع . وكانت رسالة الفلفل التي تباع بخمسين ديناراً في القاهرة تباع للتاجر الأوربي في الإسكندرية بمائة وثلاثين ديناراً حسب تسعيرة الحكومة . وبعد أن أخفق أهل البندقية في مساعدتهم التي بذلوها عن طريق القناصل أرسلوا أسطولاً إلى الإسكندرية لسحب جميع تجارهم من مصر ، فكان ذلك داعياً لإرغام بارسباي على التساهل معهم في الشروط التي كان قد غالى فيها كثيراً .

ومما يدلنا على عظيم اهتمام السلاطين التراكمة بتجارة الترانسيت بين الهند وأوروبا ، ذلك الجهود الضخم الذي بذله القوري لسحق قوة البرتغاليين في بحر العرب حين أدرك التنافس الخطير الذي أوجده كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، ومما من شك في أن تجارة الترانسيت كانت من أهم مصادر الثروة في البلاد كما أوضح ذلك مستر كامرون قنصل إنجلترا في بور سعيد ، حيث قال إن سلاطين الممالك ، بوصفهم سادة مصر وسورية ، يتحكمون في الموانئ وفي طرق القوافل التي تربط أوروبا بتجارة الهند ، ويفرضون رسوماً جمركية على كل بضاعة شرقية تصل من الخليج الفارسي والبحر الأحمر إلى الموانئ الواقعة بين الاسكندرية والإسكندرونة لتتقل من هناك بحراً مرة أخرى إلى البندقية .

وكان الممالك يتمتعون باحتكار جميع تجارة الهند مع موانئ شرق البحر الأبيض المتوسط ، وكانت البندقية بامتيازاتها التجارية معهم تعد الوكيل الوحيد لهم في القارة الأوربية ، إلى أن كشف طريق رأس الرجاء الصالح في سنة ١٤٩٨ م ونشأ عن ذلك تطور التجارة ، ولتحاول تقدير هذا الاحتكار بأن نضرب لذلك مثلاً ، تاجراً عربياً مثل السندباد البحري ، اشترى تجارة من الحرير الخام وجوز الطيب والفلل والنيلة والقرنفل والعصى ، بما تبلغ قيمته عشرة آلاف جنيه من بلاد فارس أو كلكتا ، ورسا بها في البصرة أو السويس — ولو أن الطريق البحري إلى الخليج الفارسي أقصر مسافة من الطريق في البحر الأحمر ، إلا أن طريق القوافل من البصرة إلى حلب أشد خطورة من الرحلة القصيرة عبر مصر — فإن الرسوم الجمركية تبلغ أربعة آلاف جنيه ( ولو أن هذا التقدير مغالى فيه كثيراً ) ، ونفسير

قيمة البضاعة حينذاك نحو عشرين ألف جنيه . فإذا وصل إلى إحدى موانئ البحر الأبيض أو إلى ميناء بولاق ، باعها تاجر عربي آخر إلى تاجر من البندقية بثلاثين ألف جنيه ، وعلى هذا الأخير أن يدفع خمسة آلاف أخرى قبل أن يستخلص تجارتها من الجمارك . وهكذا نرى أن ربع الخمسة والثلاثين ألف جنيه التي يدفعها التاجر البندقي تنسرب إلى السلطان المملوكي ورجال حكومته سواء أكانت رسوما جمركية أم مكوسا أم هدايا لكبار الحكام — كل ذلك لجرد البياح بنقل التجارة عبر البلاد (١) .

ولم تكن الحكومة وحدها هي التي تستفيد من هذه التجارة ، فقد كان تجار القاهرة الذين يستوردون التجارة من الهند وجزائر البهار ، أو على الأقل يشترونها من تجار المنود في موانئ البحر الأحمر يصيبهم كثير من أرباحها . ومن تصفح كتاب ألف ليلة وليلة يجد فيها كثيرا من هذه اللغامرات الرائجة . ألم يقل ثاني الشيخين وهو يقود الكلبين الأسودين في وصف رحلته : لقد أعدنا بعد ذلك تجارتنا واستأجرنا سفينة حملناها بضاعتنا ، ثم سرنا في البحار رحلة استغرقت شهرا كاملا وصلنا في نهايته إلى مدينة بنا فيها بضاعتنا وربحنا عشرة دنانير في كل ما كان قيمته دينار واحد . وايس من شك في أن مثل هذه الصفقات كانت كثيرة الحدوث ، ولم تكن كلها تخرج من الحاضرة بل إن الكثير منها كان يصل إلى الأسواق حيث كان يباع بالتجزئة لسكان القاهرة وللترفين من أتباع السلطان ورجال الحاشية المملوكية . وإذا قارنا الأسواق الحالية بفنادق العصور الوسطى ، نكون قد قصرنا في فهم حقيقة تلك الفنادق . فهذه الفنادق التي تسمى بالخانات أو الوكالات — وبينها كلها فرق بسيط — كانت مجموعة من المستودعات والحواليت تحيط بفناء في الناب وتكون أحيانا على هيئة رواق مسقوف حيث يختزن فيها التجار بضائعهم وفيها يجدون سكنا وحظائر تأوى إليها دوابهم لتستريح من عناء الأسفار .

ولدينا مثل عظيم من أمثلة فنادق العصر الوسيط : ذلك هو خان الخليلي ، وهو السوق التركي الذي بناه جركس الخليلي أمير آخور السلطان برقوق في سنة ١٤٠٠ م

(١) انظر كتاب مصر في القرن التاسع عشر تأليف د. ١٠ كليرون ص ١٤١ و ١٤٢

فوق البقعة التي كان عليها— في وقت من الأوقات— قبور الخلفاء الفاطميين ، بعد أن جمعت عظام الموتى وجمعت على ظهور الخيل وأقيمت فوق أكوام القاذورات في خارج الباب الشرقى . ومن الأسواق المعروفة كذلك ، الحزاوى أو سوق القماش . كما لا تزال بجوار الأزهر وفي السروجية اثنتان من وكالات قايتباى تتميزان بما يزين واجهتهما من النقوش المرية والرسوم الهندسية المعقدة والقوالب الخشبية المخفورة عليها اسم السلطان . ولما وصف ابن مدينة القاهرة في سنة ١٨٣٥ كان لا يزال فيها مائتان وألف وكالة وحتى في الوقت الحاضر لا نكاد نمر بشارع إلا ونرى فناء من هذه الفناات تحيط به حجرات متعددة ويدخل إليها من بوابة مرتفعة . تلك هي فنادق الشرق .

وكان الخان في القاهرة في القرن الخامس عشر هو سوق التجار الذى يزدحم بهم ، وكان أمراء الممالك يتنافسون في بناء الوكالات لحسن تقديرهم لأرباح الأملاك العقارية ، فكانت كل غرفة من غرف هذه الوكالات تدر الأموال على أصحابها من إيجارها للتجار . ومن أشهر هذه الوكالات خان مسرور الذى نزل فيه ذلك الشاب الذى جاء ذكره في قصة الأجدب وأودع فيه بضاعته . وبعد أن استراح ليلة من متاعب السفر قام إلى قصرية جركس ، وهى سوق شهيرة أخرى من أسواق هذه العصور التى بنيت في أيام الفاطميين ، وأخذ معه بعض متاعه ليعرضه على تجار هذه السوق ، وقد نصحه شيخ السامرة بأن يتعامل كما يتعامل إخوانه التجار ، بأن يبيع ما عنده وأن يتسلم أمواله على نجوم في يومى الخميس والأتين ، وأن يدعو كاتباً للقيود وشاهداً وصيرفاً لينظموا له أعماله . وقد قال له شيخ السامرة إنه إن فعل ذلك ضاعف أمواله ونفى له من الوقت ما يسمح له بالاستمتاع بمباهج مصر وثيلها ، وقد استمع الشاب لنصيحة شيخ السامرة وأعطى البضاعة لمن يبيعها عنه ، وأخذ يعيش هائلاً في خان مسرور يتناول طعام الإفطار المكون من الخبز والدجاج ولحم الضأن والحلوى ويتعطر كما يفعل المتأثقون . وظل على ذلك حتى تقابل مع فتاته الموعودة عند حانوت بدر الدين البستانى . ثم حدث له ما كان يخفيه القدر إذ جعل منه عبدة لمن يعتبر . ولأن قطعت يد الشاب وعلقها الجلاد على باب زويلة . فذلك ما كان يحدث كثيراً في أيام الممالك . وخان مسرور هذا ( والحقيقة أنهما خانان أحدهما أكبر من الآخر ) قد بنى على



### سوق الرقيق

الأرض التي شيد عليها من قبل القصر الفاطمي الكبير حيث كان يباع الرقيق ، وكان مسرور أحد عبيد صلاح الدين للمقربين إليه يقوم بهذا البيع ، وقد ترك هذه الدار وقفا خيرية للفقراء . وكان البناء الكبير من هذين الخانين يحوى نحواً من مائة حجرة وكان يفضل به تجار سورية وهو أشهر الخانات على الإطلاق في رأى المقرئى . ولكن دولته قد دالت وهجره رواده وتهدمت حجراته على أثر ما أصاب تجار سورية من الإفلاس بعد أن غزا تيمورلنك بلادهم .

ومن الخانات الشهيرة كذلك خان بلال ، وكان عبداً للملك الصالح حفيد العادل أخى صلاح الدين ، وكان بلال هنا ذا حظوة عند سيده ، حتى إن السلطان قلاوون قال فيما بعد : رحم الله مولانا الصالح فقد اعتدت في أيامه أن أحمل نعل ذلك العبد كلما دخل بلال عند مولانا .

وكان هذا المبد ذاً ثروة طائلة، وكان كثير الصدقات وكثيراً ما امتدحه الشعراء  
الدين أجزل لهم العطاء ، ومن جليل أعماله بناؤه الخان المشهور باسمه ، حيث كان  
التجار يودعون قوائسهم، وقد ذكر القرىزى أنه اعتاد أن يدخل ذلك الخان ، وكان  
يرى الصناديق منها الكبيرة والصغيرة ، وكانت لكثرتها عملاً للسكان حتى إنه لم يكن  
هناك مكان لتقديم إلا مسافة صغيرة في الوسط ، وكانت هذه الصناديق تحوى من  
الذهب والفضة ما يسهل العقل . كذلك كان هناك خان السبيل في خارج باب الفتوح  
وقد شيده قرقوش وزير صلاح الدين ، ووقفه لأبناء السبيل ينزل فيه منهم من يشاء  
بدون أجر، كما كان هناك وكالة قوصون التي بناها الأمير قوصون زوج ابنة السلطان  
الناصر على مقربة من جامع الحاكم، وكان بجار سورية يخزنون فيها الزيت والسمسم  
والصابون والفواكه المجففة والفسق والوز وأنواع الأشربة وما شاكلها ، وكانت  
أوامر الأمير تقضى بأن لا تؤجر الغرفة من هذه المخازن بأكثر من خمسة دراهم ،  
وبأن لا يلجأ الموكل بالحصول في طلب الأجر، وأن لا يرد كائن من كان عن النزول  
في الوكالة، وكان هذا الخان لقلة ما يطلب فيه من أجر، كثير الزحام في أيام القرىزى،  
يعج بالمسافرين والجمالين ، ويضيق بالأحمال ، وكان به ثلاثمائة وستون حجرة للنوم  
فوق المخازن، وقد استؤجرت كلها بحيث انسمت لنحو أربعة آلاف شخص، ثم صار  
هذا الخان خراباً على أثر غزو التتار سورية . وكان قبالة باب زويلة سوق الفاكهة  
حيث كانت تباع منتجات البساتين المجاورة للقاهرة . وكان هذا السوق مسبقوفاً ،  
شأنه في ذلك شأن أغلب الأسواق في سالف الزمن ، لينع أشعة الشمس  
من أن تنفذ إلى داخله ، وكانت الفاكهة ذات الرائحة التي تشبه رائحة أشجار  
الجنة ، ترمب بصورة تم عن ذوق سليم ، كما كانت تزين بالورود والحشائش  
الجميلة (١) .

وكانت هناك أبنية كثيرة بمائة ، يروى لنا القرىزى تاريخها في كتاباته المطولة حتى  
يجعلنا نكاد نكون في الناكرة صورة كاملة تمثل ما كانت عليه الحضارة في القرن الخامس  
عشر ، وعلى كل حال فإن القاهرة كانت مكاناً جميلاً أبقا في تلك الأيام ، وكانت

---

(١) القرىزى ج ٢ ص ٩١ وما يليها .



قصور الممالك التي لم تبق الأيام منها إلا على بقايا من جدران شامخة عارية من الزينة في مثل قصر بشتاك وباب دار يشيك الضخمة المجاورة لمسجد السلطان حسن . وفي مثل قصور قايتباي ومسجد الأمير ماماي (المعروف بيت القاضي) الذي عفى بترميمها وحفظها . وكانت كل هذه القصور في أوج عظمتها ، وكانت الأحياء المختلفة لا تزال يفصل بعضها عن البعض الآخر أبواب ضخمة تقفل ليلا ، وكانت الأسواق مسقوفة بالحديد أو بالحشب تظللها من وهج الشمس ، كما كانت النوافذ مغطاة بحشيرة من الحشب الدقيق الصنع .

وقد وصف لنا المقرئ سبعا وثلاثين حارة أو حيا وثلاثين خطا وخمسة وستين شارعاً أو دربا ، وواحدا وعشرين زقاقا أو بخوخة وتسعا وأربعين رحبة ، وخمسين سوقا ، وثلاثا وعشرين قيسرية ، وأحد عشر فندقا أو خانانا أو وكالة ، وخمسة وخمسين قصراً ودارا ، وأربعة وأربعين حماما ، وثمانية وعشرين بستانا ، وأحد عشر ميدانا لسباق الخيل ، وكثيرا من المناظر .

ولا يزال كثير من الشوارع يحمل مكانه القديم كما لا زال بعضها يطلق عليه الإسم القديم ، ومن أمثال ذلك : الصليبة ، وبين القصرين ، وبين السورين ، وحارة برجوان ، وسوق السلاح ، وخان الخليلي ، والهرب الأصفر ، والحبانية ، والخرنقش . وما هو جدير بالملاحظة أن التغيير الذي حدث للأحياء القديمة في القاهرة أقل مما طرأ على أحياء لندن القديمة ولكن ذلك مما يوجب الأسى ، فلقد تغيرت لندن لأنها نمت وتقدمت ، أما القاهرة فقد ظلت على حالها نسييا لأنها تنهدمت وتنحط شيئا فشيئا . ولا شك في أن ضياع تجارة الهند واعتماد البلاد على تركيا وسوء حكم الباشوات الأتراك وبكوات الممالك ، كل هذه كانت من العوامل التي قللت من رخاء المدينة التي ازدهرت في أيام سلاطين الأتراك والسرا كسه .

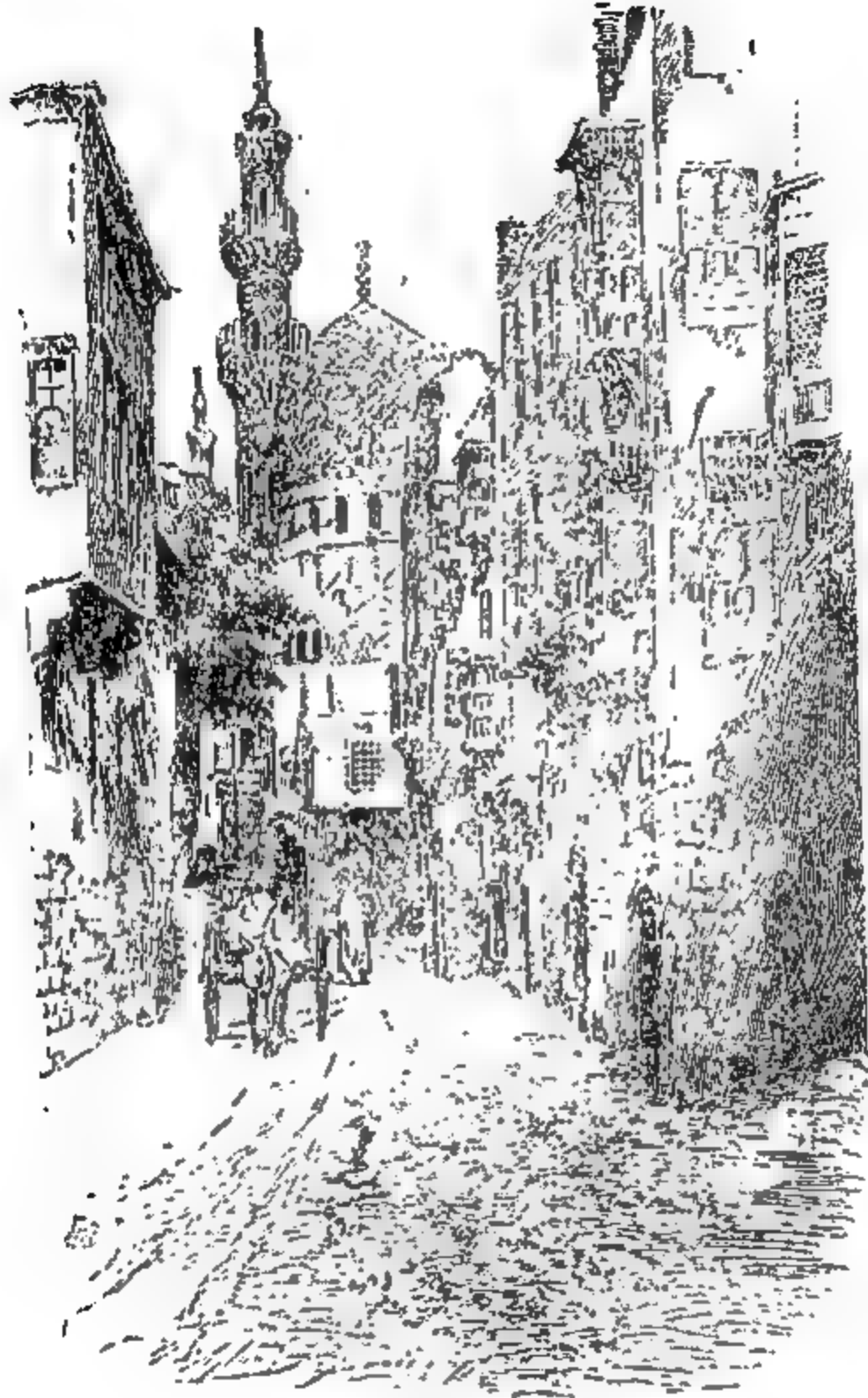
وقد اقترن الاضمحلال التجاري باضمحلال آخر في الفن . وعلى الرغم من وجود بعض المصنوعات النحاسية والمنسوجات الحريرية وصياغة المجوهرات في القاهرة من بقايا المهارة الفنية القديمة ، إلا أنها لا تعتبر شيئا يذكر بالنسبة لما كانت عليه الصناعة قبل ذلك . وليس على المرء إلا أن يزور دار الآثار العربية ليقف على الروائع التي أخرجها فنانون القاهرة في عهد المماليك ، ولما كان تقدم الفن يتعشى مع تشييد المساجد

التي بلغت ذروة الكمال من حيث زخرفها في ذلك العهد ، فإن القطع الفنية التي تحويها دار الآثار العربية كانت في زمن ما نقوشا أو أثمانا من تلك للساجد : فن خوان من النحاس مطعم بالفضة وموشى بالرسوم الدقيقة ، إلى غلاف لمصحف القرآن الكريم ، إلى سراج أو ثريا ، إلى كأس ، إلى مبخرة ، إلى مشكاة ، إلى قنديل من الزجاج المنقوش بالمينا تزينه كتابة باللون الأزرق المتداخل بالقرمزي والذهب ، وكلها تدل على أن مصادرها هي مساجد القرن الرابع عشر ، كما أن ألواح الأفاريز للطائفة بالعاج والأبنوس ، وأنواع الخشب الممتاز التي كانت تزين أبواب المساجد ومنابرها ، والنحاس المحرم ، كلها تدل على أنها صنعت في ذلك العهد نفسه ، ويعبى منحف كنسجنتون الجنوبي والمتحف البريطاني مجموعات رائعة من الصناعة المعدنية العربية التي لا مثيل لها .

ومما يؤسف له أن القاهرة قد خلت من سوق لعاشي المعادن كما كان في عهد المقرزي ، فإن نقش الفضة والذهب والكتابة على النحاس كانت من أبدع دقائق الفن العربي ، ولم يكن ذلك في أصله مصرياً ، وإنما جاء عن طريق الفنانين الساسانيين من بلاد الموصل وبلاد بين النهرين ، وكانت أقدم النماذج التي تعرفها من الموصل على نهر دجلة وهي مهد صناع المعادن الماهرة الذين عاشوا على مقربة من مناجم جبال طوروس ، وليس من شك في أن هؤلاء الصناع قد اجتذبهم القاهرة في أيام ازدهارها في عهد سلاطين المماليك ، وأنها ربما اجتذبهم قبل ذلك ، وعلى كل فإن خير ما صنعت أيديهم كان مرده إلى السوق المصرية حتى إنه تهمت عليه أسماء بعض بحكام مصر المشهورين وأمراءهم . فهناك صندوق المجوهرات الذي نقش عليه اسم السافل الثاني وألقابه ( وهو حفيد أخى صلاح الدين ) الذي جلس على عرش مصر من سنة ١٢٣٨ م إلى سنة ١٢٤٠ م ، ثم خلفه الصالح أيوب زوج شجرة الدر وهذا الصندوق من صناعة الموصل منذ أقدم العهود ، وجوانبه يزينها ثمانية ألواح من المعدن الرقيق ( على شكل النقش الموجود على النقود الفضية التي كانت متداولة في عهد أسرة صلاح الدين ) ، وتحتوي هذه الألواح الحقيقة الصنع على مناظر للصيد وقاتل مع أسد وفارس يحمل بازا على معصمه ( ويلاحظ أن يد الفارس ينطبع بظلال يلبسه دائماً مربو الصقور ) وما إلى ذلك من المناظر ، أما المسافة بين كل لوح وآخر فكانت مزينة بالرسوم العربية ،

فقد أظهرت شخصيتها وكوت طرازاً خاصها ، يحوى مزايا لا يمكن أن تكون قد اقتبست من فن الموصل .

فأسلوب القاهرة هو الذى نراه على الصوانى والأوانى والكؤوس والباخر وغير ذلك من أوعية الممالك في مصر خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، التى تحتفظ بها في متاحفنا ومجموعتنا الخاصة . وقد نلاحظ بعض أوجه الشبه بينها وبين صناعة الموصل ، إلا أن العناصر الجديدة واضحة فيها وضوحاً تاماً . فصور الفرسان والأمراء الجالسين قد اختفت في معظمها ، وهو ما كان منتظراً عند ما تعود الأمراء الأتراك التمسك بالدين فيما يتعلق بتصوير الحيوانات ، ولو أنهم أبقوا على حيوان الصيد على حافات الصور وأبقوا على طيور الماء وأشجارها في مختلف أماكن لوحاتهم الفنية . وترجع كثرة وجود طير البط في الصور إلى سببين : فهى أولا كثيرة في مستنقعات الموصل ، وثانياً لأن مؤسس دولة الممالك الذين حكموا مصر مائة سنة تقريباً وهو قلاوون ، كان من الأتراك الذين نزحوا من بلاد القفجاق . واسم قلاوون بلغة الفول « البط » ، وفي هذه التسمية من التورية ما يضارع ما كان يسجله أسقف أسلب على جدران مصلاه في كنيسة وستمنستر . وتختلف زخرفة الصناعات المعدنية في أيام البابليك عن زخرفة الموصل اختلافاً بيناً . فالكتابة في الصناعات الملوكية مرتبة في براويز عريضة مطعمة في مساحة كبيرة بالفضة ، ويفصلها عن بعضها ميناء نقش عليه اسم السلطان أو تفصلها دروع يحملها أصحابها ، وتظهر فيها السكاس أو عصا البولوا التى تم عن مركز صاحبها في البلاط ، إن كان ساقياً أو مدرباً للبولو ، أو تفصلها أشكال هندسية كالعين ، و نقش تماثيل الكتابة الهيروغليفية المنقوشة على الآثار المصرية القديمة التى كان يجهلها النقاشون كل الجهل . وكثيراً ما صورت حول الميناء أزهار وأوراق شجر تذكرنا برسوم دمشق وأزهار وأوراق متشابكة متعاقبة عليها طيور . ولم تكن الدقة في الصنعة أقل إعجازاً من الدقة في التصميم ، إذ لم يكن بين فناني العرب من لا يشعر بمسئوليته فن ، فكانوا ينحتون الرسم بأ كمله على النحاس ثم يفرغون الحافات لتحمل صفائف الذهب والفضة ، فتطرق وتثقل في موضعها ، ثم يتبعون كل لوح من الفضة فيذهبونه بالنقاش حتى لا يتركوا جزءاً عارياً من النقش إلا غطوه برسم أوراق الشجر أو عيون أو أجنحة طيور حتى لا يبق مكان



في الدرب الأحمر

ولو كان صغيراً كرأس الدبوس دون أن يولوه عناية ودقة ، ثم يدهنون الشقوق التي يظهر فيها النحاس بطلاء خمرى ينفى على الصورة رونقاً خاصاً . وبما يؤسف له أن كثيراً من الفضة ومن الطلاء قد أضاعه مرور الزمن حتى إنه يصعب إدراك ما كانت عليه نقوش هذه الأواني والصواني التي بقيت للآن ، إلا أن الفحص الدقيق يبين لنا مقدار المهارة والدقة في الصناعة التي لا يستطيع الزمان محوها .

وفن زخرفته الفضة كفن العماره والحفر على الخشب والاحاج وسائل التعبير  
عن الجمال وصل إلى ذروة النبوغ الفني والثقافي في عصر الناصر محمد بن قلاوون ، وذلك  
في النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي ، وكما وقع بصيرنا في متحف من  
للتاحف على أنموذج بديع الصنعة من المعدن توقعنا أن نرى اسم أحد الأمراء  
الناصريين إذا لم يكن اسم السلطان نفسه منقوشا عليه .

ويروى لنا القرزى أن هذا الفن الجميل قد فقد قيمته في أيامه ، أي في أوائل  
القرن الخامس عشر . كان هذا الفن يرضى كل ذوق ، وقد رأينا من صناعة للعادن  
للمنقوشة عددا يفوق الحصر ، حق إنه لم يكن في القاهرة كلها منزل يخلو من الأواني  
النحاسية المزخرفة ، إذ كان من مستلزمات جهاز العروس أن يكون به خوان عليه أوان  
ومخاف من النحاس فوق رفوف من الخشب للطعم بالعاج يقدر بنحو مائتي دينار . بينما  
نرى ذلك كله إذ بهذا الفن قد اندثر من مصر كلها . ولقد قل طلب الناس لهذه الصناعة  
في أيام القرزى ، ومنذ مدة امتنع الناس عن شراء ما كان يعرض منها للبيع حتى هجر  
السوق الصناع الذين حذقوا هذا الفن ولم يبق في الأسواق أثر لهذه الصناعة (١) .

كما سبق قد يفهم أن الفن قد مات ولكن الحقيقة أنه قد انتقل إلى مكان آخر  
فإن التراث الذي ورثته القاهرة من الموصل قد أورثته البندقية بدورها . فقد رأينا  
أن أهل البندقية كانوا العملاء الأوربيين للتجار المصريين ، وليس من اللباقة في شيء  
أن نقول إن البندقية كانت مدينة نصف شرقية ، وأن النفوذ الشرقي كان يطنى على  
إيطاليا بأجمعها ، وأن أحد شعراء القرن الثاني عشر حزن على يزا التي زعم أنها  
ضارت تحت سلطان المغاربة والهنود والأتراك ، وإن كان في مدينتي فرارا ولوتشيرا  
إذ ذاك حتى شرقي تسود فيه العوائد الإسلامية منذ استخدم فردريك الثاني حملة  
الرماح من العرب . غير أن البندقية كانت أكثر تأثرا بهذا النفوذ ، فإن تجارتها  
ومستعمراتها قد أوصلت إلى تجارتها المصنوعات الفنية الشرقية ، وأحضر سفراؤها  
هدايا سلاطين المماليك القاهرة ، وسرعان ما اجتذبوا الصناع إليهم كما استحضروا التحف  
التي أطلقوا عليها اسم «صناعة اليهود» ، وقد سمع ذلك الشاعر الإنجليزي الشهير تشوسر

وذكره في شعره حيث وصف ملابس أحد الجنود فقال : وفوق ذلك كان يلبس درعا من الزرد أبدعت صنعه يد «الصانع اليهودى» .

ولقد برعت البندقية في نقش الصوانى على الطراز العربى ولو أنه طرأ عليه اختلاف كثير في الرسم وفي الأداء الفنى ، ولقد استعملوا الفضة خيوطا بدلا من الألواح والصفائح العريضة ، واتخذوا الرسوم العربية إماما لهم وهذبوا أشكال الأواني فأصبحت تختلف عما كانت عليه في يد الصانع المصري في القاهرة . ثم بدأ الصناع الإيطاليون ينقلون الفن عن محمود الكردى وزملائه من فنانى العرب ، وامتدوا أنفسهم الأزميون أو العجم ، لأنه كان من الشائع أن يطلقوا على كل صناعة شرقية اسم أعجمية ، فنسمع عن الفنان الإيطالى جورجيو تشينى الصانع العجمى في مدينة مانتوا وبولس العجمى الذى نبغ في الفن الذى نقل من مصر .

وإذا كنا قد تكلمنا عن صناعة الفضة دون سائر فنون القاهرة في العصر الوسيط ، فما ذلك إلا لأنها الفرع الذى أمكن تتبع تطوراته في سلسلة من النماذج التى لا يتطرق الشك إلى تواريخ صياغتها . غير أن أهم فنون الزخارف التى استخدمها بناء المساجد كانت النقش على الخشب والحفر على الرخام . وأهمها جميعا أفاريز المنابر والأبواب حيث يتطلب الجو الحار ضرورة جعل للسطحات المنقوشة صغيرة الحجم حتى لا تكون عرضه للالتواء . واستخدام الرخام المفرق في زينة المهراب يكسب البناء رونقا وبهاء ، حتى ولو تنافر الانسجام بعض الشيء ، ولقد قلد كثير من الأشراف هذه الصناعة في تزيين أسفل جدران منازلهم ، ولكنه آل للأسف إلى الزوال .

وبما يسترعى النظر كثرة استخدام الخشب في مصر للزينة مع أنها بلاد لا تصلح لنمو الأصناف الجيدة من الأخشاب ، ومنع ذلك فإن جفاف الجو يحفظ الخشب أجيالا طويلة ولو أنه يرضه للالتواء . فقد عاشت أربطة الأعمدة في مسجد ابن طولون أكثر من ألف سنة لم يتطرق إليها الانحلال ، حتى إن سقف الأورقة مازال حافظا لسيانه إلى الآن . وبدلنا هذا السقف الخشبي على أن الصانع في القرن التاسع كان يستعمل الطريقة التى لا زالت تستعمل في جميع أدوار الصناعة العربية حتى دخلت طريقة البناء الأوربية ، وهذه الطريقة عبارة عن استعمال قطع من جذوع النخيل بعد أن تهرج نصفين وتبطن السطوح الثلاثة للعرضة بألواح حتى تصير على

شكل مربع ، أما التجاويف التي تحدث بعد تريخ القطع ، فتقسم بواسطة فواصل متقاطعة يتكون منها جيوب أو خزائن ، وكثيرا لا تبقى الجندوع غير مبطنة بألواح الخشب في النازل الخاصة . وسواء أكانت مبطنة بالألواح أو تركت على أصلها مستديرة ، فإن هذه المروق والجيوب التي تتكون منها كانت تغطي بطبقة من الجص مدهونة على قطعة من القماش ومزينة برسوم عربية ذات ألون زرقاء وحمراء وذهبية . ولا زالت هذه السقوف ذات الجيوب أو الصناديق في منازل عديدة تسر النظر بحسن رونقها وانسجام ألوانها الحمراء والزرقاء وحافظتها المذهبة وبراعة تغطية الانتقال من السقف إلى الجدران بالزخارف للدلالة وللنفوذة بما يتشئ ورسم السقف ، وهناك سقوف أخرى تقل أهمية من الناحية الفنية عن السقوف ذات الجيوب التي ذكرناها ، وهي هذه السقوف التي استعملت فيها ألواح الخشب ملتصقة بعضها إلى بعض ، وقد كسيت بطبقة رقيقة من الجص ونقشت فوقها رسوم عربية ونماذج نباتية ، وجرت عليها فرشة الألوان وذهبت بعد ذلك ، أو استعملت فيها الرسوم الهندسية على قطع من الخشب الملطي باللونين الذهبي والأحمر ، ثم ألصقت بالسقف ، وقد مليء ما بينها بالرسوم العربية على الجص .

ولقد تجلت صناعة النقش على الخشب في مناسبات عديدة في المنابر ، وفي مساند المصاحف ، وفي الأبواب الداخلية ، وفي الخزائن ، وفي المساجد . ومن أقدم الأمثلة ما أخذ من مسجد ابن طولون ومسجد الحاكم واحتفظ بها في دار الآثار العربية بالقاهرة إلى اليوم . وتدل النقوش العميقة التي تشبه اللغات الحزونية على مصادرها البيزنطية ، كما تشبه النقوش ، التي هي أعرق منها في القسم ، والتي وجدت في ناحية عين الصيرة جنوبي القاهرة . وقد حدث في القرن الثالث عشر تغير في أسلوب النقش والزخرفة ، فقد بطلت الرسوم التي تتركز على واحدات من أوراق الشجر ، واتخذ الفنانون زخارف أدق صمما وأكثر تشابكا ووزعوها على ألواح هندسية الشكل صغيرة الحجم ، ولعل خير مثال لهذا الطراز هو ما صنع منه غطاء قبر الشيخ في سنة ١٢١٦م ، وقد احتفظ متحف جنوب كسنجتون بلندن بأحد جوانبها ، واحتوى متحف دار الآثار العربية بالقاهرة بالجوانب الثلاثة الأخرى ، ثم غطاء قبر الصالح أيوب المزخرف (١٢٤٩) : فقد رتبت الزخارف على شكل نجوم سداسية ،

منحوتة تحت بالغ الدقة . وقد ظهرت فيه سيقان أشجار الفاكية وهى من المظاهر الشائعة فى رسوم القرن الثالث عشر المنقوشة على الخشب . وبما يستحق الملاحظة بوجه خاص ، محراب مصلى « السيدة رقية » الذى صنع فى الغالب فى هذا القرن . ويمتاز بإبراز رسم شجيرات وكأنها متفرعة من آنية (١) . غير أن فن النحت على الخشب لم يصل إلى اللروة من الإتقان إلا فى عصر سلاطين المماليك وخاصة فى عصر الناصر ، فقد استعملت الأخشاب الملونة لإظهار فكرة البروز والتجسم . واستعمل التطعيم بدل النقش على الخشب الأصيل . فكثيراً ما وجدنا ألواحاً صغيرة مغروسة فى أرضية من الأبنوس ، وهذه الأرضية نفسها منقوشة وموضوعة فى إطارات متعددة متداخلة الواحدة منها فى داخل الأخرى . وقد لا تجد فى مثات اللوحات رسمين متماثلين فى الشكل . وبما لا شك فيه أن الجهد الذى بذله الفنانون فى نحت هذه الرسوم وفى تركيبها على مسطحات واسعة بهذا الحجم كان جهداً جباراً . وقد ترى أمثلة جميلة من ذلك فى المساجد ، وقد ترى أيضاً أمثلة أدق صناعة من حيث النحت على الخشب والعلاج فى أبواب الكنائس القبطية فى بابليون التى أخذ المسلمون الفن عنها . غير أنك لا تحتاج إلى الخروج من لندن لترى خير ما أتى به المماليك من النحت ، ذلك أن عدداً كبيراً من روائع النماذج نقل إلى متحف جنوب كنسنتون فى أيام حكم الخديوى إسماعيل وقبل حكمه بقليل . وهناك يتمكن المرء من دراسة بعض النقوش العربية دراسة مثقلة . وهذه النقوش الثمينة القيمة ، ولو أنها ليست رائعة التكوين ، فبعضها مقتبس من منبر جامع طولون الذى عمله لاجين سنة ١٢٩٦م ، وبعضها من منبر مسجد المرداني سنة ١٣٣٩م . وليس من النوق السليم وضعها على منصة فرنسية الصنع ، والبعض الآخر مأخوذ من منبر مسجد قوصون . وهى ، وإن كانت موضوعة فى إطار حديث الصنع ، قد احتفظت بنقوشها العربية سليمة ، كما أن هناك منبراً يأكله يحمل اسم قايتباي ، ولكن لا يعرف اسم المسجد الذى أخذ منه . وكل هذه التحف المذكورة تكون معرضاً جميلاً للفن العربى فى أزهر عصوره فى النحت على الخشب (٢).

(١) انظر فهرس دار الآثار العربية من ٤٨٤٧ إلى ٤٨٤٨ جم حرتر بك ، وهو كتيب لا يستغنى عنه الباحثون فى الفنون العربية .

(٢) انظر كتاب الفن العربى فى مصر تأليف ستانلى لينول من ١١١ - ١٥٠ .



وليست هذه المجموعة متماثلة في صناعتها ، فإن بعضها يقصر عن البعض الآخر من الوجهة الفنية . ومن يدقق في تصميمها ير أن الفن قد وصل إلى ذروته في نقوش المرداني ، أي بعد حكم الناصر مباشرة : فمبنى شيخو ( ١٣٥٨ ) لا يرتفع من ناحية الفن عن مبنى السلطان حسن الذي صنع من الحجارة ، ومبنى المؤيد ( ١٤٢٠ ) أقل درجة منه ، حتى إذا وصلنا إلى مبنى جامع قايتباي الذي يعد مثلاً أعلى لما شيد في مصر رأيناه أقل جودة في صنعه مما أخرجته أيدي الصناع في أواسط القرن الرابع عشر . ذلك لأن الرسوم قد فقدت شيئاً من الابتكار ، وأصبحت الخطوط جافة ميكانيكية ، كما ظهر فيها التكرار خصوصاً في النقش على الحجارة ، وهو أمر غريب في صناعة المتقدمين من الفنانين . وقد يكون هذا التكرار راجعاً إلى كثرة استعمال العاج في التطعيم ، لأنه أصعب في رسم الخطوط المنحنية ، وإن كان أسهل في النقوش الدقيقة . وقد يكون ذلك — وهو السبب الرئيسي — راجعاً إلى تفضيل النقش على الحجارة وزيادة الاهتمام به . فصرعان ما صارت الحجارة هي المادة الرئيسية في البناء والنقش حتى أهملت صناعة النقش على الخشب ، كما أهملت من قبل صناعة النقش على قوالب الجص . وكان منتصف القرن الرابع عشر الحد الفاصل بين الصناعتين ، حيث أصبحت الحجارة المادة المفضلة ، وانقسم رجال الفن القدامى إلى فريقين تحول بعضهم من النقش على الخشب إلى النحت على الحجارة واستمر البعض الآخر يزاولون صناعتهم الأولى ، ولكنهم اكتفوا بمحاكاة النماذج القديمة دون ابتكار ، فكان ذلك إيذاناً بالتدهور والانحلال .

على أنه لو صرح أن النقش على الخشب قد تدهور بعد منتصف القرن الرابع عشر ، فقد ازدهر نوع آخر من النقش على الخشب ، وهو الذي زين واجهات منازل القاهرة بما يشبه النسيج اللوحي الدقيق الصنع ، ويعرف باسم المشربية ، وبما لا شك فيه أن صناعة المشربية كانت قديمة . ولكن ربما كانت كثرة الحرائق في القاهرة أو سهولة عطب هذه المصنوعات ، السبب في عدم بقاء نماذج قديمة منها إلى الآن . أما الشبايك الخشبية القليلة التي لا تزال في بعض المساجد القديمة ، وهي طراز مختلف عن طراز المشربيات ، فإنها مربعات خشنة الصنع مقسمة إلى خانات بواسطة قضبان من الخشب مربعة أو مستديرة من الخشب كالتى تشاهد في ضريح قلاوون ، أو هي شبكات

تغطي فتحات واسعة مربعة ليس للفن فيها نصيب . وقد ترى نوعاً منها أرقى صناعة وأعمدها أكثر تقارباً وشبكتهما أضيق عيوناً ، ونقط تقاطعها مطعمة ومنقوشة مثل منبر لاجين في مسجد ابن طولون (١٢٩٦) . ومن الغرب أن المشرية الحقيقية توجد في جامع المرداني ، حيث ترى أعلى مثل للنقش على الخشب .

وهكذا كلما تدهور فن النقش ارتفعت صناعة المشرية . وقد تجد نماذج جميلة للمشرية في أوائل القرن الخامس عشر ، كما نشاهده في منبر جامع المؤيد مثلاً . ولكن هذه الصناعة بلغت القروة في الجودة في عصر قايتباي ، حيث ترى نموذجاً جميلاً في منبر أبي بكر بن مظهر . أما صناعة المشرية فهي صناعة حديثة ، غير أننا لا نستطيع تحديد عهد خاص لها . ومن المؤلم أنها قد اختفت كلها ، بحيث لا نجد لها أثراً ، ولكن يجب أن لا يغيب عن الذهن أنها كانت مصدر خطر كبير ، لسهولة توصيل الحرائق من بيت إلى بيت ومن شارع إلى شارع .

ومما هو جدير بالذكر في كل عمل فني قام في القاهرة في العصور  
أكان في العمارة والبناء ، أم في النقش على الخشب وتطعيمه ، أم في النحت على الحجارة ، أم في النقش على المعادن ، أو في صناعة الأواني الزجاجية ، أنها كانت أعمالاً مبتكرة لا أثر للتقليد أو النقل عن الغير فيها ، إذ لم يأت العرب بفن أو صناعة معهم حينما وفدوا إلى مصر وربما كانوا يفتقرون إلى الحاسة الفنية ، ولكنهم أخذوا الفن عن رعاياهم الأجانب ، وكانوا دائماً يستحدثون عنصراً مختلفاً عن الأصل ، وهذا العنصر خاص بهم يميزهم في الجوانب الفنية . كما أنهم أدخلوا فناً عربياً ، فقد أخذوا صناعة المعادن عن الفرس ، ولكنهم سرعان ما جعلوها صناعة عربية ، كما قلدوا الروم والقبط في النقش على الخشب ، ثم أضافوا إليه من روحهم وملسكاتهم ما جعله فناً جديداً . وقد وجدوا صناعة الزجاج في مصر وتعلموا فنون القسطنطينية في التذهيب وتركيب الميناء ، ثم أخرجوا طرازاً من القناديل والمشكاوات لا يحاكيه أي نوع آخر في الدنيا . ولم يكن التغيير الذي أحدثه العرب

فى الصناعة تغييراً فى الرسم والتصميم أو فى الشكل ، ولكنه كان تغييراً شاملاً فى طابعها ، حتى جعلوها فى كل فرع من فروعها فناً عربياً قلباً وقالباً ، ولم يكونوا ناقلين عن نماذج ثم احتفظوا بأصولها ، بل كانوا قادرين على تهذيب الأصول التى نقلوا عنها أو خلق أصول جديدة مبتكرة .. ولعل أغرب ما فى هذا الأمر ، أن أرق ما وصلت إليه الصناعة ، قد تم فى أشد الأوقات اضطراباً ، وفى عهد أقل السادة الأجانب ثقافة وعلماً .

وفى الحق أن عصر السلاطين المماليك ، كان أزهر عصور مصر الإسلامية ، وأزهارها فى الفن والأدب .

## الباب الثاني

### البكوات والباشوات

سلطة الأمراء للماليك (البكوات) لازالت قائمة — ضعف الياشا — القتال  
في الشوارع — البك الثاني — رضوان الجاني من أسرة الميرابي —  
الكتبات — حالة التعليم — التعصب — المرافقات — مساجد العصر  
العثماني — علي بك — عبد الرحمن كمتغدا — محمد بك أبو الذهب — محمد علي  
— استصفاء أموال الوقف — لجنة حفظ الآثار العربية — رسالة إلى لورد  
كرومر — حفظ الآثار — إحيائها — لورد كرومر — المنح التي تقدمت  
بها لجنة الدين العام والحكومة المصرية .

لم يجرؤ أحد على كتابة تاريخ لمصر في خلال القرون الثلاثة التي خضعت فيها  
للسلاطين الأتراك منذ أن فتحها سليم الأول في سنة ١٥١٧ ، إلى أن أسس فيها محمد  
علي أسرة شبه مستقلة في سنة ١٨٠٥ ، وكانت هذه الفترة متشابهة الأحداث ، ينقصها  
مثل تلك الشخصيات البارزة التي ظهرت في الفترة الأولى من عهد الماليك ، وكأنها  
مسرحية يعاد تمثيلها على مسرح صغير ويقوم بأدوارها ممثلون أقل شأنًا وأضعف  
فنا . وقد تدهورت الحكومة المحلية من الروح التي كانت تخلفها الحروب في البلاد  
الأجنبية ، كما اخفت حياة الترف والبلذخ التي كانت تنعم بها القصور الملكية وأهل  
البلاط ، مما كان سبباً في تشجيع الفنون والصناعات ومناقسة الأمراء ، كما أن الشعور  
بالتبعية وسياسة الإمبراطورية العثمانية التي كانت تنطوي على الجشع في جباية المال  
هدمت كثيراً من مجد الماليك الأول .

ومع ذلك لم يكن ثمة فارق كبير بين القاهرة تحت حكم الباشوات وبين مدينة  
القاهرة التي وصفها القريري . ذلك أن التغيرات في الشرق تحدث ببطء لا يكاد  
يدرك الإنسان ، وإن أحداث الزمن تسير على مهل كما تسير عجالات السواقي المنتشرة  
في البلاد ، وهكذا جاء الاضمحلال والتدهور . فقد استمر أمراء الماليك ذوي قوة  
وبأس . غير أنهم ، بدلاً من أن ينتخبوا واحداً منهم سلطاناً عليهم ، اختار لهم الباب

العالى ، باشا من قبله . وكان يحمد من سلطة هذا الباشا مجلس من الأمراء للماليك عرفوا من ذلك الوقت باليكوات . وكثيراً ما كان عزله يأتى على أيديهم أو نتيجة لمؤامرات الجتسود للتمردين . وعلى الرغم من أن الباشا كان يصل بصحبة حاشية مكونة من ألف ومائتى رجل وكان يثر أحياناً مملوءة بالنقود الذهبية في أيام الأعياد ، لم يكن في مقدوره أن يتغلب على هيئة رئاسة الجند . وكان لشيوخ البلد ، وهو رئيس الماليك ، سلطان يملو سلطان الباشا ، والماليك لم يتغيروا عما كانوا عليه في أيام سلاطين الشراكسة ، ولولم يكونوا هم أنفسهم ، إذ قتل السلطان سليم كل من وصلت إليه يده منهم ، ولكنهم بقوا في تكوينهم كما كانوا من الأتراك ومن بلاد جورجيا ( الأرمن ) ومن الشراكسة ، كل منهم كان عبداً جلب من سوق الرقيق ثم ارتقى إلى الوظيفة فالإمارة ، وعاشوا محتفظين بعظمة مراكزهم في قصورهم بجوار بركة الأزبكية أو على بركة الفيل أو في حى الصليبة أو في شارع سوق السلاح ، تحيط بهم حاشية كبيرة .

وهم بعد ذلك ، يحتفظون بأحقادهم القديمة ويتلهون بحروبهم الداخلية ومناوشاتهم في الشوارع ، شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من الماليك طوال حياتهم . وقد انضم إليهم عنصر جديد من عناصر القوضى ، حين وفدت على البلاد الفرق التركية من العزب والانكشارية واحتلوا ثكنات القلعة . وقد أصبح قواد هذه الفرق أقوى الأمراء في مصر وأعظمهم خطراً .

ولم يختلف أمراء الماليك في هذا العصر عن أمراء الفترة الأولى ، إلا في ضعف وضياح تلك اليد القوية التي كانت تظهر من وقت إلى آخر في شبح أمير أو سلطان تسمو شخصيته على شخصياتهم فيكبح جماحهم إلى حين ، إذ أن الباشا التركي لم يكن في وقت من الأوقات ذا نفوذ أو شخصية ، تقارن بشخصية بعض سلاطين الماليك الأقوياء ، ولذا لم تتغير الحال في مصر في أيام الحكم الثاني الجديد ، عما كانت عليه في أيام أغلب السلاطين الشراكسة .

والواقع أن البلاد كانت لا تزال خاضعة للماليك ، لأن الباشوات كانوا يتغيرون على الدوام ، وكانوا يعيشون في خوف وفزع من الجند . أما الأمراء فكانت في أيديهم السلطة الحقيقية التي يستخدمونها - كما كانوا يفعلون - لصالحهم الشخصية وللغضاء

على منافسيهم نقياً من البلاد أو قتلاً . ولما كانوا يتكتلون جماعات وأحزاباً ، ففيهم القاسمية وفيهم الفقارية . وكان أتباعهم يتقاتلون في الشوارع ، وكثيراً ما حاصروا فرق العزب الحكومية في القلعة شهوراً عديدة ، وكانوا قد اكتشفوا أن المدفعية تتحكم في القلعة إذا وضعت على التلال الواقعة خلفها .

وقد جاء في تاريخ الجبرتي ذكر شراذم من الجنود تحصنت في مساجد ابن طولون وألماس والمحمودية وغيرها ، وأخذت تطلق النيران من مدافعها من بين المآذن المجاورة . وقد آتى وقت وصلت فيه القوضى حداً يعجز عنه الوصف ، إذ أقفرت الشوارع ونهبت المنازل ، وامتنع الوصول إلى بولاق أو مصر القديمة ، ثم هدأت الحالة ، إذ تمكن أمير عظيم من القبض على ناسية الحال . وليس من السهل أن نجد فرقة كبيرة بين أمراء ذلك العهد وأمراء العصر الذهبي للحضارة المملوكية . إلا أن فرصتهم للظهور كانت أقل ، لعدم تمكنهم من شن الغارات وإدارة الحروب في سورية وآسيا الصغرى لمصلحتهم الخاصة . ذلك أن الفرق التي كانت تجند من مصر للخدمة في البلدان الأجنبية كانت تعتبر جزءاً صغيراً من جحافل الإمبراطورية العثمانية . ولكن ميولهم وأعمالهم وأخلاقهم كانت كميل وأخلاق المماليك الذين سبقوهم منذ قرنين . وإن كان هناك فرق ، فقد كان في العزيمة لا في الرغبة ، إذ كانت الفرص التي أمامهم أقل بكثير من الفرص التي سنحت للآخرين ، ولكنهم كانوا يشبهونهم في الجنس والخلق والأفعال .

وقد يكون بعض الأمراء المماليك ذوي شخصية قوية كشخصية الأمراء الأقدمين . فمثلاً عثمان بك ذو الفقار ، الذي عاش في النصف الأول من القرن الثامن عشر ، فإنه بعد أن قام بدور بارز في الخلاقات الحزبية التي كانت قائمة بين أمراء ذوي الفقار بك ومنافسه بركس بك ، وجد أن شاهد بينه مصرع أحد عشر أميراً من ذوي النفوذ في داخل قصر القدردار ولم ينبج بنفسه إلا بأعجوبة بعد أن أصيب بضربة سيف في عمامته — صار بعد ذلك أعلى الأمراء مقاماً في القاهرة ، وأصبح في قدرته أن يرفع عماليكه الخاصة إلى مرتبة الإمارة . وصار أميراً للحج في سنة ١٧٣٩ ، وهو منصب يتطلع إليه أعظم الأمراء في مصر .

ولما قتل النائب (١) على الجلفى ، عزل عثمان بك ذوالفقار ، الباشا عن منصبه . وعين رضوان نائباً ورئيساً لفرق العزب . وكان عثمان بك أول أمير جرؤ على دعوة الباشا إلى وليمة في منزله ؛ وكان الأمراء جميعاً يخضعون له خضوعاً تاماً ، وكان يعقد مجلساً في قصره لينظر في المظالم . ولما كان عفيفاً زهياً كان شديد الوطأة على المعتصين والطاغين . وكان يراقب مفتش الأسواق بنفسه عن كذب ، ويحدد أسعار الخبز وغيره من ضروريات الحياة ، ويتأكد من أن أموال البر تنفق في وجوهها الصحيحة .

ولقد كان على خلق كريم ، ذا أفكار وآراء نبيلة . عادلاً قوياً زهياً ، نظيفاً ، أياً ، كريماً ، ولما تأمر عليه منافسوه وثقوه من مصر ، ترك وراءه سمعة طيبة وذكرًا عظيمًا ، حتى كان الناس يؤرخون الحوادث بهذه ، فيقولون حدث كذا وكذا بعد رحيل عثمان بك بكذا سنة ، أو كان حمري كذا سنة يوم رحيل عثمان بك .

وكان رضوان الجلفى الذي جاء ذكره آنفاً . . . علماً آخر من أعلام النبيل والشرف في القرن الثامن عشر . وكان عهد توليته النيابة بالإعتراك مع زميله إبراهيم عهد هدوء وسلام ، وانخفضت أسعار للأكولات إلى حد لم تبلغه قبل عهدها ، وعم اليسر والرخاء جميع الطبقات . وكان كل من الأعيان في تلك الأيام يفتح داره مرتين في كل يوم ظهراً ومساءً لكل قاص ودان من أبناء السبيل ، فيقيم للموائد في بهو عظيم ويتصدرها بنفسه وحوله مدعووه وزائروه ومحاليكه وأتباعه . وكان من العار أن يمنع أحد من المدخول ، وكانت توزع أطباق الأرز والعسل واللين على الفقراء في أيام الأعياد ، كما كانت توزع الحلوى في أيام الجمع والمواسم .

وكان أحد منازل رضوان يقع على ضفة بحيرة الأذربكية ( وكانت بحيرة على الأقل في أيام الفيضان ) ، وكانت تحمل ردهاته قباب غشيت بالنقوش العربية المذهبة على أرضية زرقاء تتناسب مع الزجاج المتعدد الألوان . كما بنى أكشاكاً في حديقة

---

(١) يقصد بكلمة نائب هنا كتحداً أو كما كانوا ينطقونها في مصر كنخيا ، وهو نائب الباشا ، وهو منصب يشبه في اختصاصه وسلطاته منصب وزير الداخلية .

بحوار القناة حيث حفر بركة جعل فيها مسقطا للقاء . وفي هذه الحديقة كان يختل  
هو وأصحابه بعد أن أشبع أطماعه من الشهرة والجاه ، فترك لنفسه العنان في الآ  
والملاذات . ولم يكن رضوان يهتم بالأخلاق مثلاً كان يهتم بها عثمان بك . ولذا أط  
الحرية لسيدات القاهرة وغاياتها القاتلات ، وأنهى إلى رجال الشرط بالآيزعجوة  
أو يضيقون على المعجبين من ، فصارت القاهرة مرتعاً للغزلان أوجنة للحوار والمحبة  
وشرب أهلها كؤوس اللذة حتى الثمالة ، كما لو كان قد غاب عنهم أنهم سيحاسبون  
يوم ما على ما كانوا يفعلون . وليس غريب أن يتغنى الشعراء بمدحه فيذكر  
بالصهبا وروائح الجنة .

ولقد زال الآن قصر رضوان الذي كان على بحيرة الأزبكية وبقي باب المر  
الذي بناه إيوسل إلى القلعة من الرميطة لتخليد ذكره . ولقد لقي رضوان خ  
مفجعة ، فقد أحاط المتآمرون بداره التي كانت بشارع قوصون وأمطروه بقذائف  
النارية ، حين كان يقصر شعر رأسه ، فتنازل بكل ما احتفظ به من قوة . ولما كسر  
ساقه امتطى جواده ودافع عن نفسه حتى تخلص من مهاجميه ، وفر إلى صعيد م  
ليوت هناك ، وكان آخر قواد العزب البواسل (١).

ولم يكن الأمراء وحدهم هم الذين يملكون مثل منزل رضوان ، فقد كان ه  
على بحيرة الأزبكية منزل آخر لتاجر مشهور اسمه أحمد الشرايبي ( الصيدلي ) . ه  
أنجبت أسرته أمراء واقتنت الممالك ، وكانت واسعة الثراء ، فانفتحت أمواتها  
ينفقها السادة المثقفون ذوو النفوس العالية ، وتزد على دارهم العلماء . وكانت ه  
الدار تحوى المخطوطات النادرة والمصادر العلمية العديدة ، فكان إذا ظهر ك  
ولم يكن في منزلهم نسخة منه ، عملوا على شرائه مهما بلغ ثمنه ووضعوه في متنا  
كل زائر ، فكان طلاب العلم على ثقة من إيجاد ما يطلبون في مكتبة الشرايبي .

وكان يسمح لمن أراد منهم أن يستعير كتاباً إلى أجل أن يفعل ذلك ، وكان  
ما احتفظ به لنفسه لأن التاجر العظيم لم يكن يسمح له كرمه بمطالبة مستعير ك



بردها بل كان يسمى إلى اقتناء نسخة أخرى بدل النسخة التي احتفظ بها طالب العلم ، وكانت هذه الطريقة ترضى العلماء رضاً تاماً .

ولم يكن أفراد هذه الأسرة من هواة جمع الكتب وإعارتها للمستعيرين فحسب ، بل كانوا من غلاة أنصار المذهب المالكي ، متمسكين بالأخلاق السكرية ، مترفعين في أنسابهم لا يتصاهرون إلا مع الأسر التي من درجتهم ومركزهم الاجتماعي ، لا يخرج بناتهم من منازلهن إلا إلى بيت الزوج أو إلى القبر . كان هذا احتياطاً محبوباً في زمن أباح فيه رضوان للترف مغامرات العشاق ، وفي زمن كان يعترض فيه أهل السوء طريق سرب من سيدات الطبقة الراقية خرجن يستروحن النسيم بالقرب من الأزبكية كما تفعل السيدات الآن ، فيجردونهن من حليهن وملابسهن جميعاً .

إلا أن أسرة الشرايبي على الرغم من محافظتها كانت تتساهل في بعض الأحيان ، فكانوا إذا أقاموا حفلات الزواج أوجدوا فيها الكثير من أسباب اللهو والطرب ، ولكنهم كانوا لحرصهم على بناتهم ينتظرون حتى يذهب جميع المدعوين إلى مسجد أزبك (١) المقابل لدارهم ، فيرسلون المروس إلى منزل عريسها في سرعة فائقة تحت حراسة قوية من السيدات المتقدمات في السن ، فإذا أمنوا عليها هناك أكثروا من إطلاق الرصاص واللب بالمشاعل ويمضون الوقت في فرح وسرور .

وكان من تقاليد الأسرة أن يعين أحد أفرادها قياً على كل ممتلكاتها ومديراً لأعمالها . فكان له أن يجمع الإيرادات ويحجب محاصيلها ، ويتسلم أرباح التجارة ، ويدفع مصروفاتها بما في ذلك ثمن ملابس العائلة ومربيات أفرادها الخاصة . وكان عليه أن يقدم في آخر العام قائمة الحساب ويدفع لكل فرد ما يستحقه . ولم يكن منتظراً أن تدوم هذه الطريقة المثالية أبد الدهر ، فلا عجب إذا سمعنا أخيراً أن أحد أفراد الأسرة المصنار لم يوافق على الحساب المقدم إليه وعندئذ لابد من تصفية الشركة ، ولم تكن هذه الأسرة في طريقة حياتها أسرة مثالية لا نظير لها . والحق أنه ما زالت هناك أسر من أكرم البيوت تعيش على النظام القديم وتحفظ بالأخلاق الفاضلة .

---

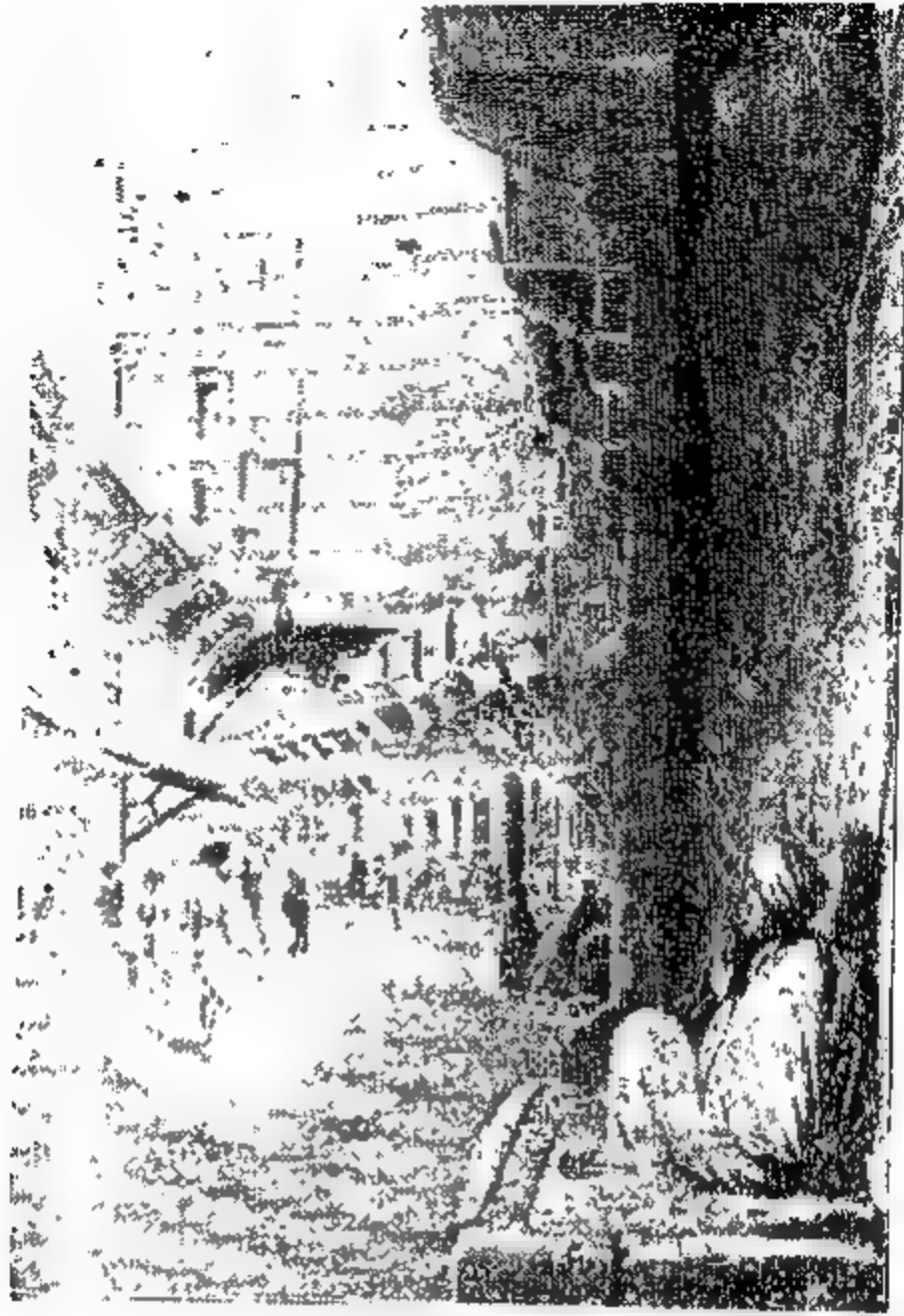
(١) هضم في سنة ١٨٦٩ ، وكان قد بنىه الأمير الشهير أزبك بن طوطوش ومنه سميت الأزبكية .

وإن شغف أسرة الشرايبي باقتناء الكتب ، ليلقى علينا ضوء آهنا لمعرفة العلم والتعليم في ذلك العصر ، ففي مستهل عصر المماليك أوجدت في القاهرة مكاتب عديدة هامة كان بعضها من الغنائم التي أخذت من مساجد سورية . وإذا قبلنا ما أورده الجبرتي بإسهاب عن تلويح حياة هؤلاء السادة للشافعي والعلماء وللؤرخين ورجال الدين والشعراء ، لجاز لنا أن نقول إنه كان في مصر نشاط علمي عظيم في القرنين السابع عشر والثامن عشر ، ولو أنهم لم يكونوا من صفوة العلماء الأئمة .

وقد ذكر الجبرتي محادثة غريبة دارت في سنة ١٧٥٠ بين أحمد باشا الوالي وهو عالم رياضي ، وبين الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الجامع الأزهر . فقد لاحظ الباشا أنه طالما سمع ما لمصر من مركز رفيع في العلوم ، ولكنه كان يود أن يرى نتيجة ذلك بنفسه . فقال له الشيخ : « حقيقة ياسيدي إن مصر كما سمعت منبع العلم والمعرفة » ، فسأله الباشا : « ولكن أين هي ؟ إنكم — كما أرى — لا تعرفون إلا الشريعة والعلوم الإلهية وغير ذلك من الدراسات القليلة الأهمية ولا تقدر على العلوم العملية » ، فاعترف الشيخ بأن الأزهر لا يدرس من الرياضيات إلا الحساب لأنه ينفع في قانون للوارث ، فعاد الباشا يقول : « وماذا عن علم الفلك ؟ إنه يلزم لمواقيت الصلاة والصوم وغيرها من أمور الدين » . فصرح الشيخ بأن الإقبال على علم الفلك قليل لأنه يتطلب كفاية خاصة وأجهزة وشروطا فسيولوجية واستعدادا خلقيا خاصا للمضي في الأبحاث ، وكان الشيخ يعرف رجلا تجتمع فيه كل هذه الخصال ، ولكنه ليس من رجال الأزهر . فلما حضر الرجل أمام الباشا أعجب باستعداداته الرياضية فأهداه عبادة من الفرو الثمين ، ولكن الرجل باعها بعد ذلك بثمنائة دينار ، وقد حفر الرجل مزاويل (ساعات شمسية) على الرخام تبين أوقات الصلاة ، وتقسيماتها عبارات مناسبة . وقد وضعت اثنتان منها في الأزهر وفوق سقف مسجد الإمام الشافعي<sup>(١)</sup> . وتدلنا هذه القصة — كما تدلنا

---

(١) وصف ما كس قان برشم بعض هذه الساعات الشمسية العجيبة في كتابه : « مذكرات في الآثار العربية » (١٨٩٢ م) ص ١٢ — ١٨ ، وقد وضعت إحدى هذه الساعات في مسجد ابن طولون في سنة ٦٩٦ هـ (١٢٩٦ م) على يد لاجين . وهناك ساعة أخرى يمكن رؤيتها =



شارع بجوار باب الخرق

قائمة بأسماء المؤلفات في هذا العصر وقد وصفها المؤرخ الشهير - على أن الدراسة في مصر كانت عملاً حماسياً وليست دراسة عميقة وأن العلم كان قد اضمحل .  
هذه من جهة ، ومن جهة أخرى كانت العلوم الدينية أقوى من ذي قبل ، وتاريخ  
الباشوات حافل بكثير من الإشارات إلى نفوذ أساتذة الأزهر وعلمائه . فقد كاد أحد  
الوعاظ الأتراك يحدث ثورة إذ قام ليخطب في جامع المؤيد وبسفه فكرة

---

== الآن في مسجد قوصون يرجع تاريخها إلى سنة ٨٨٧٥ (١٢٨٣م) ، وكذلك توجد ساعة  
ثالثة في مسجد إينال قشمت عليها سنة ٨٨٧١ (١٤٦٦م) .

التوسل بالأولياء ، وهى بدعة شائعة بين الناس لا تتصل بالدين بأى سبب . وقد حث الواعظ الناس على هدم القباب التى شيدت فوق أضرحة الأولياء ، والصالحين ، ولقى علماء الدين السنيين مشقة فى إسكات الرجل وتهدة الشعب الفاضب عليه . وكثيراً ما صدرت الأوامر المشددة لتهذيب الشعب ودعوته إلى اتباع الفضائل الدينية ، من ذلك أنه منع ذات مرة التدخين فى الأسواق ، وكان رجال الشرطة يجولون فى الشوارع ثلاث مرات فى كل يوم ، فإذا ضبط رجل وهو يدخن أمروه بأكل غليونيه ، من ذلك أيضاً مارواه ناصر خسرو أن الرجل إذا زيف وثيقة حمل على ظهر حمل وطيف به فى الشوارع وصاح للنادى أمامه : « أنظروا طاقبة للزيفين » ، وهذه كانت عادة قديمة . ولما كان أهل القاهرة ممن يؤمنون بالخرافات فقد حدث فى سنة ١٧٣٥ م أن انتشرت شائعة بأن يوم القيامة سوف يكون فى الجمعة التالى ، أى بعد يومين ، فما كان من الناس إلا أن قاموا يودع بعضهم بعضاً وقد عمدوا الحقول والطرق إلى تزودوا بنظرة أخيره من الأرض التى أحبوها ، بينما استولت على أهل الجزيرة خرافة قديمة علفت فى عقولهم منذ الأيام الأولى قبل ظهور الإسلام ، فهرعوا إلى النيل يستحمون فيه ذكوراً وإناثاً ، واستمر القوم فى حالة فزع وتوبة وندم وصلاة ودعاء إلى أن أهل عليهم يوم السبت وأدركوا أنه لم يحدث لهم شيء .

وإن عهداً يولى الدين كل هذه العناية ، لا يمكن أن تهمل فيه بيوت الله . ومن الخطأ أن ينسب تهم كثر من مساجد القاهرة إلى عهد الباشوات الأتراك ولكن الخطر يرجع إلى المباني فى إعادة بنائها إلى حد أن تغيب معالمها الأصلية . ثم إن القاهرة تحوى الكثير من المساجد التركية التى بنيت على الطراز العثمانى ، وهى — وإن توافقت إذا قورنت بمباني المالك السابقين — تستحق الإعجاب فى حد ذاتها ، كما أنها أنغم من أى عمارة أنشئت فى إنجلترا فى القرن الماضى . ومن ينظر إلى مسجد أيا صوفيا ( ١٦٠٤ ) ومسجد عهد أبى الذهب ( ١٧٧٤ ) ، يحكم بغضامة عمارتها ، ناهيك بمسجد البردينى ، فهو درة صغيرة يتجلى فيها الفن التركى فى النقش . لقد هجر المعمارى التركى طراز المدرسة التى أدخله صلاح الدين ، والذى كان قد تغير تصميمه الأصلى التقاطع على شكل صليب حينما تحولت مساجد المدارس إلى جوامع يؤمها العامة

اصالة الجملة في أيام السلاطين السراكية . ولما رجع المهندسون الأتراك إلى الطراز الأصلي البسيط أدخلوا فيه تعديلات ، فبنوا القباب البيزنطية بل السقوف المسطحة التي كانت تغطي المصلى ، والواقع أن المسجد العثماني في طراز بنائه لم يكن إلا كنيسة كبيرة . وبما يميز مساجد العصر العثماني وإصلاحاته ، إدخال القرميد في البناء ، فقد أعاد إبراهيم آغا بناء مدرسة أقستقر في سنة ١٦٥٢ م ، فجعل جداره الشرقي بأركله مغطى بالقرميد الأزرق ، وأغلبه على الطراز العثماني ، وقليل منه على الطراز الرودي أو الروديس المنسوب إلى جزيرة رودس ، وربما كان طراز القسطنطينية . ولم يكن إصلاح المباني من الأعمال الناجحة دائما ، فكثيرا ما كانت التعديلات التي أدخلها الأتراك تشوبها حجب روائع الفن القديمة . ولقد جدد أحمد باشا في سنة ١٦٩٠ م مسجد المؤيد وكان مهتما ، كما بنى أحمد الباشوات مسجد الأربعين بجوار باب « قرة ميدان » في سنة ١٧٠٤ م ، وكما جدد أحمد النائب مسجد الظافر الفاطمي المعروف باسم جامع الفكهاني في سنة ١٧٣٥ م .

ولكن أمير المجددين للمماليك كان عبدالرحمن كتنخدا أو الكنخيا ، وكان يتمتع بنفوذ عظيم قبل أيام على بك الذي عزل الباشا الوالي في ذلك الوقت وجلس هو على عرش مصر من سنة ١٧٦٨ إلى سنة ١٧٧٢ م ، وقد جدد على بك بنفسه قبة ضريح الإمام الشافعي وبنى سوقا في بولاق . وكان لعبدالرحمن كتنخدا هذا والد يدعى عثمان كتنخدا الذي ولع بالهندسة وكان له ذوق في العمارة . وقد أنفق من أمواله التي ربحها بوسائل غير شرعية مسجدته المعروف باسمه ، كما بنى مدرسة وسبيلا بالقرب من بحيرة الأربكية ، وفي يوم افتتاحه ملأ حوضه الأوسط الكبير كما ملأ كل ما وقعت عليه يده من الأباريق بالشراب وقدمه لمن أم المسجد من المصلين ، وهو الذي بنى مدرسة العميان بالأزهر وعمل أعمالا خيرية أخرى . وعلى الرغم من هذا كله فقد فاقه في العمارة ابنه عبدالرحمن ، وأى سائح لا يعرف سبيل الصنير في آخر شارع بين القصرين وقراميد الدقية الصنع ومدرسته ذات الأقواس المكشوفة ، وكلها تحاكي في أناقتها أناقة بانها في شخصه ومليسه وجمال طلعه ، ومع ذلك فقد كانت أقل أعماله أهمية ، فقد بنى مسجدا في خارج باب الفتوح ، وآخر بجوار باب القريب ، أقام فيه حوضا وسبيلا ، كما بنى خزانة كبيرة للماء ، ومدرسة بجوار قراقة الأربكية للسقائين ، وأعاد بناء

أضرحة السيدة زينب والسيدة سكينة ، وأقام أضرحة غيرها بجوار باب القرافة في حي الموسيقى وفي حي الحسينية وفي شارع عابدين وغيرها ، ولعل أهم تجديد قام به مما نسب إليه إصلاح الأزهر الذي يدين لعبد الرحمن بما هو عليه الآن .

وقد أقام خمسين عموداً من الرخام تحمى دعامة من الأحجار التي تغطيها الأخشاب الثينة ، وأقام محراباً ومنبراً ، وبني بايين مقوسين يعلو أحدهما مدرسة للإيتام ويعلو الآخر مئذنة كما بنى في صحن المسجد ضريحاً وزوده بالمكتبات وقاعات المطالعة والمطابخ وحجرات لمبيت الطلاب الذين يحدون من صعيد مصر . كما زاد في عمارة مدارس الطيرسية والأقبوغة الملحقة بالأزهر ، وبني الباب الفخم الذي يقع بينهما في مواجهة وكالة قايتباي ، وأثت أروقة للطلبة الحجازيين والطلبة السودانيين ، وأوقف أموالاً للانفاق منها على هذه الأعمال الخيرية . هذا إلى جانب تقديم كميات وفيرة من الأرز والسمن والزيت والدقيق إلى مطابخ الأزهر لإعداد وجبات إفطار الطلبة في كل من أيام شهر رمضان . ولقد جدد عبد الرحمن بعض أجزاء مسجد الإمام الشافعي ورصف بمشاهير بالرخام المعرق ، وأصلح ضريح السيدة نفيسة ومارستان قلاوون (للعلاج للرخصي بالأمراض العقلية) . ولكنه نسي أن يعيد بناء قبة ، بعد أن هدمها ، واكتفى بتغطيتها بالأخشاب حيث بقيت إلى الآن . واهتم اهتماماً بالغاً للوصول إلى الأموال التي تركها مؤسس المستشفى وخلفاؤه ، ونجح في اكتشاف حجة الوقف وإعادة أموال المستشفى . ومهما قيل عن مصدر ثروته التي تناقل الناس عنها أقوالاً كثيرة مريبة ، فإن أعماله الخيرية لا تنف عند حد . ففي الشتاء كان يوزع الأردية الصوفية على العميان الذين كانوا يكثرون في القاهرة وعلى المؤذنين لوقايتهم من البرد القارس وهم يؤذنون للصلاة في الليل . وكان الفقراء يتدافعون على بابه في مساء كل ليلة من ليالي رمضان ينتظرون أطباق الطعام التي لم يكن يرضن بها عليهم . فإذا انتهوا من طعامهم انصرفوا في بشر وجبور ، يحمل كل منهم رغيفين وقطعتين من النقود لشراء ما يلزم لطعام المسحور . ولعل عبد الرحمن كتحداً بنى أو جدد ثمانية عشر مسجداً بخلاف الأضرحة والأسبلة والمدارس والجسور وغيرها من العمارات . وكان مولعاً بالعمارة ، وكان - لحسن الحظ - ذا ذوق سليم .



فناء مقبرة للمسلمين

ولقد أحسن الشعب إذ أطلق عليه اسم الحسن العظيم ، وقد توفي عبد الرحمن في القاهرة في سنة ١٧٧٦م وهو في سن متقدمة بعد أن قضى اثنى عشرة سنة أسيراً في بلاد العرب ، ذلك لأن أعماله الخيرية لم تكن لتبعد عنه شكوك على بك ، وقد سار في جنازته جموع العلماء والأساتذة والطلبة والفقراء الذين امتدت صلاته إليهم ، إلى أن جاءوا به إلى الجامع الأزهر حيث واروه التراب في الضريح الذي بناه لنفسه بالقرب من الباب القبلي .

وكان آخر للمساجد الكبيرة التي بنيت في عهد الباشوات ، مسجد محمد بك الشهير بأبي الذهب ، وقد سمى كذلك لعادة كان يسير عليها ، وهي أنه كان يثر الذهب على جموع الشعب . وكان أبو الذهب أحب عماليك على بك الكبير وأقربهم إليه ، ولقد جازاه بأن دبر له من المؤامرات ما كان سبباً في تحطيم شوكته ونفيه من البلاد ، وفي النهاية قضى على حياته . ومع ذلك فقد كان جندياً عظيماً ، أبلى بلاءً حسناً في الحروب التي قام بها في سورية وبلاد العرب ، وهو لا يزال في خدمة سيده على بك الكبير . وقد اكتسبته دماثة أخلاقه وكرمه حب الناس له ، فساد الأمن والسلام ربوع مصر

في المدة التي تقلد فيها زمام الحكم . وكان الباب العالي حكماً ، إذ ترك السلطة الحقيقية في يد هذا الأمير القوي المحبوب ، واكتفى بتعيين الولاة الباشوات كما كان يفعل من قبل . وفي عام ١٧٧٤م أسس محمد بك مدرسته الشهيرة الجميلة في مواجهة الأزهر وبني فيها قبره الذي دفن فيه .

وقد بنى مدرسته على مثال مسجد قديم في بولاق ( مسجد السنانية ) فكانت أمجوبة في فن البناء في بهائها ، وكانت ذات سقوف مذهبة وأروقة رخامية وقبة رائعة ونوافذ مزينة بالبرونز البديع الصنع . وكان بهذه المدرسة أيضاً أروقة للحنفية وأخرى للمالكية وثالثة للشافعية . وكان يحد العلماء الأجلاء ليدرسوا فيها العلوم الشرعية . وكانوا — على خلاف المؤلف في ذلك الوقت — يتقاضون المرتبات التي قد يصل بعضها إلى نحو مائة وخمسين بارة<sup>(١)</sup> ، ولا تقل عن عشر بارات في اليوم ، كما كانوا ينالون نحو خمسين مدا<sup>(٢)</sup> من الحبوب كل سنة . وفي يوم افتتاح هذه المدرسة خلع محمد بك على العلماء كسى من القراء الأبيض أو السمور بحسب مراتبهم ، وهي خلع خاصة بالجامعات . وكان مسجد محمد بك آخر المساجد الكبيرة في القاهرة إذا استثنينا مسجد محمد علي باشا الكبير في القلعة الذي يعلو العين بهجة وبهاء من أي جهة نظرت إليه ، ولو أنه — من غير شك — بناء تظهر فيه الروح الأجنبية ( مأخوذ من فن الاستانة أو استامبول ) ولا يتفق مع الطراز القاهري . وربما كان هذا الحكم فيه شيء من التعنت ، ومع ذلك فإننا لانستطيع أن نوفق بين العمارية العثمانية في وسط المدينة للملوكية القديمة .

لقد قلنا ما فيه الكفاية للتدليل على أن مساجد القاهرة لم يلحقها هدم أو تخريب في أيام حكم البكوات والباشوات ، بل على العكس من ذلك رأينا أن العناية بها كانت بالغة . وإنما بدأ عهد التهدم بمجيء محمد علي باشا ، وهو يشبه على بك ، إلا أنه كان أكثر منه توفيقاً ، إذ جعل نفسه سيد البلاد ، وبدأ عهداً جديداً ، إذا قورن بأشد عهود المماليك بطشا من حيث حزمه وقوته ، لكان لنا متراخياً . لقد وضع محمد علي

(١) كان رطل اللحم يباع بنحو بارتين .

(٢) المد : مكيال يسع نحو خمسة وعشرين أقة .



يده على أموال الأوقاف ( ١٨٠٨ - ١٨١٠ ) ، وهي أموال رسدها الكثيرون من محبي الخير منذ قرون عديدة للاتفاق من ريعها على المساجد والكتليات في مصر ولقد حرم العلماء من حق الإشراف على الأماكن المقدسة التي كانت في عهدهم ، وتركهم يكون ويسخطون . ومنذ صدر هذه الأوقاف وضاعت ملفات الوقفيات واكتنف الغموض حسابات هذه الثروة الطائلة ، بدأت آثار القاهرة تسير في طريق التهدم والبلل . كما أن حركة مسامرة أوروبا في القرن التاسع عشر - التي لم يكن منها بد والتي كان الاتجاه العام يسير نحوها - من شأنها أن تعمل على هدم كثير من المساجد وغيرها من الأبنية التاريخية التي كانت تعوق سير العربات أو تقف حجر عثرة في تنظيم الشوارع والميادين الجديدة التي كان الولاة يخططونها دون أي اعتبار لما يقع في طريقها من آثار تاريخية لها قيمتها . وكان شارع محمد علي ، أسطع مثال للشوارع التي كانت تمتد في هذه الطرق غير عابئة بما قد تهدمه من آثار تاريخية . وقد حدث مثل هذا في أغلب أحياء القاهرة تقريباً .

ولعل الإدارة التي تقوم بتخطيط هذه الشوارع كانت تقوم بما تقوم به مجالس المديرات في أضيق حدودها . وربما يرجع الفضل في عدم استمرار ذلك المهدم إلى حزم لجنة حفظ الآثار العربية ، وهي هيئة رسمية أبلت بلاء حسناً . ونحن ندين لها بفضل المحافظة على آثار عربية من جميع العصور ومن جميع الأنواع ، إذ لولا تدخلها في الوقت المناسب لضاعت معظم هذه الآثار . بل أنه يستحيل علينا أن نسجل تقديراً لأعمال هذه اللجنة التي تتميز بالنقطة والأناة ، فإن التقارير السبعة عشر التي تحفل بالكثير من الصور والإيضاحات والرسوم ، تكون مكتبة غنية بالمعلومات ، وتشهد في كل صفحة من صفحاتها بالعناية الكبيرة والمسئولية الجسيمة التي كان يحس بها أعضاؤها . ويحسن بي في هذا المقام أن أقتبس تقريراً عن الطرق التي سلكتها اللجنة والنتائج التي تمخضت عنها أبحاثها . وهذا التقرير قد طلبه مني اللورد كرومر في سنة ١٨٩٥ ، ثم نشره في تقريره السنوي عن نهضة مصر ، وتقدم به إلى البرلمان في سنة ١٨٩٦ .

الأثنيون بلندن

١٨٩٥/١٢/١٢

بيدي الورده

استجابة لدعوة سعادتك لي ، أشرف بأن أقدم ببعض الملاحظات على أعمال  
لجنة حفظ الآثار العربية التي أتاح لي الحظ فرصة فحص أعمالها فحصاً دقيقاً  
في صيف هذا العام .

وقد تشكلت هذه اللجنة بمقتضى مرسوم أصدره الخديو الراحل في الثامن عشر  
من شهر ديسمبر سنة ١٨٨٩ ، وكانت مهمتها تقضى بأن تتقدم بما يأتي :

أولاً — أن تقوم باستعراض الآثار العربية في مصر وتسهيل ما يكون منها  
ذات قيمة تاريخية أو فنية .

ثانياً — أن تشرف على حفظ هذه الآثار وتبلغ وزير الأوقاف ما نراه ضرورياً  
لإصلاحها والحفاظة عليها .

ثالثاً — أن تعد تصميات لهذه الإصلاحات وتشرف بدقة على تنفيذها .

رابعاً — أن تتأكد من أن تصميات الأعمال التي تم إنجازها محفوظة في  
وزارة الأوقاف ، وأن تشير إلى القطع المستقلة أو التحف التي يحسن أن تنقل إلى  
متحف الفن العربي .

ولقد حالت الاضطرابات السياسية دون تنفيذ الكثير من هذا العمل قبل  
سنة ١٨٨٢ ولكن عندما تمت زيارتي هذا العام لفحص الآثار العربية في مصر من  
يناير سنة ١٨٨٣ إلى مارس من نفس السنة ، وجدت اللجنة قائمة بعملها ، فأتيحت لي  
الفرصة لمساعدة بأكورة أعمالها . وبذلك أستطيع مقارنة الحالة التي كانت عليها  
هذه الآثار عندما بدأت تتسلمها يد اللجنة بطريق جديدة وبين ما هي عليه الآن بعد  
أن قامت اللجنة بعملها في الإصلاح والترميم مدة اثنتي عشرة سنة .

وأستطيع أن أقرر في ثقة تامة بأن حالة المساجد إذا قورنت بما كانت عليه في سنة  
١٨٨٣ و ١٨٨٤ ، أصبحت بحيث لا يخفى عليها من الانهيار والتهدم . وقد أمكن تقوية

الآثار التي كان يظن أن لأمل في حفظها، كما رمت جميع الباقى التي كانت آيلة للسقوط، وقد أشرفت اللجنة على حماية هذه الآثار بما كان يخشى منه من التخريب أو السرقة . ورجع الفضل في الوصول إلى هذه النتائج الباهرة إلى العناية الطيبة والجهود الموفقة، التي بذلها المرحوم روجرز بك ، وإلى فراتز باشا ، وسعادة يعقوب أرتين باشا — أولئك الذين ستظل أعمالهم مقرونة دائما بالهبة الفكرية في مصر . ولقد كان لبعض زملائهم الفرنسيين خدمات جليلة كانت تظهر من وقت لآخر . كما كان لاشتراك كثير من وكلاء وزارة الأشغال المتعاقبين — وخصوصا مستر (السير) وليم جارستن في أعمال اللجنة أهمية وقوة . وبطبيعة الحال ، كان أهم مركز في هذه اللجنة هو مركز المهندس المعماري الذي يشرف بحكم وظيفته على الآثار ويقوم بفحصها بدقة ويوجه أعمال الإصلاح ، سواء أ كانت ضرورية أو مستحسنة فقط ، ويباشر هذه الإصلاحات بنفسه . ومنذ أنشئت إدارة خاصة باللجنة وانفصلت عن القلم الفني بوزارة الأوقاف من أوائل سنة ١٨٩٠ قام جناب مستر ماكس هرتز — الرميل في الجمعية الأثرية — بهذه الوظيفة ، وأصبح المهندس المسئول في اللجنة . ومن العدل أن نقر له بأن درايته وخبرته الواسعتين في الفن والآثار كان لهما أثر فعال في الحالة الطيبة التي أصبحت عليها هذه الآثار في الوقت الحاضر . وإلى جانب خبرة السيور هرتز العملية كمهندس ، فإن له إلماما بالفن العربي وشغفا كبيرا بعمله . فإن الدليل الذي وضعه في هذه السنة باللغة الفرنسية عن دار الآثار العربية ، والذي سيعاد نشره باللغة الإنجليزية قريبا ( ١٨٩٦ ) يشف عن دراسة واسعة لتطور الفن العربي وللكتب العربية والأوربية التي لها علاقة بهذا الفن . كما أن الإصلاحات الوافية التي أجراها في بعض المساجد الصغيرة لأمدق دليل على علو كعبه في دراسة الفن وزخرفته ، وعلى مهارته في عمله ، كما يدل على حرصه وأمانته في إرجاع كل شيء إلى ما كان عليه أصلا . وعلى الرغم من أن لي رأيا خاصا في هذا التجديد . لا أستطيع إنكار هذه الحقيقة وهي أن تعيين هرتز بك في اللجنة كان عملا موقعا .

حفظ الآثار — يجب أن لا يخرب عن اليال أن واجب اللجنة الأول هو حفظ الآثار وليس تجديددها ، فقد قامت اللجنة الفرعية الأولى بكتابة قائمة كاملة حصرت فيها جميع الآثار التي يجب المحافظة عليها ، سواء أ كان ذلك لقيمتها التاريخية أم لقيمتها الفنية .

وقد ألقى على عاتق اللجنة مهمة الإشراف على حفظ كل ما جاء ذكره في هذه القاعة. وقد لاحظت بنفسى أن أعضاء هذه اللجنة كانوا يقدرون المسئولية الملقاة على عاتقهم ، وأنهم يقومون بعملهم خير قيام في حدود مواردهم القليلة . ولا أستطيع أن أعدد أو أن أورد كشفاً بالإصلاحات المطلوبة ، من بناء جدار بأ كنه في أحد المساجد ، إلى مجرد إزالة القاذورات التى علفت بالنقوش ، لأن ذلك يطول شرحه . ومن المستطاع الرجوع إلى تقارير اللجنة السنوية عن هذه الإصلاحات . وهذه التقارير لا تترك زيادة لمستزيد ، فدقتها وتام معلوماتها ولولا أنها لا تنشر بالسرعة التى يجب أن تنشر بها . غير أنه مازال هناك مجال كبير للعمل ، فإن بعض الإصلاحات التى أنجزت لا تعدو أن تكون وقفية تنتظر الوقت الذى تسمح فيه الظروف المالية لىكون الإصلاح أبقي على النهر . إذ لا يخفى أن حفظ هذه الآثار في صورة دقيقة يحتاج أول ما يحتاج إلى مال كثير . أما اللجنة فإنها تدرك ما يجب عليها لحفظ هذه الآثار ، إلا أن هذه المعرفة لا تجديها قليلاً ، إنا لم يتوافر لها المال اللازم وللوظفون الأكفاء .

هناك في الوقت نفسه ، تقطعتان أو ثلاث أرى ضرورة لفت نظر اللجنة إليها بوجه خاص ، حيث يمكن القيام بها حتى ولو بقيت الحالة المالية كما هى الآن غير كافية للقيام بالأعباء الملقاة على عاتق هذه اللجنة :

(١) فإذا ما كان هذا الإصلاح الشامل يحتاج إلى أموال لا تسمح بها الميزانية الحالية ، فإن هناك طريقة للمحافظة على الآثار تتمشى مع الذوق السليم ومع المنطق أيضاً ، ويجب الأخذ بها إذا خشي على الأثر من زيادة في التهدم أو الانهيار التام . وإن مسجد السلطان حسن خير مثل لهذه الحالة ، فإن المحافظة عليه بحافظة تامة تحتاج إلى آلاف من الجنيهات . ولا تستطيع اللجنة الآن أن تقوم بالأعمال التى رسمتها لذلك ، ولكنها تستطيع أن تدون سجلاً صادقاً عن حالة المسجد الحالية ، وأن ترسم تصميمات هندسية له بإيجاده . وأن تصور جميع جزئياته وزخارفه ونقوشه ، وأن تصنع نماذج من الفسيفساء والزخارف الملونة بالألوان الأصلية . وبالاختصار تعمل ما من شأنه أن يمكن من بناء المسجد في المستقبل بإيجاده الأصلية وزخرفته التى كان عليها (١) .

(١) هذا ما حدث فعلاً في مسجد السلطان حسن كما جاء في السفر الرابع — مسجد السلطان حسن بمصر — تأليف ماكس هرتزبك وقد قامت اللجنة بنشره في سنة ١٨٩٩ م .

إن مثل هذا العمل يعتبر سجيلا لا يقدر بحال على الباحثين في تاريخ الفن العربي ، بينما يجعل أمر الحفظ ممكنا ، حتى لو أعانت قلة الأموال اللجنة عن القيام بواجبها قبل أن يعمل يد البلى في زيادة التخریب . ولا ينرب عن البال أن تحضير مثل هذا السجل يستدعى زيادة الموظفين في اللجنة ، ولكن عرض هذا السجل للبيع بعد أن يضاف إليه المقدمة التاريخية والتفسيرات الضرورية اللازمة ، سيأتي لاشك بحال يسد الجزء الأكبر مما صرف على هذا العمل . على أنه لا يجوز لنا أن نتخذ إعداد هذا السجل بدلا من عملية الحفظ الحقيقية ولا أن نعتبرها حجة لتأخير العمل الحقيقي متى أمكن ذلك . ولكننا نقوم بذلك حرصا على ضياع أثر عظيم نتيجة أحداث فجائية ( كما قد يحدث لإحدى مآذن مسجد السلطان حسن ) .

(٢) وهناك احتياط آخر أقل بساطة من سابقه ، ولكنه خاص بالمساجد الصغيرة الحجم الكثيرة العدد ذات السقوف ، إذ تحوى هذه المساجد عادة نوافذ تغطيها النقوش أو الشباك للصبة ، وفي أكثر الحالات توجد فتحة صغيرة في الوسط تطل على الصحن . فإذا غطيت هذه الفتحة بالزجاج حفظت المسجد من فعل الرياح وإذا غطيت النوافذ الأخرى بشباك من السلك منعت عبث الطيور بدخل المسجد . ويجب أن تكون جميع المساجد المسقوفة عرضة لزيارات تفتيشية متكررة غايتها التحقق من سد جميع النوافذ والفتحات التي يتسرب منها المطر أو الطير للعبث بالداخل .

(٣) أما النقطة الثالثة فهي كثيرة النفقات ، ولكنها ضرورية جداً ، وهي بيع ملكية الحوانيت والمظلات والأكشاك التي تلتصق بواجهات بعض المساجد كما تلتصق الطفيليات . ذلك لأن أصحاب هذه الحوانيت والأكشاك يستعملون المساجد القائمة خلف حوانيتهم لإلقاء فضلاتهم وقاذوراتهم فيها من النوافذ . فهم يسيئون إلى هذه المساجد من الداخل بما يرمونه من الفضلات ، ومن الخارج بتضييق الشارع ( أنظر شارع النحاسين ) ، وتعويق حركة المرور ، ويحجب واجهات المساجد حتى إنها لا ترى على صورتها الحقيقية ولا تظهر العين روعتها .

ويجمل أن تقسم اللجنة لمدينة القاهرة إلى أحياء منتظمة حتى لا يتعرض أحد هذه المساجد الأثرية إلى النسيان أو الإهمال ، وأن يكتب كشف بالآثار الموجودة

في كل حى على حدة ، وأن تقوم اللجان التفتيشية بدوراتها المنتظمة ، وأن يزورها للهندس الممارى مرة في كل سنة على الأقل . ولما كان عدد الآثار المدون في الكشف كبيراً جداً قد لا تسمح بزيارته أكثر من مرة أو مرتين في كل موسم وجب أن تدون في سجل خاص الحالة التي وجد للتفتش عليها كل أثر . وهنا تعرض لنا مسألة الآثار الخاصة ، سواء كانت مساجد أو منازل أم أسبلة أم وكالات أم غير ذلك . ويظهر أن الحكومة لا تملك من أمرها شيئاً ، فهي لا تستطيع أن تأمر أصحابها بأن يحافظوا على هذه الممارات التاريخية التي يسكنونها أو أن يوجروها أو أن ترغمهم على بيعها . والواقع أن منازل السكنى القليلة التي بقيت في القاهرة من العصر الوسيط ، هي أهم من الناحية الفنية من المساجد التي يصرف عليها من الأوقاف الأهلية الفردية ، لأنها هي الأمثلة الوحيدة الباقية التي تشاهد على ما كانت عليه الحياة العائلية في الفن العربي . لهذا كان من المرغوب فيه كثيراً أن يكون للجنة إشراف فعلى على حفظها ، فإذا أمكن دفع تعويض لأصحابها لما خسروا شيئاً إذا ما نزلوا عنها أو عارضوا في إشراف اللجنة عليها .

الإصلاح أو التجديد — لم تقصر اللجنة عملها على حفظ الآثار ، بل أخذت على هامشها إصلاح بعض الآثار إصلاحاً شاملاً بل تجديدها . غير أن الدوائر الفنية والدوائر المهمة بالمهارة الأثرية تتوجس خيفة — ولها بعض الحق — من هذه النزعة زعة الإصلاح والتجديد . وفي رأي أن خص بعض أعمال الإصلاح التي قام بها هرتر بك ستذهب بالخاوف التي تشعربها هذه الدوائر ، ولو أنها مخاوف في عملها على وجه العموم . فقد شرح لي هنا المهندس رأيه ، ويخيل إلى أن هذا الرأي مقبول وهو يتلخص فيما يلي : —

إنه لا يجوز إعادة بناء أي أثر من الآثار فريد في نوعه كمسجد ابن طولون ، كما لا يجوز إعادة بناء أي أثر من آثار عصر من العصور لم يبق من عمارته إلا شواهد قليلة كمساجد الأسرة الفاطمية بل إنه يكتفى في مثل هذه الآثار بمجرد الحفظ حتى لا تنهدم جدرانها أو تعفى آثارها كلية . ولكن إذا وجدت مساجد متعددة من عصر واحد ومتشابهة في الطراز — وكثيراً ما تكون متشابهة في جزئيات الزخرف مثل عصر قايتباي — فلا مانع من اختيار بعضها لعمل الإصلاحات الشاملة فيها وإعادة

على قدر الإمكان إلى أقرب ما كانت عليه يوم أن بنيت أولا وأعدت للعبادة أول الأمر .  
وقد ذكر هرتز بك بضع أمثلة لمساجد تمثل عصرنا ، ولكن إصلاحها لم يكن  
النجاح فيه مرضيا خصوصا ما كان منه خاصا بالألوان مع ما مر به من التجارب  
وأكتسب من الخبرة . غير أنني أعتقد أن المتصين ضد الإصلاح سوف لا يجدون  
عجلا كبيرا لتقد الإصلاح الدقيق الذي أدخل على مسجد القاضى أبى بكر بن مظهر  
فى حى برجوان ، والذي أعاد المسجد إلى ما كان عليه من الرواء فى أيام بنائه .

وإذا اعترض الناقدون على ما حدث من العبث فى إصلاح مسجد المؤيد — وقد تم  
ذلك قبل وجود هذه الهيئة — فإن نقوش الإفرز وطلاء السقف قد تم بدقة حتى  
أعادها دون أدنى شك إلى حالتها الأولى . وإنى أشهد بعدما عاينته بنفسى أن مهندس  
اللجنة اتخذ كل ما يمكن من الحيلة ليتأكد من أنه كشف عن حقيقة الرسم الأصلى  
وألوان الطلاء التى استعملها المهندسون الأصليون بعد أن غطتها الأوساخ وأنواع  
الدهان قرونا عدة ، كما أشهد للمساعدين والعاملين الذين قاموا بأعمال المعادن والخشب  
بعمارة وحلق ، وأنهم أحسنوا تقليد الرسوم الأصلية حتى أنه ليستحيل التمييز بين الأصل  
والمستحدث (ولو أنهم لم يملفوا بعد مثل هذه الدرجة من الكمال فى صنع الزجاج) .  
غير أنني لا أكتفى ما أشعر به من أن هذا هذا الحلق — لو لم تصحبه الدقة والأمانة  
فى كل جزئياته (مثل ذلك للسامير والأزرار البارزة المصنوعة من البرز والصفائح  
النحاسية على الأبواب والخشب المطعم بالسن على الأبواب والمنابر) لتعرض لاحتمال  
إدخال التزييف فيه .

فى أعمال الإصلاح الحديثة للنقوش والكتابة العربية دون تاريخ الإصلاح  
عليها ، ولكن بعض الزخارف لا يظهر فيها بين الأصل وبين الإصلاح . وخشية  
أن تضيق الحقيقة فلا يبقى من يذكرها يجب أن يادر القائمون بالإصلاح فيذكروا  
ذلك قبل أن ينسوه هم أنفسهم ويجب أن تحمل كل صفيحة من المعدن أو لوح من  
الخشب أو قطعة من الفسيفساء علامة مميزة كتاريخ الإصلاح ، كما يجب أن تحتفظ  
اللجنة فى محفوظاتها برسوم للآثار تميز فيها الإصلاحات بألوان مختلفة لا بألوان النقوش  
الأصلية . فإذا اتبعت هذه القاعدة بكل دقة فإنى لا أرى بأسا — بل بالعكس أرى  
فائدة كبيرة — من تجديد عدد محدود من المساجد ، وإذا سار العمل كما سار فى

في تجديد مسجد القاضي أبي بكر بن مظهر ، فلا خوف من التزييف ، بل إنه تجديد على أحسن ما يكون التجديد ويظهر أن جمال هذه للمسجد المستجدة تستهوي أفئدة المسلمين . ولا شك أن مسجد المؤيد قد ساعد على إقبال المسلمين عليه بعد أن جند لإيوانه وماد إليه شيء من جمال زخرفته وتقوسه للنهبة . وهذا أمر لا بد أن يكون قد استرعى نظر وزارة الأوقاف وأنها قد أصبحت تحسب له حساب . ولا يغرب عن البال أنه قد يخشى من إهمال مجرد المحافظة على الآثار انتظاراً لتجديدها ، لأن التجديد يستهوي لب المهندس والجمهور أكثر مما يستهويه مجرد المحافظة على أثر ، ذهب جماله . وتقوم اللجنة في الوقت الحاضر بتجديد خمسة مساجد (١) هي : مسجد زين العابدين يحيى بالقرب من الموسيقى ، وجامع البنات ، وجامع إستبغا بدرب سعادة وجامع قبحش الإسحقى ، بخلاف جامعى المؤيد وأبي بكر بن مظهر اللذين يعدان في حكم المنتهين . ومن هذه المساجد مسجدان ممتلكان للأهالى ، ويتحمل أصحابهما نفقات الإصلاح من أوقافهم الخاصة .

ومع ذلك فإنى أرى أن ماتم من التجديد كان في الوقت الحاضر ، وأن واجب اللجنة أن تتفرغ في السنتين أو الثلاث المقبلة إلى فحص شامل للآثار المدونة في كشوفها ، وهي ترمى إلى المحافظة عليها بحافظة تامة . وعلى كل حال فإن اختيار مساجد عدة لتجديدها تجديداً شاملاً مسألة لها أهمية لا تنكر . ولكن يجب أن لا ننسى أن عملية التجديد تحتاج إلى مال كثير ، وليس من الحكمة الاندفاع ، مادامت ميزانية اللجنة لا تكاد تكفى أعمال المحافظة فقط .

هذه هي يا سيدى اللورد ، نتائج الملاحظات التى عنت لى بعد أن فحصت نتائج أعمال اللجنة . وأرى أنى قد قصرت ملاحظاتي على القاهرة لأن الوقت لم يتسع للوقوف على الأعمال التى تمت في جهات أخرى من مصر . وقد بينت أن أعمال اللجنة في القاهرة كانت أعمالاً باهرة وأنها آتت جزءاً كبيراً من مهمتها ، على الرغم من قلة مواردها اللادية وما قلم في وجهها من اعتراض بل مقاومة في بعض الأحيان . وإن الملاحظات القليلة التى أبديتها هنا لا تقلل من عظمة أعمال الحفظ

---

(١) أن كل هذه الأعمال قد تمت الآن .



والتجديد التي قامت بها اللجنة سواء في كميته أم في دقة أعمالها وخطورتها .  
وفي رأي أن وزارتي الأوقاف والأشغال يجب أن تعاونا على زيادة ميزانية اللجنة  
إلى عشرة آلاف من الجنيهات ثم يتركها حرة في تصرف شئونها ، وقد أظهرت  
كفاية في هذا السبيل . على أنه إذا أمكن إنشاء وزارة للفنون الجميلة تشمل إدارة  
الآثار ولجنة حفظ الآثار ومتحف الجيزة ودار الآثار العربية ، لكان ذلك إجراء  
سليماً . غير أن التفكير في مثل هذه الخطوة الجريئة الشاملة لا تدخل في الحدود  
التي رسمتموها سعادتمكم لي لأضمنها تقريرى .

الآن ، وقد وصلت إلى آخر ملاحظاتي لا أرى ما أضيف إليها ، فقد برهنت  
للسايدات التالية على صحة القول بأن اللجنة قد قامت — وما زالت تقوم —  
بأعمال نبيلة لحفظ آثار القاهرة . ولقد ضمن اللورد كرومر تقريره الشامل جميع  
الفقرات التي أهملت ذكرها في مقتطفاتي السابقة التي عكس حالة اللجنة المالية ، كما  
تضمن نتائج أبحاثي وملاحظاتي ، ووافق على اقتراحاتي بالمحافظة على الآثار من التلف  
كما أضاف إليها رأيه في أن يشمل نشاط اللجنة فحص حالة الكنائس القبطية . فقد  
كتب اللورد كرومر : « كنت أعلم منذ عهد جيد أن الإعانة التي تمنحها مصلحة  
الأوقاف غير كافية ، وأنه إذا أريد لهذه اللجنة أن تزيد في نشاطها ، وجب أن تعدها  
بالمزيد من الإعانات . ولقد كان الدافع الرئيسى الذى دعانى لاستشارة المستر ستانلى  
لينول هو أن استخلص منه أحسن الوجوه في صرف الإعانات الجديدة عندما  
يمكن الحصول عليها .

وعندما تسلمت تقرير المستر ستانلى لينول اتصلت بالمسؤولين في المالية والأشغال  
العمومية ، وكان من أثر هذا الاتصال أن تقدمنا باقتراح إلى مندوبى صندوق الدين  
لنمنحونا مبلغ عشرين ألفاً من الجنيهات من المال الاحتياطى الذى تصرفه لجنة حفظ  
الآثار في سنتى ١٨٩٦ و ١٨٩٧ . ويسرنى أن أذكر أن اقتراحنا قد قوبل قبولا  
حسناً ، وأن للمال المطلوب قد تقرر صرفه لنا ، وقد صرف فعلاً ، ولم يبق إلا أن  
تقدم الحساب على أنه قد صرف فيما خصص له .

وكان للزيادة المسمحة التى أضيفت إلى ميزانية اللجنة نتيجة استفادت منها الآثار  
فائدة يضيق المقام من تعدادها . إلا أنه يجب أن نذكر بصفة خاصة ذلك الإصلاح

الذى أدخل على مسجد المارداني ، والذي تكلف أربعة آلاف جنيه . ولاغرو فإن هذا المسجد لم يكن من إصلاحه بد ، وقد أثمرت الحكومة التي أنفقت من أجله ، أحسن الثمار . ولا شك في أن كل من يزور القاهرة يمتلكه الحب لما طرأ على المساجد من تغيير ، منذ بدأت تعنى هذه اللجنة بأمورها . فكم من مساجد كانت قاب قوسين أو أدنى من أن تصبح أطلالا دارسة قد أصبحت اليوم تزهو بعظمتها في جو يسوده الأمن والطمأنينة ، وكم من مساجد أخرى أمكن على الأقل إطالة زمن بقائها . والحق أنه ما من تحفة من تحف الفن العربي أو أثر من آثار أسوار المدينة . وما من قطعة خشبية منقوشة أو منحوتة مما صغر حجمها ، إلا كانت موضع رعاية اللجنة وعنايتها . وفي الحالات التي لم يكن من المستطاع فيها إصلاح الآثار البالية ، كانت تجمع برمتها وتنقل إلى دار الآثار العربية ، ذلك المتحف الذي يشهد بدوره على العمل الذي تم في خلال العشرين سنة للخاصية وقد أمكن في تلك السنوات تضييد الجروح التي أحدثها البلى والإهمال والجهل ، وهذه أسهم نافذة أصابت قلب الآثار في القاهرة العصور الوسطى .

## جدول (١) يبين حكام القاهرة وآثارها

### (١) الفترة العربية

التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	الحاكم	الآثار	السنة الهجرية
٦٤٠ — ٨٦٨	٢٠ — ٢٥٤	٩٨ حاكما في ظل خلفاء دمشق وبغداد	جامع عمرو + مدينة الخيمة ( القسطنطين ) مقاييس النيل الأول في الروضة المسكرة مقاييس النيل الثاني في الروضة	٢١ ٢١ ٩٨ ١٣٣ ٢٤٧

### (٢) فترة الأتراك

#### ١ — البيت الطولوني :

التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	الحاكم	الآثار	السنة الهجرية
٨٦٨	٢٥٤	أحمد بن طولون	القطائع قصور القطائع الارستان	٢٥٦ ٢٥٦ ٢٥٩
٨٨٣	٢٧٠	خاروية بن أحمد بن طولون	جامع ابن طولون [٥]	٢٦٥-٢٦٣
٨٩٥	٢٨٢	جيش بن خاروية	قصور القطائع	٢٧٠
٨٩٦	٢٨٣	هارون بن خاروية		
٩٠٤	٢٩٢	شيبان بن أحمد بن طولون		

(\*) تشير هذه العلامة إلى أن البناء — أو جانب منه — لا يزال موجودا حتى الآن.

(+) تشير هذه العلامة إلى أن الأثر قد أعيد بناؤه في نفس الموقع .

[ يوجد جدول ملحق بآخر الكتاب لتحويل السنين الهجرية إلى سنين ميلادية ]

ب — حكام الخلفاء :

التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
٩٠٥—٩٣٤	٢٩٢—٣٢٣	ثلاثة عشر حاكما		

ج — بيت الإخشيد :

التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
٩٣٤	٣٢٣	محمد الإخشيد	قصر في حديقة كافور في الروضة	
٩٤٦	٣٣٤	أبو القاسم أنوجور بن الإخشيد	مارستان في القسطنطينية	٣٤٦
٩٦٠	٣٤٩	أبو الحسن علي بن الإخشيد	جامع البعيزة	٣٥٠
٩٦٦	٣٥٥	أبو الحسن كافور		
٩٦٨	٣٥٨	أبو القوارس أحمد بن علي		

( ٣ ) فترة الفاطميين

التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	الحكام	الآثار	السنة الهجرية
٩٦٩	٣٥٨	العزيز	تأسيس القاهرة	٣٥٨
			القصر الشرقي العظيم الخ	٣٥٨
			جامع الأزهر	٣٥٩
٩٧٥	٣٦٥	العزيز	القصر الغربي .. الخ	
٩٩٦	٣٨٦	الحاكم	جامع الحاكم	٤٠٣—٣٨٠
			جامع رشيدة	٣٩٣—٣٩٥
١٠٢١	٤١١	الظاهر	جامع القس	
١٠٣٦	٤٢٧	المتنصر	جامع الجيوشي	٤٧٨
			باب النصر	
			باب الفتوح	
			السور الثاني	
			باب زويلة	٤٨٠—٤٨٤
١٠٨٨	٤٨٧	المتنصر	جامع عقاب النيل	٤٨٥
١١٠١	٤٩٥	الأمير	جامع الأقر	٥١٩
			بضعة مساجد (يونس، كافور، ...)	
			باب الخوخة ( ... )	

١١٣٩	٥٢٤	الحافظ	عرب الأهر والسيدة رقية •	٥٤٣
١١٤٩	٥٤٤	الفاخر	جامع الأقر •	٥٤٣
١١٥٤	٥٤٩	القائز	جامع الصالح طلائع •	٥٥٥
١١٦٠	٥٥٥	الماجد		

( ٤ ) بيت صلاح الدين

التاريخ الميلادي	التاريخ الهجري	الحكام	الأثار	السنة الهجرية
١١٦٩	٥٦٥	الناصر صلاح الدين بن أيوب	جامع نجم الدين أيوب	٥٦٦
			مدرسة الناصرية	٥٦٦
			مدرسة القمحية	٥٦٦
			مدرسة القطبية	٥٧٠
			مدرسة ابن الأرسوف	٥٧٠
			مدرسة السيوفية	٥٧٢
			القلعة	٥٧٢
			البهاء في السور الثالث	٥٧٢
			الارستان	٥٧٥
			مدرسة الفاضلية	٥٨٠
١١٦٣	٥٨٩	العزير بن صلاح الدين	جامع ابن البنا	٥٩١
			مدرسة اشكويه	٥٩٢
١١٩٨	٥٩٥	المنصور بن العزيز	مدرسة غزنوية	
١٢٠٠	٥٩٦	العاقل سيف الدين	مدرسة المادلية	
			مدرسة الشريفة	٦١٢
١٢١٨	٦١٥	الكامل بن العادل	تجديد مسجد الشافعي	٦١٢
			مدرسة الكاملية	٦٣٢
			مدرسة الفخرية	٦٣٢
			زاوية قصرى	٦٣٣
			مسجد ابن الشيخ	٦٣٣
١٢٣٨	٦٣٥	العاقل ( لثاني ) بن الكامل	مدرسة الصيرمية	٦٣٦
			مدرسة القانزية	٦٣٦
١٢٤٠	٦٣٧	الصالح أيوب بن الكامل	مدرسة الصالحية	٦٣٩
١٢٤٩	٦٤٦	المظفر توران شاه بن الصالح	جامع الروضة • الخ	٦٤٧
			زاوية خدام	

## (٥) الممالك الأتراك

التاريخ الميلادي	التاريخ الميلادي	الحكام	الأثار	السنة الهجرية
١٢٥٠	٦٤٨	الملك شجرة الدر	ضريح الصالح	٦٤٨
١٢٥٠	٦٤٨	الحز أيك	مدرسة القطبية	٦٥٠
١٢٥٧	٦٥٥	النصور علي بن أيك	مدرسة الصاحبة	٦٥٤
١٢٥٩	٦٥٧	الغفر قنر		
١٢٩٠	٦٥٨	الظاهر بيبرس	المدرسة الظاهرية	٦٦٠
			مسجد الحسين	٦٦٢
			المدرسة الماجدية	٦٦٣
			جامع الأقرم	٦٦٣
			جامع الظاهر	٦٦٥
			مدرسة المهذبة	
			مدرسة قاركانية	٦٧٦
١٢٧٧	٦٧٦	السيد بركة خان بن بيبرس		
١٢٧٩	٦٧٨	المادل سلامش بن بيبرس		
١٢٧٩	٦٧٩	النصور قلاوون	المدرسة المنصورية	٦٨٤
			مارستان قلاوون	٦٨٤
			زاوية الجيزي	٦٨٤
			زاوية الهلاوي	٦٨٧
			خاتمة البندقدارية	٦٨٧
١٢٩٠	٦٨٩	الأشرف خليل بن قلاوون	باب من عكة	٦٨٨
١٢٩٣	٦٩٣	الناصر محمد بن قلاوون		
١٢٩٤	٦٩٤	المادل كتيبا		
١٢٩٦	٦٩٦	النصور لاجين	تجديد جامع ابن طولون	
			مدرسة طنجية	٦٩٦
			مدرسة منجوتعمرية	٦٩٨
			مدرسة الناصرية	٦٩٨
			مدرسة قرانقرية	٦٩٩-٧٠٣
			مدرسة الجمالية	٧٠٠
			تجديد المسجد الأزهر	٧٠٣
			تجديد مسجد الحاكم	
			تجديد مسجد طلائع	٧٠٤-٧٠٣
			مسجد طيبرس	٧٠٧

٧٠٩-٧٠٦	خاقاه يبرس *	المظفر يبرس ( جاشنكير )	٧٠٨	١٣٠٨
٧٠٩	مدرسة طبرسية *	الناصر ( الملقنة الثالثة )	٧٠٩	١٣٠٩
٧٠٩	زاوية الحمص			
٧١٣	جامع الجاكي			
٧١٣	قصر القلعة			
٧١٣	قناة المياه			
٧١٥	مدرسة السعيدية			
٧١٧	خاقاه أرسلان			
٧١٨	جامع القلعة *			
٧١٩	الأمير حسين *			
٧١٩	مدرسة المسكية			
٧٢٢	مدرسة جاوлие *			
٧٢٤	مقبرة أردوچين *			
٧٢٥	مدرسة مهندارية *			
٧٢٦	مدرسة بكترية			
٧٢٩	جامع الخزانى			
٧٣٠	الملاز *			
٧٣٠	البرقية *			
٧٣٠	قوسون *			
٧٣٠	ساروجا *			
٧٣٤	مدرسة أقبجية			
٧٣٤	مقبرة تاشنير *			
٧٣٥	قصر بشتاك *			
٧٣٦	خاقاه قوسون			
٧٣٦	خاقاه سرياقوس			
٧٣٦	جامع بشتاك			
٧٣٧	أبدير *	المنصور أوبكر	٧٤١	١٣٤١
٧٣٨	المرحاني *	الأشرف بك	٧٤٢	١٣٤١
٧٤٠	ست مسكة *	الناصر أحمد	٧٤١	١٣٤٢
٧٤١	ابن غازى *	الصالح إسماعيل	٧٤٤	١٣٤٢
		الكامل شعبان	٧٤٦	١٣٤٥
٧٤٥	الطواشي *	المظفر حاجي	٧٤٧	١٣٤٦
٧٤٨	ابن الطباخ *	الناصر حسن	٧٤٨	١٣٤٧

جامع كجك*			
• أفتقر			
• الإسماعيلي			
• قتلغا*			
• الأسويوطي			
خانقاه أم أنوك*			
• الجيغا			
جامع منجك*			
• شينغو*			
مدرسة الخروبة			
حوض لاجين*			
مدرسة قيسراية			
المدرسة الصغيرة			
	الصلح صالح بن الناصر	٧٥٢	١٣٥١
	حسن ( السلطنة الثانية )	٧٥٥	١٣٥٤
خانقاه شينغو*			
المدرسة الفارسية			
مدرسة صرغتمشية			
مدرسة السلطان محمد			
المدرسة البديرية			
المدرسة الحجازية*			
المدرسة البشرية			
مدرسة السابكية			
مقبرة الطليبية*			
جامع شعبان*			
مدرسة بيكرية (			
مدرسة جاي اليو-			
مدرسة بقرية			
مدرسة ابن مرام			
مقبرة أم صالح			
	للنصور محمد	٧٦٢	١٣٦١
	الأشرف شعبان	٧٦٤	١٣٦٣
	أحفاد الناصر		
	النصور علي بن شعبان	٧٧٨	١٣٧٦
	الصلح حاجي بن شعبان	٧٨٢	١٣٨١



## (٦) الممالك الشراكية

السنة الهجرية	الأثر	الحكام	التاريخ الهجري	التاريخ الميلادي
٧٨٤	مقبرة أناس *	الظاهر برفوق	٧٨٧	١٣٨٢
٧٨٥	مدرسة أيتش *			
٧٨٨	مدرسة برفوق			
٧٩٠	جامع زين الدين			
٧٩٥	مدرسة إينال (أستاذة)			
٧٩٧	مدرسة عمودية			
٧٩٧	مدرسة زمامية			
٧٩٨	مدرسة ابن خراب			
٨٠٣	مسجد ابن عبد الظاهر	الناصر فرج بن برفوق	٨٠١	١٣٩٩
٨٠٤	مدرسة السودان			
٨٠٦	مدرسة مهلي			
٨٠٣-٨١٣	خانقاه ومقبرة برفوق	النصور عبد العزيز بن برفوق	٨٠٨	١٤٠٥
٨١١	مدرسة فرج			
٨١١	مدرسة جمال الدين	فرج (الحكم الثاني)	٨٠٩	١٤٠٥
٨١٢	جامع حوش (القلعة)			
٨١٤	جامع بركة الرطلي	المستعين (الخليفة)	٨١٥	١٤١٢
٨١٥	مسجد الضوا (القلعة)	للؤيد شيخ	٨١٥	١٤١٢
٨١٧	مسجد الباسط			
٨١٧	مسجد الحنفى			
٨١٨	مسجد الزاهد			
٨١٧	مارستان للؤيد			
٨١٩-٨٢٣	جامع للؤيد			
٨٢١	مدرسة عبد القنى *			
٨٢١	جامع القفري			
٨٢٣	مدرسة القاضي عبد الباسط			
		المنظر أحمد بن شيخ	٨٢٤	١٤٢١
		الظاهر ططر	٨٣٤	١٤٢١
		الظاهر محمد بن ططر	٨٣٤	١٤٢١
٨٢٧	مدرسة برصباي	الأشرف برصباي	٨٣٥	١٤٢١
٨٣٠	جامع جاني بك			

٨٣٠	مدرسة فيروز *			
٨٣٥	خاتاه ومقبرة برسباي			
٨٤٤	مدرسة تفرى بردى *	العزيز يوسف بن برسباي	٨٤٢	١٤٣٨
٨٤٥	جامع ثاني بك *	الظاهر جقمق	٨٤٢	١٤٣٨
٨٥٠-٨٤٨	جامع ومقبرة القاضي يحيى	للنصور عثمان بن جقمق	٨٥٧	١٤٥٣
٨٥٣	جامع جقمق			
٨٦٠-٨٥٥	مدرسة وخاتاه ومقبرة إبنال *	الأشرف إبنال	٨٥٧	١٤٥٣
		المؤيد أحمد بن إبنال	٨٦٥	١٤٦١
٨٦٩	مقبرة ثاني بك *	الظاهر خوشقدم	٨٦٥	١٤٦١
٨٧٠	مسجد نور الدين *			
٨٧٠	جامع سودان *			
٨٧٠	مدرسة قانم			
		الظاهر يلباي	٨٧٢	١٤٦٧
٨٧٦	جامع تراز *	الظاهر عمر با	٨٧٢	١٤٦٧
٨٨٠	جامع أزيك بن تش	الأشرف قايتباي	٨٧٣	١٤٦٨
٨٨٠	قصر يشبك			
٨٧٩	مدرسة ومقبرة قايتباي *			
٨٨٠	مدرسة قايتباي في المدينة			
٨٨٢	وكالة قايتباي بجوار الأزهر *			
٨٨٤	سبيل قايتباي			
٨٨٥	وكالة قايتباي ( باب النصر )			
٨٨٥	وكالة قايتباي ( السروجية ) *			
٨٨٦	قبة قايتباي القنوية			
٨٩٠	قصر ومكان قايتباي *			
٨٩٠	تجديد الأبواب الجنوبية			
٨٩٦	مدرسة في الروضة *			
٨٨٣	جامع قانم *			
٨٨٥	مدرسة أبو بكر بن مظهر *			
٨٧٦	جامع قجاس *			
٩٠٠	مدرسة زيك اليوسفي *			

٩٠١	قصر عمادى ( بيت القاضى ) *	الناصر محمد بن قايتباى	٩٠١	١٤٩٦
٩٠٤	مقبرة قانسوة	الظاهر قانسوة	٩٠٤	١٤٩٨
		الأشرف جلال	٩٠٥	١٥٠٠
٩٠٦	مقبرة العادل طومان باى *	العادل طومان باى	٩٠٦	١٥٠١
٩٠٨	جامع خير بك	الأشرف قانسوة النورى	٩٠٦	١٥٠١
٩٠٨	مدرسة فاني بك أمير آخور *			
٩٠٩	مدرسة النورى *			
٩٠٩	ضريح النورى			
٩١٠	مقبرة سودون *			
٩١١	مدرسة جاني بك قره			
٩١١	تجديد قناة المياه إلى القلعة			
		الأشرف طومان باى	٩٢١	١٥١٦
		غزو الأتراك الممانيين	٩٢٢	١٥١٧

## جدول (٢)

لتحويل السنين الهجرية إلى سنين ميلادية

السنه الهجرية	السنه الميلادية	تبدأ في	السنه الهجرية	السنه الميلادية	تبدأ في
١	٦٢٢	١٦ يولي	٣٦	٦٥٦	٣٠ يونيه
٢	٦٢٣	٥	٣٧	٦٥٧	١٩
٣	٦٢٤	٢٤ يونيه	٣٨	٦٥٨	٩
٤	٦٢٥	١٣	٣٩	٦٥٩	٢٩ مايو
٥	٦٢٦	٢	٤٠	٦٦٠	١٧
٦	٦٢٧	٢٣ مايو	٤١	٦٦١	٧
٧	٦٢٨	١١	٤٢	٦٦٢	٢٦ أبريل
٨	٦٢٩	١	٤٣	٦٦٣	١٥
٩	٦٣٠	٢٠ أبريل	٤٤	٦٦٤	٤
١٠	٦٣١	٩	٤٥	٦٦٥	٢٤ مارس
١١	٦٣٢	٢٩ مارس	٤٦	٦٦٦	١٣
١٢	٦٣٣	١٨	٤٧	٦٦٧	٣
١٣	٦٣٤	٧	٤٨	٦٦٨	٢٠ فبراير
١٤	٦٣٥	٢٥ فبراير	٤٩	٦٦٩	٩
١٥	٦٣٦	١٤	٥٠	٦٧٠	٢٩ يناير
١٦	٦٣٧	٢	٥١	٦٧١	١٨
١٧	٦٣٨	٢٣ يناير	٥٢	٦٧٢	٨
١٨	٦٣٩	١٢	٥٣	٦٧٢	٢٧ ديسمبر
١٩	٦٤٠	٢	٥٤	٦٧٣	١٦
٢٠	٦٤٠	٢١ ديسمبر	٥٥	٦٧٤	٦
٢١	٦٤١	١٠	٥٦	٦٧٥	٢٥ نوفمبر
٢٢	٦٤٢	٣٠ نوفمبر	٥٧	٦٧٦	١٤
٢٣	٦٤٣	١٩	٥٨	٦٧٧	٣
٢٤	٦٤٤	٧	٥٩	٦٧٨	٢٣ أكتوبر
٢٥	٦٤٥	٢٨ أكتوبر	٦٠	٦٧٩	١٣
٢٦	٦٤٦	١٧	٦١	٦٨٠	١
٢٧	٦٤٧	٧	٦٢	٦٨١	٢٠ سبتمبر
٢٨	٦٤٨	٢٥ سبتمبر	٦٣	٦٨٢	١٠
٢٩	٦٤٩	١٤ سبتمبر	٦٤	٦٨٣	٣٠ أغسطس
٣٠	٦٥٠	٤	٦٥	٦٨٤	١٨
٣١	٦٥١	٢٤ أغسطس	٦٦	٦٨٥	٨
٣٢	٦٥٢	١٢	٦٧	٦٨٦	٢٧ يولي
٣٣	٦٥٣	٢	٦٨	٦٨٧	١٨
٣٤	٦٥٤	٢٢ يولي	٦٩	٦٨٨	٦
٣٥	٦٥٥	١١	٧٠	٦٨٩	٢٥ يونيه

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في	السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٧١	٦٩٠	١٥ يولية	١١١	٧٢٩	٥ ابريل
٧٢	٦٩١	" ٤	١١٢	٧٣٠	٢٦ مارس
٧٣	٦٩٢	٢٣ مايو	١١٣	٧٣١	" ١٥
٧٤	٦٩٣	" ١٣	١١٤	٧٣٢	" ٣
٧٥	٦٩٤	" ٢	١١٥	٧٣٣	٢١ فبراير
٧٦	٦٩٥	٢١ ابريل	١١٦	٧٣٤	" ١٠
٧٧	٦٩٦	" ١٠	١١٧	٧٣٥	٢١ يناير
٧٨	٦٩٧	٣٠ مارس	١١٨	٧٣٦	" ٢٠
٧٩	٦٩٨	" ٢٠	١١٩	٧٣٧	" ٨
٨٠	٦٩٩	" ٩	١٢٠	٧٣٧	٢٩ ديسمبر
٨١	٧٠٠	٢١ فبراير	١٢١	٧٣٨	" ١٨
٨٢	٧٠١	" ١٥	١٢٢	٧٣٩	" ٧
٨٣	٧٠٢	" ٤	١٢٣	٧٤٠	٢٦ نوفمبر
٨٤	٧٠٣	٢٤ يناير	١٢٤	٧٤١	" ١٥
٨٥	٧٠٤	" ١٤	١٢٥	٧٤٢	" ٤
٨٦	٧٠٥	" ٢	١٢٦	٧٤٣	٢٥ أكتوبر
٨٧	٧٠٥	٢٣ ديسمبر	١٢٧	٧٤٤	" ١٣
٨٨	٧٠٦	" ١٢	١٢٨	٧٤٥	" ٣
٨٩	٧٠٧	" ١	١٢٩	٧٤٦	٢٢ سبتمبر
٩٠	٧٠٨	٢٠ نوفمبر	١٣٠	٧٤٧	" ١١
٩١	٧٠٩	" ٩	١٣١	٧٤٨	٣١ أغسطس
٩٢	٧١٠	٢٩ أكتوبر	١٣٢	٧٤٩	" ٢٠
٩٣	٧١١	" ١٩	١٣٣	٧٥٠	" ٩
٩٤	٧١٢	" ٧	١٣٤	٧٥١	٣٠ يولية
٩٥	٧١٣	٢٦ سبتمبر	١٣٥	٧٥٢	" ١٨
٩٦	٧١٤	" ١٦	١٣٦	٧٥٣	" ٧
٩٧	٧١٥	" ٥	١٣٧	٧٥٤	٢٧ يولية
٩٨	٧١٦	٢٥ أغسطس	١٣٨	٧٥٥	" ١٦
٩٩	٧١٧	" ١٤	١٣٩	٧٥٦	" ٥
١٠٠	٧١٨	" ٣	١٤٠	٧٥٧	٢٥ مايو
١٠١	٧١٩	٢٤ يولية	١٤١	٧٥٨	" ١٤
١٠٢	٧٢٠	" ١٢	١٤٢	٧٥٩	" ٤
١٠٣	٧٢١	١ يولية	١٤٣	٧٦٠	٢٢ ابريل
١٠٤	٧٢٢	٢١ يولية	١٤٤	٧٦١	" ١١
١٠٥	٧٢٣	" ١٠	١٤٥	٧٦٢	" ١
١٠٦	٧٢٤	٢٩ مايو	١٤٦	٧٦٣	٢١ مارس
١٠٧	٧٢٥	" ١٩	١٤٧	٧٦٤	" ١٠
١٠٨	٧٢٦	" ٨	١٤٨	٧٦٥	٢٧ فبراير
١٠٩	٧٢٧	٢٨ ابريل	١٤٩	٧٦٦	" ١٦
١١٠	٧٢٨	" ١٦	١٥٠	٧٦٧	" ٦

السنة المصرية	السنة البلادية	تبدأ في	السنة المصرية	السنة البلادية	تبدأ في
١٥١	٧٦٨	٢٦ يناير	١٩١	٨٠٦	١٧ نوفمبر
١٥٢	٧٦٩	١٤	١٩٢	٨٠٧	٦
١٥٣	٧٧٠	٤	١٩٣	٨٠٨	٢٥ أكتوبر
١٥٤	٧٧٠	٢٤ ديسمبر	١٩٤	٨٠٩	١٥
١٥٥	٧٧١	١٣	١٩٥	٨١٠	٤
١٥٦	٧٧٢	٢	١٩٦	٨١١	٢٣ سبتمبر
١٥٧	٧٧٣	٢١ نوفمبر	١٩٧	٨١٢	١٢
١٥٨	٧٧٤	١١	١٩٨	٨١٣	١
١٥٩	٧٧٥	٣١ أكتوبر	١٩٩	٨١٤	٢٢ أغسطس
١٦٠	٧٧٦	١٩	٢٠٠	٨١٥	١١
١٦١	٧٧٧	٩	٢٠١	٨١٦	٣٠ يولي
١٦٢	٧٧٨	٢٨ سبتمبر	٢٠٢	٨١٧	٢٠
١٦٣	٧٧٩	١٧	٢٠٣	٨١٨	٩
١٦٤	٧٨٠	٦	٢٠٤	٨١٩	٢٨ يولي
١٦٥	٧٨١	٢٦ أغسطس	٢٠٥	٨٢٠	١٧
١٦٦	٧٨٢	١٥	٢٠٦	٨٢١	٦
١٦٧	٧٨٣	٥	٢٠٧	٨٢٢	٢٧ مايو
١٦٨	٧٨٤	٢٤ يولي	٢٠٨	٨٢٣	١٦
١٦٩	٧٨٥	١٤	٢٠٩	٨٢٤	٤
١٧٠	٧٨٦	٣	٢١٠	٨٢٥	٢٤ أبريل
١٧١	٧٨٧	٢٢ يولي	٢١١	٨٢٦	١٣
١٧٢	٧٨٨	١١	٢١٢	٨٢٧	٧
١٧٣	٧٨٩	٣١ مايو	٢١٣	٨٢٨	٢٢ مارس
١٧٤	٧٩٠	٣٠	٢١٤	٨٢٩	١١
١٧٥	٧٩١	١٠	٢١٥	٨٣٠	٢٨ فبراير
١٧٦	٧٩٢	٢٨ أبريل	٢١٦	٨٣١	١٨
١٧٧	٧٩٣	١٨	٢١٧	٨٣٢	٧
١٧٨	٧٩٤	٧	٢١٨	٨٣٣	٢٧ يناير
١٧٩	٧٩٥	٢٧ مارس	٢١٩	٨٣٤	١٦
١٨٠	٧٩٦	١٦	٢٢٠	٨٣٥	٥
١٨١	٧٩٧	٥	٢٢١	٨٣٥	٢٦ ديسمبر
١٨٢	٧٩٨	٢٢ فبراير	٢٢٢	٨٣٦	١٤
١٨٣	٧٩٩	١٢	٢٢٣	٨٣٧	٣
١٨٤	٨٠٠	١	٢٢٤	٨٣٨	٢٣ نوفمبر
١٨٥	٨٠١	٢٠ يناير	٢٢٥	٨٣٩	١٢
١٨٦	٨٠٢	١٠	٢٢٦	٨٤٠	٣١ أكتوبر
١٨٧	٨٠٢	٣٠ ديسمبر	٢٢٧	٨٤١	٢١
١٨٨	٨٠٣	٢٠	٢٢٨	٨٤٢	١٠
١٨٩	٨٠٤	٨	٢٢٩	٨٤٣	٣٠ سبتمبر
١٩٠	٨٠٥	٢٧ نوفمبر	٢٣٠	٨٤٤	١٨

السنة المجرية	السنة الميلادية	تبدأ في	السنة المجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٢٣١	٨٤٥	٧ سبتمبر	٢٧١	٨٨٤	٢٩ يوفيه
٢٣٢	٨٤٦	٢٨ أغسطس	٢٧٢	٨٨٥	١٨
٢٣٣	٨٤٧	١٧	٢٧٣	٨٨٦	٨
٢٣٤	٨٤٨	٥	٢٧٤	٨٨٧	٢٨ مايو
٢٣٥	٨٤٩	٢٦ يوليه	٢٧٥	٨٨٨	١٦
٢٣٦	٨٥٠	١٥	٢٧٦	٨٨٩	٦
٢٣٧	٨٥١	٥	٢٧٧	٨٩٠	٢٥ أبريل
٢٣٨	٨٥٢	٢٣ يوليه	٢٧٨	٨٩١	١٥
٢٣٩	٨٥٣	١٢	٢٧٩	٨٩٢	٣
٢٤٠	٨٥٤	٢	٢٨٠	٨٩٣	٢٣ مارس
٢٤١	٨٥٥	٢٢ مايو	٢٨١	٨٩٤	١٣
٢٤٢	٨٥٦	١٠	٢٨٢	٨٩٥	٢
٢٤٣	٨٥٧	٣٠ أبريل	٢٨٣	٨٩٦	١٩ فبراير
٢٤٤	٨٥٨	١٩	٢٨٤	٨٩٧	٨
٢٤٥	٨٥٩	٨	٢٨٥	٨٩٨	٢٨ يناير
٢٤٦	٨٦٠	٢٨ مارس	٢٨٦	٨٩٩	١٧
٢٤٧	٨٦١	١٧	٢٨٧	٩٠٠	٧
٢٤٨	٨٦٢	٧	٢٨٨	٩٠٠	٢٦ ديسمبر
٢٤٩	٨٦٣	٢٤ فبراير	٢٨٩	٩٠١	١٦
٢٥٠	٨٦٤	١٣	٢٩٠	٩٠٢	٥
٢٥١	٨٦٥	٢	٢٩١	٩٠٣	٢٤ نوفمبر
٢٥٢	٨٦٦	٢٢ يناير	٢٩٢	٩٠٤	١٣
٢٥٣	٨٦٧	١١	٢٩٣	٩٠٥	٢
٢٥٤	٨٦٨	١	٢٩٤	٩٠٦	٢٢ أكتوبر
٢٥٥	٨٦٩	٢٠ ديسمبر	٢٩٥	٩٠٧	١٢
٢٥٦	٨٦٩	٩	٢٩٦	٩٠٨	٣٠ سبتمبر
٢٥٧	٨٧٠	٢٩ نوفمبر	٢٩٧	٩٠٩	٢٠
٢٥٨	٨٧١	١٨	٢٩٨	٩١٠	٩
٢٥٩	٨٧٢	٧	٢٩٩	٩١١	١٨ أغسطس
٢٦٠	٨٧٣	٢٧ أكتوبر	٣٠٠	٩١٢	٢٩
٢٦١	٨٧٤	١٦	٣٠١	٩١٣	٧
٢٦٢	٨٧٥	٦	٣٠٢	٩١٤	٢٧ يوليه
٢٦٣	٨٧٦	٢٤ سبتمبر	٣٠٣	٩١٥	١٧
٢٦٤	٨٧٧	١٣	٣٠٤	٩١٦	٥
٢٦٥	٨٧٨	٢	٣٠٥	٩١٧	٢٤ يوليه
٢٦٦	٨٧٩	٢٣ أغسطس	٣٠٦	٩١٨	١٤
٢٦٧	٨٨٠	١٢	٣٠٧	٩١٩	٣
٢٦٨	٨٨١	١	٣٠٨	٩٢٠	٢٣ مايو
٢٦٩	٨٨٢	٢١ يوليه	٣٠٩	٩٢١	١٢
٢٧٠	٨٨٣	١١	٣١٠	٩٢٢	١

السنة الهجرية	السنة الليادية	تبدأ في	السنة الهجرية	السنة الليادية	تبدأ في
٣١١	٩٢٣	٢١ أبريل	٢٥١	٩٦٢	٩ فبراير
٣١٢	٩٢٤	١٥ ٠ ١	٢٥٢	٩٦٣	٣٠ يناير
٣١٣	٩٢٥	٢٩ مارس	٢٥٣	٩٦٤	١٩ ٠ ١٩
٣١٤	٩٢٦	١٩ ٠ ١٩	٢٥٤	٩٦٥	٧ ٠ ٧
٣١٥	٩٢٧	٨ ٠ ٨	٢٥٥	٩٦٥	٢٨ ديسمبر
٣١٦	٩٢٨	٢٥ فبراير	٢٥٦	٩٦٦	١٧ ٠ ١٧
٣١٧	٩٢٩	١٤ ٠ ١٤	٢٥٧	٩٦٧	٧ ٠ ٧
٣١٨	٩٣٠	٣ ٠ ٣	٢٥٨	٩٦٨	٢٥ نوفمبر
٣١٩	٩٣١	٢٤ يناير	٢٥٩	٩٦٩	١٤ ٠ ١٤
٣٢٠	٩٣٢	١٣ ٠ ١٣	٢٦٠	٩٧٠	٤ ٠ ٤
٣٢١	٩٣٣	١ ٠ ١	٢٦١	٩٧١	٢٤ أكتوبر
٣٢٢	٩٣٣	٢٢ ديسمبر	٢٦٢	٩٧٢	١٢ ٠ ١٢
٣٢٣	٩٣٤	١١ ٠ ١١	٢٦٣	٩٧٣	٢ ٠ ٢
٣٢٤	٩٣٥	٣٠ نوفمبر	٢٦٤	٩٧٤	٢١ ديسمبر
٣٢٥	٩٣٦	١٩ ٠ ١٩	٢٦٥	٩٧٥	١٠ ٠ ١٠
٣٢٦	٩٣٧	٨ ٠ ٨	٢٦٦	٩٧٦	٣٠ أغسطس
٣٢٧	٩٣٨	٢٩ أكتوبر	٢٦٧	٩٧٧	١٩ ٠ ١٩
٣٢٨	٩٣٩	١٨ ٠ ١٨	٢٦٨	٩٧٨	٩ ٠ ٩
٣٢٩	٩٤٠	٦ ٠ ٦	٢٦٩	٩٧٩	٢٩ يولي
٣٣٠	٩٤١	٢٦ ديسمبر	٢٧٠	٩٨٠	١٧ ٠ ١٧
٣٣١	٩٤٢	١٥ ٠ ١٥	٢٧١	٩٨١	٧ ٠ ٧
٣٣٢	٩٤٣	٤ ٠ ٤	٢٧٢	٩٨٢	٢٦ يولي
٣٣٣	٩٤٤	٢٤ أغسطس	٢٧٣	٩٨٣	١٥ ٠ ١٥
٣٣٤	٩٤٥	١٣ ٠ ١٣	٢٧٤	٩٨٤	٤ ٠ ٤
٣٣٥	٩٤٦	٢ ٠ ٢	٢٧٥	٩٨٥	٢٤ مايو
٣٣٦	٩٤٧	٢٣ يولي	٢٧٦	٩٨٦	١٣ ٠ ١٣
٣٣٧	٩٤٨	١١ ٠ ١١	٢٧٧	٩٨٧	٣ ٠ ٣
٣٣٨	٩٤٩	١ ٠ ١	٢٧٨	٩٨٨	٢١ أبريل
٣٣٩	٩٥٠	٢٠ يوني	٢٧٩	٩٨٩	١١ ٠ ١١
٣٤٠	٩٥١	٩ ٠ ٩	٢٨٠	٩٩٠	٣١ مارس
٣٤١	٩٥٢	٢٩ مايو	٢٨١	٩٩١	٢٠ ٠ ٢٠
٣٤٢	٩٥٣	١٨ ٠ ١٨	٢٨٢	٩٩٢	٩ ٠ ٩
٣٤٣	٩٥٤	٧ ٠ ٧	٢٨٣	٩٩٣	٢٦ فبراير
٣٤٤	٩٥٥	٢٧ أبريل	٢٨٤	٩٩٤	١٥ ٠ ١٥
٣٤٥	٩٥٦	١٥ ٠ ١٥	٢٨٥	٩٩٥	٥ ٠ ٥
٣٤٦	٩٥٧	٤ ٠ ٤	٢٨٦	٩٩٦	٢٥ يناير
٣٤٧	٩٥٨	٢٥ مارس	٢٨٧	٩٩٧	١٤ ٠ ١٤
٣٤٨	٩٥٩	١٤ ٠ ١٤	٢٨٨	٩٩٨	٣ ٠ ٣
٣٤٩	٩٦٠	٣ ٠ ٣	٢٨٩	٩٩٨	٢٣ ديسمبر
٣٥٠	٩٦١	٢٠ فبراير	٢٩٠	٩٩٩	١٣ ٠ ١٣



السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في	السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٣١١	٩٢٣	٧١ أبريل	٢٥١	٩٦٢	٩ فبراير
٣١٢	٩٢٤	٩	٢٥٢	٩٦٣	٣٠ يناير
٣١٣	٩٢٥	٢٩ مارس	٢٥٣	٩٦٤	١٩
٣١٤	٩٢٦	١٩	٢٥٤	٩٦٥	٧
٣١٥	٩٢٧	٨	٢٥٥	٩٦٥	٢٨ ديسمبر
٣١٦	٩٢٨	٢٥ فبراير	٢٥٦	٩٦٦	١٧
٣١٧	٩٢٩	١٤	٢٥٧	٩٦٧	٧
٣١٨	٩٣٠	٣	٢٥٨	٩٦٨	٢٥ نوفمبر
٣١٩	٩٣١	٢٤ يناير	٢٥٩	٩٦٩	١٤
٣٢٠	٩٣٢	١٣	٣٦٠	٩٧٠	٤
٣٢١	٩٣٣	١	٣٦١	٩٧١	٢٤ أكتوبر
٣٢٢	٩٣٣	٢٢ ديسمبر	٣٦٢	٩٧٢	١٢
٣٢٣	٩٣٤	١١	٣٦٣	٩٧٣	٢
٣٢٤	٩٣٥	٣٠ نوفمبر	٣٦٤	٩٧٤	٢١ سبتمبر
٣٢٥	٩٣٦	١٩	٣٦٥	٩٧٥	١٠
٣٢٦	٩٣٧	٨	٣٦٦	٩٣٦	٣٠ أغسطس
٣٢٧	٩٣٨	٢٩ أكتوبر	٣٦٧	٩٣٧	١٩
٣٢٨	٩٣٩	١٨	٣٦٨	٩٣٨	٩
٣٢٩	٩٤٠	٦	٣٦٩	٩٣٩	٢٩ يولي
٣٣٠	٩٤١	٢٦ سبتمبر	٣٧٠	٩٤٠	١٧
٣٣١	٩٤٢	١٥	٣٧١	٩٤١	٧
٣٣٢	٩٤٣	٤	٣٧٢	٩٤٢	٢٦ يولي
٣٣٣	٩٤٤	٢٤ أغسطس	٣٧٣	٩٤٣	١٥
٣٣٤	٩٤٥	١٣	٣٧٤	٩٤٤	٤
٣٣٥	٩٤٦	٢	٣٧٥	٩٤٥	٢٤ مايو
٣٣٦	٩٤٧	٢٣ يولي	٣٧٦	٩٤٦	١٣
٣٣٧	٩٤٨	١١	٣٧٧	٩٤٧	٣
٣٣٨	٩٤٩	١	٣٧٨	٩٤٨	٢١ أبريل
٣٣٩	٩٥٠	٢٠ يونيو	٣٧٩	٩٤٩	١١
٣٤٠	٩٥١	٩	٣٨٠	٩٥٠	٣١ مارس
٣٤١	٩٥٢	٢٩ مايو	٣٨١	٩٥١	٢٠
٣٤٢	٩٥٣	١٨	٣٨٢	٩٥٢	٩
٣٤٣	٩٥٤	٧	٣٨٣	٩٥٣	٢٦ فبراير
٣٤٤	٩٥٥	٢٧ أبريل	٣٨٤	٩٥٤	١٥
٣٤٥	٩٥٦	١٥	٣٨٥	٩٥٥	٥
٣٤٦	٩٥٧	٤	٣٨٦	٩٥٦	٢٥ يناير
٣٤٧	٩٥٨	٢٥ مارس	٣٨٧	٩٥٧	١٤
٣٤٨	٩٥٩	١٤	٣٨٨	٩٥٨	٣
٣٤٩	٩٦٠	٣	٣٨٩	٩٥٩	٢٣ ديسمبر
٣٥٠	٩٦١	٣٠ فبراير	٣٩٠	٩٦٠	١٢

السنة الهجرية	السنة البيلاوية	تبدأ في	السنة الهجرية	السنة البيلاوية	تبدأ في
٣٩١	١٠٠٠	١ ديسمبر	٤٣١	١٠٣٩	٢٣ سبتمبر
٣٩٢	١٠٠١	٢٠ نوفمبر	٤٣٢	١٠٤٠	١١
٣٩٣	١٠٠٢	١٠	٤٣٣	١٠٤١	٢١ أغسطس
٣٩٤	١٠٠٣	٣٠ أكتوبر	٤٣٤	١٠٤٢	٢١
٣٩٥	١٠٠٤	١٨	٤٣٥	١٠٤٣	١٠
٣٩٦	١٠٠٥	٨	٤٣٦	١٠٤٤	٢٩ يولية
٣٩٧	١٠٠٦	٢٧ سبتمبر	٤٣٧	١٠٤٥	١٩
٣٩٨	١٠٠٧	١٧	٤٣٨	١٠٤٦	٨
٣٩٩	١٠٠٨	٥	٤٣٩	١٠٤٧	٢٨ يونيه
٤٠٠	١٠٠٩	٢٥ أغسطس	٤٤٠	١٠٤٨	١٦
٤٠١	١٠١٠	١٥	٤٤١	١٠٤٩	٥
٤٠٢	١٠١١	٤	٤٤٢	١٠٥٠	٢٦ مايو
٤٠٣	١٠١٢	٢٣ يولية	٤٤٣	١٠٥١	١٥
٤٠٤	١٠١٣	١٣	٤٤٤	١٠٥٢	٣
٤٠٥	١٠١٤	٢	٤٤٥	١٠٥٣	٢٣ أبريل
٤٠٦	١٠١٥	٢١ يونيه	٤٤٦	١٠٥٤	١٢
٤٠٧	١٠١٦	١٠	٤٤٧	١٠٥٥	٢
٤٠٨	١٠١٧	٣٠ مايو	٤٤٨	١٠٥٦	٢١ مارس
٤٠٩	١٠١٨	٢٠	٤٤٩	١٠٥٧	١٠
٤١٠	١٠١٩	٩	٤٥٠	١٠٥٨	٢٨ فبراير
٤١١	١٠٢٠	٢٧ أبريل	٤٥١	١٠٥٩	١٧
٤١٢	١٠٢١	١٧	٤٥٢	١٠٦٠	٦
٤١٣	١٠٢٢	٦	٤٥٣	١٠٦١	٢٦
٤١٤	١٠٢٣	٢٦ مارس	٤٥٤	١٠٦٢	١٥ يناير
٤١٥	١٠٢٤	١٥	٤٥٥	١٠٦٣	٤
٤١٦	١٠٢٥	٤	٤٥٦	١٠٦٣	٢٥ ديسمبر
٤١٧	١٠٢٦	٢٢ فبراير	٤٥٧	١٠٦٤	١٣
٤١٨	١٠٢٧	١١	٤٥٨	١٠٦٥	٣
٤١٩	١٠٢٨	٣١ يناير	٤٥٩	١٠٦٦	٢٢ نوفمبر
٤٢٠	١٠٢٩	٢٠	٤٦٠	١٠٦٧	١١
٤٢١	١٠٣٠	٩	٤٦١	١٠٦٨	٣١ أكتوبر
٤٢٢	١٠٣٠	٢٩ ديسمبر	٤٦٢	١٠٦٩	٢٠
٤٢٣	١٠٣١	١٩	٤٦٣	١٠٧٠	٩
٤٢٤	١٠٣٢	٧	٤٦٤	١٠٧١	٢٩ سبتمبر
٤٢٥	١٠٣٣	٢٦ نوفمبر	٤٦٥	١٠٧٢	١٧
٤٢٦	١٠٣٤	١٦	٤٦٦	١٠٧٣	٦ سبتمبر
٤٢٧	١٠٣٥	٥	٤٦٧	١٠٧٤	٢٧ أغسطس
٤٢٨	١٠٣٦	٢٥ أكتوبر	٤٦٨	١٠٧٥	١٦
٤٢٩	١٠٣٧	١٤	٤٦٩	١٠٧٦	٥
٤٣٠	١٠٣٨	٣	٤٧٠	١٠٧٧	٢٥ يولية

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في	السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٤٧١	١٠٧٨	١٤ يولي	٥١١	١١١٧	٥ مايو
٤٧٢	١٠٧٩	٤	٥١٢	١١١٨	٢٤ أبريل
٤٧٣	١٠٨٠	٢٢ يونيه	٥١٣	١١١٩	١٤
٤٧٤	١٠٨١	١١	٥١٤	١١٢٠	٢
٤٧٥	١٠٨٢	١	٥١٥	١١٢١	٢٢ مارس
٤٧٦	١٠٨٣	٢١ مايو	٥١٦	١١٢٢	١٢
٤٧٧	١٠٨٤	١٠	٥١٧	١١٢٣	١
٤٧٨	١٠٨٥	٢٩ أبريل	٥١٨	١١٢٤	١٩ فبراير
٤٧٩	١٠٨٦	١٨	٥١٩	١١٢٥	٧
٤٨٠	١٠٨٧	٨	٥٢٠	١١٢٦	٢٧ يناير
٤٨١	١٠٨٨	٢٧ مارس	٥٢١	١١٢٧	٧
٤٨٢	١٠٨٩	١٦	٥٢٢	١١٢٨	٦
٤٨٣	١٠٩٠	٦	٥٢٣	١١٢٨	٢٥ ديسمبر
٤٨٤	١٠٩١	٢٣ فبراير	٥٢٤	١١٢٩	١٥
٤٨٥	١٠٩٢	١٢	٥٢٥	١١٣٠	٤
٤٨٦	١٠٩٣	١	٥٢٦	١١٣١	٢٣ نوفمبر
٤٨٧	١٠٩٤	٢١ يناير	٥٢٧	١١٣٢	١٢
٤٨٨	١٠٩٥	١١	٥٢٨	١١٣٣	١
٤٨٩	١٠٩٥	٢١ ديسمبر	٥٢٩	١١٣٤	١٢ أكتوبر
٤٩٠	١٠٩٦	١٩	٥٣٠	١١٣٥	١١
٤٩١	١٠٩٧	٩	٥٣١	١١٣٦	٢٩ سبتمبر
٤٩٢	١٠٩٨	٢٨ نوفمبر	٥٣٢	١١٣٧	١٩
٤٩٣	١٠٩٩	١٧	٥٣٣	١١٣٨	٨
٤٩٤	١١٠٠	٦	٥٣٤	١١٣٩	٢٨ أغسطس
٤٩٥	١١٠١	٢٦ أكتوبر	٥٣٥	١١٤٠	١٧
٤٩٦	١١٠٢	١٥	٥٣٦	١١٤١	٦
٤٩٧	١١٠٣	٥	٥٣٧	١١٤٢	٢٧ يولي
٤٩٨	١١٠٤	٢٣ سبتمبر	٥٣٨	١١٤٣	١٦
٤٩٩	١١٠٥	١٣	٥٣٩	١١٤٤	٤
٥٠٠	١١٠٦	٢	٥٤٠	١١٤٥	٢٤ يولي
٥٠١	١١٠٧	٢٢ أغسطس	٥٤١	١١٤٦	١٣
٥٠٢	١١٠٨	١١	٥٤٢	١١٤٧	٢
٥٠٣	١١٠٩	٢١ يولي	٥٤٣	١١٤٨	٢٢ مايو
٥٠٤	١١١٠	٢٠	٥٤٤	١١٤٩	١١
٥٠٥	١١١١	١٠	٥٤٥	١١٥٠	٣٠ أبريل
٥٠٦	١١١٢	٢٨ يونيه	٥٤٦	١١٥١	٢٠
٥٠٧	١١١٣	١٨	٥٤٧	١١٥٢	٨
٥٠٨	١١١٤	٧	٥٤٨	١١٥٣	٢٦ مارس
٥٠٩	١١١٥	٢٧ مايو	٥٤٩	١١٥٤	١٨
٥١٠	١١١٦	١٦	٥٥٠	١١٥٥	٧

السنة الهجرية	السنة اليلادية	تبدأ في	السنة الهجرية	السنة اليلادية	تبدأ في
٥٥١	١١٥٦	٢٥ فبراير	٥٩١	١١٩٤	١٦ ديسمبر
٥٥٢	١١٥٧	١٣	٥٩٢	١١٩٥	٦
٥٥٣	١١٥٨	٢	٥٩٣	١١٩٦	٢٤ نوفمبر
٥٥٤	١١٥٩	٢٣ يناير	٥٩٤	١١٩٧	١٣
٥٥٥	١١٦٠	١٢	٥٩٥	١١٩٨	٣
٥٥٦	١١٦٠	٣١ ديسمبر	٥٩٦	١١٩٩	١٣ أكتوبر
٥٥٧	١١٦١	٢١	٥٩٧	١٢٠٠	١٢
٥٥٨	١١٦٢	١٠	٥٩٨	١٢٠١	١
٥٥٩	١١٦٣	٣٠ نوفمبر	٥٩٩	١٢٠٢	٢٠ سبتمبر
٥٦٠	١١٦٤	١٨	٦٠٠	١٢٠٣	١٠
٥٦١	١١٦٥	٧	٦٠١	١٢٠٤	٢٩ أغسطس
٥٦٢	١١٦٦	٢٨ أكتوبر	٦٠٢	١٢٠٥	١٨
٥٦٣	١١٦٧	١٧	٦٠٣	١٢٠٦	٨
٥٦٤	١١٦٨	٥	٦٠٤	١٢٠٧	٢٨ يولي
٥٦٥	١١٦٩	٢٥ سبتمبر	٦٠٥	١٢٠٨	١٦
٥٦٦	١١٧٠	١٤	٦٠٦	١٢٠٩	٦
٥٦٧	١١٧١	٤	٦٠٧	١٢١٠	٢٥ يولي
٥٦٨	١١٧٢	٢٣ أغسطس	٦٠٨	١٢١١	١٥
٥٦٩	١١٧٣	١٢	٦٠٩	١٢١٢	٣
٥٧٠	١١٧٤	٢	٦١٠	١٢١٣	٢٣ مايو
٥٧١	١١٧٥	٢٢ يولي	٦١١	١٢١٤	١٣
٥٧٢	١١٧٦	١٠	٦١٢	١٢١٥	٢
٥٧٣	١١٧٧	٣٠ يولي	٦١٣	١٢١٦	٢٠ أبريل
٥٧٤	١١٧٨	١٩ يولي	٦١٤	١٢١٧	١٠
٥٧٥	١١٧٩	٨	٦١٥	١٢١٨	٣٠ مارس
٥٧٦	١١٨٠	٢٨ مايو	٦١٦	١٢١٩	١٩
٥٧٧	١١٨١	١٧	٦١٧	١٢٢٠	٨
٥٧٨	١١٨٢	٧	٦١٨	١٢٢١	٢٥ فبراير
٥٧٩	١١٨٣	٢٦ أبريل	٦١٩	١٢٢٢	١٥
٥٨٠	١١٨٤	١٤	٦٢٠	١٢٢٣	٤
٥٨١	١١٨٥	٤	٦٢١	١٢٢٤	٢٤ يناير
٥٨٢	١١٨٦	٢٤ مارس	٦٢٢	١٢٢٥	١٣
٥٨٣	١١٨٧	١٣	٦٢٣	١٢٢٦	٢
٥٨٤	١١٨٨	٢	٦٢٤	١٢٢٦	٢٢ ديسمبر
٥٨٥	١١٨٩	١٩ فبراير	٦٢٥	١٢٢٧	١٢
٥٨٦	١١٩٠	٨	٦٢٦	١٢٢٨	٣٠ نوفمبر
٥٨٧	١١٩١	٢٩ يناير	٦٢٧	١٢٢٩	٢٠
٥٨٨	١١٩٢	١٨	٦٢٨	١٢٣٠	٩
٥٨٩	١١٩٣	٧	٦٢٩	١٢٣١	٢٩ أكتوبر
٥٩٠	١١٩٣	٢٧ ديسمبر	٦٣٠	١٢٣٢	١٨

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في	السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٦٣١	١٢٢٣	٧ أكتوبر	٦٧١	١٢٧٢	٢٩ يولي
٦٣٢	١٢٢٤	٢٦ سبتمبر	٦٧٢	١٢٧٣	١٨
٦٣٣	١٢٢٥	١٦ سبتمبر	٦٧٣	١٢٧٤	٧
٦٣٤	١٢٢٦	٤	٦٧٤	١٢٧٥	٢٧ يونيه
٦٣٥	١٢٢٧	٢٤ أغسطس	٦٧٥	١٢٧٦	١٥
٦٣٦	١٢٢٨	١٤	٦٧٦	١٢٧٧	٤
٦٣٧	١٢٢٩	٣	٦٧٧	١٢٧٨	٢٥ مايو
٦٣٨	١٢٤٠	٢٣ يولي	٦٧٨	١٢٧٩	١٤
٦٣٩	١٢٤١	١٢	٦٧٩	١٢٨٠	٣
٦٤٠	١٢٤٢	١	٦٨٠	١٢٨١	٢٢ أبريل
٦٤١	١٢٤٣	٢١ يونيه	٦٨١	١٢٨٢	١١
٦٤٢	١٢٤٤	٩	٦٨٢	١٢٨٣	١
٦٤٣	١٢٤٥	٢٩ مايو	٦٨٣	١٢٨٤	٢٠ مارس
٦٤٤	١٢٤٦	١٩	٦٨٤	١٢٨٥	٩
٦٤٥	١٢٤٧	٨	٦٨٥	١٢٨٦	٢٧ فبراير
٦٤٦	١٢٤٨	٢٦ أبريل	٦٨٦	١٢٨٧	١٦
٦٤٧	١٢٤٩	١٦	٦٨٧	١٢٨٨	٦
٦٤٨	١٢٥٠	٥	٦٨٨	١٢٨٩	٢٥ يناير
٦٤٩	١٢٥١	٢٦ مارس	٦٨٩	١٢٩٠	١٤
٦٥٠	١٢٥٢	١٤	٦٩٠	١٢٩١	٤
٦٥١	١٢٥٣	٣	٦٩١	١٢٩١	٢٤ ديسمبر
٦٥٢	١٢٥٤	٢١ فبراير	٦٩٢	١٢٩٢	١٢
٦٥٣	١٢٥٥	١٠	٦٩٣	١٢٩٣	٢
٦٥٤	١٢٥٦	٣٠ يناير	٦٩٤	١٢٩٤	٢١ نوفمبر
٦٥٥	١٢٥٧	١٩	٦٩٥	١٢٩٥	١٠
٦٥٦	١٢٥٨	٨	٦٩٦	١٢٩٦	٣٠ أكتوبر
٦٥٧	١٢٥٨	٢٩ ديسمبر	٦٩٧	١٢٩٧	١٩
٦٥٨	١٢٥٩	١٨	٦٩٨	١٢٩٨	٩
٦٥٩	١٢٦٠	٦	٦٩٩	١٢٩٩	٢٨ سبتمبر
٦٦٠	١٢٦١	٢٦ نوفمبر	٧٠٠	١٣٠٠	١٦
٦٦١	١٢٦٢	١٥	٧٠١	١٣٠١	٦
٦٦٢	١٢٦٣	٤	٧٠٢	١٣٠٢	٢٦ أغسطس
٦٦٣	١٢٦٤	٢٤ أكتوبر	٧٠٣	١٣٠٣	١٥
٦٦٤	١٢٦٥	١٣	٧٠٤	١٣٠٤	٤
٦٦٥	١٢٦٦	٢	٧٠٥	١٣٠٥	٢٤ يولي
٦٦٦	١٢٦٧	٢٢ سبتمبر	٧٠٦	١٣٠٦	١٣
٦٦٧	١٢٦٨	١٠	٧٠٧	١٣٠٧	٣
٦٦٨	١٢٦٩	٣١ أغسطس	٧٠٨	١٣٠٨	٢١ يونيه
٦٦٩	١٢٧٠	٢٠	٧٠٩	١٣٠٩	١١
٦٧٠	١٢٧١	٩	٧١٠	١٣١٠	٢١ مايو

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في	السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٧١١	١٣١١	٢٠ مايو	٧٥١	١٣٥٠	١١ مارس
٧١٢	١٣١٢	٩	٧٥٢	١٣٥١	٢٨ فبراير
٧١٣	١٣١٣	٢٨ أبريل	٧٥٣	١٣٥٢	١٨
٧١٤	١٣١٤	١٧	٧٥٤	١٣٥٣	٦
٧١٥	١٣١٥	٧	٧٥٥	١٣٥٤	٢٦ يناير
٧١٦	١٣١٦	٢٦ مارس	٧٥٦	١٣٥٥	١٦
٧١٧	١٣١٧	١٦	٧٥٧	١٣٥٦	٥
٧١٨	١٣١٨	٥	٧٥٨	١٣٥٦	٢٥ ديسمبر
٧١٩	١٣١٩	٢٢ فبراير	٧٥٩	١٣٥٧	١٤
٧٢٠	١٣٢٠	١٢	٧٦٠	١٣٥٨	٣
٧٢١	١٣٢١	٣١ يناير	٧٦١	١٣٥٩	٢٣ نوفمبر
٧٢٢	١٣٢٢	٢٠	٧٦٢	١٣٦٠	١١
٧٢٣	١٣٢٣	١٠	٧٦٣	١٣٦١	٣١ أكتوبر
٧٢٤	١٣٢٣	٣٠ ديسمبر	٧٦٤	١٣٦٢	٢١
٧٢٥	١٣٢٤	١٨	٧٦٥	١٣٦٣	١٠
٧٢٦	١٣٢٥	٨	٧٦٦	١٣٦٤	٢٨ سبتمبر
٧٢٧	١٣٢٦	٢٧ نوفمبر	٧٦٧	١٣٦٥	١٨
٨٢٨	١٣٢٧	١٧	٧٦٨	١٣٦٦	٧
٧٢٩	١٣٢٨	٥	٧٦٩	١٣٦٧	٢٨ أغسطس
٧٣٠	١٣٢٩	٢٥ أكتوبر	٧٧٠	١٣٦٨	١٦
٧٣١	١٣٣٠	١٥	٧٧١	١٣٦٩	٥
٧٣٢	١٣٣١	٤	٧٧٢	١٣٧٠	٢٦ يوليو
٧٣٣	١٣٣٢	٢٢ سبتمبر	٧٧٣	١٣٧١	١٥
٧٣٤	١٣٣٣	١٢	٧٧٤	١٣٧٢	٣
٧٣٥	١٣٣٤	١	٧٧٥	١٣٧٣	٢٣ يونيو
٧٣٦	١٣٣٥	٢١ أغسطس	٧٧٦	١٣٧٤	١٢
٧٣٧	١٣٣٦	١٠	٧٧٧	١٣٧٥	٢
٧٣٨	١٣٣٧	٣٠ يوليو	٧٧٨	١٣٧٦	٢١ مايو
٧٣٩	١٣٣٨	٢٠	٧٧٩	١٣٧٧	١٠
٧٤٠	١٣٣٩	٩	٧٨٠	١٣٧٨	٣٠ أبريل
٧٤١	١٣٤٠	٢٧ يونيو	٧٨١	١٣٧٩	١٩
٧٤٢	١٣٤١	١٧	٧٨٢	١٣٨٠	٧
٧٤٣	١٣٤٢	٦	٧٨٣	١٣٨١	٢٨ مارس
٧٤٤	١٣٤٣	٢٦ مايو	٧٨٤	١٣٨٢	١٧
٧٤٥	١٣٤٤	١٥	٧٨٥	١٣٨٣	٦
٧٤٦	١٣٤٥	٤	٧٨٦	١٣٨٤	٢٤ فبراير
٧٤٧	١٣٤٦	٢٤ أبريل	٧٨٧	١٣٨٥	١٢
٧٤٨	١٣٤٧	١٣	٧٨٨	١٣٨٦	٢
٧٤٩	١٣٤٨	١	٧٨٩	١٣٨٧	٢٣ يناير
٧٥٠	١٣٤٩	٢٢ مارس	٧٩٠	١٣٨٨	١١

السنة الهجرية	السنة البيلاوية	تبدأ في	السنة الهجرية	السنة البيلاوية	تبدأ في
٧٩ ١	١٣٨٨	٢١ ديسمبر	٨٣٩	١٤٢٧	٢٢ أكتوبر
٧٩ ٢	١٣٨٩	٢٠	٨٣٢	١٤٢٨	١١
٧٩ ٣	١٣٩٠	٩	٨٣٣	١٤٢٩	٣٠ سبتمبر
٧٩ ٤	١٣٩١	٢٩ نوفمبر	٨٣٤	١٤٣٠	١٩
٧٩ ٥	١٣٩٢	١٧	٨٣٥	١٤٣١	٩
٧٩ ٦	١٣٩٣	٦	٨٣٦	١٤٣٢	٢٨ أغسطس
٧٩ ٧	١٣٩٤	٢٧ أكتوبر	٨٣٧	١٤٣٣	١٨
٧٩ ٨	١٣٩٥	١٦	٨٣٨	١٤٣٤	٧
٧٩ ٩	١٣٩٦	٥	٨٣٩	١٤٣٥	٢٧ يولي
٨٠ ٠	١٣٩٧	٢٤ سبتمبر	٨٤٠	١٤٣٦	١٦
٨٠ ١	١٣٩٨	١٣	٨٤١	١٤٣٧	٥
٨٠ ٢	١٣٩٩	٣	٨٤٢	١٤٣٨	٢٤ يونيه
٨٠ ٣	١٤٠٠	٢٢ أغسطس	٨٤٣	١٤٣٩	١٤
٨٠ ٤	١٤٠١	١١	٨٤٤	١٤٤٠	٢
٨٠ ٥	١٤٠٢	١	٨٤٥	١٤٤١	٢٢ مايو
٨٠ ٦	١٤٠٣	٢١ يولي	٨٤٦	١٤٤٢	١٢
٨٠ ٧	١٤٠٤	١٠	٨٤٧	١٤٤٣	١
٨٠ ٨	١٤٠٥	٢٩ يونيه	٨٤٨	١٤٤٤	٢٠ أبريل
٨٠ ٩	١٤٠٦	١٨	٨٤٩	١٤٤٥	٩
٨١ ٠	١٤٠٧	٨	٨٥٠	١٤٤٦	٢٩ مارس
٨١ ١	١٤٠٨	٢٧ مايو	٨٥١	١٤٤٧	١٩
٨١ ٢	١٤٠٩	١٦	٨٥٢	١٤٤٨	٧
٨١ ٣	١٤١٠	٦	٨٥٣	١٤٤٩	٢٤ فبراير
٨١ ٤	١٤١١	٢٥ أبريل	٨٥٤	١٤٥٠	١٤
٨١ ٥	١٤١٢	١٣	٨٥٥	١٤٥١	٣
٨١ ٦	١٤١٣	٢	٨٥٦	١٤٥٢	٢٣ يناير
٨١ ٧	١٤١٤	٢٣ مارس	٨٥٧	١٤٥٣	١٢
٨١ ٨	١٤١٥	١٣	٨٥٨	١٤٥٤	١
٨١ ٩	١٤١٦	١	٨٥٩	١٤٥٥	٢٢ ديسمبر
٨٢ ٠	١٤١٧	١٨ فبراير	٨٦٠	١٤٥٥	١٩
٨٢ ١	١٤١٨	٨	٨٦١	١٤٥٦	٢٩ نوفمبر
٨٢ ٢	١٤١٩	٢٨ يناير	٨٦٢	١٤٥٧	١٩
٨٢ ٣	١٤٢٠	١٧	٨٦٣	١٤٥٨	٨
٨٢ ٤	١٤٢١	٦	٨٦٤	١٤٥٩	٢٨ أكتوبر
٨٢ ٥	١٤٢١	٢٦ ديسمبر	٨٦٥	١٤٦٠	١٧
٨٢ ٦	١٤٢٢	١٥	٨٦٦	١٤٦١	٦
٨٢ ٧	١٤٢٣	٥	٨٦٧	١٤٦٢	٢٦ سبتمبر
٨٢ ٨	١٤٢٤	٢٣ نوفمبر	٨٦٨	١٤٦٣	١٥
٨٢ ٩	١٤٢٥	١٣	٨٦٩	١٤٦٤	٣
٨٣ ٠	١٤٢٦	٢	٨٧٠	١٤٦٥	٢٤ أغسطس

السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في	السنة الهجرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٨٧١	١٤٦٦	١٣ أغسطس	٩١١	١٥٠٥	٤ يونيو
٨٧٢	١٤٦٧	٢	٩١٢	١٥٠٦	٢٤ مايو
٨٧٣	١٤٦٨	٢٢ يولي	٩١٣	١٥٠٧	١٣
٨٧٤	١٤٦٩	١١	٩١٤	١٥٠٨	٢
٨٧٥	١٤٧٠	٣٠ يونيو	٩١٥	١٥٠٩	٢١ أبريل
٨٧٦	١٤٧١	٢٠	٩١٦	١٥١٠	١٠
٧٧٧	١٤٧٢	٨	٩١٧	١٥١١	٣١ مارس
٨٧٨	١٤٧٣	٢٩ مايو	٩١٨	١٥١٢	١٩
٨٧٩	١٤٧٤	١٨	٩١٩	١٥١٣	٩
٨٨٠	١٤٧٥	٧	٩٢٠	١٥١٤	٢٦ فبراير
٨٨١	١٤٧٦	٢٦ أبريل	٩٢١	١٥١٥	١٥
٨٨٢	١٤٧٧	١٥	٩٢٢	١٥١٦	٥
٨٨٣	١٤٧٨	٤	٩٢٣	١٥١٧	٢٤ يناير
٨٨٤	١٤٧٩	٢٥ مارس	٩٢٤	١٥١٨	١٣
٨٨٥	١٤٨٠	١٣	٩٢٥	١٥١٩	٣
٨٨٦	١٤٨١	٢	٩٢٦	١٥١٩	٢٣ ديسمبر
٨٨٧	١٤٨٢	٢٠ فبراير	٩٢٧	١٥٢٠	٢٢
٨٨٨	١٤٨٣	٩	٩٢٨	١٥٢١	١
٨٨٩	١٤٨٤	٣٠ يناير	٩٢٩	١٥٢٢	٢٠ نوفمبر
٨٩٠	١٤٨٥	١٨	٩٣٠	١٥٢٣	١٠
٨٩١	١٤٨٦	٧	٩٣١	١٥٢٤	١٧ أكتوبر
٨٩٢	١٤٨٦	٢٨ ديسمبر	٩٣٢	١٥٢٥	١٨
٨٩٣	١٤٨٧	١٧	٩٣٣	١٥٢٦	٨
٨٩٤	١٤٨٨	٥	٩٩٤	١٥٢٧	٢٧ سبتمبر
٨٩٥	١٤٨٩	٢٥ نوفمبر	٩٣٥	١٥٢٨	١٥
٨٩٦	١٤٩٠	١٤	٩٣٦	١٥٢٩	٥
٨٩٧	١٤٩١	٤	٩٣٧	١٥٣٠	٢٥ أغسطس
٨٩٨	١٤٩٢	٢٣ أكتوبر	٩٣٨	١٥٣١	١٥
٨٩٩	١٤٩٣	١٢	٩٣٩	١٥٣٢	٣
٩٠٠	١٤٩٤	٢	٩٤٠	١٥٣٣	٢٣ يولي
٩٠١	١٤٩٥	٢١ سبتمبر	٩٤١	١٥٣٤	١٣
٩٠٢	١٤٩٦	٩	٩٤٢	١٥٣٥	٢
٩٠٣	١٤٩٧	٣٠ أغسطس	٩٤٣	١٥٣٦	٢٠ يونيو
٩٠٤	١٤٩٨	١٩	٩٤٤	١٥٣٧	١٠
٩٠٥	١٤٩٩	٨	٩٤٥	١٥٣٨	٣٠ مايو
٩٠٦	١٥٠٠	١٨ يولي	٩٤٦	١٥٣٩	٣٠
٩٠٧	١٥٠١	١٧	٩٤٧	١٥٤٠	٨
٩٠٨	١٥٠٢	٧	٩٤٨	١٥٤١	٢٧ أبريل
٩٠٩	١٥٠٣	٢٦ يونيو	٩٤٩	١٥٤٢	١٧
٩١٠	١٥٠٤	١٤	٩٥٠	١٥٤٣	٦



السنة المصرية	السنة الميلادية	تبدأ في	السنة المصرية	السنة الميلادية	تبدأ في
٩٥١	١٥٤٤	٢٥ مارس	٩٧٦	١٥٦٨	٢٦ يونيو
٩٥٢	١٥٤٥	» ١٥	٩٧٧	١٥٦٩	» ١٦
٩٥٣	١٥٤٦	» ٤	٩٧٨	١٥٧٠	» ٥
٩٥٤	١٥٤٧	٢١ فبراير	٩٧٩	١٥٧١	٢٦ مايو
٩٥٥	١٥٤٨	» ١١	٩٨٠	١٥٧٢	» ١٤
٩٥٦	١٥٤٩	٣٠ يناير	٩٨١	١٥٧٣	» ٣
٩٥٧	١٥٥٠	» ٢٠	٩٨٢	١٥٧٤	٢٣ أبريل
٩٥٨	١٥٥١	» ٩	٩٨٣	١٥٧٥	» ١٢
٩٥٩	١٥٥١	٢٩ ديسمبر	٩٨٤	١٥٧٦	٣١ مارس
٩٦٠	١٥٥٢	» ١٨	٩٨٥	١٥٧٧	» ٢١
٩٦١	١٥٥٣	» ٧	٩٨٦	١٥٧٨	» ١٠
٩٦٢	١٥٥٤	٢٦ نوفمبر	٩٨٧	١٥٧٩	٢٨ فبراير
٩٦٣	١٥٥٥	» ١٦	٩٨٨	١٥٨٠	» ١٧
٩٦٤	١٥٥٦	» ٤	٩٨٩	١٥٨١	» ٥
٩٦٥	١٥٥٧	٢٤ أكتوبر	٩٩٠	١٥٨٢	٢٦ يناير
٩٦٦	١٥٥٨	» ١٤	٩٩١	١٥٨٣	» ٢٥
٩٦٧	١٥٥٩	» ٣	٩٩٢	١٥٨٤	» ١٤
٩٦٨	١٥٦٠	٢٢ سبتمبر	٩٩٣	١٥٨٥	» ٣
٩٦٩	١٥٦١	» ١١	٩٩٤	١٥٨٥	٢٣ ديسمبر
٩٧٠	١٥٦٢	٣١ أغسطس	٩٩٥	١٥٨٦	» ١٧
٩٧١	١٥٦٣	» ٢١	٩٩٦	١٥٨٧	» ٢
٩٧٢	١٥٦٤	» ٩	٩٩٧	١٥٨٨	٢٠ نوفمبر
٩٧٣	١٥٦٥	٢٩ يوليو	٩٩٨	١٥٨٩	» ١٠
٩٧٤	١٥٦٦	» ١٩	٩٩٩	١٥٩٠	٣٠ أكتوبر
٩٧٥	١٥٦٧	» ٨	١٠٠٠	١٥٩١	» ١٩

(\*) هنا يحدث التغير الذي أوجده جريجوري الثالث عشر Gregory XIII

مَطْبَعَةُ السَّعَادَةِ بِمَكَّةَ  
١٩٥١